مسرحيات

وليم شكسبير

الكاملة

التاريخيات

تعريب

أ. ر. مشاطي

إشراف وتقديم

نظير عبود

توزيع

دار الجيل

مسرحيات

وليم شكسبير

الكاملة

التاريخيات

(٧)

تعريب

أ. ر. مشاطي

إشراف وتقديم

نظير عبود

دار نظير عبود

حقوق هذه الترجمة محفوظة
لدار نظير عبود

ص.ب : ١١/٨٠٨٦ تلفون : ٩٢٦٧٧٢ - ٩٣٤٧١٤

يحتوي هذا المجلد على

ريتشارد الثاني ٥
ريتشارد الثالث ١١٢
الملك جون ٢٣٥
بيركليس ٣٣١

ريتشارد الثاني

تعريب

أ. ر. مشاطي

أشخاص المسرحية

الملك رِتْشَرْد الثاني.

إدموند دي لانكْلي دوق يورك	}	عمّا الملك.
جون دي غان دوق لنْكاسْتر		

هنري الملقّب بـ بولِنْبْروك، دوق هيرفود، إبن جون دي غال، فيما بعد هنري الرابع.

دوق أومِيرل : ابن دوق يورك.

موبْري : دوق نورْفولْك.

دوق سوراي.

كونْت سالْزْبري.

كونْت بِرْكْلي.

بوشي	}	رجال الملك رِتْشَرْد.
باكوت		
كرين		

كونْت نورْثَمْبِرْلنْد.

هنري بِرْسي : إبنه.

لورد روس.

لورد ويلوبي.
لورد فيتْزْواتر.
اسقف كارليل.
كاهن وستْمِنْسْتر.
لورد مارشال.
سرْ بيرس إيكْسْتون.
سرْ إسْطفان إسْكْروب.
قائد مقاطعة وايلس.
الملكة
دوقة كلوسسْتر.
دوقة يورك.
مرافقات.

لوردات وضبّاط وجنود وبستانيّان
وسجّان ورسول وغلام وخدم.
تجري الأحداث تارةً في انكلترا وطوراً في مقاطعة الغال

الفصل الأول

المشهد الأول

في قصر الملك بلندن

(يدخل الملك رتْشَرْد وحاشيته وجون دي غان ونبلاء آخرون)

الملك رتشرد : يا جون دي غان، سيّد مقاطعة لنْكاسْتر التي عزّزها الزمن، هل جئت، حسب نصّ قسمك، الى هنا بابنك الشجاع هنري هيرفورد لتساند هذا الإتهام العاصف الذي لم تُمكّننا الظروف من سماعه حتى الآن، وهو موجّه الى دوق نورفولك توماس موبْري.

جون دي غان: أجل، يا مليكي المعظم.

الملك رتشرد : قل لي ايضاً، هل جسَسْت نبضه ؟ هل يتّهم الدوق بسبب عداء قديم أو بحجّة إخلال خطير بالواجب يستند الى برهان قاطع على الخيانة.

جون دي غان: على ما تبيّن لي، ان هذا الاتهام ينطوي على خطر يهدّد به الدوق جلالتك، وليس بسبب أيّه عداوة رسّخها الزمن.

الملك رتشرد : (لرجاله) أحضروا الى هنا الخصمين ليتقابلا وجهاً لوجه،

علي مولا

ويتناقشا أمامي. (يخرج بعض الرجال). كلاهما متشامخان يرتسم الغضب في عينيهما عنيفاً كموج البحر ولهيب النار.

(يدخل الرجال ثانيةً برفقة بولينبروك ونورفولك)

بولينبروك : أتمنّى لمولاي الملك المحبوب عمراً طويلاً وأياماً سعيدة.

نورفولك : أرجو أن تزيد السماء هناءك كل يوم، وان تضاعف الأرض ازدهار عرشك الخالد.

الملك رتشرد : اشكركما معاً. وأنا واثق بأن أحدكما متملّق بارع، إذْ إن ما أتى بكما إليّ هو إتّهام كل منكما رفيقه بالخيانة العظمى. فيا إبن عمّي هنري هيرفورد، ما هي شكواك من توماس موبري دوق نورفولك ؟

بولينبروك : أوّلاً، أرجو أن تشهد السماء على صدق أقوالي بصفتي أحد رعاياك. وباتكالي على عطفك الشخصي البعيد عن كل تحيّز وتحامُل، ألْجأ الى عدالتك الملكية. والآن إليك يا توماس موبري أوجّه كلامي، وأنا على بيّنة مما اصرّح به : ان ما أودّ أن أعلنه، أصرّ بكل قواي على تأكيد حقيقته في هذه الدنيا، على أن تكون نفسي مسؤولة عن صوابه في الآخرة. أنت خائن وجاحد. صحيح أنك رفيع النسب، لكنك تعيش حياة غارقة في الفساد. اذ بقدر ما تكون السماء صافية غالباً ما تغشاها الغيوم الدكناء. ومرة أخرى، لإثبات وصمة عارك، أؤكد ارتباطك بالخيانة الدنيئة التي أريد، اذا سمح مليكي، ان لا أخرج من هنا قبل أن أغمد خنجري في صدرك. أوّلاً لدعم ما ينطق به لساني، ثم لغسل ما تورطت انت فيه من جرم فظيع.

نورفولك : أمّا انا، فأرجو أن لا يقلّل سلوكي من حماس غيرتي. لأن أهوال حرب النساء، ومرارة لسانين متنافرين لا تقوى على البتّ في الخلاف الناشب بيننا نحن الاثنين. هكذا يحتاج

الدم الذي يغلي في عروقي الى ما يبرّد لظاه. غير أني لا يسعني أن أتبجّح بأن الصبر الجميل يحملني على التخاذل وعدم البوح بأية فضيحة. لا بد لي من التصريح بأني أحفظ لجلالتك كل احترام يفرض عليّ بأن أشدّ العنان وألْجم حرية كلامي. وإلّا لن يردعني رادع عن الصراخ في وجهه عالياً انه خائن منحطّ. لندع جانباً إنتماءه الى الأسرة المالكة، وانه ابن عمك، يا مليكي، كي أتحدّاه وأجابهه وأدعوه نمّاماً منافقاً وجباناً خسيساً. انا مستعد ايضاً لان اترك له مجالاً كافياً لمواجهتي، حتى إن اضطررت الى تسلّق جبال الألب الجليدية أو أي ميدان آخر غير مأهول لم تجسر قدم إنسان إنكليزي أن تطأه قبلا. بانتظار فرصة ثانية، اكتفي بهذا القول في سبيل دعم صدق كلامي، لأني واثق تماماً بأن جميع ادّعاءاته كاذبة لا تستند الى اساس من الصحة.

بولينبروك : تباً لك من جبان رعديد، اني أتحدّاك متنازلاً عن القرابة التي تربطني بجلالة الملك. وأدّع جانباً اصالة نسبي الذي يدفعك الخوف لا الاحترام الى الإعتراض عليه. فاذا كانت الرعشة هي الداعي الى التنصّل من تحقير نسبي، ما عليك إلا أن تتدنّى الى مستوى أسفل منه. اذ إني بافتخاري بمراسم هذه الفروسية أودّ أن أقارع سيفك وأحاسبك على كل ما تلفّظت به من شتى الشتائم التي امكنك ان تستنبطها وتصبّها على سمعتي الطيّبة.

نورفولك : انا اقبل التحدّي. وأقسم بالسيف الذي ثبّت فروسيّتي حين لامس كتفي، اني على اتمّ الاستعداد لمجابهتك بكل الوسائل المسموح بها وجميع ألوان الفروسية المشرّفة. وعندما امتطي جوادي أتمنّى ان أترجّل عنه حيًّا اذا كنت حقاً خائناً أو مقاتلا غير عادل.

الملك رتشرد : بماذا تتّهم موبري، يا ابن عمي ؟ لا بد من أن يكون الأمر خطيراً يدعوني الى التفكير بأنه أساء التصرّف.

بولينبروك : إستمع إليّ. ان ما صرّحت به سأغامر بحياتي لاثباته. وأكرّر قولي ان موبري استقبل ثمانية آلاف نبيل راضين بما يقبضه جنود جلالتك وتمسّك بهم للقيام بأعمال إجرامية كما يفعل الخائن البغيض والآثم الشرير. وأضيف أنني مستعد للمقارعة هنا أو في أي مكان آخر بعيد لم يقع عليه نظر أي انكليزي. أكرّر قولي ان جميع الخيانات التي دُبّرت خلال الاعوام الثمانية عشر الماضية خطّطها كلّها في هذا البلد ونسج حبائلها الخبيث موبري وعمل على تنفيذها. وأجزم ايضاً، وانا مستعد كذلك ان اثبت حسن نيّتي خلافاً لمآربه الفاسدة، بأنه هو الذي تآمر لقتل دوق كلوسستر الذي حرّض عليه أخصامه السذّج. ولأنه خائن جبان هدر دمه الزكي، هذا الدم العزيز الذي يصرخ نظير الضحيّة هابيل من أعماق الكهوف الصمّاء طالباً مني الاقتصاص العادل للجريمة البشعة ولصون كرامة نسبه المجيد الذي سينتقم له ساعدي هذا أو أخسر حياتي.

الملك رتشرد : إلى أي حدّ بلغ تصميمه على التحرك ؟ ما قولك يا توماس نورفولك ؟

نورفولك : هل يأذن لي مولاي الملك ان أحوّل وجهي وأهمس في أذنه كي لا يسمع في هذه اللحظة سؤالي الموجّه الى صاحب هذا الدم الملكي عن مدى الاهانة التي يلحقها بخالق الكون وبالبشر هذا الخبيث حين يكذب ويفتري.

الملك رتشرد : يا موبري، انتبه الى الحياد الذي ألْتزم به والبارز في عينيّ، وكذلك في اذنيّ، ولو كان المعني ابني ووريث مملكتي، وهو فعلاً ابن شقيق أبي. فإني أقسم بجلال صولجاني ان هذه القرابة المتينة التي يسري دمها المقدس في عروقي لن

تمنحه أي امتياز أو انحياز ولن تليّن صلابة استقامتي وعدالتي. هو أحد رعاياي نظيرك تماماً، يا موبري، فيمكنك ان تتكلّم بحرية وبدون وجل.

نورفولك : الخيانة، يا بولينبروك، معشعشة في أعماق قلبك، ولذلك لا يسعك إلا أن تكذب وتنكر. فان ثلاثة أرباع ما قبضته مني لأجل قضية مدينة كاليه قد وزعته بالتساوي على جنود جلالتك وقد سمحت لي بأن أحتفظ بالربع الباقي لتسديد قسم من المصاريف الباهظة التي دفعتها اثناء سفري الأخير الى فرنسا حين ذهبت لإعادة الملكة الى هنا. فتلقَّ اذاً هذا التكذيب الصريح. أمّا كلوسستر فأنا لم أقتله، ولكني لسوء طالعي نسيت قسمي وواجبي في هذه المناسبة. غير اني لا انكر، يا سيدي اللورد النبيل لنكاستر المحترم، والد عدوّي اللدود، اني نصبت لك ذات يوم كميناً للقضاء على حياتك. وهذا ما يعذّب ضميري ويدفعني الى طلب غفرانك. لكني مؤخراً قبل أن أتناول القربان المقدس إعترفت بذنبي ورجوت منك العفو الذي اعتقد أنك لن تبخل به عليّ. هذه هي خطيئتي. أمّا باقي التهم الموجّهة إليّ فصادرة عن ماكر غادر ليس أحطّ منه بين سائر الخونة. وهكذا تراني أُصرّ على التأكيد بأني بريء من كل ما ينسبه اليّ. وأُلصق بإلحاح تهمة الخيانة بهذا العدو اللئيم الذي يتستّر وراء نسبه الرفيع ليخفي ما انغمس فيه من المعاصي. لذا أَلتمس من جلالتك ان تعيّن لنا موعد تصفية الحساب بيني وبينه نهائياً بحضورك.

الملك رتشرد : أيها الوجيه الذي يلهب الغضب حماسه، دع قياد مصيرك بين يديّ. واليك ما أصفه لك من علاج شاف وإن لم أكن طبيباً. ان العداء المستحكم بينكما يعمّق الجراح. فما عليك إلّا أن تنسى وتسامح، وأن تتّفقا معاً على تنقية الاجواء

بينكما، ما دام اطباؤنا ينصحون بعدم اللجوء الى نزف الدماء. ارجوك، يا عمّاه الطيب القلب، ان تنهي هذا الشجار من حيث بدأ. وعليّ ان أهدّئ روع دوق نورفولك، على أن تسكّن انت خواطر ابنك.

جون دي غان: دور المسالم يناسب عمري. فعليك، يا ولدي، ان تغضّ الطرف عمّا أثاره دوق نورفولك من مشاكل.

الملك رتشرد : وأنت، يا نورفولك، تخلَّ عما يجيش في صدرك من هواجس.

جون دي غان: مهلاً يا هاري، مهلاً. عندما يُفرض الخضوع من مقام عالٍ، لا حاجة لتكرار الطلب مرتين.

الملك رتشرد : يا نورفولك، عليك ان تتخلّى عن حماسك حسب أمري الصريح الواضح بدون إمهال.

نورفولك : إني أرتمي عند قدميك، أيها الملك المرهوب، مكرساً حياتي لخدمتك. لكن بدون ان تنالني أية وصمة عار. لأن حياتي رهن واجبي. أمّا سمعتي التي ستبقى بعد مماتي ويخلّدها ذكر اسمي على بلاط ضريحي، فلن أرضى مطلقاً بأن تشوبها أية غيمة سوداء. وأنا مبعد ومتهم وملعون ومسحوق القلب، وقد سوّدت النميمة صفحة وجودي. وليس أمامي من بلسم يشفي جراحي سوى إراقة الدم القاتم الذي اطلق صاحبه هذه الشائعات المغرضة للنيل مني.

الملك رتشرد : لا بد لهذا الغضب من أن يخمد. فضع إتكالك عليّ وكُفّ عن هذا النزاع، لأن للأُسُود الرصينة قدرةً على ترويض النمور الثائرة.

نورفولك : اجل، ولكن عليك، يا صاحب الجلالة، ان لا تزيل ترقيط النمور. فإن محوت العار عني، لن أتردد لحظة في نسيان هذه المشاغبات. مولاي الكريم، لا تنسَ أن أعزّ صفة في الدنيا هي السمعة الطيبة التي لا يكسوها اي غبار. فان

نزعتها عن الرجال غرقوا في أوحال قذرة ولم ترتفع قيمتهم اكثر من الفخار المطليّ الذي يظلّ فخاراً. حقاً ان القلب المفعم بالشجاعة والولاء هو جوهرة نادرة مخبّأة في صندوق مغلق مزوّد بعشرة اقفال موصدة. فشرفي هو حياتي، وكلاهما يشكّلان وحدة لا تتجزّأ. فإن أنا فقدت شرفي خسرت حياتي لا محالة. اذاً يا مولاي الملك، دعني ادافع عن شرفي الذي اعيش للمحافظة عليه، وأموت في سبيل ابقائه ناصعاً لامعاً.

لملك رتشرد (لبولينبروك) : اسألك، يا ابن العم، ان تطرح عنك هذا التشبّث وأن تبدأ مرحلة مسالمة.

بولينبروك : وقاني الله مثل هذا الاستسلام البغيض. هل يرضيك أن أبدو كصرح منهار أمام شموخ والدي ؟ هل تريد أن أتنازل عن حقوقي لهذا المتسوّل الدنيء الذي ليس لديه ذرّة من الكرامة والحياء. قبل أن أجرح شهامتي بمثل هذا التنازل المتخاذل واستكين لتمزيق انياب هذا الصعلوك الخسيس، وهذه إهانة لن أتغاضى عنها مطلقاً، سأعرف كيف أنتصب في وجه هذا الحقير الدموي موبري وأصون كرامتي من الازدراء الذي يواجهني به. (يخرج جون دي غان).

الملك رتشرد : لم أولد لأصلّي فقط، بل لأستلم دفة القيادة. وبما أني لا أرى من سبيل لمصالحتكما، ما على كلّ منكما إلّا الاستعداد للدفاع عن وجهة نظره وحقوقه، وإن تعرّضت حياتكما للخطر، وذلك يوم عيد سان لمبار في مدينة كوفنتري حيث تحتكمان الى السيف والرمح لتصفية حساب خلافكما الحافل بالحقد والكراهية. لأني حاولت، بدون جدوى، ان اغلّب عليكما روح العدل والمسامحة. وستكون الغلبة لمن يفوز اخيراً. فيا أيها اللورد مارشال مُرْ رجالك بأن يُعِدّوا العِدّة لحسم هذا النزاع المسلح. (يخرجون).

المشهد الثاني

في نزل سافوا القديم بلندن

(يدخل جون دي غان ودوقة كلوسستر)

جون دي غان: يا للأسف، دم أسرة كلوسستر الذي يسري في عروقي يحرّضني اكثر من صياحكم على التصدي للجزّارين الذين يستهدفون النيل منّي والقضاء على حياتي. لكن، بما ان العقاب هو من نصيب من ارتكب عمداً هذا الجرم الذي ارى نفسي غير قادر على الإقتصاص منه، لا استطيع إلا ان اسلّم امري الى ربّ السماء الذي عندما يرى الوقت مناسباً يمطر على الاشرار نيران نقمته جزاء ما جنت أيديهم.

الدوقة : أوَليس الإخاء بالنسبة اليك أقوى دافع في هذا الاتجاه ؟ أوَليس للحب من أثر بين حنايا ضلوعك ؟ ان اولاد ادوارد السبعة، وأنت أحدهم، هم كسبعة أوعية مقدسة بل كسبعة أغصان نضرة تزيّن شجرة واحدة. لكن معظم هذه الأوعية قد افرغتها ميول الطبيعة من محتواها، واغلب هذه الاغصان قد فصلها سوء مصيرها عن جزعها. إلّا أن حياتي، يا عزيزي توماس، هي جزء من كيان كلوسسْتر، الوعاء الطامح بدم ادوارد، هذا الغصن المتفرّع من الشجرة الملكية الذي انكسر، فسال كل نسغه الحيوي هدراً تحت ضربة فأس الجاني، وتناثرت اوراقه وجفّت تحت وطأة سعير الحسد الذي ومض في بريق سكّين القاتل حين قطرت منه دماء المغدور الذي كان دمه، يا جون دي غان، جزءاً من دمك والسرير والرحم والنزق والنهج الذي سرت عليه، كلها مجتمعة جعلت منك رجلاً مميّزاً. فبها عشت وازدهرت، وستظل جذورك متأصلة في أعماقه. وقبولك هذا بموت

ابيك معناه انك وافقت على هلاك اخيك التعيس الذي كان صورة حيّة تمثّل شخص والدك الكريم. لا تعتبر ذلك صبراً جميلاً، يا غان، لأنه في الواقع يأس مرير. ثم ان قبولك بمقتل أخيك مفاده أنك تعرّض قلبك بالذات للطعن بدون ان تأتي بأي جهد لتحميه، اذ تُقدّمه للذبح كالنعاج. وما نسمّيه صبراً لدى الناس العاديّين ليس سوى جبن مشين معشعش في صدرك النبيل. ماذا أقول لك ؟ إعلم جيداً ان أفضل وسيلة لصيانة حياتك هي الانتقام لمقتل نسيبي كلوسسْتر.

جون دي غان: هذا النزاع فرضه الله علينا، لأن ممثله على الأرض أعني ابنه الحبيب، وتحت انظاره المقدسة، تمّ اغتياله الجماعي، فإن كان هناك حقيقة جريمة، لن تتقاعس السماء عن الانتقام لها ما دمت لن أجسر ابداً على رفع يدي الغاضبة على ممثله في هذه الدنيا.

الدوقة : لمن عساي ان اشتكي اذاً، وا اسفاه ؟

جون دي غان: لله وحده نصير الأرملة ومغيثها.

الدوقة : فليكن ... وداعاً يا صديقي القديم جون دي غان. ستذهب الى كوفنتري لتشهد المعركة بين ابن أخيك هيرفورد والشرس موبري. كم أودّ أن يكون عبء إهانة زوجي ثقيلاً على رمح هيرفورد حين يخترق صدر الجزار موبري. واذا، لا سمح الله، فشلت المحاولة الأولى، سيسقط وقر جرائم موبري على كاهل هذا الأخير ويسحقه ويهشّم ضلوع حصانه الجافل، فيرمي فارسه أرضاً ويتركه تحت رحمة ابن أخي هيرفورد. وداعاً ايها الشيخ الوقور. لا بد لأرملة اخيك من ان تختم حياتها بالألم رفيقها الدائم في هذه الأيام.

جون دي غان: وداعاً يا أختي. عليّ ان اذهب الى كوفنتري. أرجو أن ترافقك السعادة كما لو كنت ذاهبة بصحبتي.

الدوقة : لديّ كلمة أخيرة... الألم عادةً يقفز حيث يقع لا لأنه خفيف وفارغ بل لأنه ثقيل الوطأة. استأذنك بالذهاب قبل ان اقول ما أُريد، لأن الحزن لا يهدأ حتى حين يبدو صاحبه منهوك القوى. أَوْصِ اخي بي خيراً، يا ادموند يورك، لأنال منه كل ما يطيب لي... لا تذهب هكذا. وإن يكن هناك كل ما يهمك امره، لا تذهب مسرعاً. لأني اودّ ان اتذكّر غير ما أعاني. قل له، لكن ماذا ؟ قل له ان يأتي عاجلاً الى زيارتي في « بلاشي ». وا اسفاه، ماذا سيشاهد هذا العجوز يورك ؟ لا شيء سوى مساكن خالية وجدران عارية وأمكنة خاوية ومماشي ينعب فيها غراب البين. وماذا سيسمع ؟ ليس هنا من هتافات، بل أنّات المساكين أمثالي ؟ أوصِه بي خيراً، وقل له أن لا يذهب الى هناك ليعاني المشقات بحثاً عن الالم الذي سيجده في كل مكان. هذا وداعي الاخير، وها هما عيناي تزرفان الدمع على فراقك.

(يخرجان).

المشهد الثالث

في سهل كوسْفورْد كرين قرب كوفنْتري

الحلبة جاهزة والعرش منصوب والشهود والموظفون متأهّبون.

(يدخل لورد مارشال وأوميرل)

مارشال : مولاي أوميرل، هل هنري هيْرفورْد مدّجج بالسلاح ؟

اوميرل : من رأسه الى أخمص قدميه، وهو ينتظر دخوله الميدان على أحرّ من الجمر.

مارشال : ودوق نورفولك الشجاع المتحمّس يترقّب إشارة صوت البوق لدعوته الى القتال.

اوميرل : هكذا استعد البطلان وهما ينتظران.وصول جلالته. (تصدح الموسيقى. يدخل الملك رتشرد ويتقدم للجلوس على عرشه. جون دي غان وغيره من اللوردات يأخذون أمكنتهم، ينفخ البوق ثم يجيبه بوق آخر من الداخل. حينئذ يدخل نورفولك بكامل سلاحه يتقدّمه أحد الحجّاب).

الملك رتشرد : يا مارشال، إسأل هذا المقاتل لماذا هو قادم بكامل سلاحه، ولماذا يرتدي بزّة الفروسية ؟ من يريد أن ينازل، وما هي مشكلته ؟ عليه أن يقول الحقيقة حسب قسمه وتعهداته كفارس، وأنا أسأل السماء أن تعين بسالته.

نورفولك : اسمي توماس موبري دوق نورفولك. أتيت الى هنا وفاءً لقسمي الذي اسأل السماء ان لا تسمح لأي فارس بأن ينقضه، كي أحمي حقوقي وأظهر ولائي وخضوعي لله أولاً ولمليكي، ثم أصون ذرّيتي من شرّ دوق هيرفورد الذي يتهمني، ولكي أثبت له بعون الله وقوة ساعدي وبراعة دفاعي عن نفسي، أنه خان إلهي ومليكي، كما خان عهدي أنا أيضاً. وكذلك لأقاتل في سبيل الحق. لذا أسأله تعالى أن يكون بعوني وينصرني. (يجلس).

(ينفخ البوق ويدخل بولينبروك مدجّجاً بالسلاح يتقدّمه أحد الحجّاب).

الملك رتشرد : يا مارشال إسأل هذا الفارس المسلّحْ من هو، ولماذا أتى إلى هنا هكذا بكامل سلاحه ودرعه الحربي ؟ وأفهمه بموجب قوانيننا انّ عليه أن يبرّر ظهوره هكذا.

مارشال : ما هو اسمك، ولماذ مَثُلْتَ هنا أمام الملك رتشرد، ودخلت

الميدان الملكي ؟ من أتيت تقاتل، وما هي مشكلتك ؟ تكلم كفارس أصيل فينصرك الله على أعدائك.

بولينبروك : أنا هاري هيرفورد سيّد لنْكاسْتر ودرْبي. جئت الى هنا مسلّحاً لأثبت بنعمة الله وبقوّتي الذاتية لتوماس موبري دوق نورفولك انه ليس سوى ماكر خسيس وخائن ذميم أمام إله السماء والملك رتشرد وأمامي أنا أيضاً. وبما أني أقاتل في سبيل الحق ستنصرني السماء عليه حتماً.

مارشال : تحت طائلة عقوبة الموت، لا يتجرّأ أحد على ارتكاب الحماقة والجسارة في تعدّي الحدود المرسومة سوى مارشال والضباط المعيّنين للنظر في مخالفات قواعد هذا القتال.

بولينبروك : اسمح لي، يا لورد مارشال، بأن أقبّل يد مليكي، وأن أجثو على ركبتي أمام جلالته. لأني أنا وموبري قد تعاهدنا كرجلين على القيام بهذه الزيارة العسيرة. فلنستأذن رسمياً بالانصراف، شتى أصدقائنا ولنودّعهم بمودّة ولياقة.

مارشال : (للملك رتشرد) : هذا الرجل الماثل أمامك يحيّي جلالتك بكل إخلاص ويرجو ان يقبّل يدك ويستأذنك بالانصراف.

الملك رتشرد : (وهو ينهض) : أودّ أن أنزل وأضمّه الى صدري، يا ابن عمي هيرفورد، آملاً ان تساعد الظروف على تحقيق رغبتك في هذا القتال. الوداع، يا نسيبي. اذا سُفك دمك اليوم، يسعني ان أندبك، لكنني لن انتقم لمقتلك.

بولينبروك : لا أريد ان تزرف الدمع عيون شخص مثلك، إذا اخترق رمح موبري ضلوع صدري. (للورد مارشال) يا عزيز اللورد، استأذنك بالانصراف وأستأذن أيضاً إبن عمي النبيل ولورد أوميرل. انا لست الآن مريضاً، وإن كنت أغالب الموت. لكني شاب رشيق ينفر منّي الفرح والابتهاج (يلتفت نحو جون دي غان) مثلما يجري في ولائم الانكليز أتوجّه في آخر

المطاف الى الأفضل وانتهي بالألطف. أمّا أنت يا علّة وجودي على الأرض، يا من جدّدت نشاطك في شبابي، وبعثت فيّ قوّةً مضاعفة تهدف الى الفوز الباهر. بارك باستحقاقاتك رأس رمحي كي يخترق، كالشمع جنب موبري ويزدهي لمعان اسم جون دي غان للاشادة بشجاعة ابنه الباسل.

جون دي غان: لتأخذ السماء بيدك الخيّرة وتجعلك عند المقارعة سريعاً كالبرق، وتسدّد ضرباتك البطّاشة، فتنقضّ كالصاعقة على خوذة عدوّك اللدود، وتضاعف حماس شبابك لتبلغ غايتك المنشودة في الانتصار.

بولينبروك : ارجو من بسالتي ومن القديس الفارس جاورجيوس مساعدتي على ادراك مرامي (يجلس).

نورفولك : مهما كتب الله لي من نصيب هنا، لا بد لي من الموت أو الحياة في سبيل الملك رتشرد، لكوني وجيه وكريم صافي النية، وأحد أنصاره الأوفياء. لا يسع الأسير أن يتذوّق بهجة أشدّ عندما ينفض عنه قيود العبودية ويستعيد حريته الغالية، بدون رقيب كما هو حال نفسي المرتعشة في هذه الجولة القتالية اثناء منازلتي خصمي. يا مليكي القدير، وانتم يا رفاقي وسادتي الأعزاء، لكم مني جميعاً اطيب التمنّيات، راجياً ان تقضوا السنين القادمة باليمن والبركات. أنا ذاهب إلى المعركة بفرح وصفاء كأني ذاهب الى استعراض رائع يخيّم عليه السرور والهدوء باستمرار.

الملك رتشرد : الوداع يا سيد، إمضِ بأمان لأني أرى الطمأنينة تتلألأ في عينيك لما يشعّ فيهما من قيم وفضائل. يا مارشال مُرْ بافتتاح المعركة. (يعود الملك واللوردات الى مقاعدهم).

مارشال : هاري دي هيرفورد ولنْكاسْتر ودرْبي، إستلم رمحك، وليساعدك الله على مناصرة الحق.

بولينبروك : (وهو ينهض) : وأنا كلّي آمال، أصرخ : آمين.

مارشال : (لأحد الضباط) : خذ هذا الرمح لتوماس دوق نورفولك.

الحاجب الأول: هاري دي هيرفورد ولنكاستر ودرْبي، أتي الى هنا ليخدم الله والملك ويبرّر نفسه وليثبت ان دوق نورفولك توماس موبري هو عدوّ الله وعدوّ ملكه وعدوّ ذاته. لذلك دُعِي الى خوض المعركة، وإلّا اعتُبر هيرفورد منافقاً محتالاً.

الحاجب الثاني: أتى توماس موبري دوق نورفولك الى هنا للدفاع عن نفسه، وليثبت ان هاري دي هيرفورد سيد لنكاستر ودربي هو من أعداء الله ومليكه ونفسه، وإلّا كان جباناً مرائياً. لذلك تراه ينتظر إشارة بدء المعركة.

مارشال : انفخوا الابواق. وهيّا اهجما، أيها المقاتلان. (تسمع موسيقى الهجوم. ويلقي الملك الى الميدان المغلق بعصاه التي ترمز الى عكس الأوامر). لكن توقّفا. فقد ألقى الملك بعصاه.

الملك رتشرد : كل واحد منكما عليه ان يطرح سلاحه ارضاً، ويذهب الى مقرّه. (لجون دي غان وللسادة المساعدين) تعالوا وناقشوا الموضوع معنا... لتنفخ الأبواق الى ان تشرح لكل دوق من الحاضرين ما نكون قد قرّرناه. (تصدح الموسيقى طويلاً). (للمتقاتلين) اقتربوا واصغوا الى ما قرره مجلسنا نظراً الى عدم الرغبة في تلويث ارض مملكتنا بدم عزيز يتحتّم علينا ان لا نفرّط بنقطة منه، ولا بد لعيوننا من ان تشيح عن منظر الجراح البليغة التي احدثتها سيوف جيراننا، وأن يستفيق الإباء في أعماق صدورنا كنسر طموح ينزع الى التحليق فوق غيوم الضغينة والحسد والعداء، وأن ترفرف أجنحة السلام في سماء بلادنا حيث يغفو الناس على هدي السكون والصفاء. فبعد أن روّعهم قرع الطبول وصوت الأبواق الحاد مع صليل السيوف الغاضبة التي تطارد الوئام الوداع في ربوعنا الهادئة حين اضطررنا الى خوض معارك تهدر دماء

أهلنا عبثاً، نطلب بصوت عال إبعادك عن مناطقنا. وستظل، يا ابن عمّي هيرفورد منفيّاً تحت طائلة العقاب بالموت إن عدت قبل أن يمرّ بنا الصيف عشر مرات ليخصب حقولنا، ولن تشاهد منازلنا الجميلة بل ستجرّ قدميك على دروب الغربة البعيدة الوعرة.

بولينبروك : لتكن مشيئتك. هناك أمر واحد يعزّيني، هو أن الشمس التي تدفئكم هنا ستسطع كذلك لتدفئني انا ايضاً. لان الاشعّة الذهبية التي ترسلها اليكم ستنتشر في اجوائي وتنير دروب منفاي.

الملك رتشرد : أمّا أنت يا نورفولك، فقد أصدرت بحقك حكماً أقصى، يصعب عليّ أن أعلنه لك. لأن مدّة نفيك الأليم لن يحدّها وقت معلوم. وهذا الحكم الطويل يقضي عليك بأن لا تعود ابداً إلينا. فكن على بيّنة من أمرك.

نورفولك : هذا حكم جائر، يا مولاي الملك، لم اكن انتظر خروجه من فمك بالذات. هذه ضربة قاضية ترديني في هوّة بؤس وشقاء، لا مفرّ منها. بينما انا أستحقّ من قبلك مكافأة أفضل منها بكثير. لأن اللغة الانكليزية التي حفظتها منذ أربعين عاماً سأضطر هكذا الى نسيانها. ولساني لن يفيدني بعد الآن كأنه عود أو قيثارة بدون أوتار او كآلة محجوزة في علبتها وموضوعة بين أيد لا تجيد استعمالها وضبط نبراتها. وقد حبست لساني داخل فمي وحكمت على شفتيّ بأن تصبحا سجّان نطقي. وأنا قد طعنت في السنّ ولم أعد قادراً على تعلّم لغة جديدة. فما الزامك ايايَ بهذا الصمت إلّا حكم بإعدامي على مهل في بلاد لا أعرف لغتها، ولا سبيل لي لمخاطبة أهاليها الذين يجهلون لغة بلدي.

الملك رتشرد : لا فائدة بتاتاً لندبك المؤسف. لأن شكواك جاءت متأخرة بعد صدور الحكم عليك ووجوب تنفيذه بدون امهال.

نورفولك : هكذا سأدير ظهري لشمس بلادي وأمضي لأعيش في كآبة ليل دامس السواد لا ينتهي. (يهمّ بالانسحاب).

الملك رتشرد : (لنورفولك) : عُذْ وتلقَّ هذا الوعد (للمنفيَّين الاثنين) ضعا ايديكما المنبوذة على هذا السيف الملكي، واحلفا بالتزام الخضوع المفروض عليكما، تجاه السماء، على أن ترفضا عدم خضوعكما لأمري، واحلفا ايضاً انكما في منفاكما لن تتصاحبا ولن تتقابلا ولن تتراسلا ولن يسلّم أحدكما على رفيقه ولن تتخاطبا ولن ترويا غليل حقدكما باتفاقكما عن سابق عمد وإصرار، على حبْك الدسائس وتدبير المؤامرات بغية النيل مني شخصياً أو من حكومتي أو من رعاياي أو من بلادي.

بولينبروك : أقسم على التقيّد بذلك.

نورفولك : وأنا أيضاً أقسم على تنفيذ كل هذه الفروض.

بولينبروك : يا نورفولك، لديّ كلمة أخيرة مصاغة بلهجة العداء. في هذه اللحظة، لو سمح الملك لكلَيْنا بحرية التصرف، لكانت نفس أحدنا الآن تائهة في الفضاء بعيداً عن جسدنا هذا المبعد عن هذه الديار. إعترف بخيانتك إذاً قبل أن تنزح عن هذه المملكة المضيافة. وبما أنك سترحل بعيداً جداً أنصحك بأن لا تحمل فوق شقائك عذاب ضميرك المستيقظ بعد فوات الأوان.

نورفولك : لا، يا بولينبروك. لو كنت أنا خائناً لفضّلت أن يُحذف اسمي من صفحة الوجود، وأنا بعيد عن السماء، كما أنا بعيد عن وطني. غير أن رب السماء يعرف جيداً من أنت كما نعلم نحن كلنا ايضاً ستعلم جلالتك بالأمر وإن بعد حين. ومن الآن وصاعداً لن يتسنّى لي ان أضيع، لأني عالم بأن سيكون على الدوام خارج سبل انكلترا (يخرج)

الملك رتشرد : (لجون دي غان) : يا عماه، إني ألمح في عينيك ما يسحق

قلبك من الحزن. لذا حذف مظهرك الحزين أربع سنين من نفيك الطويل. (لبولينبروك) بعد انقضاء الشتاء القارس ست مرات ستعود طبعاً من منفاك الى وطنك، وسنرحب بك جميعاً حينذاك.

بولينبروك : ما اطول مرور الزمن الكامن في هذه الكلمة الوجيزة. فعبور الشتاء العابس اربع مرات، والربيع الضاحك أربع مرات لا يتمّ هكذا سريعاً. إنما هذه هي نظرة الملوك الى امثالنا المهملين.

جون دي غان: اشكرك، يا مليكي الحبيب لأنك عطفت عليّ واختصرت مدة نفي ابني اربعة أعوام. لكن ذلك لن يعود عليّ بفائدة تذكر. لأني قبل انقضاء السنوات الست التي ستقضيها بعيداً عني بأيامها المكفهرّة سينطفئ سراج حياتي، وقد أوشك زيته ان ينضب ولهيبه ان يخبو وسينقضي معه ليل عمري الى الأبد، اذ يكون فتيله قد احترق ونوره قد خبا، وأغمض الموت اجفاني الى الأبد فلن أرى ابني ثانية.

الملك رتشرد : هوّن عليك، يا عمّاه. ستحيا بعد الآن سنين عديدة.

جون دي غان: ليس في وسعك ان تضيف الى عمري دقيقة واحدة، لكنك تستطيع أن تقصّر أيامي بالحزن واليأس، ويمكنك ان تختصر لياليّ. غير انك لن تقوى على تجديد عزّي. يتسنى لك ان تضيف التجاعيد الى جبيني ألا أنك لن تستطيع أن تزيل الهمّ الذي ينخر فؤادي. لكلامك قدرة ان تجعل عمري يساير مشيئتك حتى بلوغ أجلي. لكن الموت لن يمكّنك من إعادة الحياة اليّ.

الملك رتشرد : لقد أُبعد ابنك بناء على قرار عادل حكيم انت ساهمت في اصداره بصفتك أحد أعضاء مجلسي، فلماذا تعارض الآن عدالتي التي وافقت عليها.

جون دي غان: لأن الأطعمة اللذيذة المذاق تميل عند الهضم الى الحموضة.

انت سألتني رأيي كقاضٍ. وكم كنت أفضّل ان تطلب مني مناقشة الموضوع كأب. ليته كان غريباً وليس ولدي، لكنت عاملته على انحرافه بحلم أوسع. لكني فضّلت أن أتجنّب التحيّز، وبحكمي هذا حطّمت حياتي بيدي. غير أني كم رجوت أن يقول لي أحدكم أني كنت شديد القسوة في القيام هكذا بواجبي. وقد آلمكم ان يعمل لساني على اذيّتي مرغماً.

الملك رتشرد : الوداع، يا ابن العم... وانت ايضاً، يا عمّاه، ودّعه بهدوء، لأننا أبعدناه لمدة ست سنوات، وعليه أن يمضي الى أقاصي منفاه. (تصدح الموسيقى. ويخرج رتشرد وحاشيته).

اوميرل : الوداع، يا ابني عمي. وما لا يسعك ان تقوله الآن، يمكنك ان تكتبه لنا من مكان اقامتك الجديد.

مارشال : انا لا استأذنك بالانصراف، لأني مصمّم على مرافقتك على متن حصاني بقدر ما يتيح لي طول المسافات.

جون دي غان: لماذا تقتصر هكذا في كلامك، ولا تردّ على ما يظهره لك أصدقاؤك من عطف ومودّة ؟

بولينبروك : لا أجد العبارات اللازمة لوداعك حين يتحتّم على لساني ان يبوح بما يمزّق فؤادي من الألم والعذاب الدفين.

جون دي غان: حزنك ليس له من سبب سوى بعدك عن نظري.

بولينبروك : اثناء غياب الفرج يظل الغمّ حاضراً في ذهني على الدوام.

جون دي غان: كم يتطلّب من الوقت انقضاء الشتاء ست مرات ؟ ثق بأن هذه المدة ستمرّ بسرعة.

بولينبروك : أجل، على الانسان في أيام سروره. لكن الكآبة تطيل الزمان عشرة أضعاف على من يتخبّط في لجج الشقاء.

جون دي غان: افترض أنك مسافر للقيام بنزهة مرحة.

بولينبروك : لا يلبث قلبي أن يكذّب واقعي بتنهيدة حزينة، لأنه مُجبر على إقامة قسرية في غربة قاصية قاسية.

جون دي غان: أُنظر الى درب رحيلك الأليم كأنه إطار ضيّق تحصر فيه غيابك الطويل.

بولينبروك : أيّة خطوة من خطواتك المرهقة تبعدني عن كل عزيز على قلبي. وما عليّ إلّا ان أتدرّب على السير في وعور منفاي. أخيراً حين أعود حراً، بماذا يمكنني أن أتبجّح إن لم يكن بانطوائي على بؤسي وعذابي.

جون دي غان: جميع الأمكنة التي يتنقّل فيها نظري هي لدى العاقل المتبصّر مرافئ أمان وارتياح، تعلّمك الضرورة على اعتبارها هكذا. وليس من وسيلة كالضرورة تؤدّي الى ممارسة الفضيلة. إعتبرْ أن من يبعدك عنا ليس الملك، وان الشقاء لا يثقل على كاهل الانسان عندما يريد ان يفترض أنه يتحمّله بسهولة. اذهب وتصوّر اني ارسلتك لاكتساب المزيد من الحنكة والمجد، ولا تفكّر بأن الملك قد نفاك، أو افترض ان الطاعون الفتّاك يحوم في اجوائنا، وأنت هربت منه الى مناخ سليم نقي. أطعْني وتخيّلْ أن كل ما تملكه نفسك من عزيز هو حيث انت ذاهب لا حيث تودّ ان تعود سريعاً. أجل، تخيّل ان العصافير المغرّدة تنشد لك أعذب الالحان، وأن المرج الأخضر الذي تطأه قدماك سجادة قاعة فسيحة تتأمّلها باعجاب، وأن الازهار فتيات حسان تناجيك وأن سيْرك ايقاع رقصة رائعة ساحرة. لأن الحزن مهما كان اليماً لا يستطيع ان ينهش قلب الانسان الذي يهمله وينظر اليه باستخفاف وازدراء.

بولينبروك : من يقوى على إمساك الجمر بيده وإن فكّر في جليد جبال القفقاس ؟ أو يلهي شهيّته الى لذيذ الطعام بمجرد التفكير في مأدبة وهمية ؟ أو التمرّغ على ثلوج الشتاء بدون ان يرتجف من الصقيع وإن حلم بحرارة الصيف الدافئة ؟ لا، لا، هذا مستحيل كما أن التفكير بالخير لا يوقظ الميل الى

الشرّ، وأن انياب الألم لا تكون جارحة عندما تغرز في الجسم بدون ان تدميه.

جون دي غان: تعال، تعال، يا بنيّ لأرشدك الى طريقك. اه، لو كنت شاباً نظيرك وفي موقفك، لما مكثت هنا لحظة.

بولينبروك : الوداع اذاً، يا أرض أجدادي انكلترا. الوداع ايتها الديار العزيزة على قلبي، يا أمي ومرضعي التي لا تزال تحتضنني وتضمّني الى صدرها بحنان. اينما تهت يسعني أن أفتخر بأني، ولو كنت بعيداً عن ترابك، لا ازال انكليزياً أصيلاً.

(يخرج الجميع).

المشهد الخامس

في قصر الملك بلندن.

(يدخل الملك رتشرد وباكوت وكرين ثم أوميرل).

الملك رتشرد : لقد لاحظت ذلك... الى اين، يا ابن العم اوميرل، رافقت هيرفورد السامي ؟

اوميرل : رافقت هيرفورد السامي، كما تدعوه، الى أول طريق عريض، ثم تركته يكمل دربه وحده.

الملك رتشرد : قل لي، هل سبّب الفراق هطول الدموع بغزارة ؟

اوميرل : انا من جهتي لم أذرف دمعة واحدة، لو لم تهبّ ريح الشمال الشرقية بشدة فائقة وتلطم وجهي بحدّة آلمت عينيّ وكادت صدفة تُسيل دمعة ناشفة على هذا الفراق العسير.

الملك رتشرد : وماذا قال ابن العم، عندما غادرته ؟

اوميرل : قال لي : الوداع. وإذْ خشيت أن يعصى لساني لفظ هذه الكلمة البغيضة، تظاهرت بأن الألم خنق النطق في حنجرتي.

فغصّ صوتي وانحبس في حلقي ولم أنبس ببنت شفة. لعمري، لو كانت لفظة وداع أضافت عدّة ساعات الى نفيه الوجيز، لكان حظي جاد بمجلّد ضخم من عبارات الوداع. لكن بما ان هذا الأمر مستحيل، لم يتلفّظ بكلمة واحدة.

الملك رتشرد : هو ابن عمنا، يا ابن العم، وإن يكن سلوكه مشبوها. ولن يلبث ان يعود الينا بعد حين من منفاه ليزور اهله. ثم انا وبوشي وباكوت الموجودان هنا وكذلك كرين، لاحظنا عطفه على عامّة الشعب، وقد دخل الى قلوبهم بتواضعه وإلْفته، فبادلوه المودّة والاحترام. وقد اجتذب اليه الفقراء منهم بابتساماته وخدماته كما سيعمل على اكتساب حب الناس هناك في منفاه الموحش. وعندما سلّم على سائق عربة مَرَّ بقربه، هتف : « حفظك الله، يا سيدي ». وانحنى امامه بوقار، وشكره على لياقته كمواطن لطيف، كما لو كانت انكلترا تخصه بالوراثة وكأنه أقرب المقرّبين الى الجميع.

كرين : حسناً، ها قد غاب عنا، وغابت معه كافة خواطره الغريبة. لنفكّر الآن بالمتمرّدين الذين برزوا في ايرلندا، حيث لا بدّ لنا من التصدّي لهم، يا مولاي، ومنعهم من الاهتداء الى من يجود عليهم بمساعدات مالية جديدة، ومن مشاكل إضافية تفيدهم بقدر ما تضرّ بمصالح جلالتك.

الملك رتشرد : سأخوض أنا شخصياً هذه الحرب المضنية. وبما أن جهودي فعّالة بفضل رجال بلاطي المخلصين وكرمي غير المحدود، سأضطر الى حماية ارزاقي الملكية التي تؤمّن لي وارداتها كل ما يلزمني لقضاء شؤوني الملحّة. واذا لم يكفِ ذلك سيلجأ معاونيّ الى بذل اقصى الجهد لجمع المبالغ الضرورية لمشاريعي، لأني أنوي التوجّه فوراً الى ايرلندا.

(يدخل بوشي).

الملك رتشرد : (يتابع) : يا بوشي، ما وراءك من الاخبار ؟

بوشي : جون دي غان العجوز تملّكه المرض، يا مولاي، وقد باغته الإعياء، وهو يرجو جلالتك ان تذهب اليه في اقرب فرصة لمشاهدته.

الملك رتشرد : أي هو الآن ؟

بوشي : في ايلي هاوس.

الملك رتشرد : يا إلهي، أوعز الى طبيبه أن يرحّله فوراً الى قبره. فيؤمّن لنا غطاءُ نعشه نسيجاً يكفي لخياطة بزّات جنودي كي يخوضوا حرب ايرلندا. تعالوا، يا سادة، نذهب لزيارته وأنا أتمنى، إن شاء الله، مع كل ما نبذله من جهد للاستعجال، ان لا نصل بعد فوات الاوان. (يخرجون).

الفصل الثاني

المشهد الأول

في شقة من قصر ايلي هاوس.

(جون دي غان ممدد على سرير ليرتاح، ودوق يورك

وبعض اللوردات يغفون بقربه).

جون دي غان: هل سيأتي الملك ؟ اتمنّى ان ألْفظ انفاسي الأخيرة بحضور جمع مسالم مثلكم يعمل على التخفيف من نزق شبابه.

يورك : لا تقلق، ولا تفقد أعصابك، لأن النصائح تكاد تصل الى أذنيه.

جون دي غان: يقال ان صدى صوت الأموات يلفت الانتباه نظير نغم عميق القرار. عندما تكون فرص الكلام نادرة لا يطلقه صاحبه جزافاً. لأن الحقيقة التي يهمس بها من يلزمون جانب الحذر لا يتلفّظ بتعابيرها إلا المنازعون. ولأن أقوال من لم يبقَ لديه ما يعلنه يستمع اليه عدد أكبر ممن يتوقّعون من شبابه وصحته ان يتدفق حديثه بغزارة من بين شفتيه. كما ان الرجال في خاتمة حياتهم عادة يصغي السامعون الى حديثهم

اكثر من أي وقت مضى اثناء وجودهم على هذه الأرض. وهكذا يظل أثر غياب الشمس، نظير آخر المقطوعة الموسيقية، عالقاً في الذهن، وأبقى من كل ما سبقه، لأن طعم آخر الحلويات هو دائماً أحلى من أوّلها. وبما ان رتشرد لم يرد ان يصغي الى نصائحي ويستفيد من خبرتي، يمكنه الآن ان يصمّ أذنه عن سماع كلامي الحزين، وأنا مشرف على الموت.

يورك : كلا، ان اذنه مأخوذة بإطراء المتزلّفين وبالمديح الموجّه الى سلطته والاشعار الماجنة التي يصغي دوماً الى نكهتها بروح الشباب ومرحه، وبقصصٍ على الطريقة الايطالية الجذّابة التي يميل اليها شعبنا الخبيث الماجن. ان بعض الحماقات السارية بين الناس، بشرط ان تكون أساليبها جديدة طريفة، سرعان ما تنتشر وتصل الى سمع الملك. بينما هو لا يقبل بالنصائح غالباً إلّا بعد فوات الأوان، لأنها كثيراً ما تتمرّد على منطق العقل. لذا يجمل ان لا تسعى الى توجيه الإرشاد لمن يبحث هو نفسه عن طريقه. وانت تكاد تمتلك انفاسك وتصرّ على المجازفة بها غير مبالٍ بفقدانها.

جون دي غان: يخيّل اليّ اني نبيّ نزل الوحي عليّ بغتة. وها انا ذا على وشك بلوغ أجلي، انبئك بأنه يشبه النار المتأجّجة التي تتآكل ولا يلبث لهيبها أن يخبو وينطفئ. بينما الامطار الهادئة تدوم طويلاً بعكس العواصف الهوجاء التي سرعان ما تسكن. ومن يركض بعجلة لا بد له من ان يتعب سريعاً. كما إن ابتلاع الأكل باستعجال يكاد يخنق من يزدرد الطعام ويلتهمه. هكذا أباطيل الدنيا التافهة، وهي كغراب البين الجشع الذي لا يعرف الشبع، لا تلبث ان تزول. ما أغرب عرش هذا الملك العظيم الشأن، وما أروع صولجانه الفريد، في هذه الدنيا الواسعة تحت سقف هذا المقرّ الذي يتربع

عليه الإله المشتري بأبهة، انه أشبه بجنة عدن بل يضاهي نصف الفردوس الارضي، وهو كالحصن المنيع الذي شيّدته الطبيعة لتحتمي فيه من غدر الزمان، ومن ويلات الحروب التي يشنّها البشر المتوسّعون في هذا الكون غير المحدود. هذا الحجر الكريم الذي يرصّع إطاراً من الفضة، ويصونه كسور منيع أو كحفرة عميقة تحيط بقصر شامخ، وتقيه من هجمات الغريب التعيس الحاسد. هذا المكان المقدس القائم على ارض مباركة. هذه الدولة الكبيرة المسمّاة انكلترا. هذه المرضع الحنون والأم الرؤوم التي أنجبت ملوكاً امتازوا بالعظمة والمقدرة على مرّ العصور، وفاخروا بعراقة نسبهم في الدفاع عن الحق بشهامة وفروسية حين وصلت منجزاتهم الشهيرة الى أرض الشرق والقبر المقدس الذي شاءت ان تحميه من عوادي الزمان. هذه البقعة الفريدة في أرض شعّ منها النور وأضاء سائر أنحاء الدنيا. هذا الوطن العزيز الحامل على اكتافه أمجاد العالم المتحضّر. هذه الديار التي يحاول البؤس أن يهدمها الآن، ولا أخشى من ترديد قولي هذا وأنا على حافّة قبري. هذه الأرض الخيّرة التي تكاد تصبح كبقعة الزيت على صفحة ماء ملوّث عكر، انكلترا هذه المنطقة التي كانت نبراس الشعوب تكاد تنوء تحت نير العبودية. ما أفظع هذه الفضيحة المشينة التي توشك ان تشمل كل معالم الحياة الكريمة. كم أتمنى ان يتوقّف هذا الانحلال والانهيار قبل ان افارق الحياة، فأموت قرير العين مطمئن البال.

(يدخل الملك رتشرد والملكة وأوميرل وبوشي وكرين وباكوت وروس وويلوبي).

يورك : ها قد جاء الملك. فعليكم ان تداروا فورة شبابه. لأن المهر الفتي يتحمّس كثيراً عندما يلاقي ما يثير نزقه.

الملكة : كيف حال عمنا لنكاستر ؟

الملك رتشرد : كيف حال الرجل الباسل، وكيف اضحى اليوم وهو عجوز ؟

جون دي غان: كم تنطبق هذه التسمية على شخصي المتقدّم في السنّ : غان العجوز. في الحقيقة لم يبقَ مني سوى جلدة تكسوها التجاعيد. لقد لازم الألم في أعماق كياني، صياماً طويلاً مملًّا. فأصبح قادراً على متابعة الصيام بدون ان تجفّ طراوته. لقد سهرت كثيراً على انكلترا المتناومة. ومن المعلوم ان السهر يسبب الهزال المضني الذي يجفف اللحم. انا حرمت من السعادة التي تخالج قلب الأب بمشاهدة أولاده. وهذا الحرمان أدّى الى ما أنا عليه من حالة يرثى لها، تدعو الى إلقائي في حفرة الركام والمهملات لأن جسمي لم يعد صالحاً إلّا ليوارى الثرى في مثواه الأخير.

الملك رتشرد : هل يجوز للمريض المنازع أن يتلاعب هكذا بعواطف أحبّائه ؟

جون دي غان: كلّا، ان شقائي يلهيني عمّا يحيط بي من أسى، بينما انت تعمل على محو اسمي مع جسمي من عالم الوجود. وأنا بدوري أؤكد لك، أيها الملك الرفيع الشأن، أني لا أودّ ان اتزلّف اليك للابقاء على راحتي وهنائي.

الملك رتشرد : وهل على المنازعين أن يتملّقوا الاحياء للحفاظ على كيانهم وأمنهم ؟

جون دي غان: لا، لا، الأحياء يتزلّفون الى الأموات ليصونوا مصالحهم.

الملك رتشرد : لكنك أنت المنازع تؤكد لي أنك لا تريد أن تتملّقني.

جون دي غان: لا، لا، أنت غير مشرف على الموت، بل أنا مريض اكثر منك.

الملك رتشرد : انا في تمام الصحة والعافية، اتنشّق الهواء المنعش، وأرى أنك انت المريض المدنف تحتاج الى العلاج.

جون دي غان: ان الذي خلقنا يعلم جيداً أنك أنت العليل. أمّا العلّة التي تدّعيها فيّ، فأنا أراها متملّكة في جسمك أنت، وفراش موتك هو هذا البلد الواسع الذي أمْرَضك وجعلك تتململ في نزاع طويل عجّلته عليك شهرتك وصولتك. اجل أنت المريض غير المبالي بسقمك تتّكل على الأطباء الذين يعالجون شخصك الكريم، وهم الذين أورثوك علتك المزمنة الخطيرة. هناك ألف متزلّف يختبئون تحت تاجك الذي لا تناسب دائرته قياس رأسك الكبير الحجم. ومهما كان القفص الذي تحبسهم داخله واقياً، فإن أذاهم يمتدّ الى أعماق هذه المملكة لو كان جدك بعيد النظر لتوقّع حتماً ما سيجرّه ابنه من وبال على أولاده. ولكان صان كرامتك من التلوث الأخلاقيّ المتفشّي الآن، انتهيت اليه. أجل، يا ابن عمي، عندما تصبح سيّد العالم، لن تتمكّن من حكم هذه البلاد بعدل وإنصاف. كما أنك عندما لا تملك من حطام الدنيا سوى انكلترا، لن تستطيع ان تفسدها اكثر ممّا فعلت. انت الآن سيد انكلترا، لكنك لست في الحقيقة مليكها، لأن سلطتك الشرعية يا صاحب الجلالة أضحت أسيرة القوانين الصارمة و...

الملك رتشرد : وانت يا صاحب الفكر الهزيل، أيها الأبله السخيف، انت تحت وطأة الحمّى تهذي وتتجاسر على مخاطبتي باستخفاف، وعقليّتك الجامدة تتجلّى في شحوب وجنتيك، وتجعلني أخجل من نسبك الملكي اليّ. أقسم لك بعظمة عرشي، لو لم تكن شقيق أبي ادوارد الكبير لكنت قطعت لسانك الذي يلعلع في فمك النتن، ودحرجت رأسك الوقح من فوق كتفيك حالاً بدون تردّد.

جون دي غان: لا تشفق عليّ ولا تورّف رأسي، يا ابن اخي ادوارد، لكوني ابن أبيه ادوارد. فانك نظير البجع قد شربت من الدم الذي أسكرك. أمّا أخي كلوسستر النقي السريرة، تغمّده الله برحمته الواسعة مع سائر الابرار من رعايا ملكوته الابدي، فان روحه يشهد بأنك لن تتورّع عن سفك دم اولاده الصالحين. لا ترحم شقائي الحاضر، بل دع شراستك تطغى على عجز شيخوختي لتسحقني كزهرة ذابلة ذهبت الايام القاسية بنضارتها وأريجها. لكن فظاظتك لن تدعك تموت شريفاً شهماً بل ستعذّبك حتى آخر انفاسك النجسة عذاب إبليس في نيران الجحيم. ولتكن كلماتي الأخيرة هذه كالجلاد الذي سيضنيك ما حييت. خذني الى سريري، ثم الى قبري لأستريح. فمن لا يزال يحتفظ بالحب والإباء يحق له ان يتمتع بأطاييب الحياة. (يخرج وقد حمله رجاله).

الملك رتشرد : أمّا من لم يبقَ لهم في الوجود سوى شيخوختهم وهزال عجزهم فليموتوا، لأن الحياة لم تعد تليق بهم. وأنت لم يبقَ لك سوى هذين العاملَيْن الذين لا يستحقّان غير ظلمة القبر.

يورك : ألتمس من جلالتك أن لا توجّه كلامك هكذا إليّ أنا الضعيف المريض، وقد خان الهزال شجاعتي. أؤكد لك أني أحبّك وأعزّك مثل هنري دوق هيرفورد لو كان هنا.

الملك رتشرد : كلامك معقول ومقبول. ان عطفه عليّ يشابه رعاية هيرفورد. وأنا كذلك أقابله بالمثل. علينا أن نرضى بالأمور على علّاتها.

(يدخل نورثمبرلند)

نورثمبرلند : يا مليكي المفدّى، يرجوك العجوز غان ان تذكره بالخير.

الملك رتشرد : وماذا قال لك ؟

نورثمبرلند : لم ينطق بكلام معيّن، لأن لسانه أضحى آلة بدون أوتار. وقد استنفد العجوز لنكاستر كل كلامه وحياته.

يورك : أرجو أن أكون أنا أيضاً قد بدّدت كل امكاناتي. فالموت مهما كان غامضاً، من فضائله أنه يضع حداً للبؤس المرهق.

الملك رتشرد : لا بدّ للثمرة الناضجة من ان تسقط عن غصنها عندما يحين أوانها. ونحن ايضاً علينا أن نتمّم مهمّتنا ونكفّ عن هذا الحديث... تعالوا نفكر الآن بتجربتنا في ايرلندا. علينا أن نتفحص أحوال جنودنا المعقّدين الذين، إن تركناهم وحدهم لا يلبثون ان يتذمّروا لأنهم يعيشون على أرض غريبة تضيّق عليهم سبل حياتهم. وبما ان هذه المغامرة تفرض كثيراً من الموجبات، سنلجأ الى الاستيلاء على الاواني الفضيّة وشتى أنواع الواردات والأرزاق والمفروشات التي كان يملكها عمّنا جون دي غان لنؤمّن ما نحتاج اليه من اموال وافرة.

يورك : الى أين سيصل بنا صبرنا ؟ الى متى سيسبّب لي الاحترام العطوف كل هذا القلق وشغل البال ؟ فان موت كلوسستر وإبعاد هيرفود وإهانة غان والأضرار التي لحقت بإنكلترا وعرقلة زواج المسكين بولينبروك وتحقيري أنا بالذات، كلها لم ترسم الكمد على وجهي المشرق ولم تَسِمْ جبين مليكي بأية تجاعيد. ان آخر أولاد النبيل ادوارد الذي كان أخوه وليّ العهد أمير منطقة الغال. في الحرب لم يكن هنا أسد أشرس من هذا الفتى، وفي السلم لم يكن حمل أسلس وألطف منه كفرد من الأسر الملكية. ان ملامحك تشبهه يوم كان في مثل عمرك. لكنه عندما قطّب حاجبيه، فعل ذلك امام الفرنسيّين لا أمام أصحابه، وكان كل ما صرفه بسخاء من جني ساعديه لا ممّا جمعه والده المظفّر من مال وفير. ولم يلطّخ يديه بدم أنسبائه بل كان يغمسهما فقط بدم أعداء بني قومه. أنا يورك لم أدع الألم يتغلب عليّ، يا رتشرد. وإلّا لما أقدمت على مثل هذه المعارضة.

الملك رتشرد : اذاً، يا عماه، ما الأمر بالضبط ؟

يورك : يا مليكي العزيز، سامحني إن شئت. وإلّا لما طلبت عفوك. أنت تدّعي أنك حصرت في يدك جميع السلطات الملكية وكل حقوق المبعد هيرفورد. ألم تأمر بقتل غان ؟ وهيرفورد ألا يزال حيّاً يُرزق ؟ أولم يكن غان وفياً ؟ وهاري أميناً ؟ أولم يستحق هذا الأمير أن يكون له وريث ؟ أولم يترك من بعده خلفاً لائقاً ؟ أُسقِط حقوق هيرفورد، فتُلْغ مع الوقت جميع الاتفاقيات وكل الموجبات المقدسة. وهكذا تحول دون ان يتبع جور اليوم استبداد الغد. وكذلك لا يعود لك أنت من وجود. اذ كيف تكون ملكاً حقاً ان لم يتمّ ذلك بالوراثةالشرعية ؟ اذاً، إن أعلنت هذا أمام الملأ كذّبني الواقع عندما أدّعي قول الحقيقة. أمّا إذا استوليت على لقب هيرفورد بطريقة غير قانونيّة واحتجزت المستندات المكتوبة التي تتيح له المطالبة بامتيازاته، بواسطة النواب العامّين، وإذا رفضت التبجيل الذي يجود به عليك المتزلفون ستعرّض نفسك لألف خطر وتحوّل مودّتي الخالصة عنك أيها الملك رتشرد.

الملك رتشرد : فكّر بالأمر مليًّا. فأنا لن أكفّ عن المطالبة بأوانيه الفضية وأرزاقه وأمواله وأراضيه.

يورك : لن أكون شاهدا على ما تفعله. الوداع اذاً، يا مليكي. ماذا يترتب على هذا التصرف من توابع ؟ لا أحد يستطيع أن يجيب على هذا السؤال المحرج. لكن سوء السلوك لا يمكنه ان يؤدي الى نتائج صالحة. (يخرج).

الملك رتشرد : يا بوشي، إذهب حالاً الى الكونت ويلْتشاير وقل له ان يوافينا الى ايلي هاوس لنتدبّر سير هذه القضية كما يناسبنا. وغداً نتوجّه الى ايرلندا، اذ حان الوقت للرحيل الى هناك. وفي اثناء غيابنا، نجعل من عمّنا يورك حاكم انكلترا، لأنه وفيّ وقد أحبّنا كثيراً على الدوام. تعالي يا مليكتي، سنمضي غداً.

وعلينا الآن أن نتسلّى، اذ لم يبق لنا ان نمكث هنا سوى وقت قصير. (تصدح الموسيقى، ويخرج الملك والملكة وبوشي وأوميرل وكرين وباكوت).

نورثمبرلند : يا مولاي، مات لورد لنكاستر.

روس : وقد عاشت سلطته ثانية، اذ أصبح ابنه دوقاً وخَلَفَه.

ويلوبي : اجل اصبح دوقاً، لكن باللقب فقط لا بالواردات.

نورثمبرلند : سيحصل على الاثنين معاً، اذا أخذت حقوقه مجراها الطبيعي في ميزان العدالة.

روس : انا غير مرتاح البال من هذا القبيل. لانه يفضّل ان يلزم الصمت على ان يبوح بالكلام الصريح.

نورثمبرلند : لا، لا. قل ما يجول في فكرك. فلا أحد يجسر على ترديد أقوالك بقصد الايقاع بك.

ويلوبي : هل تظن ان ما تعلنه يهمّ دوق هيرفورد؟ في حال الايجاب، تكلّم بشجاعة يا عزيزي. لاني كلّي آذان صاغية لسماع حديثك عندما يتعلّق الأمر بصيانة مصالحه.

روس : تقول مصالحه؟ على كل حال لا استطيع عمل أي اجراء في سبيله، اذا كان له هناك من مصالح، هو الذي جُرّد من جميع املاكه.

نورثمبرلند : إن تجريد أمير مثله من جميع حقوقه كما جرى لغيره من اولاد النبلاء لهو عار لا يُحتَمل في هذا البلد المضطرب. فالملك لم يعد كما كان، لانه استسلم الى مشيئة متملّقيه. ولدى أول شكوى تُرفع اليه علينا، طبعاً بدافع الحقد، سيضايقنا بدون هوادة في عيشنا واولادنا وكل ما يخصّنا.

روس : ها قد سلب اموال المناطق عن طريق جباية الضرائب الفاحشة. فخسر مودّة رعاياه الى الأبد، وكسب عداءهم وسخطهم، وفرض الأتاوات على النبلاء فبيّتوا له الكره الشديد والمناوءات الحاقدة.

ويلوبي : وراح كل يوم يستنبط تجاوزات جديدة ومتوجّبات وتبرّعات باهظة وما شابهها من المضايقات البغيضة. ولكن، اين يصرف كل هذه الأموال المجموعة بكل الوسائل المشبوهة ؟

نورثمبرلند : لم تستنفد حروبه اي مال، لأنه الى الآن لم يشنّ اية حرب. وقد خضع لشتى المساومات المهينة في القضايا التي ربحها اجداده بحسن تصرفهم في الشؤون الهامّة، وبدّد في السلم اكثر بما لا يقاس ممّا بذلوه في الحروب لتأمين مصالحهم الحيوية.

روس : سيطر كونْت ويلْتشاير على مصير المملكة كلّها.

ويلوبي : وأعلن الملك إفلاسه، كأنه رجل مغامر يهضم حقوق الجميع.

نورثمبرلند : وهكذا خيّم عليه العار والدمار.

روس : ورغم ضرائبه التي لا تطاق، لم يجد وسيلة لجمع المال كي يواصل حربه في ايرلندا إلّا سلب أموال الدوق المبعد.

نورثمبرلند : وهو قريبه النبيل. تبًّا له من ملك مستهتر منحط. لكننا، يا سادة، نريد بعناد أن نواجه العاصفة الهوجاء التي تهبّ علينا وتكاد تكسحنا، ولا نرغب في ايجاد ملاذ يأوي اليه ويحتمي به من جنون إعصار غضبنا. ها هي الرياح تتلاعب بنا، واذا لم نتحاشاها ونهاجمه، سنفقد أمننا وسلامتنا.

روس : نحن نرى بوضوح ما نتعرّض له من خطر الغرق الذي يداهم مركبنا المتمايل، وعلينا ان لا نقف حياله مكتوفي الأيدي.

نورثمبرلند : لا، لا، من خلال هذه الأنواء الغادرة، أرى بصيص الحياة يزداد نوراً، وان كنت لا ادري بعد متى نبلغ شاطئ الأمان.

ويلوبي : دعنا نتبيّن افكارك، كما نحن نطلعك على مخاوفنا.

روس : تكلم بثقة تامّة، يا نورثمبرلند. نحن الثلاثة نضمّ جهودنا الى مسعاك. فلا تخشَ ان تصارحنا، لأن اقوالك ليست سوى

افكار قابلة النقاش، وعليك ان تعبّر عما يجول في ذهنك بكل شجاعة وإقدام كي نتبناه.

نورثمبرلند : اليكم اذاً ما أنوي عمله. من المرفأ « الأبيض » وهو خليج بريطاني، بلغني نبأ مفاده ان هاري دوق هيرفورد ورينْكولْد ولورد كوبْهام الذي هرب من محتجزه دوق إيكْساتر أخيه الذي كان سابقاً رئيس اساقفة كنتبري، وسرْ توماس ارْبنْكْهام وسرْ جون رامْسْتون وسرْ نوربري وسرْ روبرت واترْتون وفرنسيس إكوانْت، وجميعهم قد سلّحهم جيداً دوق بريطانيا، سرعان ما يصلون الى هنا على متن ثمانية مراكب ضخمة تحمل ثلاثة آلاف رجل مسلّح يزمعون ان ينزلوا الى شواطئنا الجنوبية قريباً جداً. وربما نزلوا في هذه الأثناء الى الساحل، بانتظار أن يسافر الملك الى ايرلندا. فإذا اردنا ان ننفض عنّا نير العبودية ونسعتيد نشاطنا السابق لإنقاذ وطننا المتداعي واسترداده وتخليص تاج بلدنا الذي انهكت صاحبه الإتفاقات التجارية الخسيسة ونمسح غبار التقاعس المتراكم على كواهلنا ونعيد الكرامة والوقار الى مملكتنا، علينا أن نذهب سريعاً باجمعنا الى رافنْسْبورْك. أمّا اذا كنتم لا تشعرون بالمسؤولية والشجاعة اللازمة للقيام بهذه المجابهة، إبقوا هنا واكتموا هذا السرّ، لأني مصمّم على الذهاب وحدي مهما كلّف الأمر.

روس : الى ظهور خيلنا اذاً. لا توجّه مثل هذا الحديث إلّا الى الجبناء فقط.

ويلوبي : اذا صمد جوادي، سأكون أنا أوّل الواصلين (يخرجون).

المشهد الثاني

في قصر الملك بلندن.

(تدخل الملكة وبوشي وباكوت).

بوشي : ما لكِ حزينة جداً، يا مولاتي ؟ عندما غادرت الملك، وَعَدْتِ بأن تطردي عنك الكآبة مدى حياتك، وأن تميلي الى البهجة والمرح.

الملكة : أجل، وعدت بذلك لأطمئن الملك. لكني لم استطع أن أفي بوعدي. على كل حال، من طبعي أن لا أدع الكآبة تسيطر عليّ، مع أن الضجر يضايقني بسبب فراق عزيزي رتشرد. ويخيّل اليّ ان مصاباً عاجلاً سيداهمني، وأنا أرتعش في أعماق قلبي لأني لا أعرف ماذا سيصيبني من سرّ. لأن الحزن يعصر فؤادي، وهو ليس متأتياً عن فراق مولاي الملك فقط.

بوشي : لحزنك، يا مولاتي، عشرون وجهاً، وهو يتّسم بالأسى بدون أن يكون كآبة حقيقية. لأن نظرة الحزن من خلال الدموع تشطر الأمور الى اجزاء كثيرة كما يفعل البلّور المتعدّد الجوانب الذي يبدو مختلف المظاهر عندما ننظر اليه من شتى زواياه. هذا هو حال جلالتكِ عندما تفكرين بابتعادك عن الملك، فيبدو لك الألم متعدد الوجوه، وهذا ما يجعلك تتنهّدين. لكن الحقيقة لا تظهر لك إلّا من خلال الوهم هكذا مشوهةً مؤلمة. اذاً هوّني عليكِ، يا مولاتي الكريمة. واذا شعرتِ بضيق في صدرك، اعلمي ان عذابك يزداد اذا لم تعتصمي بحبل الصبر والحكمة.

الملكة : يجوز ان يكون الحال كما تقول. لكن شعوراً داخلياً يحملني على الاعتقاد بان الأمر أدهى من ذلك. مهما نال

منّي الأسى والقنوط، ومهما كان شقائي عاتياً، وإن كنت لا أدري ماذا سينتابني بعد الآن، ارى بليّتي عظيمة وهمّي اكبر مني يكاد يحطّمني ويسحقني سحقاً.

بوشي : هذا الألم تضخّمه مخيّلتك يا سيدتي، لأنه لا يزال حديث العهد، وسيتضاءل على مرور الزمن.

الملكة : لا، لا. هو عظيم وسيظل هكذا، لأن جرحي عميق جداً. وما يضنيني اكثر هو أن ما جلبه لي ليس بأمر جوهري. وهذا الضياع الذي يثقل على صدري ليس وليد البارحة. لأني منذ زمن لا يستهان به انا اشعر سلفاً بأن كارثة ستنقضّ عليّ بدون أن أدري ما هي، ولا أن أحدّد معالمها، وكنت اعتبرها شرّاً لا بد منه ولا أعرف له اسماً.

(يدخل كرين)

كرين : حفظك الله، يا مولاتي، هذا لقاء سعيد غير منتظر. أملي أن لا يكون الملك قد استقلّ السفينة وأبحر الى ايرلندا.

الملكة : لماذا ترجو ذلك ؟ أنا آمل أن يكون قد رحل. لأن مسعاه يقتضي العجلة التي أرى فيها أكبر الأمل. فلماذا تتمنّى أن لا يكون قد ركب السفينة.

كرين : لأن بامكانه، وهو رجاؤنا الوحيد، ان يتراجع برجاله وأن يُحبط خطط عدوّه الذي أنزل جيوشه الى برّ بلادنا. فإن المبعد بولينبروك قد تجنّد لمناوأته راضياً، وقد وصل سالماً مدجّجا بالسلاح، الى مدينة رافنْسْبوك.

الملكة : وقانا الله شرّ هذا الواقع الأليم.

كرين : هذا ليس كل ما في الأمر، يا سيدتي. فان لورد نورثمبرلند وابنه الشاب هنري برسي واللوردات روس وبومونت وويلوبي سارعوا الى الإنضمام اليه مع سائر أصدقائهم الأقوياء.

بوشي : لماذا لم تعلنوا خيانة نورثمبرلند وجماعته ؟

كرين : لقد اعلناها. ولهذا السبب كسر كونت وِرْسسْتر عصاه واستقال من منصبه، ثم هرب مع جميع أفراد عائلة الملك الى مقرّ بولينبروك.

الملكة : بقولك هذا، عبّرت عن ألمي، يا كرين. لأن بولينبروك هو الشخص الرهيب الذي يجب ان نتحاشاه. وقد ازداد حزني وتضاعفت كآبتي لأني أرى نفسي على شفير هاوية توشك ان تبتلعني.

بوشي : لا تيأسي، يا سيدتي.

الملكة : ومَن يبدّد عني قنوطي ؟ لا مفرّ من همومي التي تضيّق عليّ السبل. وهذا اليأس الذي يقصّر أيام عمري يدفعني ببطء نحو الموت الذي يقطع اوصال كياني بعيداً عن الأمر الذي قد يطيل نزاعي.

(يدخل يورك)

كرين : ها هوذا دوق يورك قادم الى هنا.

الملكة : وتوجّسات الحرب بادية على سحنته الهزيلة. كم أراه منهمكاً ومهموماً. بحق السماء، يا عماه، حدّثني بما من شأنه أن يكسب بعض العزاء على قلبي.

يورك : اذا بادرتك بمثل هذا الحديث أناقض تفكيري. لأن لا تعزية لنا إلا في السماء ونحن لا نزال على الأرض حيث تتراكم الهموم والشدائد والأحزان وتجثم فوق صدورنا. لقد ذهب زوجك بعيداً لينقذ مملكته. بينما غيره يأتي الى هنا ليسلبه عرشه. ولقد تركني هنا لأرعى شؤونه أنا الذي أضعفتني الشيخوخة، ولم تدعني قادراً على قضاء أموري الخاصة. وأرى الوقت الحرج مهرولاً نحونا بكل مشاكله ليفضح خبث نوايا المتزلّفين اليه.

(يدخل أحد الخدم)

الخادم : يا مولاي، مضى ابنك قبل وصولي الى هنا.

يورك : ذهب ... حسناً فعل. أرجو أن تنقضي المسائل كما تشاء الظروف المؤاتية. ها قد تفرّق النبلاء، وأصاب الناس الهلع، وبتُّ أنا اخاف ان يعلنوا العصيان وينضمّوا الى هيرفورد ويساندوه. أيها الماكر، اذهب الى بلاشي حيث تمكث أختي كلوسستر، وقل لها أن ترسل لي حالاً ألف ليرة. خذ خاتمي كعلامة من قبلي.

الخادم : يا مولاي، نسيت أن أقول لسيادتك أنني اليوم وأنا عائد مررت من هناك. سأخبرك بما رأيت، وإن كان ذلك يزعجك.

يورك : ماذا رأيت، يا غبي ؟

الخادم : قبل أن آتي بنحو ساعة من الزمن، ماتت الدوقة.

يورك : رحمتك ألّهمَّ. ما هذه الموجة من المصائب التي انهالت على رؤوسنا بغتة في هذه الأرض التعيسة. لم أعد أعرف ماذا أفعل... أرجو من الله، خشية أن يكون قد مهّدت أية خيانة، أن يكون الملك قد قطع رأسي ورأس أخي. هل أرسل أحد سعاة البريد الى ايرلندا ؟ كيف السبيل الى إيجاد المال للإنفاق على هذه الحرب ؟ تعالي، يا أختي... ويا ابنة اخي... أرجوكما ان تسامحاني... (للخادم) إذهب، يا صاحبي، الى منزلي واصطحب بعض العربات الصغيرة واجلب كل ما تجده هناك من اسلحة. (يخرج الخادم). (الى اللوردات) يا سادة، هل تريدون ان تذهبوا لتجمعوا رجالكم ؟ انا لم أعد أعرف كيف اتصرف ولا بأية وسيلة أرتّب الأمور المضعضعة التي تنهمر على رأسي بدون اي استعداد من قبلي لمواجهتها والتغلّب عليها. فكلا الشخصين

من أقربائي : أحدهما هو مليكي الذي يحتّم عليّ واجبي ان أدافع عنه، والآخر ابن أخي الذي ظلمه هذا الملك، ويدعوني ضميري ونسبي الى السعي للتعويض عليه. مع ذلك عليّ ان أتخذ قراراً لصالح هذا أو ذاك. تعالي يا ابنة أخي لأودِعَك في مكان حريز أمين.. أمّا أنت فهيّا اذهبْ واجمعْ رجالك والحق بي عاجلاً الى قصر برْكْلي. عليّ ايضاً أن أمضي الى « بلاشي ». لكني لا أجد متسعاً من الوقت لذلك. فكل الأمور قد انقلبت رأساً على عقب ودبّت الفوضى في جميع النواحي. (يخرج يورك ومعه الملكة).

بوشي : الفرصة ملائمة لارسال الانباء الى ايرلندا. لكن، لا خبر يرد الينا من هناك. لا بد لنا من جمع قوّاتٍ توازي رجال اعدائنا، وهذا متعذّر نظراً الى وضعنا الحالي الحرج.

كرين : من جهة اخرى، يضطرنا ولاؤنا للملك الى ان نكره ونناوئ من لا يحبّون جلالته.

باكوت : اعني الشعب الخسيس الذي يكمن حبه في كيس النقود حين يثور حقد صاحبه على من يفرغه من محتواه.

بوشي : وهكذا أظن أن الملك يهرول نحو مصير مجهول سيندم عليه حتماً.

باكوت : واذا كان الشعب يتحكم بمجرى الأحداث فمصيرنا نحن أيضاً أسوأ ما يكون، لأننا كلنا مخلصون للملك.

كرين : سأمضي أنا وأحتمي في قصر بريستول حيث يمكث الآن كونْت ويلْبي.

بوشي : وأنا ذاهب معك. لأن أسهل عملٍ عدائي يواجهنا به الشعب الناقم علينا هو أن يقطعنا إرباً إرباً. تبّاً له من ناكر الجميل. ألا تريد أن ترافقنا ؟

باكوت : كلّا. أنا ذاهب الى ايرلندا لأوافي صاحب الجلالة. الوداع.

وإذا جرى ما أتوقعه ستتفرق نحن الثلاثة هنا ولن يجتمع شملنا ابداً بعد الآن.

بوشي : كل الأمور مرهونة بمحاولة يورك لدحر بولينبروك.

كرين : مسكين هذا الدوق. لم يعد لسعيه من فائدة. فكأنه يحاول أن يبتلع ماء البحر. إذْ لقاءَ كل مقاتل الى جانبه، هناك ألف جبان من الهاربين المنفضّين من حوله يناوئونه.

بوشي : الوداع، مرة ثانية وأخيرة، بل الى الأبد.

كرين : ربما تلاقينا ذات يوم.

باكوت : اخشى أن لا نلتقي مطلقاً. (يخرجون).

المشهد الثالث

في جبال كلوسسْترشاير.

(يدخل بولينبروك ونورثمبرلند ومعهما بعض الجنود).

بولينبروك : ما هي المسافة الفاصلة بين هذا المكان وبِرْكْلي ؟

نورثمبرلند : انا غريب عن منطقة كلوسسْتر، أيها اللورد النبيل، وهذه التلال العالية والدروب الوعرة تعيق السير وتجعله طويلاً مضنياً. مع ذلك اشعر بأن حلو حديثك قد قلّل مشقة الطريق. لكني أقدّر أن المسافة بين رافنْسْبورك وكوتْسْوُلْد كانت تبدو أصعب في نظر روس وويلوبي لولا صحْبتك المؤنسة، وقد أنهك قواهما هذا السفر المرهق البعيد. غيران ما هوّن عليهما هذا العناء هو كلامك الطليّ الذي جدّد فيهما روح النشاط والسرور كما هو حالي أنا أيضاً في هذه الساعة. ونحن نقدّر أيضاً همتك وبهجة لقائك لأن رقة حديثك تبعث الأمل في النفوس والراحة في الأبدان مهما

كانت منهوكة متعبة. وهكذا فقد قصّرت الطريق على هؤلاء اللوردات المرهقين وأحييت أملهم، وهذا تماما لسان حالي كذلك.

بولينبروك : ان صحبتي هي أقل شأناً من حلو حديثكم أنتم. لكن من القادم الى هنا؟

(يدخل هاري برسي)

نورثمبرلند : هو ابني الشاب هاري برسي القادم من قبل أخي وِرْسِسْتر الذي لا أعرف أين مقره الحالي. كيف حال عمّك، يا هاري ؟

برسي : كنت أترقب أن أطّلع منك على أخباره.

نورثمبرلند : ماذا تقول ؟ أوليس الآن بصحبة الملك ؟

برسي : كلا، يا مولاي الكريم. لقد غادر البلاط ساخطاً وكسر عصا المارشالية وشتّت جماعة الملك.

نورثمبرلند : لأي سبب ؟ ألم يكن على أتم الاستعداد حين كلّمته آخر مرة ؟

برسي : أنت تعتبره خائنا، يا صاحب السيادة. بينما هو قد ذهب الى رافنْسْبورْك ليقدّم خدماته الى دوق هيرفورد. وأرسل لي شخصاً من قبل بِرْكْلي ليعرف عدد الرجال الذي جنّدهم دوق يورك، وأمرني أن أتوجّه بالتالي الى رافنْسْبورْك.

نورثمبرلند : هل نسيت دوق هيرفورد، يا ولدي ؟

برسي : لا، لا، يا مولاي الكريم. وكيف استطيع أن أنسى ما لم أتذكّره أبداً، وأنا لم أعرفه بتاتاً في حياتي.

نورثمبرلند : تعلّم اذاً أن تعرفه من الآن وصاعداً. ها هوذا الدوق المذكور.

برسي : (لبولينبروك) : سيدي الفاضل، يسرّني أن أقدّم لك خدماتي كما هي، أنا الفتى الليّن العود القليل الخبرة، راجياً ان أنضج

وأرتقي مع تقدّمي في السنّ الى المستوى اللائق بمحيطي.

بولينبروك : اشكرك، يا برسي الظريف. يسرّني أن أكون على صلة بأمثالك ذوي اللياقة والكياسة من الاصحاب المخلصين. أرجو أن يكون عطفي خير مكافأة على أمانتك وولائك. هذا عهدي لك أحافظ عليه مدى العمر، وهذه يدي تصافحك لترسيخ صداقتنا. (يصافح يد برسي).

نورثمبرلند : ما هي المسافة التي تفصلنا عن برْكْلي ؟ وما هو عدد الرجال المحاربين الذين يساندون صاحبنا القديم يورك ؟

برسي : هناك قرب مجموعة الأشجار العالية يقوم القصر. وعدد المدافعين عنه يناهز ثلاثمئة رجل مسلّح، على ما بلغني. فيه يمكث لوردات يورك وبركلي وسيمور. ولا يوجد هناك سواهم من مشاهير الشخصيات المرموقة.

(يدخل روس وويلوبي).

نورثمبرلند : ها هما لوردا روس وويلوبي آتيان نحونا. ويبدو الارهاق على جواديهما، ومحياهما محمرّان من شدة السرعة.

بولينبروك : أهلاً بكما. ألاحظ ان مودّتكما وثيقة بهذا الخائن المنفيّ. أنا لا حيلة لي تجاه عرفان جميل لا يزال هزيلاً من قبله، وأترقّب أن يشتد ساعدي لأقابل بالإحترام ما يبديه من تودّد وجهود في سبيلنا.

روس : مجرّد وجودك ينعش آمالنا، أيها اللورد الفاضل.

بولينبروك : شكري هذا هو كل ما استطيع فعله الآن، ونحن مقصّرون بواجباتنا، الى أن تزداد امكانياتنا ونصبح قادرين على ايفاء ما لأصحابنا علينا من أفضال... لكن من القادم الى هنا ؟

نورثمبرلند : هذا مولاي برْكْلي، إن لم أكن مخطئاً.

بركلي : مولاي هيرفورد. هذه رسالتي اليك.

بولينبروك : انا لا ألبّي إلّا من يناديني لنكاستر. فلقد جئت الى انكلترا

لأحصل على هذا اللقب الذي أود أن تتلفظ به شفاهكم لأردّ على أقوالكم.

بركلي : لا تغلط، يا ولدي. أنا لا أريد أن أحرمك أيًّا من ألقابك النبيلة. أنا آتٍ إليك، يا مولاي لورد... كما تشاء، من قبل الوصي على العرش دوق يورك. ماذا حدا بك الى انتهاز فرصة غياب صاحب الجلالة لتثير هذه الحرب الداخلية وتعكر سلام وطننا ؟

(يدخل يورك ومرافقوه).

بولينبروك : لست بحاجة إلى إبلاغ جوابي بواسطتك، فها هوذا صاحب السيادة بشحمه ولحمه... عمي النبيل. (يركع).

يورك : ارجو ان تدع قلبك يلين قليلاً بدل ان تطوي هكذا ركبتك كدليل احترام يمليه عليك مكرك ودهاؤك.

بولينبروك : عماه الكريم، ما هذا الكلام ؟

يورك : انا لا آبه بألقابك ونداءاتك المتكرّرة. لا تدعُني كريماً ولا عمك. أنا لست عمّ خائن مثلك وكلمة كريم على شفتيك تصبح مشوّهة مشبوهة. لماذا وطأتْ قدماك أرض انكلترا، وأنت خائن مبعد عنها ؟ لماذا تجاسرت وقطعت كذا عدد من الأميال على أرض هذا الوطن المسالم، فأرعدت فرائص الناس الآمنين في العديد من القرى بما تجرّه وراءك من أدوات الحرب والاسلحة الرهيبة ؟ هل اتيت الى هنا لأن الملك الشرعي سيّد البلاد الأصيل غائب عنها الآن ؟ إعلم، أيها الولد المهووس، ان الملك، وإن غاب، فسلطته لا تزال حاضرة في قلبي الوفيّ. لو كنت لا أزال في عنفوان شبابي الصاخب كما كنت حين أنقذنا أنا ووالدك الشجاع غان بطل الحرب الغيور، هذا الوطن من أيدي ألوف الفرنسيين المعتدين لكنت شاهدت بأمّ عينك كيف استطاع هذا

الساعد الذي كبّلته الشيخوخة العاجزة أن يعاقبك على جهلك المعيب وعنجهيّتك الساذجة وعلى أغلاطك وحماقاتك التي لا تُحصى.

بولينبروك : عمّي العزيز، أرجوك أن تبيّن لي ما هي غلطتي، وأين تكمن حماقتي ؟

يورك : خطأك الجسيم يقوم على تمرّدك الذي يُعتبر خيانة عظمى بغيضة. انت مبعد، وها أنك قبل انقضاء مدة نفيك تجابه مليكك والسلاح في يدك.

بولينبروك : المبعد فيما مضى كان هيرفورد. أمّا اليوم فأنا أعود بإسم لَنْكاسْتر. يا عمي النبيل، أستحلف سماحتك أن تتفحّص ما لحق بي من الغبن المغرض القصود. أنت بمثابة والدي. لأني أرى في شخصك صورة أبي المسنّ جون دي غان. اذاً أتوجّه إليك كأنك والدي لأسألك هل تقبل بأن أظل منفيّاً تائهاً مشرّداً، وقد سلبني حقوقي وألقابي الشرعية، جماعة من المتسلّطين الإنتهازيّين. لماذا أنا وُلدت في هذه الأسرة ؟ اذا كان الملك ابن عمي هو ملك انكلترا، فلا بدّ من الاعتراف بأني دوق لنكاستر. أنت لك ابن يُدعى أوميرل وهو نسيبي النبيل. ولو كنت متّ أنت قبله وتراكمت المصائب عليه هكذا لكان وجد في عمه جون دي غان أباً ليطرد كل من ناوأه ونغّص عليه حياته. هنا يمانع البعض في الإعتراف بما يحقّ لي من لقب مع أن مستنداتي تثبت حقي هذا بكل وضوح. ولقد صودرت مني جميع ممتلكات والدي وبيعت ليجري التصرف بثمنها على شكل إجرامي لم يسبق له مثيل. فماذا تريد أن أفعل ؟ أنا أحد رعايا هذه المملكة وأطالب بتطبيق القانون بالنسبة الى ما يعود لي من حقوق. لكني حرمت من توكيل نائب عني. لذا اضطررت

الى المطالبة شخصياً بحقوقي الشرعية في ما يخصني من إرث آبائي وأجدادي.

نورثمبرلند : معاملة هذا الدوق النبيل على هذا النحو لا تستند الى أي منطق سليم. فهو مظلوم بكل معنى الكلمة.

روس : عليك، يا صاحب السيادة، أن تنصفه وترفع عنه الحيف.

ويلوبي : أجل، هناك متسلّطون مستبدّون وسّعوا دائرة أملاكهم على حساب هذا المغبون.

يورك : يا لوردات انكلترا، أصغوا اليّ. لقد لمست الاستبداد الذي أصاب ابن أخي. وحاولت بكل جهودي أن أحصل له على تعويض. لكن العمل على احقاق الحق بقوّة السلاح والعنف لتقويم ما اعوجّ والسعي الى التعويض عن الظلم وانصاف المظلوم، لا أجده منطقيّاً ولا عادلاً. فأنتم الذين تساندونه في مطلبه المحقّ هذا، تقومون بتمرد وتُعتبرون هكذا كلّكم بسببه مشاغبين.

نورثمبرلند : لقد أقسم هذا الدوق الكريم بأنه أتى الى هنا للمطالبة بممتلكاته. لذا أقسمنا كلنا بدورنا على مساعدته في استرداد حقوقه الشرعية. ومن يحنث بهذا القسم لن يذوق طعم راحة الضمير يوماً.

يورك : حسناً. أنا أرى مسبقاً نتيجة لجوئكم الى السلاح. وإن كنت لا أقوى على منعكم عن هذا الإجراء المنحرف، أعترف بكل صراحة بأن مردّ ذلك لضعفي وشحّ مواردي التي أصبحت غير كافية. لكني لو كنت قادراً على ذلك لما ترددت لحظة في بذل حياتي لتحقيقه. وكنت أوقفتكم جميعاً عند حدّكم وأجبرتكم على الخضوع لمشيئة الملك. وبما أني بتّ عاجزاً عن تنفيذ ما أريد ؟ إعلموا أني سأظل حيادياً في هذه القضية العادلة. لذا اودّعكم الآن، إلّا اذا شئتم ان تدخلوا القصر معي، وترتاحوا هذه الليلة هنا.

بولينبروك : نقبل دعوتك، يا عماه، بكل طيبة خاطر. وبالمقابل نرجو من سيادتك أن تأتي لزيارة قصر بريستول الذي يحتلّه على ما يقال، بوشي وباكوت واعوانهما، وكلهم كالحشرات، يمتصّون دماء هذا الشعب الوادع، وقد أقسمت أن أسحقهم وأبيدهم.

يورك : قد أذهب معكم... لكني أريد قبلاً أن أفكّر مليّاً في الأمر. لأني اربأ بأن أخالف قوانين بلادي. أنتم لستم أصحابي ولا أعدائي. فأهلا بكم وسهلا. وبما أن المسائل القائمة حالياً أضحت غير قابلة المعالجة، تروني لم أعد أبالي بها إذا أضحى حلّها وتعقيدها لديّ سواء. (يخرجون).

المشهد الرابع

ضمن معسكر في بلاد الغال

(يدخل سالزبري وأحد الضبّاط).

الضابط : مولاي سالزبري، ها قد إنتظرنا عشرة أيام. وبكل صعوبة نحن نصبّر أتباعنا. مع ذلك لم نحصل على أية أنباء من قبل الملك. بالنتيجة لا يسعنا إلا أن نذهب كلٌّ منّا في سبيله. فالوداع.

سالزبري : انتظر يوماً آخر، أيها العزيز الوفيّ. فالملك يضع فيك كل ثقته الغالية.

الضابط : يعتقد البعض أن الملك قد تُوفيّ. لذا لم يعد بإمكاننا أن ننتظر أكثر مما فعلنا، وقد ذبلت في بلدنا أكاليل الغار جميعها. فالأجرام السماوية ترهب النجوم الثابتة في كبد السماء. وكذلك القمر الشاحب يرسل أشعة ضعيفة الى

الأرض، كما أن الأنبياء يتوقّعون تغييرات رهيبة في هذه الأجواء المضطربة. لقد بدا الحزن على محيا الأغنياء المترفين، وسيطر الفرح على وجوه الأشقياء البائسين الذين راحوا يرقصون طرباً. بعضهم يخاف أن يفقد ثروته والبعض الآخر يأمل بالاستيلاء على الغنائم في فوضى الحرب المدمّرة. وجميع هذه الإشارات تدل على موت الملوك وسقوطهم، بينما يتشتّت المواطنون ويهربون مقتنعين حسب الشائعات بأن ملكهم رتشرد قد مات فعلاً. (يخرج).

سالزبري : آه، يا رتشرد، أرى بكل أسف ان مجدك قد زال، وكنجم مذنّب هوى على أرض ملعونة، غابت شمسك وسط البكاء والنحيب في أقاصي الغرب معلنة هبوب أعنف العواصف التي تزرع الشقاء والفوضى في كل مكان. وقد هرب اصحابك للالتحاق بأعدائك، وكل ما في الكون يتسارع لجرف مصيرك المظلم الى أعماق هاوية العدم. (يخرج).

الفصل الثالث

المشهد الاول

وسط معسكر بولينبروك في بريستول.

(يدخل بولينبروك ويورك ونورثمبرلند وبرسي وويلوبي وروس

يتبعهم ضبّاط يأتون ببوشي وكرين كأسرى).

بولينبروك : دعوا هؤلاء الرجال يتقدّمون. يا بوشي ويا كرين، لا أريد أن أسبّب القلق لنفسيكما اللتين ستفارقان بعد هنيهة جسديكما، عندما أفضح سلوككما المشين الذي لا يمتّ الى صفات البشر بأية صلة انسانية. على كل حال، لغسل يدي من دمكما القاتم، هنا امام الجميع، سأعرض بعض موجبات موتكما. لقد خدعتما ملكاً كريماً عادلاً يمتاز بالاخلاق الحميدة وصدره الرحب، ولأجل غاياتكما السافلة خلقتما حوله جواً مريباً أفضى بينه وبين الملكة الى الطلاق البغيض. وهكذا أقضّ سلوككما المعيب مضجع الملك وشوّه فضائل الملكة وأسلْتما من عينيها فيضاً من دموع الحزن والكدر. ولم تعفّ دناءتكما عن إفساد العلاقات الحميمة بيني وبين

نسيبي الملك بعد أن كان الودّ رائدنا طوال حياتنا الماضية، وجعلتماني أطأطئ رأسي حيال ما نشرتماه حول شخصي من مذمّة واهانة، وقد كانت سمعتي كإنكليزي عريق، حتى في البلاد الاجنبية البعيدة، تفوح بعبير الشهامة والمروءة. وجعلتم طعم خبزي مرّاً كالعلقم، وانتما بمكركما وخداعكما عشتما كأميرْين مرفّهيْن، بينما جعلتماني أحيا كأني في غابة تتناهش داخلها الوحوش الضارية من انصاركما المنحطين على شاكلتكما. وهكذا سوّدتم صفحتي وعكّرتم صفو هنائي وجرّدتموني من كرامتي بين الناس ومن احترامي بين افراد اسرتي النبيلة. أؤكد لكما أن أعمالكما هذه مجتمعة تستوجب لكما حتماً عقاباً أقلّه الموت الزؤام. هيا خذوهما مكتوفي الأيدي الى تنفيذ حكم الإعدام فيهما.

بوشي : هذا الاعدام أجدى في نظري مما صنعه بولينبروك لإنكلترا. الوداع، يا سادتي.

كرين : ما يعزّيني فعلاً هو أننا كضحايا بغيك نستحقّ أن نصعد رأساً الى السماء، بينما أنت لا شك في أن ظلمك العاتي سيوصلك فوراً الى عذابات نار جهنّم.

بولينبروك : يا مولاي لورد نورثمبرلند، إسهر على تنفيذ الحكم فيهما بأسرع ما يمكن. (يخرج نورثمبرلند وسواه مع الأسرى). يا عمّاه، يُقال أن الملكة موجودة عندك. فبحق السماء، أرجو أن تعاملها بلطف واحترام. قل لها أني أهديها أطيب تمنّياتي وأصدق تقديري وأصفى مودتي.

يورك : لقد أرسلت اليها تحريراً يضمّ كل ما نتمنّى لها من عواطف مخلصة.

بولينبروك : شكراً، يا عمي. تعالوا الآن نجدّ في السير، أيها اللوردات.

هيّا بنا نحارب كلانْداوْر نصير الملك رتشرد وأعوانه. أمامنا بعض الجهد نبذله لنصل الى الغاية المنشودة ثم نستريح.

المشهد الثاني

ساحل بلاد الغال حيث يظهر أحد القصور في الأفق.

(تصدح الموسيقى مع قرع الطبول ونفخ الأبواق. يدخل الملك رتشرد وأسقف كارليل وأوميرل وفرقة جنود.)

الملك رتشرد : هل هذا الصرح الذي نراه امامنا هو قصر بارْكْلولي ؟

اوميرل : أجل، يا مولاي... كيف رأيت هذه البلاد، يا صاحب الجلالة، بعد أن اتعبتك أمواج البحر المتلاطمة ؟

الملك رتشرد : كيف لا اقدّرها وأحبها ؟ وقد كادت عيني تدمع من شدة الفرح لأني لا أزال أجد نفسي في رحاب مملكتي ؟... يا لهذه الأرض الطيبة التي اودّ أن أُحْييها وأُعيد اليها الازدهار، بعد أن مزّقها المتمردون الاشرار وداسوها بسنابك خيولهم. وهي كالأم الحنون التي فارقت ولدها الوحيد زمناً طويلاً ثم التقته، فاختلطت بسماتها العريضة بدموع فرحها الفجائي. هكذا أنا أيضاً ابتسم وأبكي وأحيّيك يا أرضي العزيزة وأباركك بيديّ الملكيّتيْن. لا ترحمي اعداء ملكك ، يا أرضي الحبيبة، وامنعي عنهم كل عطف لأنهم خونة منحطّين. كوني كالعناكب وامتصّي دماءهم، وكالضفادع الزاحفة على دروب الجاحدين خدّشي أرجلهم لأنهم لصوص مغتصبين. لا تُنبتي لأخصامي سوى الاشواك، وعندما ينوون ان يقطفوا زهور جنائنك أرجوك أن تضعي أفاعي لحراستها كي تلدغهم بألسنتها السامّة المميتة، ما

داموا يناوئون ملكهم. لا تضحكوا عندما ألفظ هذا الكلام، يا سادتي اللوردات، وتعتبروه محض هراء. ان لهذه الأرض مبادئ وفية وأحجاراً تتحوّل الى جنود مسلّحين للدفاع عن ملكها حين يوشك سيّدها ان يهوي تحت ضربات المتمرّدين الاشرار العتاة.

اسقف كارليل: لا تخشَ أي اذى، يا مولاي. فالسلطة التي جعلتك ملكاً، قادرة على توطيد عرشك، رغم كل ما يحاك حولك من مؤامرات دنيئة. فالوسائل التي تلجأ اليها السماء، يتحتّم علينا أن ندعمها وان لا نهملها، وإلّا، حين تشاء السماء ونحن لا نريد، نرفض عون العلاء، وكذلك رعاية العناية الالهية وغوثها وسلامها.

اوميرل : يقصد ان يقول، يا مولاي، ان ميوعتنا تؤذينا، بينما بولينبروك، بسبب خضوعنا وتخاذلنا، تنمو قوّته وموارده وصداقاته وتزداد فعاليتها للسيطرة على مقدّراتنا.

الملك رتشرد : يا ابن عمي القانط، ألّا تدري أن عين السماء الساهرة تتوارى خلف الكرة الارضية وتضيء العالم السفلي. بينما ينتشر اللصوص وقطّاع الطريق في كل مكان، يسفكون الدماء البريئة وهم غير منظورين ويعيثون فساداً وفتكاً. لكن، حالما يخرجون من وراء هذه الكرة الارضية، يسطع الكوكب في الشرق ومن أعالي فلكه حيث يشرف على أشجار الصنوبر، يُرسل اشعته ويكشف كل بؤر الإجرام ويفضح القتلة والخونة والمفسدين المضلّلين. حينئذ اذ لا يستر جنح ظلام الليل قبائحهم الدنيئة، يظهرون عراة ويرتجفون لهول موبقاتهم. هكذا عندما يتخبّط السارق الجاني بولينبروك في عتمة الليل، بينما نكون نحن تائهين في رحاب الأرض، سيراني جالساً على العرش في شرفي انا، وتبرز خيانته النكراء من خلال عينيه الزائغتين اللتين لا

تقويان على التحديق في وهج ضوء النهار، وقد افزعته وارجفته بشاعة جرائمه القظيعة. كل مياه البحر الهائج الصاخب لن تغسل ما يلطّخ جبينه من وصمة عار خيانته. كما أنها لن تزيل آثار الزيت الذي مُسحتْ به جبهتي انا مليكه الشرعي. وجميع محاولات البشر لن تستطيع اقالتي أنا سيّده المميَّز وقد توليت الحكم شرعاً على هذه الأرض الخيّرة. لكل واحد من الرجال الذين قادهم بولينبروك وحرّضهم على إشهار السيوف الفولاذية في وجهي لتحطيم تاجي الذهبي ستبوء حتماً بالفشل لأن الله سينصرني انا الملك رتشرد، ويرسل ملائكته الأبرار لحمايتي. ومتى حاربتْ هذه الملائكة، لا بد للرجال من ان يخرّوا صرعى لأن عدل السماء يرعى دوماً مصالح بني البشر الاتقياء.

(يدخل سالزبري).

الملك رتشرد : (يتابع كلامه) : اهلاً بك، يا مولاي اللورد الوقور. أين تتجمّع قواتك ؟

سالزبري : يا مولاي، هي على بعد مرمى هذا الساعد الضعيف. القنوط يربط اللسان ولا يسمح إلا بلفظ كلام التخاذل. فإن تأخر يوماً واحداً أخشى أن يغلّف الضباب كل أيام الصفاء في هذه الديار الآمنة. تذكر نهار أمس، وارجع بالذاكرة قليلاً الى الوراء، فيزيح اثنا عشر مقاتل مناوئ من دربك كل الأصدقاء ومظاهر السعادة والثروة والسلطة. لأن جميع أهالي منطقة الغال، عند انتشار شائعة وفاتك قد تحوّلوا نحو بولينبروك، أو تشتتوا وهربوا.

اوميرل : لا تبدّد أمالك، يا مليكي. لماذا شحب لونك هكذا ؟

الملك رتشرد : منذ هنيهة، كان دم عشرين الف رجل يورّد خدودي وينير وجهي. لكنهم كلهم زالوا الآن من الوجود. فإلى ان يعود

الدم الى وجنتيّ بمقدار كافٍ، تريد أن لا ينتابني الوجوم وشحوب الموت. كل الذين يريدون النجاة لأنفسهم يولّون الإدبار بعيداً عني. لأن الزمان الحاضر قد اضعف كبريائي وامكاناتي.

اوميرل : تشجّع، يا مليكي، وتذكر من أنت ثم لا تنسَ مقامك الرفيع.

الملك رتشرد : لقد نسيت. أوَلستُ أنا الملك ؟ استيقظ أيها الملك المتواني، وانهض من سباتك العميق. أوَلا يساوي لقب العاهل اربعين الف رجل ؟ تسلّح وتأهب يا شخصي القدير. فان هزيلاً من رعاياي العديدين يهاجم أمجادك الساطعة. أولا أزال رفيع المقام ؟ عليّ اذاً ان لا أنظر الى اسفل لأني سيّد كل هذه الأرض الواسعة، وعليّ أن ارفع افكاري الى العلاء. أنا أعلم أن لدى عمي يورك قوّات كافية لنجاح جهودي ومساعيّ. لكن من الآتي الى هنا في هذه الساعة ؟

(يدخل إسكروب)

إسكروب : لتمنح السماء مولاي الملك كل السرور والهناء اللذين لا يستطيع صوتي، وقد بُحّ من الألم، أن يؤمّنه له.

الملك رتشرد : ها ان اذني صاغية وقلبي منفتح. وانحس ما يمكنك أن تعلمني به هو الخسارة الدنيوية. فهل ضاع عرشي ؟ قل لي الحقيقة. هذا كان همّي الأكبر في الماضي. ماذا يخسر الانسان بعد أن يفقد مقوّمات وجوده ؟ هل يدّعي بولينبروك انه كبير القدر نظيري ؟ لن يصبح أبداً أعظم مني. إن كان يخدم الله فأنا أيضاً أخدمه وأخدم من يعبده. وإن أقدم رعاياي على عصياني، فلن أستطيع مقاومتهم، ويكونون قد انكروا إيمانهم بخالقهم ونقضوا ثقتهم بي. تبّاً لهم، إن جحودهم كارثة تجرّ وراءها الدمار والهلاك. والأشنع من

هذا هو الموت الزؤام الذي ينقضّ علينا ويسحقنا في خاتمة المطاف.

إسكروب : يسرني ان اعلم أنك صامد صابر ومستعد لتلقّي هذه الصدمة الهائلة الشبيهة بعاصفة هوجاء تجتاح ضفاف الأنهر، كما لو كان الكون برمّته سينوء تحت وقر مياهها المتدفّقة الجارفة. هكذا ينهال علينا حقد بولينبروك، ويهاجم هذه الأرض وقد أرهبتها سيوف اعوانه وبربريّتهم الوحشية كسيوفهم الفولاذية وجماجمهم القاتمة الصلعاء المروّعة. بينما اصوات الفتيان ترتجف لصيحات البنات، وقد ارتدوا دروعاً ثقيلة لمواجهة جيشك، بعد أن علّمهم رهبانك أن يستهتروا بهيبة صولجانك، حتى أن النساء هجرن مغازلهن وأشهرن الفؤوس الصدئة في وجه رجالك، والجميع شبّاناً وشيوخاً يتمردون وكل شيء يسير بشكل اسوأ مما يسعني أن أصفه لك.

الملك رتشرد : أنت لا تجيد سرد هذه المشاكل. أين كونْت ويلْتشاير ؟ أين باكوت ؟ ماذا حلّ ببوشي ؟ أين كرين ؟ كيف تركوا هذا العدو الخطر يجتاز أراضي دولتي هو ورجاله في مسيرة متمهّلة كهذه. اذا انتصرنا عليهم سيدفعون ثمن جسارتهم بقطع رؤوسهم. انا أراهن بأنهم عقدوا صلحاً لصالح بولينبروك.

إسكروب : فعلاً يا مولاي. لقد عقدوا صلحاً معه.

الملك رتشرد : تبّاً لهم من أفاعٍ سامّة، هؤلاء الخونة الذين لا يستحقّون أية شفقة. تبّاً لهم من وحوش ضارية على أهبة ان يزحفوا كالحشرات الحقيرة أمام أول قادم يغريهم بأية وسيلة. حقّاً أنا أشعر الآن بأنهم كالحيّات الرقطاء يلدغون صدري ويمتصّون دم قلبي. هم ثلاثة خونة كيهوذا، وكل واحد منهم اشنع ثلاثة أضعاف من هذا اللعين الذي باع معلّمه. لقد عقدوا صلحاً مع الخائن. فأنا أسأل الجحيم ان تنتقم لي

منهم وتُنزل أشد العقوبات والعذابات بنفوسهم الخسيسة قصاص جريمتهم النكراء.

إسكروب : في هذه الظروف العصيبة، أرى أن أرقّ عطف يتحوّل الى كره مرير مميت. ألّا صبُّوا لعناتكم على أرواحهم النجسة. أجل، لقد عقدوا الصلح ومدّوا أعناقهم للقطع بجبن وخنوع بدلاً من أن يمدّوا ايديهم للمصافحة الودية. وإن استحقوا هذه اللعنات تحتّم عليهم أن يموتوا بحقارة، وأن يُكفّنوا بالعار ويُوارَوْا في هوة سحيقة من الذل.

اوميرل : ماذا تقول ؟ هل مات بوشي وكرين وكونْت ويلْتْشايْر.

إسكروب : أجل، أجل. قُطعت رؤوس هؤلاء الثلاثة في مدينة بريستول.

اوميرل : اين اذاً ابي وقوّاته ؟

الملك رتشرد : هذا لا يهمّ... لا تتحدثوا بعد الآن عن أي أمل، بل تحدثوا عن قبور تعجّ بالديدان والحشرات الحقيرة. علينا أن نتّخذ من التراب ورقاً ونكتب بقطرات المطر قصة آلامنا على سطح الأرض. هيّا نجد كتّاب وصايا لنملي عليهم رغباتنا الأخيرة. لكن لا. إذ لم يبق لنا في هذا العالم سوى نفوسنا المعذّبة. فأرزاقنا وأجسادنا جميعها اضحت ملك بولينبروك. ولم يعد أمامنا في هذه الدنيا سوى الموت، ورقعة صغيرة من الأرض لتضمّ عظامنا البالية. تعالوا نجلس على العشب اليابس ونسرد قصة وفاة الملوك الحزينة : فبعضهم قد طُردوا من قصورهم وبعضهم ماتوا في الحرب وغيرهم سيطر عليهم شبح من سلبوهم عروشهم وغيرهم ماتوا بالسمّ على يد زوجاتهم، وآخرون قطعت أعناقهم وهم نيام. لأن المنيّة تعشعش في تيجانهم المضطربة وتحت عروشهم المهزوزة التي تزدري بعظمتهم الباطلة وبجلال ابّهتهم الخدّاعة رغم كل تزلّف المتملّقين الانتهازيّين المراوغين المستفيدين من غباء صاحب السلطة اذ يخدمون مصالحه ظاهراً وهم لا

يبغون إلا منافعهم الشخصية باطناً، ولا يثون ان يغدروا به حالما يُصاب بالتخمة جشعهم الذي لا يدرك الشبع. ثم يشيّعونه بالأسف مودّعين ليستقبلوا خلفه بالتزلف والرياء ويعيدوا الكرّة معه، ضاربين عرض الحائط بكل معالم الاحترام والتقاليد والمراسم واللياقات التي يكيلونها نفاقاً بلا حساب، لأن غايتهم تقضي ذلك في بدء كل عهد ليصلوا الى مِسْك الختام كما فعلوا بسواه. وعلى الرجل الحكيم البصير ان يتخذ لنفسه من مراوغتهم موعظة بليغة وعبرة واقعية مما يضمرونه له من الغدر والخيانة. فأنا مثل غيري من البشر أعيش بالخبز واشعر بالحاجة وأحسّ بالألم وافتقر الى الاصدقاء المخلصين. ولكن عندما اواجه ما لقيته من مصير كئيب، كيف يجوز لكم ان تعتبروني ملكاً ؟

اسقف كارليل: يا مولاي، ان الرجل الحكيم لا ينهار امام شرور الحاضر، بل يقاومها بصبر حتى يتسنى له ان يتغلّب عليها. لأن الخوف يشلّ العزيمة، وفي الخوف من العدو تكمن مساعدة هذا العدو على الفوز والتغلّب على ضعفنا. فعلينا ان لا نستسلم، بل ان نستجمع قوانا ونناضل غير هيّابين. واذا ارتجفنا هلعاً قضينا على مقومات اندفاعنا وحماسنا وقتلنا في اعماقنا كل تصميم على الكفاح. بينما استبسالنا في ساحة القتال هو في حدّ ذاته قهر الموت بمجابهة رهبة الموت، وتحدّي هذا الموت بشجاعة هو أول بوادر الانتصار الحقيقي. لأن الارتجاف امام الموت هو بعينه موت الجبناء المنهزمين.

اوميرل : أبي لديه العديد من الرجال. فاتّصلوا به واستعينوا بتوجيهاته الرشيدة لتجنيد جيش مقاتل قوي عنيد.

الملك رتشرد : الحق الى جانبك، يا صاح. تبّاً لبولينبروك من عقوق لئيم. سأجابهه بحزم وانتزع منه الفوز بعزم وإصرار. وما أهون

استرداد ما انتزع منّا بسبب خنوعنا، اذا نفضنا عنّا غبار التردد والجمود. قلْ لي، يا إسكروب، أين عمي وقوّاته المسلحة ؟ وليكن كلامك مشجّعاً وإن لم ألاحظ أن البطولة تغلب على مظهرك المرتعش.

إسكروب : من هيئة السماء يستدلّ المرء على ما تخبئه له تقلّبات الطقس. وكما ان ملامحي الكئيبة المرهقة لا يسعها ان تدلّ إلّا على ما يؤثر بي من ظروفي العسيرة، هكذا اكون كالجلّاد عندما اطيل الحديث عن التفاصيل المؤلمة. فأنا لا استطيع ان اخفي عنك ان عمك يورك قد انضمّ الى خصمك بولينبروك، وان جميع رجال شتى قصورك في شمال البلاد قد استسلموا اليه صاغرين، وكل وجهائك في الجنوب قد حملوا السلاح لمناصرته مهلّلين.

الملك رتشرد : كلامك هذا فيه الشرح الكافي. (لأوميرل) لعنة الله تنصبّ عليك لأنك أبعدتني عن سبل الأمل والرجاء. ماذا تقول الآن ؟ أي أمل لي بعد ما حصل ؟ بحق السماء، أنا أكره الى الأبد كل إنسان يحدّثني في هذه اللحظة عن الأمل. لنذهب الى قصر فلينْت حيث أودّ ان انازع واستسلم الى أجلي. فالملك الذي استعبده الشقاء مثلي عليه ان يخضع لإرادة الشر بمشيئة ملكية. أصرفوا جميع القوات المشتبّثة بوفائها لي. وليذهب هؤلاء الرجال ليفلحوا ارضاً تعطيهم بعض الخيرات والغلال. اذا لم يعد لديّ ما أقدمه لهم لقاء ولائهم، ولا اريد ان يراجعني احد في هذا الموضوع الذي أعتبره منتهياً. فكل نصيحة في هذا المجال ستضيع سدىً.

اوميرل : اسمح لي بقول كلمة واحدة، يا مليكي المحبوب.

الملك رتشرد : من يحاول أن يواسيني الآن، يهينني تزلّفه مرّتين. قلت لكم اصرفوا من تبقّى من رجالي الأمناء ودعوهم ينطلقون في

سبيلهم، فيتخلّصوا من ليل رتشرد كي يتمتعوا بوضح نهار بولينبروك (يخرجون).

المشهد الثالث

أمام قصر فلينْت في بلاد الغال

(يدخل بولينبروك والطبول تقرع والاعلام تخفق فوق رؤوس جنوده السائرين خلفه. ثم يدخل يورك ونورثمبرلند وآخرون).

بولينبروك : كما يُفهم من هذا الحديث، تفرّق الغاليون وذهب سالزبري لينضم الى الملك الذي نزل مؤخراً من السفينة الى الشاطئ مع بعض اصدقائه الأخصاء.

نورثمبرلند : هذا نبأ سارّ جداً، يا مولاي. وقد اختبأ رتشرد في مكان ليس ببعيد من هنا.

يورك : أوليس الأفضل ان يقول لورد نورثمبرلند : الملك رتشرد ؟ حقاً ان يوم اختفاء هذا الملك هو نهار تعيس للغاية.

نورثمبرلند : لقد فهمت خطأً ما أقول، يا مولاي. فقد اختصرت لقبه، ولم أنسَ أن أذكره.

يورك : مرّ علينا زمن، لو كنت اختصرت فيه لقبه، يا مسكين، لكان اختصر هو أيام حياتك وأمر بقطع رأسك حالًا، يا صاح.

بولينبروك : لا تسئ فهم كلامي، يا عماه. فأنا لم أقصد اي استهتار.

يورك : وأنت، يا ابن اخي الطيّب القلب، لا تغالط نفسك اكثر مما فعلت، لئلا تخلق سوء تفاهم بيننا.

بولينبروك : أنا أعلم بذلك، يا عمي، ولا أخالف مشيئتك. لكن من القادم الى هنا ؟

(يدخل برسي).

بولينبروك : (يتابع كلامه) : قل لي يا برسي، ألا ينوي رجال هذا القصر ان يستسلموا ؟

برسي : هذا القصر، يا مولاي، يحوي من السلاح ما يقوى بطريقة ملكية على منعك من الدخول اليه عنوةً.

بولينبروك : كيف تقول بطريقة ملكية، وليس فيه من ملك ؟

برسي : اجل، يا مولاي، في داخله عاهل. لأن الملك رتشرد موجود هناك ومعه لورد أوميرل ولورد سالزبري وسرْ اسطفان إسْكْروب وايضاً كاهن عالي المقام لم أعرف اسمه.

نورثمبرلند : هو على الأرجح اسقف كارليل.

بولينبروك : (لنورثمبرلند) : ايها اللورد النبيل، ارجوك أن تقترب من منحدر هذا القصر القديم، وبواسطة البوق النحاسي ان تطلب من الفرقة الموسيقية ان تبلغ اذنيه السامعتين رسالتي التالية : يا هنري بولينبروك، عليك ان تجثو على ركبتيك وتقبّل يد الملك رتشرد وتؤدّي له خضوعك وولاءك، وان تصرّح له بأنك قدمت الى هنا لتلقي سلاحك عند قدميه وتضع قوّاتك بتصرّفه آملاً ان تستردّ حريتك كي تعود من منفاك وتسترجع اراضيك. وإلّا سأستخدم قوتي لأطرد كل مشاغب استنزف الدماء من جراح الانكليز المصابين ». كم سيصعب على بولينبروك ان تجتاح العاصفة الهوجاء. إخضرار النضارة المتجلية في ارض الملك رتشرد الطيبة حيث سأركع وأبدي له احترامي بخشوع. اذهب واعلمه بذلك بينما نحن نسير على البساط السندسي في هذا السهل الفسيح... (يتقدّم نورثمبرلند نحو القصر ويسبقه صوت البوق) لنسرْ بدون ان ندع ضجة الطبل تفزعه عندما تهزّ أسوار هذا القصر المتداعية، فتسمع بكل هدوء وانتباه اقتراحاتنا المناسبة. وسيُحدث إلْتقاؤنا بالملك رتشرد رعشة أخف من العنصرين المتنافرين : النار والماء، اللذين يمزق دويّهما عنان

السماء. ليكن هو النار، فأصبح أنا الماء الملطّف، وليستشط غضباً، بينما انا أمطر على الأرض سيلًا من قطرات الغيث. اقول علي الأرض وليس عليه لأنه ليس أهلاً لهذه النعمة. تعالوا اذاً نتقدّم ونراقب تصرّف الملك رتشرد. (أحد رجال نوثبمرلند ينفخ البوق، وغيره يجيبه ببوق آخر من داخل القصر. ثم تصدح الموسيقى).

(يظهر الملك رتشرد على اسوار المدينة مع أسقف كارليل واوميرل واسكروب وسالزبري).

يورك : انظروا الى الملك رتشرد الذي يبدو نظير الشمس المحمرّة من شدة الغضب. بينما من الباب المطلّ على الجهة الشرقية يبصر الغيوم البيضاء التي تنطق بمجده وتخفف سرعة سيره نحو الغرب. إن وقار الملوك لا يزال مرتسما على ملامحه. انظروا الى عيونه البرّاقة كعيون النسر المتشامخ، تشع جلالاً ومهابة. لكن، وا اسفاه، كم من الشقاء يظلّل ويعتم هذه الروعة المتجلية بكل بهائها.

الملك رتشرد : (لنورثمبرلند) : انا مندهش جداً. لقد انتظرت حتى الآن كي تجثو على ركبتك وترتجف أمامي لأني لا ازال مليكك الشرعي. اذا كنت تعتبرني هكذا، لماذا لم تركع وتقدّم لي الاحترام والخضوع الواجب عليك ؟ واذا كنت لا تعتبرني كذلك، بيّن لي أية سلطة جرّدتني من هذه الصفة. لأني على يقين بأن ليس من يد بشرية تستطيع ان تنتزع صولجاني من يدي بدون ان تدوس الشرائع وتسلبني بالعنف حقوقي المقدسة التي أتمتّع بها عن حق وجدارة. الا اعلم ان الله نصيري، وهو الذي يدعم سلطتي ويعينني على قهر اعدائي ودحرهم. قُل لبولينبروك الذي اراه هناك، ان كل خطوة يخطوها على ارضي هي خيانة عظمى لا تغتفر، وانه بإقدامه على هذا التعدّي يعلن عليّ حرباً لا هوادة فيها. وقبل ان

يستولي على تاجي الذي يطمع به سيرى عشرة آلاف جمجمة مجندلة على الأرض، تخصّ شباناً من الانكليز ستندبهم أمهاتهم ويلبسن عليهم ثياب الحداد زمناً طويلاً.

نورثمبرلند : لا سمح الله ان تصل، يا ملكنا المبجّل، الى هذا الحل الدموي المريع بخوض حرب اهلية وعسكرية. انا ابن عمك النبيل هاري بولينبروك أقبّل يدك بتواضع وأقسم لك بالتربة المباركة التي تضمّ رفات جدّك وجدّي المجيد وبشرف دمك النبيل ودمي أيضاً، وبساعد جون دي غان المحارب المقدام المتوفّي السعيد الذكر، كما أقسم بأمجاده ومبرّاته ومآثره الحميدة اني لم آت الى هنا إلّا لألْتمس، وانا أجثو على ركبتي، غفرانك وعفوك عن إبعادي لأعود إلى جوارك وفيّاً كامل الولاء لجلالتك. وحين أحصل على سماحك سأنبذ عدائي وألقي بسلاحي عند قدميك وأكرّس كل تحرّكاتي لخدمة جلالتك بكل مودّة وإخلاص.

الملك رتشرد : اسمع يا نورثمبرلند، جوابي كملك: أهلاً بك وسهلاً، يا ابن عمي. اني اقبل التماسك بكل طيبة خاطر. وبكل محبّة أرحب بعودتك الى حظيرة الولاء لملكك العطوف. (يتقدّم نورثمبرلند للتحدث الى بولينبروك. ثم يوجّه كلامه الى أوميرل). لقد مررنا بمرحلة عسيرة، يا ابن العم، وكان موقفنا غير مشرّف. لكن الأمور تبدّلت الآن وعادت المياه الى مجاريها. فهل من حاجة الى تذكير نورثمبرلند بوجوب إرسال تنديد الى الخائن قبل ان ينفذ فيه حكم الاعدام.

اوميرل : كلا، يا مولاي الكريم، علينا ان نقابله بالكلام الرقيق الى ان يعيد الوقت لنا اصدقاءنا، فيساندوننا بتأييدهم وسيوفهم.

الملك رتشرد : يا الهي، هل يتوجب على لساني الذي لفظ حكم الابعاد القاسي الذي اصاب هذا الرجل النشيط ان يلغيه بكلام حلو مسالم. ليتني كنت في مستوى ألمي وعظمة لقبي. لما

نسيت في وقت من الأوقات ما كنت عليه وما يجب عليّ ان اكون الآن كملك رحب الصدر حرّ الضمير. لماذا لا تنتفض يا قلبي الخفّاق ؟ ثابر على نبضاتك باتّزان وحرية كاملة، ما دام اعداؤك لا يزالون طليقين يحاربونك.

اوميرل : عاد نورثمبرلند من قبل بولينبروك.

الملك رتشرد : ماذا يتحتّم علي كملك ان افعل الآن ؟ هل يجب أن استسلم ؟ انا مستعد لقبول ذلك. هل عليّ ان اتنازل عن العرش ؟ انا مستعد ايضاً للازعان في هذا المجال الهامّ. هل عليّ ان افقد لقبي كملك ؟ اكراماً لله، انا مستعد ان أرضى بهذه الفكرة، وسأعطي جواهري مقابل سبحة لاصلّي وقصري الرائع لقاء صومعة أختلي فيها بنفسي، وحلّتي المذهبة ومجموعة اوانيّ الفضيّة لقاء مِسْح وصحن خشبي وضيع، وصولجاني لقاء عصا اتوكّأ عليها في زياراتي المباركة، ورعيتي لقاء ايقونة مقدسة ومملكتي لقاء قبر صغير متواضع. اني أقبل حتى بدفني على قارعة الطريق التي تطأها اقدام رعيتي في كل ساعة. فإن اخصامي يدوسون قلبي وانا حيّ، فماذا يمنعهم من أن يدوسوا رأسي وأنا ميت ؟ هل تبكي، يا ابني عمي الحنون اوميرل ؟ سنخرج أنّاتنا ونزرف وابلاً من الدمع ونسكبه على قمح الصيف علّنا نجرّ المجاعة على هذه الأرض المتمردة. واذا شئت سنتلاعب بأحزاننا ونستخدم دموعنا لتحوير بعض الاعتبارات. وسنصبّها كلها في حفرتين لتكونا قبرين يضمّان قريباً رفاتنا، وعلى بلاطهما نكتب هذه العبارة البليغة : « هنا يرقد ابنا عمّ حفرا قبرهما بايديهما ». أولا يكون شقاؤنا هكذا ملحوظاً ؟ ما هذا الهذيان ؟ ألا تهزأ بي على هذا القول الغريب ؟ (لنورثمبرلند الذي عاد الى قرب الاسوار). ايها الأمير الجبّار، مولاي لورد نوثمبرلند، ماذا يقول الملك

بولينبروك وهل تسمح جلالته لرتشرد بأن يعيش هنا حتى يحين أجله ؟ أنت تحني هامتك، وبولينبروك يجيب : نعم.

نورثمبرلند : يا مولاي، هو ينتظرك في الباحة السفلى للتحدّث اليك. فهل تريد ان تنزل اليه ؟

الملك رتشرد : ها انا نازل كراعٍ لم يعد يقوى على حراسة خرافه الشاردة. (يتقدم نورثمبرلند نحو بولينبروك). في الباحة السفلى حيث ينحدر الملوك الضعفاء ليلبّوا نداء الخونة ويخلعوا عليهم أسمى الأمجاد. لأنزل إذاً الى الباحة السفلى بصفتي الملكية. اذ جاء دور بوم الليل لينعب في المرتفعات حيث يُفترض ان ينشد العندليب. (يغادر الملك السور مع حاشيته).

بولينبروك : ماذا قلت، يا صاحب الجلالة ؟

نورثمبرلند : الحزن والأسى يجعلان كلامه غير معقول كأنه يهذي. على كل حال هو نازل.

(رتشرد وحاشيته يظهران في اسفل الحصن).

بولينبروك : قفوا جميعكم صفّاً واحداً، وقدموا لجلالته ما يحق له من خضوع واحترام. مولاي الوقور... (يركع).

الملك رتشرد : يا ابن عمي الحبيب، انت تنحني الى الأرض كثيراً كأنك تمنح هذه الأرض شرف تقبيلها بقدسية. انا افضّل ان يصدر عنك دليل مودة عزيزة على قلبي، بدلاً من كل هذه المظاهر التي تحرج عزّة النفس. إنهضْ، يا ابن العم، إنهض. فمهما التصقت ركبتك بالأرض أشعر بأن قلبك يرتفع على الأقل الى أعلى القمم الشامخة. (يرفع يده الى رأسه).

بولينبروك : مولاي الكريم، لم آتِ الى هنا إلّا للمطالبة بما هو لي.

الملك رتشرد : ان ما لك يخصّك حتماً، وانا ايضاً لك بكليّتي.

بولينبروك : فلتكن لي، ايها الملك المرهوب، بقدر ما تستحقّ خدماتي من عطفك ورعايتك.

الملك رتشرد : انت اهل للحصول على الكثير. وأعمالك تستحق ان تمتلك من يعرفون أضمن الوسائل للوصول الى ما يرغبون... هات يدك، يا عمّاه، وكفكف دموعك فهي أغلى دلائل المحبة الصادقة، لكنها ليست العلاج الشافي. يا ابن العم، انا حديث السنّ ولا يمكنني ان اكون لك بمثابة والدك، مع انك اكبر سنّاً من أن تصبح وريثي... وما تريده، أنا مستعد أن امنحك إياه بكل ممنونية. إذ علينا ان نفعل ما تضطّرنا القوّة الى القيام به. فلنسرْ نحو لندن... إن شئت، يا ابن عمي.

بولينبروك : اجل، يا مولاي الكريم.

الملك رتشرد : هيّا بنا. لا يسعني ان أرفض. (تصدح الموسيقى، ويخروجون).

المشهد الرابع

في حدائق قصر لانكلي.

(تدخل الملكة واثنتان من مرافقاتها).

الملكة : بماذا يمكننا ان نتسلى معاً في هذا البستان، لأطرد عني ما يسيطر عليّ من هموم مزعجة ؟

المرافقة الأولى: سنلعب بالكرة، يا مولاتي.

الملكة : هذا يذكرني بأن العالم مليئ بالصعوبات، وبأن حظي بات عاثراً.

المرافقة الأولى: سنرقص اذاً، يا مولاتي.

الملكة : قدماي لا تطاوعانني على ضبط الايقاع في هذه الممارسة، لا سيما عندما يكون قلبي الكئيب أسير الحزن والألم.

وهكذا لا يسعني ان ارقص، يا فتاتي. هل لديك تسلية أخرى ؟

المرافقة الاولى: سنقصّ الروايات، يا مولاتي.

الملكة : المرحة أو الكئيبة ؟

المرافقة الأولى: كما تشائين، يا مولاتي.

الملكة : انا لا اريد المرحة ولا الكئيبة. فان كانت مرحة، انا بعيدة كل البعد عن المرح. وإن كانت كئيبة، انا غارقة في بحر الكآبة التي تزيدني حزناً على حزن. وانا لا اودّ ان اضاعف ما أشكوه من الأسى المبرّح ولا أن أضيف الى حزني احزاناً جديدة.

المرافقة الأولى: سأغنّي لك، يا مولاتي.

الملكة : هذا لا بأس به، اذا كان لديك من أناشيد تروّح عن النفس. لكني أفضل إن شئت، أن تبكي.

المرافقة الأولى: سأبكي اذاً، يا مولاتي، اذا كان هذا يرضيكِ.

الملكة : وانا ايضاً سأبكي إذا كان ذلك يفتح امامي باب السلوى، فلا أستعير دموعك لأفرّج عن كربتي. لكن أسكتي... هذا هو البستاني قادم الى هنا. فلنختبئ وراء جذوع هذه الاشجار.

(يدخل البستاني واثنان من الغلمان).

الملكة : أراهن بواحد مقابل مئة أنهما سيخوضون غمار الحديث عن السياسة. لأن كل الناس هكذا يفعلون قبل ان يثوروا. ثم كل كارثة تجرّ وراءها محنةً اخرى. (تقف الملكة ومرافقاتها جانباً).

البستاني : (للغلام الأول) : اذهب وأزح أغصان المشمش التي تشوّش علينا منظر الحديقة، كأنها أولاد طائشون يضايقون آباءهم ويفرضون عليهم ما تستنبطه مخيّلاتهم الخصبة من ألاعيب

صبيانية. ثم ارفع بمسند متين تلك الاغصان المتدلّية. (للغلام الثاني) وأنت إذهب بسرعة وإقطع رؤوس الأغصان المتمايلة أمام عيوننا. اذ لا بد للمساواة من أن تسود في حديقتنا. وبينما أنت تقوم بهذا العمل، سأذهب أنا لأقتلع الاعشاب الضارة التي تمتصّ الغذاء من التربة بدون أن تعطي أية فائدة، بل تحرم الزهور مما تحتاج اليه من خصب الأرض.

الغلام الأول : لماذا تريد ان تطبّق في هذا البستان قواعد النظام والإنسجام وتجعله نموذج كل مؤسسة رسمية عندما يكون مجالنا بكامله، أي الحديقة التي تجاور البحر، مليئة بأعشاب رديئة تخنق أجمل أزهارها وتضايق أشجارها المثمرة المهملة وسياجها المهدّم وأقسامها التي تعبث بها الفوضى وسائر مزروعاتها المفيدة وتتركها طعمة الديدان والحشرات.

البستاني : أصمت... ان الذي تألم في هذا الربيع المضطرب هو ذاته الذي عجّل في سقوط أوراق الشجر. أمّا الأعشاب الضارّة التي طغت على النبتات الكثيرة وأتلفتها، وإن بدت كأنها تحميها، فقد اقتلعها بولينبرك من جذورها، وانا لا أبرّئ من ذلك كونت ويلْتشاير وبوشي وكرين.

الغلام الاول : ولكن كيف أُتلفت هذه المزروعات ؟

البستاني : لقد أُتلفت حين سيطر بولينبروك على الملك المهمل... ومن المؤسف ان لا يهتمّ برعاية أرزاقه كما نفعل نحن في مملكتنا أي هذا البستان. اننا عندما يحين الموسم، نجرح القشرة وهي جلدة اشجارنا المثمرة، خوفاً من ان تمتلئ بالنسغ فتتلف من كثرة تغذيتها. فلو كان تصرّف هكذا تجاه الكبار الطامعين، لكانوا إلْتزموا جانب التعقّل وعاشوا لينفعوا وليقطفوا ثمار وعيهم وسعيهم. لاننا نحن نقطع كل غصن غير مفيد ونوسّع مجال نموّ الأغصان المثمرة. ولو فعل هو

هكذا لما سمح لأحد ان يضرّ بمصالح تاجه وعبث بوجود الدولة في سبيل استثمار مشاريعه الشخصية.

الغلام الأول : كيف تظن أن الملك سيضطر الى التنازل عن عرشه ؟

البستاني : لقد طغى عليه اخصامه، ولا يُستبعد أن يجبروه على التخلّي عن مملكته. فإن رسائل وصلت الى هنا الليلة البارحة الى احد اصدقاء دوق يورك تنبئ بحدوث أمور مؤسفة.

الملكة : وهي تخرج من مخبإها) : أكاد أختنق. لا بد لي من ان اتنفّس وأتكلم... يا ظلّ آدم في الفردوس، انت المكلّف برعاية هذا البستان كيف تجرأت بصوتك الأجش على التلعثم بهذا النبأ المشؤوم ؟ أية حوّاء، بل أيّة أفعى زيّنت لك تكرار إسقاط الرجل المتساهل ؟ لماذا تقول ان رتشرد قد خُلع عن عرشه ؟ أنت الهزيل الذي تكاد لا تعلو قامتك عن الأرض تجرؤ على توقُّع سقوط الملك ؟ قل لي أين وكيف علمت بهذا النبأ المؤسف ؟ تكلّم أيها الشقي.

البستاني : سامحيني يا مولاتي. لا يسرني ان أتمتم هذا النبأ. لكن ما تقوله هو عين الصواب. والملك رتشرد هو الآن في قبضة بولينبروك القوية. وأعتقد أن حظّيهما يتوازيان. ففي كفّة سيدك ليس من شخص سواه لذا يُعتبر أخف وزناً مما هو في الواقع. غير أن كفّة بولينبروك تحوي ما عدا شخصه المرموق جميع كبار انكلترا. وبفضل هذا الثقل الذي لا يستهان به يرجح وزنه على وزن الملك رتشرد. فأسرعي الى لندن، وهناك ترين ما يقنعكِ بوجهة نظري. لأني لا أنطق إلّا بما يعرفه كل واحد منا حق المعرفة.

الملكة : هذه شائعة سريعة الانتشار يَقصد بها النيل من كرامتي، وأنا آخر من يدري بنواياك الغامضة. انت تريد أن يبلغني انذارك في آخر المطاف حتى انطوي على نفسي وأُبقي آلامي حبيسة في صدري. هيّا بنا، يا فتياتي نذهب الى لندن لنقابل

ملك لندن المغلوب على أمره. هل وُلدتُ لأُلاقي هذا المصير المشؤوم؟ لكي يخنقني حزني بسبب انتصار بولينبروك الكبير؟ أيها البستاني، لأنك اعلنت لي هذا النبأ المشؤوم أودّ أن لا تزهر النباتات التي تعهدتها بعنايتك (تخرج الملكة ومرافقاتها).

البستاني : مسكينة انتِ، أيتها الملكة. لو كان هذا يخفف آلامك لفضّلت ان تظل مهنتي ضحية لعنتك. فان سالت دمعتك هنا في هذا المكان بالذات لزرعت ارض الشارع أعشاباً لا تلبث ان تجفّ. لأن الشارع هو رمز الحزن الذي يبرز هنا قريباً لإحياء ذكرى ملكة منكوبة. (يخرجون).

الفصل الرابع

المشهد الأول

في قاعة وستمنستر بلندن.

(اللوردات الروحيون في موقعهم الى يمين العرش واللوردات الزمنيّون الى اليسار، وسائر رجال الدولة تجاهه).
(يدخل بولينبروك وأوميرل وسوراي ونوثمبرلند وبرسي وفيتزواتر ولورد آخر وأسقف كارليل وكاهن وستمنستر ورجال الحاشية وضبّاط يرافقون باكوت ويختتمون التطواف).

بولينبروك : دعوا بركوت يتقدّم... والآن عبّر يا بركوت، عن افكارك بحرية تامّة. اخبرنا بكل ما تعرفه عن موت النبيل كلوسسْتر، وعمّن شارك الملك بالتخطيط له، ومن نفّذ هذا العمل الإجرامي الدامي وقرّب أجله بهذه الطريقة الدنيئة ؟

باكوت : أودّ مواجهة لورد أوميرل.

بولينبروك : (لأوميرل) : تقدّم، يا ابن العم، وانظر الى هذا الرجل الذي يسأل عنك.

باكوت : مولاي لورد أوميرل، أنا أعلم بأن لسانك الجسور لا يحب تكذيب صاحبه. فحين حيكت مؤامرة اغتيال كلوسسْتر،

سمعتك تقول : أولستُ طويل الباع ؟ انا الذي استطعت انطلاقاً من بلاط انكلترا المسالمة، أن أتوصّل الى القضاء على عمي في مدينة كاليه الفرنسية ؟ ومن جملة أحاديثك في ذلك الزمان، سمعتك ايضاً تصرّح بأنك تفضّل ان ترفض عرْضاً يؤمّن لك مبلغاً يناهز مئة الف كراون على أن تقبل بعودة بولينبروك الى انكلترا. واعترفت قائلاً ان موت ابن عمك هو نعمة بالنسبة الى هذه البلاد.

اوميرل : ايها الأمراء واللوردات الأفاضل، ما هو الجواب الذي يمكنني أن أعطيه لهذا الرجل الخسيس ؟ هل عليّ أن أتدنّى الى مستواه لأُنزل به ما يستحقّه من العقاب ؟ ام عليّ ان اقنع وأدعه يلوّث سمعتي بما تتهمني به شفتاه عن مكر وافتراء ؟... هذه وجهة نظري في ما يتعلق بجريمة ارتكبتها يداك واستحققت عليها عذابات الجحيم. أنا أعلن أنك كاذب وأصرّ على القول ان كل ما تتفوّه به خطأ فاضح، وأنا مستعد لإثبات كلامي، وإن اضطررت الى سفك دمك الذي ليس أهلاً لحقنه، لأنه نجس.

(يلقي بقفازه الى الأرض).

بولينبروك : توقّف، يا باكوت. فأنا أمنعك من رفعه عن الأرض.

اوميرل : أودّ أن أكون أشهر أعضاء هذا المجلس الكريم، ما عدا واحد فقط هو الذي استفزّني.

فيتز واتر : اذا كان مقامك يتطلّب شخصاً يوازيك قيمة، فهذا تحدّي، يا أوميرل، يقابل تحدّيك. (يرمي بقفازه أرضاً). بحق هذه الشمس الساطعة التي تتيح لي أن أراك حيث أنت الآن، سمعتك تقول وأنت تتبجّح بأنك سبب موت النبيل كلوسستر. فإن أنكرت ذلك تكون قد كذبت عشرين مرة، وأنا مستعد لأن أردّ كيدك الى نحرك بحدّ هذا السيف البتّار

اوميرل : لن تجرؤ، يا جبان أن تعيش لترى ذلك اليوم الذي تصبو اليه.

فيتز واتر : آه، بحق السماء، كم أودّ أن يتمّ ذلك حالاً.

اوميرل : لأنك منذ الآن من زبانية جهنم.

برسي : أنت منافق يا اوميرل. أمّا هو فصادق في هذا التحدّي بقدر ما أنت غير شريف القصد. وبناءً على ذلك، أنا أُلقي قفازي أرضاً، وأدعم تصريحي حتى تلفظ أنفاسك الأخيرة. فهيا ارفعه عن الأرض اذا تجرأت. (يرمي بقفازه الى الأرض).

اوميرل : واذا لم أَلمّه فلْتُشلّ يدي، ولن تقوى على حمل سيفي الناقم لضرب خوذة عدوّي وشق رأسه.

أحد اللوردات : أنا مصمّم على التصرّف مثله، وأتحدّاك رغم كل التكذيبات التي قد تصل الى سمعك المتضائل يوماً عن يوم. هذا هو تصميمي وأنا مصرّ على الدفاع عن شرفي. فتفضَّلْ اذا تجرأت.

اوميرل : من الذي يتحدّاني هكذا ؟ بحق السماء، انا القي بقفازي في وجه الجميع. لأن في صدري شجاعة كافية لأتحدّى عشرين الف شخص نظيرك.

سوراي : مولاي اللورد فيتز واتر، اني لا ازال أتذكّر ما حدّثت به اوميرل.

فيتز واتر : هذا صحيح، يا مولاي. إذ إني حاضر ويسعك أن تؤكد أن ما فُهْتُ به هو الحقيقة بعينها.

سوراي : أُقسم ان هذا خطأ بقدر ما هي السماء حقيقة أكيدة.

فيتز واتر : أنت كاذب، يا سوراي.

سوراي : يا عديم الشهامة والشرف، سيكلّفك هذا الكذب انتقام سيفي الأبيّ حتى تعترف أيها المنافق الخدّاع بريائك المفضوح قبل أن ترقد في أعماق القبر الى جانب جثمان

أبيك. وبناءً على ذلك أُلقي إليك بقفازي، فاختبر مُنازلتي إن كنت شجاعاً.

فيتز واتر : غبيٌّ من يهمز جواداً جافلاً. ان كنت جريئاً في الأكل والشرب والتنفّس والعيش الهنيء، تراني جريئاً في مجابهتك، يا سوراي، حتى في أقاصي الصحراء لأبصق في وجهك واكرر قولي لك : انك كاذب، كاذب، كاذب. وهذا ما يدعوني الى معاقبتك بصرامة. (يرمي بقفازه). وكما اني مصمم على نشر الازدهار حيثما أدخل، أؤكد لك أن اوميرل إقترف ما أتهمه أنا به من قبائح. من جهة اخرى، سمعت ما يقال للمبعد نورفولك أنت، أنت أوميرل قد أرسلت رجلين لقتل النبيل دوق كاليه.

اوميرل : ليمنحْني أي رجل ثقته، فأعان له أن نورفولك منافق دجّال، واني أتحدّاه وأدعوه الى الدفاع عن شرفه المهان.

بولينبروك : ستبقى كل هذه المشاحنات معلّقة الى ان يُستدعى نورفولك من منفاه. أجل سيُستدعى وإن يكن عدوّي، وستعاد اليه ألقابه وأرزاقه بكاملها. وحين يرجع سأجمعه بأوميرل.

اسقف كارليل: هذا اليوم الذي ترجوه لن يأتي أبداً. كم مرة قاتل المنفي نورفولك في سبيل ايمانه، وقد رفع شأن دينه عالياً في وجه الوثنيّين المنبوذين من اتراك وسواهم. أخيراً بعد أن تعب من هموم الحرب إنسحب الى ايطاليا، وهناك في مدينة البندقية، أُودع جثمانه تراب تلك البلاد الجميلة وصعدت روحه الى السماء التي ناصرها دوماً أثناء كفاحه الطويل المجيد.

بولينبروك : هل مات أسقف نورفولك ؟

اسقف كارليل: أجل، هذا لا شك فيه، كما أنا حيّ أخاطبك، يا مولاي.

بولينبروك : رحمة الله عليه. أرجو أن تكون نفسه الطاهرة قد انتقلت الى احضان ابينا ابراهيم... أيها اللوردات المتنازعون، إعلموا

جيدا أن جميع خلافاتكم معلّقة في الوقت الحاضر حتى ألْمُس أن نواياكم قد تحسّنت.

(يدخل يورك وحاشيته).

يورك : يا دوق لنكاستر الفضيل، اني آتي اليك من قبل رتشرد المخلوع عن عرشه وقد اختارك، بملء رضاه، وريثاً له وشاء أن يضع صولجانه السامي وديعة في يدك المباركة. فارتقِ العرش بما أنك منذ الآن أصبحت خليفته الشرعي، وليحيا هنري الرابع طويلاً بهذا الاسم المجيد.

بولينبروك : باسم الله، أجلس على عرش هذه المملكة.

اسقف كارليل: لا سمح الله بذلك. وإن لم يستحسَن كلامي هذا الجمع الملكي الحاضر ها هنا، يجمل بي أوّلاً أن أقرّ بالحقيقة. لقد قدّر الله أن يوجد في هذا الجمع النبيل رجل شجاع شهم أبيّ يسعه أن يحكم بالعدل على رتشرد النبيل. وهكذا تحمله اصالته على الامتناع عن إصدار مثل هذا الحكم العدائي الجائر. مَن مِن الرعايا يمكنه أن يحاكم ملكه رتشرد ؟ لا أُحد يستطيع أن يدين المتهم بدون ان يصغي الى دفاعه عن نفسه، مهما كان جرمه ظاهر للعيان ؟ فهل يُعقل ان يحاكَم غيابياً مَن هو مخلوق على صورة الله، وهو يمثّل السلطة السماوية على هذه الأرض بتاجه وصولجانه منذ سنين عديدة، وأن يحاكمه شخص من رعاياه المتمردين، بينما صاحب الحق غائب. ألْتمس منك اللّهمّ ان لا تسمح في منطقة متمدّنة متديّنة تؤمن باسمك القدوس، بان يسود روح الظلم البغيض والباطل الطاغي. انا اخاطب رعايا هذه المملكة المسالمة الذين كما أكلوا خبز مليكهم يتحتّم عليهم ان يضربوا بسيفه القاطع للدفاع عن حقوقه الشرعيَة. ان مولاي هيرفورد الحاضر ها هنا، والذي رضيتم

به ملكاً ليس سوى خائن شرير عادى ملكه الأصيل المتوّج. واذا ما نصّبتموه عنوةً أتوقع ما يلي : سيروي الدم الانكليزي هذه الأرض المفجوعة وستئنّ الأجيال القادمة في هذا الضياع الشاذ. وسيغيب السلام عن أجواء هذه البلاد الهادئة. وفي هذه الحالة ستنشب حروب فظيعة بين الاسر الكبيرة والأهالي. وستعمّ الفوضى وينتشر الإرهاب والخوف والتمرد، وسيعلو هذه الأرض جبل من الجماجم البرية فاذا استباح الجار حقوق جاره أمست هذه البلاد الملعونة مسرح الحقد والنقمة ومرتع الظلم والضلال. فامنعوا اذاً حدوث هذهِ الكوارث وقاوموها بكل قواكم كي لا تحلّ بكم وتهلككم كي لا يصبّ عليكم أولادكم وأحفادكم في المستقبل لعنات إبليس الرجيم.

نورثمبرلند : هذه محاضرة موفقة جداً. وكمكافأة لك على القائها بنجاح نقبض عليك كمجرم متلبّس بالخيانة العظمى. فيا لورد وستمنستر، أكلّفك بأن تحفظه تحت حراستك حتى يوم محاكمته العاجلة. وأرجوك، يا مولاي، أن تباشر التحقيق في قضيته حالاً.

بولينبروك : ليذهب أحدكم ويجلب رتشرد، لكي يتنازل عن عرشه أمام المسؤولين الحاضرين هنا. وهكذا لا يبقى من سبيل للطعن في صحّة إجراءاتنا.

يورك : انا أود ان أكون دليله (يخرج).

بولينبروك : أيها اللوردات الحاضرون في هذا المكان المهيب، تعهّدوا بالمجيء الى هذا المكان في اليوم المعيّن. (لأسقف كارليل) أنا مدين لجهودك ولاهتمامك بهذه القضية، وأتّكل كثيراً على مساعدتك.

(يدخل يورك برفقة الملك رتشرد وعدة ضباط يحملون التاج والشارات الملكية).

الملك رتشرد : يا للأسف، لماذا أنا مطلوب للحضور امام ملك قبل أن تنقلب الأساليب الملكية التي كنت أحلم بموجبها ؟ كُنْتُ اتعلّم التلميح والتمليق والتحية والاغناء. دعوا الوقت يدرّبني على الخضوع. (ينظر حواليه) اني أتذكر جيداً ملامح هذا الرجل. أولم تلوذ بي كغيرك ؟ أولم يكن الجميع في الماضي يهتفون بحياتي وهم يحيّون ؟ هذا ما حدا بيهوذا ان يتنكّر لمعلمه وينكره ؟ لكنه كان واحداً من اثني عشر من اتباعه الاخصّاء. بينما أنا بالنسبة اليّ لم أجد واحداً على اثني عشر الف من رجالي، وفيّا أخلص لي بنزاهة وتجرّد. أطلب من الله أن ينقذ الملك، ولا اسمع أحداً يقول آمين. هل أنا في آن واحد كاهن الهيكل والضحية ؟ فليكن، لأهتف لنفسي آمين ثم آمين، عندما أكرّر توسّلي الى الله كي ينقذني أنا الملك، مع أني لم أعد ملكاً. ثم مرة أخرى أهتف آمين، حين ألتمس من السماء ان تشاء بقائي كملك مدى العمر. والآن لماذا أرسلتم في طلبي ؟

يورك : لتقوم بملء رضاك بما يُقدم على فعله كل صاحب جلالة متعب، وهو مضطر الى التنازل نظيرك عن العرش الى هنري بولينبروك.

الملك رتشرد : اعطوني تاجي. إليك بهذا التاج، يا ابن عمي. أنا أُمسك به من هذه الجهة وأنت تُمسك به من الجهة الأخرى. ها قد أصبح وأنت تُمسك به من الجهة الأخرى. ها قد أصبح هذا التاج الذهبي مثل بئر عميقة يتدلى فيها دلوان يمتلئان الواحد بعد الآخر، الأوّل فارغ يتأرجح في الهواء بدون انقطاع، والثاني مملوء يغوص في قعر الماء. فالدلو السفلي الطافح بالدموع، هو مثلي يقله الألم، والدلو العلوي الصاعد هو أنتم الحاضرون ها هنا لمشاهدة مصيري.

بولينبروك : كنت أظن أنك تتخلّى عن العرش راضياً ؟

الملك رتشرد : نعم أتخلّى عن تاجي. لكن أحزاني باقية تتشبث بي. باستطاعتكم ان تحرموني من أمجادي ومن سلطتي، لكن ليس من عذاباتي. فأنا أظل محتكر هذه الآلام على الدوام.

بولينبروك : أنت أطلعتني على قسم من همومك الناجمة عن تاجك.

الملك رتشرد : أما همومك أنت المتزايدة، فلا تزال نوعاً ما من همومي أنا. وما يشكل همومي الحاضرة سببه فقداني همومي الماضية. بينما همومك الحالية تقوم على اكتسابك هوماً جديدة تضاف الى سابقاتها. سأحتفظ مع ذلك بكل همومي التي أتنازل لك عنها مرتبطة بالتاج وهي تتشبث بصاحبها بإصرار وإلحاح.

بولينبروك : هل توافق فعلاً على التخلي عن العرش ؟

الملك رتشرد : نعم ولا. نعم، لأني سئمت وبتُّ أريد أن أكون أي شخص عادي. ولا، لأني أتنازل لك عن عزّي بعدما صرت إليه من شقاء. لاحظ اذاً كم سأعرّي ذاتي عندما أنتزع عن رأسي هذا التاج الثقيل، ومن يدي هذا الصولجان المربك، وعن صدري وقر السلطة الملكية. وها هي دموعي تغسل جبهتي من الزيت المقدس الذي مُسحت به، وبصوتي ألْغي قسمي للمحافظة على وفائي، وأتخلّى عن كل أبّهة وأهجر رفاه قصوري وأتغافل عن عائداتي وارداتي واتغاضى عن امجادي ومقرّراتي وحقوقي. وألتمس من الله ان يسامح كل من يحنث بالعهود التي أُبرمت لصالحك. وأرجو منه تعالى ان يبعد عني كل مكروه من الآن وصاعداً وان يستجيب ادعيتك يا من حصلت على جميع امنياتك. ألتمس لك حياة مديدة وأنت جالس على عرشي أنا رتشرد، على أن أحظى قريباً بضريح لائق يضمّ رفاتي. صان الله الملك هنري. هذه امنيتي الأخيرة، أنا الملك السابق رتشرد. ولتعش سنين عديدة وأياماً سعيدة. ماذا بقي عليّ الآن ؟

نورثمبرلند : (يقدّم له ورقة) : بقي عليك ان تقرأ هذه الاتهامات وهذه الجرائم الفظيعة التي ارتكبتها أنت شخصياً أو ارتكبها أحد أفراد أسرتك بحق الدولة ومصالح هذه البلد، حتى يقتنع الجميع بعدالة إقصائك عن الحكم.

الملك رتشرد : هل يتحتّم عليّ القيام بذلك ؟ هل يجب عليّ أن أفضح سيئاتي وتهاوناتي. لو كانت أخطاؤك مسجلة، يا نورثمبرلند، ألا تخجل من تلاوة وقائعها أمام جمهور محترم كهذا ؟ لو طاوعت مثل هذا الطلب لوجدت بنداً فظيعاً ينصّ على خلع ملك وعلى نقض عهد مقدس ترذله الكتب السماوية. أجل أنا وأنتم جميعاً يا من ينظرون اليّ شذراً وقد راعكم هول الكارثة. لا آبه إن كان فيما بينكم من يشابه بيلاطس عندما غسل يديه من دم الصدّيق، وهو يتظاهر بتبرير عمله وبالاشفاق على ذاك الصدّيق. أنتم كلكم كبيلاطس تدفعونني الى هلاكي المرير، وليس أمامكم من ماء لغسل ايديكم الملطّخة.

نورثمبرلند : عجّل، يا مولاي، واقرأ هذه البنود.

الملك رتشرد : عيناي مليئتان بالدموع ولا يسعني أن أبصر، مع أن الماء المرّ المذاق لا يعمي انظار من لا يستطيعون ان يروا هنا مجموعة من الخونة المنافقين. نعم اذا حوّلت عينيّ الى نفسي أراني خائناً مثل غيري، لأني قبلت في هذا المكان بالذات ان أعرّي جسداً ملكياً مباراً، ولوّثت صفحة امجادي ورهنت حريّة سيادتي وأخضعت جلال مقامي السامي لنير الاستبداد والظلم.

نورثمبرلند : يا مولاي ...

الملك رتشرد : أنا لست مولاك، أيها الرجل المتعجرف الوقح، أنا لست سيّد أحد بعد الآن، وقد فقدت لقبي ولم يعدْ لي من صفة أعتزّ بها، حتى ولا الاسم الذي دعيت به يوم مولدي. لماذا

سلبتني اياه ؟ وا أسفاه. ما هذه المصيبة ؟ لقد اجتزت عدة مراحل شقاء واذلال، فلم أعرف كيف أُدْعى الآن. تبّاً لي من ملك ذريّ كأني مصنوع من الثلج ومعرّض للهزء ولشمس بولينبروك التي تذيب كالجليد كل ماضيّ الحافل... كنت ملكاً صالحاً عظيم الشأن، ومع ذلك لم اكن قدر المقام. اذا كان لا يزال لكلامي من قيمة في انكلترا، تصرفوا حسب أوامري، واجلبوا لي مرآة لأرى فيها كيف أمسى محياي بعد أن غادرني جلال مُلْكي.

بولينبروك : ليذهب أحدكم ويجلب له مرآة. (يخرج أحد رجال الحاشية).

نورثمبرلند : إقرأ هذه الورقة، بانتظار جلب المرآة.

الملك رتشرد : لماذا تريد أن تعذّبني، أيها الشيطان، قبل أن أصل الى مقرّك في الجحيم ؟

بولينبروك : لا تصرّ على هذا الطلب، يا مولاي نورثمبرلند.

نورثمبرلند : إذاً لن يرضى رجال المجلس عن هذا التصرف.

الملك رتشرد : سوف يرضون. وسأقرأ ما فيه الكفاية عندما أرى أمام عينيّ كل ذنوبي ماثلةً بوضوح. (يدخل الرجل وبيده مرآة يقدمها لرتشرد) اعطني هذه المرآة. ففيها أودّ ان أقرأ... ماذا ارى ليس من تجاعيد اعمق مما تصوّرت. فالألم الذي اجتاح وجهي لم يُحدث ثلوماً اعمق ممّا تلقيته من طعنات. تبّاً لك من مرآة خدّاعة نظير المتزلفين عند تلقّف عطاياي. أهذا محيّا من كان كل يوم يؤمّن حاجات عشرة آلاف شخص يتودّدون إليه تحت سقف قصره ؟ هل هذا هو الحاكم المشرق كالشمس الذي كان الجميع يخفضون أبصارهم أمام أنظاره ؟ أهذا هو الجبين الذي جابه ربوات من تصرّفات الهوس والجنون، والذي تلقى ما ألحقه به بولينبروك من إذلال لا يطاق ؟ ان مجداً يتلألأ على المحيا الظاهر في هذه المرآة هو سريع العطب كما ان هذا الوجه

سريع الزوال كهالة المجد الباطل. (يلقي بالمرآة الى الأرض فتنكسر). هذا هو وجهي الحقيقي وقد تحطّم وتحوّل الى ألف شظية. إستوعبْ، أيها الملك الصامت مغزى المشهد الكئيب الذي شوّه نضارة وجهي.

بولينبروك : ان طيف عذابك هو الذي شوّه ملامح وجهك.

الملك رتشرد : كرّر ما قلت : طيف عذابي. هذا صحيح، لأن حزني دفين في أعماق صدري. وما سحنة شقائي الخارجية إلّا خيال أساي غير المنظور الذي يختمر بهدوء في قرارة نفسي المعذّبة. هذا هو سرّ مصابي الذي أشكرك عليه، أيها الملك الكريم ؛ لأنك لم تقم حجةً فقط على مصدر بلواي بل دفعت آلامي للارتقاء الى مستوى قضيّتي الخاسرة. لكني مع ذلك أسألك منّة، بعدها يمكنني أن أمضي في سبيلي، ولن أسبّب لك أي إزعاج في مستقبل الأيام. فهل آمل بالحصول على طلبي ؟

بولينبروك : ما هو طلبك، يا ابن عمي الحليم ؟

الملك رتشرد : تدعونني ابن عمك الحليم، وأنا لا أزال اكبر من ملك. لأني عندما كنت ملكا لم يكن المتزلّفون اليّ سوى رعاياي. أمّا الآن فقد أصبحتُ مثلهم، اذ اني أجد أمامي ملكا متزلّفاً. وبما أني بتّ عظيماً بهذا المقدار، لم يعد لي من حاجة التمسها.

بولينبروك : مع ذلك أطلب ما تشاء.

الملك رتشرد : حقاً هل استطيع ان أطلب ما أشتهي ؟

بولينبروك : أجل، وستناله.

الملك رتشرد : اذاً دعني أنطلق بسلام.

بولينبروك : الى أين ؟

الملك رتشرد : الى حيث تريد، بشرط أن أكون بعيداً عن نظرك.

بولينبروك : ليواكبه بعض الرجال الى سجن البرج.

الملك رتشرد : الموكب رائع فعلاً. لقد عرفت كيف تدبّر لي رفعة مطمئنة، يا من ارتفعت بسهولة عند سقوط الملك الشرعي. (يخرج الملك رتشرد، يواكبه بعض اللوردات وأفراد من الحرس).

بولينبروك : الى اللقاء يوم الاربعاء القادم حين أعيّن رسمياً موعد تتويجي. فاستعدّوا، أيها اللوردات. (يخرج الجميع ما عدا كاهن وستمنستر وأسقف كارليل وأوميرل).

اسقف كارليل: لم يأت الشتاء بعد. لأن الأولاد الذين سيولدون سوف يشعرون بمرارة هذا اليوم المشؤوم الذي سيعذّب ضميرهم ويخذه كالأشواك الحادة الأليمة.

اوميرل : يا لهول الكارثة. ألا يوجد من وسيلة سريّة لإنقاذ هذه المملكة من مثل الكارثة التي تداهمنا.

كاهن وستمنستر : قبل ان أعبّر عن فكري بصراحة، يا مولاي، استحلفك بأعزّ ما لديك، ان تتعهد ليس فقط بالمحافظة على مشاريعي طيّ الكتمان بل أن تنفّذ بأمانة ما سأتخذه من قرارات. اني ارى الاستياء ظاهرا على وجوهكم والدموع تجول في عيونكم والحزن كامناً في قلوبكم. هيا نذهب للعشاء عندي فأعرض عليكم برنامجاً يعيد الينا جميعاً تلك الأيام السعيدة التي فقدناها. (يخرجون).

الفصل الخامس

المشهد الأول

قرب برج لندن.

(تدخل الملكة وبعض السيدات).

الملكة : سيمرّ الملك من هنا. ها هو الطريق الذي يوصل الى البرج الرهيب الذي بناه يوليوس قيصر والذي يحوي سجناً ارسل اليه بولينبروك المتعجرف مولاي الملك رتشرد المحكوم زوراً. هيّا بنا لنرتاح ها هنا، وقد أجبرت هذه الظروف الظالمة ان تبتعد المرأة المحترمة عن زوجها الملك الشرعي.

(يدخل الملك رتشرد بصحبة الحرس).

الملكة : مهلاً، ألا تريد أن تنظر الى وردتي الآخذة بالذبول ؟ لكن لا، ارفع عينيك وتأمّلها بشكل يجعلك كأنك تطلّ عليها مشفقاً، كندى الصباح الذي ينعشها ويكفكف دموعها وقد دحرجها الحب على خدّيها الشاحبين. أنت يا شبيه الصحراء حيث كان موقع مدينة طروادة مهد الشهامة والمروءة

وضريح الملك رتشرد الذي لم يعد ملكاً. ايها الصرح الفخم، لماذا تأوي اليك الآلام العاتية، وقد أمسى الفرج كصيف الحانات والملاهي عسيراً مرهقاً.

الملك رتشرد : أيتها المرأة الفاتنة، لا تألفي العذاب وتقرّبي أجلي. حاولي أيتها الصديقة العزيزة، أن لا تري في فاتحة عهدنا الجديد سوى حلم سعيد استفقنا منه لنعيش مثل هذا الواقع الأليم. يا حياتي، أنا رفيقك الأمين الذي يلازمه مصيره المنحوس، وقد تحالفت وإيّاه حتى الممات. أسرعي الى فرنسا وإنزوي في أحد أديرة الراهبات. اذ علينا أن نكسب عطف العالم بما نبديه من فضيلة وإباء في دنيا غريبة تعويضاً عما سُلب منا من أويقات حلوة قضيناها على هذه الأرض المسالمة.

الملكة : ماذا تقول ؟ هل تغيّرت، يا عزيزي رتشرد، وضعفت معنويّاتك كما هزل جسمك ؟ هل اغتصب بولينبروك ذكاءك أيضاً ؟ هل داس حتى قلبك وعواطفك ؟ ان الأسد المنازع لا يتردّد في تخديش الارض ببراثنه. اذا لم يستطع ان يأتي ببادرة أخرى عندما يستولي عليه الغضب. وأنت نظير تلميذ المدرسة تقبل القصاص بإزعان، أراك ترضخ وتنوء تحت وطأة الأسى والإساءة بوضاعة مخجلة، أنت الأسد الشامخ ملك الغابات والبراري.

الملك رتشرد : أنا فعلاً ملك البراري : لو لم أكن سيّد البهائم، لكنت بقيت ملك البشر. يا عزيزتي الملكة سابقاً، إفترضي أني قضيت نحبي، واستعدّي للرحيل الى فرنسا، معتبرةً أنك تقبّلت هنا وداعي الأخير كأني على فراش الموت. في ليالي الشتاء الطويلة، قرب الموقدة مع الاشخاص المسنّين، أحكي لهم قصص عهد الشقاء الذي انقضّ علينا منذ زمن بعيد. ثم قبل أن تتمنّي لهم ليلة سعيدة ردّاً على حكاياتهم الحزينة، اسردي لهم قصة سقوطي المريع، ثم دعيهم يأوون الى

اسرّتهم والدموع تملأ عيونهم. فيتأثّروا بلوعة وضعيتهم الأليمة، ونظير الجمر وهو ينطفئ يغطي بعضه رماد الشفقة والبعض الآخر يمسي فاحم السواد كأنه يلبس ثياب الحداد على الملك الشرعي المخلوع.

(يدخل نورثمبرلند وحاشيته).

نورثمبرلند : مولاي، ان نوايا بولينبروك قد تبدّلت. فستذهب الآن الى بمْفرات لا الى البرج. وأنتِ ايضاً يا مولاتي، صدر القرار بترحيلك عاجلاً الى فرنسا.

نورثمبرلند : مولاي، ان نوايا بولينبروك قد تبدّلت. فستذهب الآن الى بمْفرات لا الى البرج. وأنتِ ايضاً يا مولاتي، صدر القرار بترحيلك عاجلاً الى فرنسا.

الملك رتشرد : يا نورثمبرلند، انت السلّم الذي ارتقى عليك بولينبروك الى العرش. لكن بعد انقضاء بعض الوقت، كن على يقين بأن هذا المغتصب المتغطرس سيغرق في مستنقع الإثم والفساد. انت تفكّر فيما اذا كان ينوي أن يقسم مهامّ المملكة بينك وبينه مناصفة، وستجد أن نصيبك هكذا زهيد جداً. وهو يفكّر بأن يبقى على العرش ملكا غير شرعي، ويخشى أن تتوصل انت الى إيجاد طريقة لتدحرجه من عليائه، والانفراد مجدداً وحدك بالعرش الذي حاول أن يستأثر به لنفسه. لأن الصداقة بين شرّين لا تلبث أن تتحوّل الى هلع ثم الى حقد يدفع أحد الفريقين، إن لم يدفعهما كليهما الى السقوط ضحية الكارثة التي تدهورهما معاً الى قعر هاوية الهلاك كما يستحقّان.

نورثمبرلند : ليسقط ذَنْبي كالفأس على عنقي، وينتهي عذابي. ليودّع احدكما رفيقه وليفترق عنه حالاً، لأن موعد رحيلكما قد حان.

الملك رتشرد : هذا طلاق مضاعف... بما أنكما شريران لا يصدر عنكما إلا الأذى ها قد هدمتما زوجاً مزدوجاً. أولاً بيني وبين تاجي، ثم بيني وبين شريكة حياتي. (للملكة). دعيني أحلّ بقبلة ما يجمعنا من روابط . أقول بقبلة ؟ هذا محال، لأن عهودنا هذه عُقدت بقبلة صادقة. ولنفترق، يا نورثمبرلند، أنا أذهب الى الشمال حيث المناخ يقسو بالبرد القارس المهلك، وزوجتي الى فرنسا من حيث أتت بأبّهة، مزدانةً بالزهور نظير شهر أيّار المشرق المعبّق بشذى الورود والرياحين، وهي عائدة مرغمةً كئيبة مثل شهر تشرين العبوس.

الملكة : ايتحتّم علينا أن نفترق، وأن يكون أحدنا بعيداً عن رفيقه ؟

الملك رتشرد : نعم. لا بد ليدي من أن تنفصل عن يدك، يا حبيبتي، ولقلبي من أن ينسلخ عن قلبك الأليف.

الملكة : (لنورثمبرلند) : عليك ان تنفينا نحن الاثنين معاً الى جهة واحدة. فاطرد الملك كي يذهب بصحبتي.

نورثمبرلند : هكذا لن يكون تساهلي رفقاً إنسانياً بل عملاً سياسياً. زهيداً.

الملكة : اذاً دعني أصحبه الى حيث يمضي هو.

الملك رتشرد : ان شقاءَيْن يتشاكيان همومهما لا يشكّلان سوى بؤس واحد. فاندبي أنتِ سوء حظي في فرنسا، وأنا أندب حظلك المنكود ها هنا. لأن الأفضل أن نكون بعيدَيْن أحدنا عن الآخر من أن نكون قريبَيْن لا امان يجمعنا ولا ارتياح. اذهبي وعدّي خطواتك المقرونة بآهاتك وأنا أعدّ خطواتي مشفوعةً بدموعي السخية.

الملكة : بما ان طريقي هو الأطول، ستكون شكواي ايضاً هي الأجدى.

الملك رتشرد : اما طريقي أنا فهو الأقصر. لكن دموعي ستتضاعف في كل

خطوة، وسيطول دربي بمقدار قنوطي. هيّا، هيّا، لنكفّ عن المناجاة في ظل الألم. تعالي نختتم وداعنا بقبلة صامتة (يتعانقان) وهكذا أعطيك قلبك وتأخذين قلبي.

الملكة : أعد اليّ قلبي، وأنا يجمل بي أن لا أحتفظ بقلبك وأمزّقه (يتعانقان ثانية). والآن وقد استرجعت فؤادي، إذهب وأنا سأحاول أن أغلّفه بدموعي ونحيبي.

الملك رتشرد : هكذا يضايق الشقاء تباطؤنا المهووس. وداعاً أخيراً. ولنترك بؤسنا يحكي ما تبقّى من لوعتنا. (يخرجون).

المشهد الثاني

في قصر دوق يورك

(يدخل الدوق ودوقة يورك).

الدوقة : مولاي اللورد، قلت عندما منعتْك دموعك من الكلام أنك ستكمل لي سرد قصة رجوع ابنيْ اخينا الى لندن.

يورك : نعم، الى اين وصلت ؟

الدوقة : الى لحظة امتداد الأيدي القاسية من النوافذ لرمي النفايات والاقذار على رأس الملك رتشرد.

يورك : قلت اذاً ان الدوق بولينبروك الكبير قد امتطى صهوة جوادٍ حرون يبدو كأنه عرف مهارة فارسه وتابع خطواته البطيئة المهيبة، بينما هتفت جميع « الأصوات : حفظك الله يا بولينبروك ». وقد خُيّل الى الجميع ان النوافذ كانت تصرخ أيضاً والوجوه الفتيّة والمسنّة تتقاطع كأن إشعاع نظراتها مسلّط الى محياه، وان جميع الجدران تصيح هي ايضاً « حفظك الله، واهلاً بك، يا بولينبروك ». بينما هو التفت

الى هذه الجهة وتلك مكشوف الرأس، وقد تدلّى جنباه الى مستوى أسفل بطن حصانه الفخور وهو يقول لهم: « اشكركم، ايها المواطنون ». ويتقدم هكذا وهو يكرّر عبارته هذه بدون انقطاع.

الدوقة : وا أسفاه. ماذا حلّ بالمسكين رتشرد ؟ كيف كانت سحنته وهو على متن جواده ؟

يورك : نظير الحضور الصاخب في قاعة المسرح حالما يترك الممثل المفضّل خشبة هذا المسرح. ثم يلقون نظرة عدم مبالاة على من يدخل بعده من الممثلين العاديّين، وهم غائصون في ثرثرة مبهمة لا طعم لها ولا لون. هكذا، وبصورة اكثر ازدراءً، وقعت العيون على رتشرد. ولم يصرخ احد « حفظه الله ». وليس من ثغر إبتسم ليحيّي عودته، بل كان الجميع يذرُّون الرماد على رأسه العاري. بينما هو مكفهرّ الوجه من شدة الكآبة، والابتسام المصطنع يرسم على ملامحه خطوط ألمه وذلّه، وينفض عنها غبار الحزن والازعان كأن الله لم يخصّه قبلاً بمصير مجيد. فرقّت له قلوب الناس، وكلهم متأثرون بما آل اليه بسبب وحشية من عطف وأشفق عليهم. ولكن بما أن للسماء ضلعاً في هذه الاحداث الأليمة علينا ان نخضع بهدوء لحكمها الصارم. وها نحن قد أصبحنا رعايا بولينبروك الذي أعترف أنا ويعترف الكل بسطوته وسلطته.

(يدخل أوميرل).

الدوقة : ها هوذا ابني أوميرل قد أتى.

يورك : كان في الماضي يدعى أوميرل. غير أنه فقد هذا اللقب، لأنه كان من أنصار رتشرد. والآن يا سيدتي، عليك ان تسمّيه روثْلند. لأني كفلْتُه أمام المجلس وتعهّدت بأنه سيحوّل اخلاصه وولاءه الى العاهل الجديد.

الدوقة : اهلاً بك، يا بنيّ. ما هي البنفسجات التي تزهو بإخضرار أوراقها النضرة في هذا الربيع المتجدّد.

اوميرل : سيدتي الوالدة، لست أدري ولايهمّني هذا الأمر بتاتاً. الله يعلم ان وجودي وعدمه أصبح عندي سيّان.

يورك : لماذا هذا القول ؟ عليك أن تحسن التصرف في هذا الموسم الجديد، خشية ان تذبل أحلامك قبل أن تزهر. ما وراءك من أخبار أوكسفورد ؟ هل تتواصل مناظراتها وأعيادها ؟

اوميرل : أجل هي مستمرة، على ما أعلم.

يورك : وأنا أعرف أنك عازم على الاشتراك في نشاطاتها.

اوميرل : ان شاء الله. هذا ما أنوي عمله.

يورك : ما هذا الختم البارز على الورقة المعلقة فوق صدرك ؟ لماذا شحب لونك ؟ دعني أتبيّن ما كُتب عليه.

اوميرل : أرجوك، يا سيدي، أن تعذرني. هذا أمر لا أهمية له، ولا داعي لأن أدع أحداً يطلع عليه.

يورك : أنا مصر على رؤيتها لبعض الأسباب، وأخشى...

الدوقة : ماذا تخشى ؟ لا بد من يكون هناك أمر ساهم فيه فاشترى بزّة لارتدائها اثناء الاحتفالات هناك.

يورك : هي بطاقة باسمه. ولا لزوم لها كي يساهم في اقتنائها هو أيضاً. انت لا تدركين، يا امرأة، ماذا يجري... أرني هذه الكتابة، يا ولد.

اوميرل : أتوسّل اليك أن تعذرني، اذ اني لا استطيع ان اطلعك عليها.

يورك : أنا مصمّم على مشاهدتها. هيا قلت لك، أرني إياها (ينتزع الورقة من صدر أوميرل ويقرأها). خيانة، خيانة عظمى. تبّاً لك من خائن حقير ومجرم خطير.

الدوقة : ما الأمر، أيها اللورد ؟

يورك : يا للفظاعة. من القادم ؟

(يدخل أحد الخدم).

يورك : (يواصل كلامه) : أسرج لي حصاني. يا إلهي إرحمني. ما هذا الكمين ؟

الدوقة : قل لي، ايها اللورد، ما الخبر ؟

يورك : ناوليني حزمتي. قلت لك أسرج لي حصاني. أقسم بشرفي، أقسم بحياتي، أني سأفضح هذا السافل. (يخرج الخادم).

الدوقة : اخبرني ما الأمر ؟

يورك : إلزمي الهدوء، أيتها المرأة الساذجة.

الدوقة : لا أريد أن أهدأ... ما الأمر، يا ولدي ؟

اوميرل : إلزمي الهدوء، يا أماه. ليس في الأمر سوى ما يخصني شخصياً ويتعلق بي وحدي وبحياتي أنا فقط.

الدوقة : حياتك أنت ؟

يورك : اجلب لي جزمتي، أريد أن أذهب لأقابل الملك. (يعود الخادم، وبيده جزمة الدوق).

الدوقة : تشير الى الخادم) أطرده، يا أوميرل. مسكين أنت، يا بنيّ. ما لي أراك مرتبكاً. (للخادم) أخرج من هنا، أيها الأحمق، ولا ترني وجهك بعد الآن.

يورك : (للخادم) : قلت لك اعطني جزمتي.

الدوقة : آه، يا يورك، ماذا تنوي ان تفعل ؟ ألا تريد أن تستر غلطة ولدك ؟ هل لدينا ابن سواه ؟ وهل من المعقول ان ننجب ولداً آخر ؟ أولم أتقدّم في السنّ بمرور الأيام ؟ هل تريد أن تحرمني من ولدي في شيخوختي وأن تسلبني سعادتي كأم ؟ ألا يشبهك ؟ أولست أبوه ؟

يورك : تبّاً لك من امرأة مهووسة ثرثارة حمقاء. أتريدين أن أكتم مؤامرة خبيثة خسيسة ؟ لقد تضامن اثنا عشر غبياً مثله وتعاهدوا على اغتيال الملك في اوكسفورد.

الدوقة : هذا أمر لا يمكن أن يتحقّق. وسنحتفظ بولدنا ها هنا. فما عساه يفعل ؟

يورك : اليك عني أيتها الثرثارة الغبيّة. لو كان عشرين مرة ولدي، لا بد من فضح خيانته النكراء.

الدوقة : لو كنت تعبتَ بحمله في أحشائك مثلي، لكنت أقلّ حدّة وقساوة في تصرفك حياله. لكنني أتوقّع الآن ما يجول في فكرك. أنت تظنّ اني لم اكن وفيّة مخلصة لك كزوجة، وأن ولدنا ابن حرام وليس ابنك. يا صديقي العزيز يورك، أطردْ من رأسك هذا الوهم. ألا ترى أنه يشبهك تمام الشبه ولا يشبهني مطلقاً، ولا يشبه أحداً من أسرتي، ثم إني أحبه للغاية.

يورك : اليك عني، أيتها المرأة العنيدة. (يخرج).

الدوقة : هل أنا حقاً كما وصفني أبوك، يا أوميرل ؟ هيّا إمتطِ أحد جياده وأسرع بأقصى المستطاع واسبقه الى الملك والتمس عفوه على ما يتهمك به. وأنا لن أتأخر في اللحاق بك. ومهما كنت متقدّمة في السنّ أنا واثقة بأني على متن الجواد لا أزال أسرع من أبيك يورك. ولن أترجّل عن ظهر حصاني إلّا بعد أن يعفو عنك بولينبروك. فهيا أسرع. (يخرجان).

المشهد الثالث

في قصر وندسور.

(يدخل بولينبروك وهو بلباسه الملكي، وبرسي ولوردات آخرون).

بولينبروك : أولا يستطيع أحد أن يزوّدني بأنباء عن ولدي الشارد ؟ ها قد مضت ثلاثة أشهر على غيابه ولم أشاهده أثناءها. فان

كان هناك من ضربة تقضّ مضجعي فهي غيابه بالذات واختفاؤه عنّي. أسأل الله، أيها اللوردات، أن تتمكن من العثور عليه. أرجوكم ان تبحثوا عنه في لندن بالأخص في جميع الحانات. اذ بلغني أنه من روّادها المدمنين، بصحبة رفاقه الفجّار المستهترين الذين، على ما يقال، يقطعون ايضاً شتى الطرقات، وينصبون الكمائن ويسلبون المارة. وهو كغير من الشبان المتهتّكين يتمرغ في أحضان الغواني وبنات الهوى. ويؤسفني كذلك ان يفاخر بمساندة تلك العصابة المنحطة الأخلاق.

برسي : يا مولاي، لقد شاهدت الأمير منذ يومين وكلّمته عن الحفلات الشعبيّة التي ستقام في اوكسفورد.

بولينبروك : وماذا قال لك هذا الماجن اللعين ؟

برسي : انه سيذهب الى مواخير المدينة المذكورة، وسيتناول قفاز أشهر مومس هناك ليحتفظ به كتذكار عزيز، إذ يتوهّم انه تعويذة سيتغلب بواسطتها على أقوى منافسيه.

بولينبروك : حتماً فَقَدَ ابني كل مقومات عزة النفس والكرامة. مع ذلك، ومن خلال رذائله، لا أزال ألْمح بصيص أمل يستطيع مع مرور الزمن، أن يهديه ويعيده الى السبيل القويم. لكن، من القادم الى هنا ؟

(يدخل أوميرل وهو يرتجف من شدة الهلع).

اوميرل : أين الملك ؟

بولينبروك : ماذا تريد، يا ابن العم، وماذا يروّعك هكذا ؟

اوميرل : حفظ الله جلالتك. أرجوك، يا صاحب السيادة، ان تسمح لي ببرهة وجيزة من وقتك لأحدّثك على انفراد.

بولينبروك : (للوردات) : أرجوكم ان تنسحبوا وتتركوني وحدي معه.

(ينسحب برسي واللوردات). والآن تكلّم يا ابن عمّي. ما الخبر ؟

اوميرل : (يرتمي على قدمي بولينبروك) : صبرك عليّ لحظة ريثما يهدأ روعي وأتمكّن من الوقوف على قدميّ، ويقوى لساني على التحرك في فمي، لعلّي أتمكن من استرداد أنفاسي ومن الكلام كي تعفو عني.

بولينبروك : هل القضية لا تزال مشروعاً أم تمّ تنفيذها ؟ إن كانت لا تزال مشروعاً، فمهما كان الأمر شنيعاً سأسامحك بغية استرجاع ما بدا منك من الاخلاص والولاء لي في الماضي وتنوي التشبّث به في مستقبل الأيام.

اوميرل : إسمح لي بأن أقفل الباب بالمفتاح كي لا يدخل أي إنسان الى هنا قبل انهاء قصتي.

بولينبروك : كما تشاء. (أوميرل يقفل الباب).

يورك : (من الخارج) : إحذر، يا صاحب الجلالة. إلتزم جانب الحذر الشديد لأنك تواجه مجرماً خطيراً.

بولينبروك : (يستلّ سيفه) : أيها المحتال، أثبت لي أمانتك وبراءتك.

اوميرل : أوقف يدك الناقمة، ولا تخشَ مني أي أذى.

يورك : (من الخارج) : افتح لي الباب، أيها الملك المتهوّر الى حدّ الجنون. فحياتك في هذه اللحظة مهدّدة بخطر داهم. هل يتحتّم عليّ لإنقاذ حياتك أن أقتحم الباب كثائر متمرّد. إن لم تفتح لي فوراً، كسرت هذا الباب ودخلت عنوةً.

(يفتح بولينبروك الباب ويدخل يورك مندفعاً).

يورك : تصفّح هذا المكتوب، واطّلع على الخيانة التي يمنعني استعجالي من شرحها لك بالتفصيل.

اوميرل : (للملك) : تذكّر وعدك لي وأنت تقرأ. أنا تائب، فلا تسخط عليّ لمجرّد ورود إسمي في الورقة. ما دام قلبي أبى أن يكون شريك يدي.

يورك : كنت غادراً ماكراً قبل أن توقّع يدك عليها. أيها الملك المتبصّر، لقد اقتلعت انا هذه الورقة من صدر هذا الخائن. وما دعاه الى الندم هو الخوف وليس الحب. فدع عنك كل شفقة حياله، خشية ان تتحوّل رحمتك الى افعى تلدغك وتنفث فيك سمومها.

بولينبروك : تبّاً لإبنك من مغامر متآمر وقح ومناوىء محتال. ويا لك من والد وفيّ أنجب ابناً سفّاحاً كهذا، وأنت الينبوع الصافي النقي الذي اشتق منه هذا الجدول العكر الملوّث. فما تفيض به نفسك من خير ها قد تحوّل الى شرّ مستطير. لذا أترك لأمانتك أن تقاصص بصرامةٍ ولدك المجرم الذي يستحق أقصى العقاب.

يورك : هكذا أصبحتْ فضيلتي ستراً لرذيلة ولدي، وقد استخدم شهامتي لتبرير جحوده اللئيم كما يبدد الابن المسرف اموال أبيه الحريص. لا بد لي من المحافظة على شرفي ناصعاً طاهراً. وعليه أن يمحو عاره ويدفن سفالته، وإلّا أفضى انحطاطه الى اذلال كياني. انت تقضي على حياتي بصيانة وجوده وانقاذ رأسه اذ تدع الخائن يعيش والرجل الشهم يموت.

الدوقة : (من الخارج) : بالله عليك، أيها الملك الفاضل، أرجوك بحق السماء أن تدعني أدخل.

بولينبروك : من هي المتلمسة القلقة التي تطلق هذه الصيحات اليائسة المدويّة ؟

الدوقة : هي امرأة مسكينة، هي عمتك ايها الملك الوقور. استمع الى كلامي وافتح الباب واستجب نداء مستعطية على باب كرمك وسماحتك، لم تعرف يوماً ذلّ السؤال.

بولينبروك : ها قد تغيّر المشهد. فمن مسألة جدّيّة إنتقلنا الى قصة « الملك والمتسوّلة ». يا ابن عمي الكريم، دع والدتك

تدخل. وانا على يقين بأنها جاءت تتوسّط وتخفّف وطأة عملك المشين.

يورك : اذا سامحته نزولاً عند رجاء أيٍ كان ستشجّع رحابة صدرك على ارتكاب قبائح جديدة. عليك أن تبتر هذا العضو المريض، كي يظلّ سائر الجسم سليماً معافى. أمّا إذا أبقيت عليه ظلّ البدن كله عليلاً.

(تدخل دوقة يورك)

الدوقة : أيها الملك الشهم، لا تصدق هذا الرجل المتحجّر القلب. فمن لا يرحم نفسه لا سبيل الى الاشفاق على سواه.

يورك : ايتها المرأة الفاضلة، ماذا جئت تفعلين هنا ؟ هل تودّين أن تدافعي عن هذا الخائن السافل ؟

الدوقة : صبراً يا عزيزي يورك. إستمع إليّ أيها المولى الصالح. (تركع).

بولينبروك : انهضي، يا عمتي الكريمة.

الدوقة : لن أنهض الآن، بل استحلفك وأنا لا أريد أن أنهض طوال عمري، ولا أن أرى يوماً سعيداً قبل أن تردّ الى قلبي الطمأنينة والسرور وذلك بأن لا ترفض لي التماسي وأن تعفو عن ولدي المذنب روتلاند.

اوميرل : (يركع) : وأنا أضمّ صوتي المتوسّل الى رجاء والدتي.

يورك : (وهو يركع) : أمّا أنا فأعارض إلحاحهما وأجثو بدوري امامك. فإن عفوت عنه حتماً سيصيبك مكروه.

الدوقة : هل يتكلّم جدّياً ؟ أنظر الى وجهه والى عينيه الخاليتين من أي أثر للدمع. فإن التماسه مضحك وكلامه ينطلق من طرف لسانه بينما توسّلنا نحن مصدره أعماق فؤادنا. هو يرجو بخشونة ويستدرّ رفضك، بينما نحن نناشدك السماح بقلب منسحق وروح متواضع وعاطفة متذلّلة. أنا أعرف ان

رجليه التعبتين تنتصبان بسهولة، بينما ركبتانا ستظلّان ملتصقتين بالأرض حتى تتأصلا وتنبت لهما جذور عميقة. رجاؤه هو مفعم بالرياء الكاذب بينما إلْتماسنا نحن ينبع من صراحة صادقة وفيّة واسترحاماتنا تستصرخ ضميرك الحيّ بصوت جريء بريء أعلى من صوته المرتجف المائع. عليك، يا صاحب الجلالة، أن تميّز بين استغاثة الحقيقة التي تستحقّ الرحمة وبين صلابة التشبث بالصرامة التي تستدعي الازدراء.

بولينبروك : اكرّر عليك، يا عمتي العزيزة، أن تنهضي.

الدوقة : كلا، لا تطلب مني ان انهض الآن، بل قل لي : « أنا أعفو عنه، قبل ان اطلب منك النهوض ». لو كنت المربّية المكلّفة بتعليمك النطق، فان كلمة العفو هي أولى اللفظات التي كنت لقّنتك اياها. لم اتلهّف في حياتي الى سماع اية كلمة مرجوّة. فأتوسّل اليك، أيها الملك، ان تقول : « إني أسامحك ». وهذه الكلمة هي أحلى لفظة اود ان اسمعها منك، لأنها أروع كلمة تخرج من فم ملك عادل كريم.

يورك : خاطبها بالفرنسية وقل لها : اعذريني على عدم مسامحتي اياه.

الدوقة : انت تقترح على الرجل السموح ان يلغي كلمة العفو. تبّا لك من زوج متصلّب وسيد متحجّر القلب تقدّم عكس معنى الكلمة على معناها الصحيح. ألا تحدّث عن العفو بلهجة بلدنا، فنحن لا نفهم ابداً هذه اللغة الفرنسية الغريبة. عيونك بدأت تتكلّم فانصت الى صوتها. ولتسترق أذنك الإصغاء الى صوت قلبك الذي كان دوماً رحوماً، كي يسمح شكوانا ورجاءنا الحارّ، فيرقّ فؤادك ويهتزّ بعاطفة الرحمة والغفران.

بولينبروك : اسألكِ، يا عمتي الكريمة أن تنهضي.

الدوقة : انا لا أطلب النهوض. فالمنّة الوحيدة التي ألتمسها منك هي العفو ثم العفو ثم العفو.

بولينبروك : إني أعفو عنه، وأسأل الله أن يسامحني.

الدوقة : ها قد بلغتُ امنيّتي أنا المسترحمة الجاثية. مع ذلك تراني غير هادئة البال من هول ما راعني. أرجوك أن تكرّر ما قلته منذ لحظة. فتكرار عفوك ليس عفواً مضاعفاً، بل هو تأكيد هذا العفو السموح.

بولينبروك : من كل قلبي أقول اني عفوت عنه.

الدوقة : انت فعلاً على الأرض تمثل الله غفّار الذنوب.

بولينبروك : امّا ما يخصّ صهرنا الوفي، هذا الكاهن الممعِن في التقى وسائر زمرته الطاغية، فان الدمار سيحلّ بديارهم وينْعُب فيه غراب البين. أرسل، يا عماه، جنودك الى اوكسفورد والى كل مكان يعجّ بهؤلاء الخونة، بغية تطهير الأرض من موبقاتهم. أقسم أنهم لن يعيشوا طويلاً في هذه الأرض الطيبة لأني أنوي إلقاء القبض عليهم، عندما أعرف مكان وجودهم. وداعاً، يا عماه. وداعاً يا ابن العم. لقد أحسنت امّك في رجائها وفي التماس العفو عنك. فاعتصم بحبل الوفاء والولاء من الآن وصاعداً، واسلم آمناً، وعِشْ هانئاً.

الدوقة : تعالَ، يا بنيّ، تعال، أيها الخاطئ التائب. أسأل الله ان يخلق فيك انساناً جديداً صالحاً.

المشهد الرابع

في وندسور.

(يدخل إيكستون وأحد الخدم).

ايكْستون : الم تلاحظ ما فاه به الملك ؟ أليس من صديق يخلّصني من هذا المأزق الحرج ؟ أليس هذا ما نطق به حرفياً ؟

الخادم : أجل، هذه كلماته بعينها.

ايكستون : لقد تساءل قائلاً : أليس من صديق يسعفني ؟ وقد كرّر ذلك مرّتين، ملحّاً على هذا السؤال بالذات في كلا المرتين. أليس كذلك ؟

الخادم : أجل، هذه كلماته بعينها.

ايكستون : لقد تساءل قائلاً : أليس من صديق يسعفني ؟ وقد كرّر ذلك مرتين، ملحّاً على هذا السؤال بالذات في كلا المرتين. أليس كذلك ؟

الخادم : أجل، أجل.

ايكستون : واثناء حديثه، تمعّن فيّ جيداً كأنه يريد أن يقول : أتمنّى لك ان تكون رجلاً يستعجل إجراءات الطلاق بين قلبي وهذا الشبح المرعب، وهو يشير الى الملك الموجود في بومْفرات. هيا بنا نذهب من هنا. أنا صديق الملك وأصرّ على انقاذه من اعدائه. (يخرجان).

المشهد الخامس

في شرفة من قصر بومْغرات.

(يدخل الملك رتشرد).

رتشرد : حاولت عبثاً حتى الآن ان اجد طريقة لمقارنة السجن الكبير الذي اعيش فيه بما حولي من الناس. لكن لمّا كان العالم غاصاً بالسكان المتزاحمين، لم أجد أية وسيلة الى هذه المقارنة لاني أحيا هنا منفرداً. مع ذلك، لا بدّ لي من ايجاد تقارب في هذا الموضوع الشائك. أنا اعتبر دماغي كجهاز أُنثوي بالنسبة الى ذهني، وذهني هو الأب وكلاهما يتعاونان على خلق مجموعة جديدة من الأفكار التي تتصارع وتملأ هذا الكون بالأهواء الغامضة التي تفرّق شعوب هذه الدنيا. لان ليس هناك حكمة، واحدة مجرّدة تنطوي على الحل الذي يرضي الجميع. فأسمى الشؤون التي ترتكز على الافكار المتعلقة بالأمور الالهية لا تخلو من بوادر الشك وتضع الكلمة ذاتها مقابل نقيض هذه الكلمة الاساسية. لذلك نميل الى الاستنتاج من هذه العبارة التالية : « دعوا الاولاد يأتون اليّ » انها نقيض : « أعسر من مرور الجمل في ثقب الابرة ». لأن النزعة الرامية الى الإنتقاض والطموح تتآمر من خلال المعجزات غير الممكنة، وتبحث عن سبيل لجعل الأظافر الضعيفة تحفر وتشقّ طريقها من خلال السفوح الصخرية المنتصبة في منعرجات هذا العالم القاتم كجدران سجني المظلم الذي يحجب عني النور والحرية. وبما ان ذلك متعذّر، تتوارى هذه الافكار وتُدفن في غياهب الأباطيل ذاتها. اما الافكار النيّرة الميالة الى المسالمة والمسايرة، فتتشبّث بالحكمة القائلة اننا لسنا أوّل ضحايا

سوء الحظ ولن نكون آخرها، نظير هؤلاء المستعطين الاغبياء الجالسين عند أقدام أعمدة الهيكل يخفون انحطاطهم في زوايا هذا الملاذ الذي ضمّ غيرهم في الماضي وسيضمّ آخرين أيضاً في المستقبل، وكلهم يجدون نوعاً من العزاء في القبول بحظهم العاثر على حساب من عانوا الغبن مثلهم في دهاليز تاريخ البشرية. وهكذا أقوم وحدي بأدوار مختلفة ليس فيها واحد راضٍ بما قسم له من نصيب. في بعض الأحيان أراني ملكاً، فتحملني الخيبات على التمنّي بأن أصبح متسوّلاً، وأكون كذلك. لكن بؤسي الأليم يقنعني بأن الأجدر بي ان اكون ملكاً فأجد نفسي ملكاً ثانيةً. ثم سرعان ما تراود خاطري فكرة بأن بولينبروك قد خلعني وانتزع العرش منّي، واذا بي أفقد ما أنا حاصل عليه. ولكن مهما كان الحال، فلا أنا ولا أي كان من البشر يجد سبيلاً الى العثور على ما يرضيه، قبل الانفراج الاخير وانعتاق من مغريات هذه الدنيا، اي الانفلات من غياهب الاباطيل.

(تصدح الموسيقى) ماذا أسمع ؟ من أين تأتي هذه الأنغام الموسيقية ؟ لاحظوا الإيقاع... ان أعذب الالحان تبدو مزعجة عندما لا تجيْ. في حينها، ولا تكون نبراتها منسجمة. هكذا هو حال سائر بني البشر. هنا ألاحظ ان سمعي مرهف يميّز كل نبرة نشاز تنبعث من وتر مختلّ التوازن. لكن أذني حيال معزوفة سلطتي وزمني لم تكن مرهفة الى درجة تجعلني آبه الى سوء تصرفي بأوقاتي وشؤوني، فانتهيت الى وضع حملني على الانحراف في سلوكي وتصرفي بشخصي انا. إذ إن الوقت الآن يتّخذني كمقياسٍ لمرور الزمن. فافكاري هي الدقائق وكل تنهيدة تتصاعد من أعماق صدري هي بمثابة الثواني التي تدل على لحظات من الوقت في ميناء ساعة كبيرة يمثّل عقربيها

إصبعاي اللذان امسح بطرفهما دموع شقائي واخفاقي. أما الصوت الذي يعلن تمام الساعات فهو شهيق نحيبي الذي يرنّ كجرس مكسور في زوايا فؤادي المكلوم. هكذا تدلّ التبدّلات والدموع والآهات على الثواني والدقائق والساعات... غير أن الوقت يسرع بالنسبة الى بولينبروك في فوّارة أفراحه، بينما انا هنا اقوم بالنسبة اليه مقام نابض الساعة البليد المتواري. ان هذه الموسيقى تثير كوامن شجوني، ولا بد لها من ان تتوقّف لأرتاح قليلاً. وإن كانت احياناً تعيد المجنون الى صواب رشده، فهي بالنسبة اليّ دافع العقل الى أحضان الجنون المطبق على كل حال، هذا لا يهمّ. فأنا أبارك الانسان النبيل الذي يشنّف اذني بهذه المعزوفة الحلوة. لأنها دليل حنوّ، والعطف على رتشرد اضحى بلسماً نادر الوجود يشفي جراحي في هذه الدنيا الطافحة بالحقد والبغضاء.

(يدخل أحد الغلمان)

الغلام : السلام عليك، أيها الملك المبجّل.

الملك رتشرد : أشكرك، يا صاح. ان أغلى شخص بيننا يساوي عشرة فلوس أقلّ من سواه في سوق التفاهة والخساسة. من أنت، وكيف وصلت الى هذا المكان المقفر الذي لا يبلغ اليه سوى قاصده ممّن يأتونني بطعامي كي لا أهلك جوعاً ؟

الغلام : ايها الملك الكريم، انا كنت غلاماً مسكيناً في أحد اسطبلاتك العديدة عندما كنت لا تزال ملكاً. وحين ذهبت الى يورك تمكّنت بصعوبة من الحصول على أذن لأشاهد ملامح الملك الذي كان قبلاً سيدي. كم كان قلبي كئيباً يوم التقبيح لدى مشاهدتي بولينبروك في شوارع لندن يتجوّل على متن الحصان « بربري » الذي كثيراً ما أمتطيته

أنا لأدرّبه، هذا الحصان الأصيل الذي طالما رعيته وأحسنت الاعتناء به.

الملك رتشرد : اذاً كنت تمتطي حصاني المفضّل « بربري ». قل لي صديقي كيف حال « بربري » في هذه الأيام ؟ هل هو سهل القياد ؟

الغلام : هو فخور متشامخ كما كان، ينفر عندما يمتطيه أحد سواك، كأنه من بعدك بات يزدري بالأرض التي يسير عليها خبباً.

الملك رتشرد : هل رأيته هكذا فخوراً عندما اعتلى صهوته بولينبروك ؟ هذا الحصان النشيط الاليف كان يأكل الخبز من يدي الملكية، وكان يرتاح كثيراً لمداعبة اناملي وملاطفة جلده الأملس الناعم، ولم يكن ابداً يجفل مني. ولم يسقط يوماً مع أن التشامخ لا يسلم من كبوة، ولم يفكّ عنق الرجل المتجبّر الذي سلبني اياه. سامحني ايها الحصان. لماذا أنا ألومك، وأنت مخلوق لتعيش في كنف سيدك الانسان، والمطلوب منك ان تحمله. فأنا لم أولد حصاناً، ومع ذلك أحمل أعبائي كأني مطيّة تقلبات الدهر يهمزها ويرهقها المغتصب العاتي بولينبروك.

(يدخل السجان وبيده صحن طعام).

السجان : (للغلام) : إذهب من هنا، يا رفيقي، إذ لا يمكنك ان تبقى في هذا المكان مدة أطول من هذه.

الملك رتشرد : إذا كنت تحبّني فعلاً، عليك أن تمضي.

الغلام : إن لم يجرؤ لساني على إعلان حبّي لك، سيعبّر عنه قلبي (يخرج).

السجان : (يشير الى الصحن) : هل تريد، يا مولاي، أن تتفضّل وتتناول طعامك ؟

الملك رتشرد : هلّا ذقت أوّلاً هذا المأكل كما جرت العادة ؟

السجان : لا أجسر، يا مولاي، لأن سرّ إيكستون الذي أرسله الملك مؤخراً أمرني بالعدول عن هذه العادة.

الملك رتشرد : ليت الشيطان حملك وحمل هنري لنكاستر الى نيران الجحيم. فقد نفذ صبري ومللت وجودي هنا. (يضرب السجان).

(يدخل إيكستون وبعض الرجال المسلّحين).

الملك رتشرد : (يواصل) : ما معنى هذا الكلام ؟ ماذا يقصد المستبدّ بهذه المعاملة الشرسة ؟ تبّاً لك من دجّال جعلت ظلمك آلة للقضاء على حياتي. (ينتزع سلاح أحد الرجال ويقتله). إذهب انت ايضاً واشغل مكاناً آخر في جهنم. (ثم يقتل رجلاً ثانياً، فيصرعه إيكستون ويرديه جريحاً). ليحترق في لهيب نارٍ لا تنطفئ ذاك الذراع الذي ستدوّخني ضربته. يا إيكستون، قد لوّثت يدك بدم ملك كان يحكم بلادك. فاصعدي يا نفسي الى مقرك في الأعالي، بينما جسدي يهوي الى الارض التي ستضمه عندما أفارق الحياة. (يموت).

ايكستون : ان قيمتك كبيرة بقدر ما يجري في عروقك من دماء ملكية. وانا استنفدتُ هذه وتلك. واملي ان تنظر السماء الى سلوكي بعين الرضى. لان إبليس الذي كان يحمّسني ويدّعي أني أحسنت صنعاً يصرّح لي الآن بأن جرمي قد دُوِّن في سجلّ الجحيم لأُعاقب عليه. فلأَحْمِلْ هذا الملك الميت الى الملك الحيّ. وأنتم أيها الرجال، هيّو الى نقل باقي الجثث لندفنها هناك. (يخرجون).

المشهد السادس

(تصدح الموسيقى).

(يدخل بولينبروك ويورك بصحبة لوردات آخرين،

مع رجال الحاشية).

بولينبروك : يا عمي العزيز، إن آخر نبأ بلغني الآن هو أن المتمرّدين احرقوا مدينتنا سيسْتر في مقاطعة كلوسسْتر شاير، ولم أعرف بعد ان كانوا قد إعْتُقِلوا أو قُتِلوا.

(يدخل نورثمبرلند)

بولينبروك : أهلاً بمولاي. ما وراءك من الأخبار ؟

نورثمبرلند : أوّلاً أتمنّى لك النجاح والازدهار في كل ما تُقدم عليه. ثم أُعلمك بأني أرسلت الى لندن رؤوس سالزبري وسبنسر وبلونْت وكنْت. أمّا تفاصيل إعتقالهم فمسرودة في هذه الورقة. (يقدم له ورقة).

بولينبروك : أشكرك على ما قمت به ايها النبيل برسي، ولن أبخل عليك بمكافأتك على سعيك المشكور.

(يدخل فيتْز واتر)

فيتْز واتر : مولاي، ارسلت من اوكسفورد الى لندن رؤوس بروكاس وسرْ بينيت سيلي وهما اثنان من اخطر المشاغبين الذين تآمروا في اوكسفورد لقلب حكمك والاستيلاء على عرشك.

بولينبروك : لن أنسى جميلك، يا فيتْز واتر. وأنا أعرف نبل نواياك التي جعلتك تستحق أفضل المكافآت.

(يدخل برسي وأسقف كارليل).

برسي : أما المتآمر الخطر كاهن وستمنستر الذي يعذّبه ضميره وينهش الاسف المرير صدره فهو ينتظر أن تُودع جثته ظلمة القبر قريباً. ها هوذا كارليل المذكور حيّ ماثل امامك ليتبلّغ حكمك الملكي عليه بالإعدام وينال ما تستحقه خيانته وعجرفته من العقاب الصارم العادل.

بولينبروك : اليك بحكمي يا كارليل : إختر مكاناً لتنزوي فيه وتقضي ما تبقّى لك من العمر، وتنعم في العيش هناك بهدوء. المهمّ ان تحيا بسلام وتموت حرّاً طليقاً بعيداً عن كل مضايقة واضطهاد. لأني رغم عدائك الذي أظهرته لي، لا أزال أرى فيك قبساً من الشهامة والمروءة والايمان.

(يدخل إيكستون ويتبعه رجال يحملون نعشاً).

ايكستون : أيها الملك العظيم، أقدّم لك في هذا النعش جثة مسبّب قلقك المدفون. فهنا يرقد جثمان ألدّ أعدائك رتشرد القادم من بوردو، وقد أتيت به أنا من هناك.

بولينبروك : اني لا أشكرك، يا إيكستون لأن يدك قد ارتكبت جرماً سيثقل عاره على كاهلي، وعلى هذا البلد المسكين.

ايكستون : أنا ما أقدمت على هذا العمل إلّا بناءً على تحريضك، يا مولاي.

بولينبروك : من لا يريد أن يتجرّع السمّ لا يحبّه. وانا لا أحبّذ صنيعك، وان أنا تمنّيت الموت للمذكور ووددت ان أراه جثّة هامدة. لذا بتُّ أكرهك الآن لأنك قتلته وحرمته نعمة الحياة. وجزاء ما جنته يدك لا بد من ان تتحمل توبيخ ضميرك وعذابه مدى العمر. سأحرمك رضاي ومُنَحِك الملكية التي جدت بها عليك. إذهب من أمام وجهي. ولتظلّ تائها كقايين تحت

جنح الظلام ولا تعرّض نفسك لضوء النهار كي لا تقع عيني عليك من الآن وصاعداً. أؤكد لك ان جريمتك مصدر حزن عميق يعذّب روحي ويفرق كياني في لجج القلق والاضطراب. هيا اشترك في الحداد الذي يمزق فؤادي، بعد أن تجلّل قلبك بسواد الليل الدامس. أريد الآن أن أسافر الى الأراضي المقدسة لكي أغسل بدم الفادي نفسي الخاطئة التي تمنّت حصول هذه الجريمة. سِرْ كئيباً في معيتي وشاطرني أساي، وامشِ دامع العين خلف هذا النعش الذي أودعته رفات صاحبه قبل الأوان. (يخرجون).

(تمّت)

ريتشارد الثالث

تعريب

ج. يونس

أشخاص المسرحية

الملك ادوارد الرابع
ادوارد، امير ويلز } إبنا الملك
ريتشارد، دوق يورك
جورج، دوق كلارانس : شقيق الملك
ريتشارد، دوق كلوسستر : ثم الملك ريتشارد الثالث شقيق آخر للملك
ابن كلارانس (الشاب)
هنري، كونت ريتشموند : فيما بعد هنري السابع.
الكاردينال بورشيه : رئيس أساقفة كنتربري
رئيس أساقفة يورك
جان مورتون، أسقف ايلي
دوق بوكنكهام
دوق نورفولك
كونت شرّي : ابن دوق نورفولك.
كونت ريفيرز : شقيق الملكة اليزابيت.
المركيز دورست } ابنا الملكة اليزابيت
لورد كراي
كونت اوكسفورد
لورد هاستينكس

لورد ستانلي، الكونت دربي
لورد لوفيل
سير توماس فوكهان
سير ريتشارد راتكليف
سير وليم كاتسبي
سير جيمس تيريل
سير جيمس بلونت
سير والتر هربيرت
سير روبيرت براكنبري : ملازم البرج
كريستوف أورسويك : رجل دين
محافظ لندن
شريف ويلتشاير
الملكة اليزابيت: زوجة ادوارد الرابع
الملكة مرغريت : ارملة الملك هنري السادس
دوقة يورك : والدة ادوارد الرابع، وكلارانس، وريتشارد الثالث.
ليدي آن : ابنة ورويك الثانية، ارملة ادوارد امير ويلز ابن هنري السادس، زوجة ريتشارد الثالث.
ابنة كلارانس (الشابة)

لوردات، رجال بلاط، نبلاء، رسول الدولة، رجل دين، كاتب محكمة، وجهاء، قتلة، رسُل، جنود، أشباح.

تجري الأحداث في انكلترا.

الفصل الأول

المشهد الأول

في أحد شوارع لندن.

(يدخل كلوسستر).

كلوسستر : انقلب شتاء أحزاننا الى صيف عامر بالأفراح تحت شمس يورك المشرقة. وجميع الغيوم التي كانت متلبدة فوق بيوتنا ابتلعتها أعماق المحيط. ولّى زمن الحرب والرعب والقتال العنيف، وجاء زمن الاجتماعات المفرحة والتسلّل الى غرفة الحبيبة والتغزل بها. لكنني أنا لم أخلق لمثل هذه الاجتماعات المرحة ولا للتغزل بالنساء. لأن الطبيعة حرمتني من السمات الجذابة، وقذفتني الى عالم الأحياء قبل الأوان. فولدت مشوّهاً الى درجة أن الكلاب تنبح عندما أقف بالقرب منها. لذلك، تكمن لذتي الوحيدة، أيام السلم هذا، في أن أقضي الوقت أراقب ظلّي وأصف منظري المشوّه. وبما أني لا أستطيع أن أكون عاشقاً ناجحاً، تراني أصر على أن أصبح قاتلاً، أبلبل أوقات العبث هذه، كأني بواسطة التحريض الخطر وبالتنبؤات والافتراءات، وبأحلام الرجل

السكران، قد خلقت بين شقيقي كلارانس والملك، حقداً مميتاً. واذا كان الملك ادوارد وفياً وشريفاً بمقدار ما أنا بارع وماكر وخائن، سيُحبس كلارانس اليوم بسبب نبوءة قلتها للملك، ومفادها أن شخصاً يبدأ اسمه بحرف الجيم سيقتل ورثته. فانحدري أيتها الأفكار الى أعماق ذهني. ان كلارانس قادم.

(يدخل كلارانس يحيط به الحرس وبراكنبري).

صباح الخير، يا شقيقي. لماذا يرافقك كل هذا الجيش؟

كلارانس : ان جلالته، اهتماماً منه بسلامتي الشخصية، احاطني بمثل هذه الحراسة المشددة لترافقني الى البرج.

كلوسستر : وما السبب؟

كلارانس : لأن اسمي جورج.

كلوسستر : يا للأسف، لست مخطئاً. كان ينبغي على الملك أن يحبس عرّابتك. لا شك في أن جلالته يقصد أمراً من وراء تعميدك من جديد في البرج. لكن، ماذا يعني كل هذا، يا كلارانس؟ هل يمكنني أن أعرف ذلك؟

كلارانس : حسناً، يا ريتشارد، سأُعلمك بالأمر عندما تتيسّر لي معرفته، لأني أجهل الآن كل شيء عن حقيقة اعتقالي. فكل ما أعرفه هو ان الملك عمد الى ايداعي السجن، متأثراً ببعض الرؤى والأحلام، وبما أسرّه اليه أحد السحرة من أن ذريّته ستحرم من الميراث على يد شخص يبدأ اسمه بحرف الجيم. فهذه الترهات وما شابهها حملته على ايداعي السجن.

كلوسستر : هذا ما يحصل عادة عندما يخضع الرجال لحكم النساء. ليس الملك هو الذي أرسلك الى البرج، يا كلارانس، انما امرأته كراي، هي التي دفعته الى مثل هذا العنف.

أليست هي بالتعاون مع شقيقه انطوني وودفيل، وراء اعتقال لورد هاستنكس في البرج الذي يخرج منه اليوم بالذات؟ لسنا في أمان، لسنا في أمان، يا كلارانس.

كلارانس : أعتقد بأن لا أحد هنا ينعم بالأمان، سوى أهل الملكة والرسل الليليين الذين يجهدون أنفسهم في خدمة الملك والسيدة سور. أتجهل التوسلات الذليلة التي رفعها اليها لورد هاستنكس لأجل خلاصه؟

كلوسستر : ان أمين الملك لم يستعد حريته الا بعد أن تسكع عند أعتابها. أعتقد أن وسيلتنا الوحيدة لنبقي على ما لنا من حظوة لدى الملك، هي أن نصبح من أتباع هذه المرأة. فالأرملة العجوز الحسود وهذه المرأة هما أكبر ثرثارتين في هذه المملكة، منذ أن كرّسهما شقيقنا سيدتين بارزتين في البلاط.

براكنبري : أرجو منكما أن تعذراني. ان جلالته أصدر اليَّ أمراً صريحاً بأن لا أدع أحداً، مهما علا شأنه، أن يتحدث الى شقيقه.

كلوسستر : بامكانك أن تشاركنا الحديث، يا براكنبري، اذا شئت. فنحن لا نتحدث كخونة، يا صاحبي، اذ نقول ان الملك حكيم فاضل، وان الملكة النبيلة جميلة، وانها بيضاء وليست حاسدة. اننا نقول ان السيدة شور ذات ساقين جميلتين وشفتين حمراوين وعينين جذابتين، وان حديثها مشوّق، وأخيراً ان أهل الملكة من النبلاء المخلصين. فما رأيك في كل هذا، أيها السيد؟ هل بامكانك أن تنكره؟

براكنبري : كل هذا لا يعنيني.

كلوسستر : أولا يعنيك أيضاً أمر السيدة شور؟ أنا أقول، اذا أراد أحد أن يعارضها، فعليه أن يفعل ذلك في الخفاء، باستثناء شخص واحد.

براكنبري : باستثناء شخص واحد، ومن هو؟

كلوسستر : زوجها. أتريد أن تخوّنني؟

براكنبري : أرجوك أن تسامحني، وأن تكف عن التحدث الى هذا الدوق النبيل.

كلارانس : أنا أعرف واجباتك، يا براكنبري، وأطيعك.

كلوسستر : نحن خدام الملكة وعلينا أن نطيع. وداعاً يا شقيقي. أنا ذاهب الى الملك. وكل ما تطلبه مني كخدمة سأقدمها لك للاسراع في الافراج عنك. اني مستعد لكل خدمة. فهذه الاهانة التي يوجهها شقيق الى شقيقه تجرحني جرحاً بليغاً.

كلارانس : سجني لا يسركما، على ما أعلم.

كلوسستر : لا سيما ان طال بقاؤك في السجن. سأنقذك أو أضع نفسي في السجن لأجلك. وبانتظار الفرج عليك أن تعتصم بالصبر.

كلارانس : انا مرغم على التمسك بالصبر. وداعاً.

(يخرج كلارانس وبراكنبري والحرس).

كلوسستر : امضِ في سبيلك فالطريق الذي تسلكه الآن لن تسلكه مرة ثانية، أيها الساذج المغفل كلارانس، انا أحبك الى درجة اني أريد ارسال روحك الى السماء بأسرع ما يمكن، اذا كانت السماء تقبل هذه الهدية مني. لكن، من القادم الى هنا؟ هاستنكس الذي أفرج عنه مؤخراً؟

(يدخل هاستنكس).

هاستنكس : صباح الخير، أيها اللورد.

كلوسستر : صباح الخير، يا عزيزي أمين الملك. أهلاً بك في هذا الهواء الطلق. كيف تحملت السجن؟

هاستنكس : تحملته بصبر، أيها اللورد، كما يليق بالسجناء أمثالي. لكني أتمنى أن أعيش لأشكر من تسببوا في سجني.

كلوسستر : بدون شك. وكلارانس يأمل بذلك أيضاً. لأن من كانوا أعداءك بالأمس، هم اليوم أعداؤه. وقد انتصروا عليك.

هاستنكس : لا يعيب النسر عندما يكون داخل القفص، أن تكون الجوارح التي تقتات بلحوم الطيور حرة تسلب ما تشاء.

كلوسستر : ما هي أخبار الخارج؟

هاستنكس : الملك مريض وضعيف كئيب، والأطباء يخشون عليه. هذا اسوأ نبأ في الخارج والداخل.

كلوسستر : هذا فعلاً نبأ سيء. لقد اتبع في طعامه نظاماً مرهقاً أضنى عافيته. هذا أمر مؤسف حقاً. هل هو الآن نائم؟

هاستنكس : أجل.

كلوسستر : اذهب اليه وسأتبعك. (يخرج هاستنكس) أرجو أن لا يعيش طويلاً. لكن يجب أن لا يموت قبل أن يغادر جورج هذه الفانية الى السماء ليعدّ له مكاناً. سأمضي الى الملك وأحرضه على كلارانس بالأكاذيب المختلفة والحجج القوية. واذا لم أفشل في مسعاي، فكلارانس سيموت حالاً. واذا تم هذا، فليأخذ الله الملك ادوارد، ويترك لي العالم لأجاهد فيه. عندئذ سأتزوج ابنة ورويك الصغرى. لا يهم ان كنت قد قتلت زوجها وأباها. ان أسرع وسيلة لأعوّض على هذه الفتاة عما أصابها هي أن أصبح أنا زوجها وأباها... سأصبح كذلك ليس حباً بها، بل أتزوجها فقط لأحقق هدفاً سرياً. ما لي أضع المحراث قبل الثيران. كلارانس لا يزال على قيد الحياة، وادوارد لا يزال يعيش ويحكم. فعندما يزولان من الوجود سأحسب الربح الذي أكون قد جنيته.

(يخرج).

المشهد الثاني

في شارع آخر من لندن.

(يدخل جميع النبلاء يحملون جثمان الملك هنري السادس المسجى في نعش مكشوف. ليدي آن تترأس موكب الحداد).

ليدي آن (تخاطب النبلاء): ألقوا حملكم النبيل، هذا اذا كان النبل يدفن في نعش. دعوني أسكب الدمع السخين على سقوط لنكاستر الأليم. (يقف موكب الجنازة. يضع النبلاء النعش على الأرض) يا لها من صورة مسكينة باردة هذه التي يبدو فيها الملك القديس. يا لخيبة أمل عائلة لنكاستر. يا لها من بقايا دامية آل اليها هذا المجد الملكي. دعني أتوسل الى ظلك، وأسمع صراخي أنا المسكينة آن زوجة ادوارد والدك الذي طعنته ذات اليد التي أثخنتك هذه الجراح المميتة. اني أحاول تضميد جراحك التي تسرّبت من خلالها روحك، بما تجود به عيناي من دمع، لكن بدون جدوى. ملعونة اليد التي طعنتك. ملعون القلب الذي مزّق قلبك. ملعون الدم الذي أسال دمك. لتسقط أشنع المصائب على الشقي البغيض الذي أشقانا بموتك. واذا قُيِّض له أن ينجب فليكن ولده جهيضاً، وليكن شكله قبيحاً مخيفاً تجزع لرؤيته حتى والدته، وليرث مصيبته. واذا كانت له زوجة، فأمنيتي أن يفوق حزنها بموته حزني بموتك. هيا ننطلق الآن نحو شرتسي بصحبة الحمل المقدس الذي حملتموه ليدفن هناك. وكلما تعبتم من حمله استريحوا قليلاً بينما أسترسل أنا في البكاء والنحيب على جثمان الملك هنري.

(يحمل الرجال الجثمان وينطلقون).

(يدخل كلوستر).

كلوسستر (يقف أمام الموكب) : توقفوا يا من تحملون الجثمان، وضعوه على الأرض لحظة.

ليدي آن : أي ساحر مشؤوم استحضر هذا الشيطان ليمنعنا من القيام بعمل الخير الذي يفرضه علينا وفاؤنا؟

كلوسستر : أيها السمجاء، انزلوا الجثمان، وإلا قتلت كل من يخالف امري.

النبيل الأول : ابتعد، ودع النعش يمر.

كلوسستر : أيها الحقير، توقف عندما آمرك. واذا لم تمتثل أجهزت عليك بسبب جسارتك.

(ينزل الرجال الجثمان).

ليدي آن : أترتجفون؟ جميعكم استولى عليكم الخوف؟ انا لا ألومكم لأنكم بشر، وعيون البشر لا تقوى على تحمل رؤية الشيطان. قف أنت يا رسول الجحيم المخيف! لم يكن لك من سلطان الا على جسده المائت، أما روحه فأنت أعجز من أن تستولي عليها. هيا ابتعد من هنا.

كلوسستر : أيتها القديسة، بحق المحبة، قلّلي لعناتك.

ليدي آن : أيها الشيطان البغيض، باسم الله أسألك أن تخرج من هنا. لا تزعجنا. لقد حولت أرضنا السعيدة الى جحيم، وملأتها بالتجاديف واللعنات. اذا كنت تحب أن تتأمل أفعالك القبيحة، فانظر الى هذا الجثمان. أيها السادة ان جراح هنري المائت تفغر أفواهها المتجمدة وتنزف من جديد. ألا اخجل أيها المسخ، فحضورك يمتص الدم المتبقي في عروقه الباردة. يا الهي انت أضعت هذا الدم المهدور، فانتقم له. أيتها الأرض التي شربتِ دمه انتقمي له. أيتها السماء، أنزلي صواعقك على هذا القاتل. أيتها الأرض افغري

فاهك وابتلعيه كما ابتلعتِ دم هذا الملك الزكي الذي سفكته اليد الشريرة كأداة الجحيم.

كلوسستر : أيتها السيدة، أنت تجهلين أصول المحبة التي تقابل الشر بالخير واللعنات بالبركات.

ليدي آن : أيها القاتل أنت تجهل كل شريعة، سواء أكانت إلهية أو انسانية. فما من حيوان يخلو من الشفقة مهما كان مفترساً.

كلوسستر : أنا لا أعرف الشفقة لذلك لست حيواناً.

ليدي آن : ما أعجب أن يسمع المرء الشياطين تتكلم عن الحقيقة.

كلوسستر : بل ما أعجب أن يرى المرء الملائكة يغضبون. اسمحي لي أيتها المرأة الكاملة، أن أبرّئ نفسي من هذه الجرائم المنسوبة إليّ زوراً وبهتاناً.

ليدي آن : اسمح لي أيها الوحش أن ألعن شخصك المنحطّ بسبب هذه الجرائم الثابتة عليك.

كلوسستر : أيها الجمال الفائق الوصف، اعطني الوقت الكافي لأعتذر.

ليدي آن : أيها المسخ الذي تفوق شناعته كل تصور، ان الاعتذار الوحيد الذي يسعك أن تقدمه هو أن تشنق نفسك.

كلوسستر : في هذه الحالة، سأتهم أنا نفسي.

ليدي آن : كلا، في مثل هذه الحالة ستنتقم من نفسك للذين قتلتهم، وبذلك تقدم الاعتذار المطلوب منك.

كلوسستر : واذا لم أكن قد قتلتهم.

ليدي آن : لو كان الأمر كذلك لظلوا على قيد الحياة. ولكنهم ماتوا، وأنت الذي قتلتهم.

كلوسستر : انا لم أقتل زوجك.

ليدي آن : اذاً هو حي؟

كلوسستر : كلا، لقد قتله ادوارد.

ليدي آن : انت تكذب. فالملكة مرغريت رأت خنجرك القاتل مخضباً بدمه.

كلوسستر : أثارني كلامه وافتراؤه عليّ، اذ حمَّلني مسؤولية الجرائم التي ارتكبها أشقّائي.

ليدي آن : أثارتك نفسك المجرمة التي لا تحلم إلا بالمجازر. ألم تقتل هذا الملك؟

كلوسستر : انا أوافقك على ذلك.

ليدي آن : توافقني على ذلك أيها القذر؟ عاقبك الله وأهلكك لأجل هذه الجريمة. لقد كان بشوشاً ولطيفاً وفاضلاً.

كلوسستر : وهو أهل لأن يمثل أمام رب السماء.

ليدي آن : انه في السماء حيث لا تستطيع أنت الوصول اليه.

كلوسستر : ليشكرني اذاً، لأني ساعدته على الوصول اليها، ما دام مكانه هناك وليس على الأرض.

ليدي آن : أما مكانك أنت فهو الجحيم.

كلوسستر : مكاني في جهة أخرى. واذا أذنتِ لي حددته لك.

ليدي آن : انه في أحد الأبراج.

كلوسستر : بل في حجرة نومك.

ليدي آن : ليسكن الأرق في غرفة نومك.

كلوسستر : أتمنى أن يسكنها الأرق، يا سيدتي، الى أن أنام انا بجانبك.

ليدي آن : آمل ذلك.

كلوسستر : انا على يقين من رغبتك. هيا نعدل عن أسلوب هذه المحاورة، ونتبع أسلوباً آخر يمتاز بالهدوء. فسبب موت هنري وادوارد وأداة التنفيذ هما على قدم المساواة من حيث الملامة.

ليدي آن : أنت سبب هذه النتيجة الملعونة.

كلوسستر : جمالك هو السبب لأنه أقضّ مضجعي. فأنا مستعد أن أقتل العالم بأسره لأعيش ولو ساعة واحدة مستنداً الى صدرك الرائع.

ليدي آن : لو اعتقدتُ ذلك، لإعتبرت صدري قاتلاً، وانتزعت بأظافري هذا الجمال الذي يزين خديّ.

كلوسستر : عيناي لا تستطيعان مشاهدة جمالك المدمِّر. لا، لن يزيل جمالك ما دمت أنا في الوجود، لأنه يحييني كما تحيي الشمس أرجاء الكون، فهو نهاري وحياتي.

ليدي آن : ألا ليت نهارك يصبح ليلاً، وحياتك موتاً.

كلوسستر : لا تلعني نفسك أيتها المخلوقة الجميلة. أنت نهاري وليلي وحياتي وموتي.

ليدي آن : كنت أتمنى ذلك لأنتقم منك.

كلوسستر : أراك تعاندين الطبيعة. كيف تنتقمين ممن تحبينه؟

ليدي آن : هذا قتال محقّ ومعقول. لأني أنتقم من قاتل زوجي.

كلوسستر : ان الذي حرمك زوجك، يا سيدتي، انما فعل ذلك ليؤمِّن لك زوجاً أفضل منه.

ليدي آن : لا يوجد على وجه الأرض من هو أفضل منه.

كلوسستر : بل هناك شخص يحبك أكثر منه.

ليدي آن : من هو؟

كلوسستر : انه بلانتاجينيه.

ليدي آن : هو زوجي.

كلوسستر : بل هو رجل آخر، له نفس الاسم. لكنه أفضل من زوجك.

ليدي آن : أين هو؟

كلوسستر : انه هنا (تبصق ليدي آن في وجهه). لماذا تبصقين في وجهي؟

ليدي آن : كنت أتمنى لو ان هذا البصاق سم قاتل يقضي عليك.

كلوسستر : لم يحدث بعد أن خرج السم من صدر لطيف كهذا.

ليدي آن : لم يحدث بعد أن تساقط السم على ضفدع شنيع مثلك. ابتعد عني. فان رؤيتك تزعجني وترعبني.

كلوسستر : ان مقلتيك الجميلتين سحرتا عينيّ.

ليدي آن : آه لو كانتا حيَّتين لتلدغاك وتقضيا عليك.

كلوسستر : كنت أتمنى ذلك لأموت فجأة، ما دمت أموت الآن موتاً بطيئاً. لأن ألحاظك جعلت عينيّ تذرفان دمعاً مراً. انا لم أذرف دمعة شفقة في حياتي، حتى عندما كان والدي يورك، وادوارد يبكيان رتلاند الذي كان يرسل أنات حزينة عندما كان اللعين كليفورد ينهال عليه طعناً بسيفه. لم أذرف دمعة شفقة حتى عندما كان والدك يروي لنا حادثة موت أبي التي أثرت في نفوس المستمعين الى درجة ان انهمر الدمع مدراراً من أعينهم، وفي تلك اللحظات الحزينة كانت عيناي تسكبان الدمع، لأن ما عجزت عن فعله الأحزان تمكّن منه جمالك الذي أعماني من كثرة البكاء. لم أتوسل في حياتي الى أي صديق أو عدو، ولساني لم يتلفظ قط بكلمة لطيفة ناعمة. لكن جمالك الذي أصبو اليه جعل قلبي المكابر يحث لساني على الكلام. (تنظر اليه باحتقار). آه! لا تدعي هذا الاحتقار يلمس شفتيك اللتين خلقتا للقبل لا للاحتقار. اذا كان قلبك الحاقد يعجز عن الغفران، فأنا اعطيك هذا السيف المسلول لتغمديه في صدري اذا شئت، فتفارقه روحي التي تهيم بحبك. ها أنا أركع أمامك وأطلب منك القضاء عليّ. (يكشف عن صدره، فتوجه آن السيف الى نحره ثم تدعه يسقط من يدها) لا، لا تتوقفي. أنا قتلت الملك هنري، لكن جمالك هو الذي دفعني الى القيام بذلك. هيا عجّلي. انا طعنت الشاب ادوارد. (تمسك آن بالسيف وتوجهه مجدداً نحوه). لكن وجهك الملائكي هو الذي حملني على ذلك. (تدع السيف يسقط من يدها ثانية على الأرض) تناولي السيف أو ساعديني على النهوض.

ليدي آن : انهض أيها المنافق اللئيم. أريد قتلك لكني آبى أن أكون جلادك.

كلوسستر : اذاً إفرضي عليّ أن أقتل نفسي، فلن أتردد لحظة.

ليدي آن : لقد سبق ان طلبت منك ذلك.

كلوسستر : طلبت مني ذلك في ثورة غضبك. اعيدي الأمر على مسمعي في الحال، لأن اليد التي قتلت حبيبك، حباً بك، ستقتل أيضاً حبيباً آخر هو مغرم أكثر منه بك. وهكذا تصبحين شريكتي في الجريمتين معاً.

ليدي آن : كنت أتمنى أن أعرف حقيقة ولعَك.

كلوسستر : ها هو لساني يعبر عنه أصدق تعبير.

ليدي آن : لساني وقلبك لا يصدقان. ولذلك أخشاهما.

كلوسستر : اذاً ليس في الدنيا من انسان صادق.

ليدي آن : هيا، هيا، ضع سيفك في غمده.

كلوسستر : قولي لي اذاً بأن السلام ساد بيننا.

ليدي آن : ستعلم ذلك فيما بعد.

كلوسستر : هل بامكاني أن أعيش بالأمل.

ليدي آن : كل الناس يعيشون بالأمل.

كلوسستر : تنازلي وضعي هذا الخاتم في اصبعك.

ليدي آن (تضع الخاتم في اصبعها) : ان اخذ المرء، فهذا لا يعني أنه يعطي.

كلوسستر : كما يطوّق هذا الخاتم اصبعك، هكذا تطوق صورتك قلبي. فاحتفظي بالأثنين معاً لأنهما ملكك. والآن اذا أمكن خادمك الأمين أن ينال منك انعاماً آخر، ستسعدينه الى الأبد.

ليدي آن : ما هذا الانعام؟

كلوسستر : أتوسل اليك أن تتركي مهمة اتمام مراسم الجنازة، لأني أستحق تحمل وقر الحداد أكثر منك. اما أنت فانطلقي فوراً الى كروسبي بالاس، وبعد أن أكمل مراسم دفن هذا الملك النبيل بكل أبهة في دير شرتسي، وأذرف عليه الدموع السخينة، أعود لألتقيك وأقدم لك خدماتي المتواضعة. أتوسل اليك أن تأذني لي بذلك لألف سبب وسبب.

ليدي آن : اني أوافق على ذلك من كل قلبي. اذ يسعدني أن أراك

نادماً على ما فعلت. يا تريسيل وبيروكلي تعاليا معي.

كلوسستر : قولي لي وداعاً.

ليدي آن : أنت لا تستحق ذلك. لكن، بما أنك تعلمني كيف ينبغي أن أخدعك، تصور اني قلت لك وداعاً.

(تخرج ليدي آن ويخرج تريسيل وبيروكلي).

كلوسستر : احملوا الجثمان أيها السادة.

أحد النبلاء : الى شرتسي، أيها اللورد النبيل.

كلوسستر : كلا، الى وايتفرايزر. انتظروني هناك. (يخرج موكب الجثمان). هل غازل رجل امرأة مثلما فعلت أنا؟ هل سيطر رجل على امرأة مثلما فعلت أنا؟ سأحظى بها، لكني لن أحتفظ بها طويلاً. كيف قتلت زوجها وابنها واستوليت عليها وهي في ذروة خوفها، واللعنة في فمها والدموع في عينيها، والله وضميرها وهذا المأتم كلها مجتمعة تشهد عليّ؟ وأنا حليفي الشيطان ونظراتي مرائية. هل نسيت زوجها ادوارد الذي طعنته منذ ثلاثة أشهر في تويكسبري؟ لقد كان نبيلاً لطيفاً ومحبوباً وسخياً وشاباً مقداماً وحكيماً ذا طلعة ملوكية. الكون كله عاجز عن انجاب انسان مثله. ومع ذلك تنظر اليّ أنا الذي قتلت ذاك الأمير في ريعان شبابه وجعلتُ منها ارملة حزينة، وأنا لا أشبه ادوارد في شيء، أنا الرجل المشوّه الأعرج، فتجد فيّ ما لا أجده أنا في نفسي : رجلاً محبباً. سأقتني مرآة وأستأجر عدداً من الخياطين لدراسة الأزياء التي تزين جسدي. لكن لنضع الجثمان أولاً في مثواه الأخير، ثم أغازل حبيبتي. والى أن أشتري المرآة، اسطعي أيتها الشمس المشرقة لأرى ظلّي، وأنا أمشي.

(يخرج).

المشهد الثالث

في لندن، ضمن احدى شقق القصر.

(تدخل الملكة اليزابيت ثم يدخل لورد ريفرز ولورد كراي).

ريفرز : اعتصمي بحبل الصبر، يا سيدتي. لا شك في أن جلالته سيستعيد قريباً عافيته.

كراي : حزنك يزيد من مرضه. فبحقِ السماء تمسكي بالرجاء وساعدي الملك بكلامك المنشّط المفرح.

الملكة اليزابيت: اذا مات، ماذا يحل بي؟

كراي : لا سمح الله أن يموت سيدي.

الملكة اليزابيت: خسارته تفوق كل خسارة أخرى.

كراي : السماء باركتك عندما وهبتك ابناً رائعاً لتعزّيك به عندما يموت الملك.

الملكة اليزابيت: هو لا يزال فتياً وفي وصاية ريتشارد كلوسستر الذي لا يحبه ولا يحبني أنا أيضاً ولا يحب أحداً منكم.

ريفرز : لقد بُتَّ الأمر اذاً، وسيكون في عهدته.

الملكة اليزابيت: نميل الى اقرار ذلك، لكننا لم نبتّ فيه نهائياً. انما سيكون في عهدته حتماً اذا مات الملك.

(يدخل بوكنكهام وستانلي).

كراي : وصل لورد بوكنكهام وستانلي.

بوكنكهام (يخاطب اليزابيت) : أسعدتِ صباحاً، أيتها الملكة.

ستانلي : اعاد الله الى قلب جلالتك ما أتمناه لك من البهجة والفرج.

الملكة اليزابيت: يا لورد ستانلي، ان كونتيس ريتشموند تشعر بالامتعاض اذا وافقت على ما طلبته لأجلي. لكن يا ستانلي، رغم كونها

امرأتك، ورغم انها لا تحبني، تأكد اني لا أُكنّ لها أي حقد بسبب كبريائها.

ستانلي : أرجو أن لا تصدّقي ما يشاع من افتراءات عليها. واذا كان ما يقال عنها صحيحاً، فاعذريها لأنها مصابة بمرض عصبي، وهي لا تضمر لك أية عداوة.

الملكة اليزابيت: هل رأيت الملك اليوم، يا لورد ستانلي؟

ستانلي : منذ لحظة ودعته مع دوق بوكنكهام.

الملكة اليزابيت: هل هناك من أمل في شفائه؟

بوكنكهام : ابشري خيراً، يا سيدتي. ها هو يتكلم بفرح وسرور.

الملكة اليزابيت: شفاه الله. هل تحدثت اليه؟

بوكنكهام : أجل يا سيدتي. يريد أن يصالح دوق كلوسستر مع أشقائك، وأشقاءك مع لورد شامبلان، وقد أرسل في طلبهم جميعاً للمثول أمامه.

الملكة اليزابيت: آمل في أن تسير الأمور على ما يرام. لكن هذه المعالجة لن تتم، وأخشى أن تكون سعادتنا قد بلغت أوجها.

(يدخل كلوستر وهاستنكس ودورست).

كلوسستر : لقد أساؤوا اليّ، ولم يعد في وسعي تحملهم. من هم الذين يشكون الى الملك ان ملامح وجهي تنقبض عند رؤيتهم، واني لا أحبهم؟ اقسم بأنهم لا يحبون جلالته، مع انهم يملأون أذنيه بمثل هذه الاشاعات التي لا تجلب سوى التفرقة. ألأني أجهل التملّق والتزلّف والمخادعة، اصبح عدواً ينصبّ عليّ البغض. هل كتب على الرجل الصريح الذي لا يفكر بالشر أن يعيش ذليلاً بسبب صراحته، لا سيما في أعين سادة لا همّ لهم الا زرع الأحقاد وتدبير المؤامرات؟

كراي : الى من توجه كلامك في هذا الاجتماع؟

كلوسستر : اليك أنت يا فاقد الشرف. متى أهنتك وأسأت اليك؟ (يخاطب باقي اللوردات) متى أسأت اليكم أنتم؟ أتمنى أن يطيل الله عمر جلالته أكثر مما ترغبون. لا يكاد يهدأ خاطره لحظة حتى تعكروا عليه صفاءه بما تختلقونه من شكاوى وقحة.

الملكة اليزابيت: أعتقد بأنك تسيء الى الحكم على الوقائع، عندما تظن ان جلالته من تلقاء نفسه ارسل في طلبك الى هنا ليرى كم تكنُّ لي ولأولادي ولأشقائي من الحقد الذي يظهر بجلاء في سلوكك الخارجي.

كلوسستر : لا يمكنني أن أردّ عليك. لقد عم الفساد العالم كله منذ أن أصبح أهل المجون من النبلاء، فأصبح العديد من النبلاء من أهل المجون.

الملكة اليزابيت: هيا، هيا. انا ادرى بما تريد أن تقوله يا كلوسستر. أنت تحسدني على المكانة الرفيعة التي أتبوأها مع أهلي. ألا جنبنا الله اللجوء الى مساعدتك في يوم من الأيام.

كلوسستر : بانتظار ذلك، أنا أتمنى أيضاً أن يجنبني الله اللجوء الى مساعدتك بسبب مكائدك التي سببت سجن أخي وفقداني الحظوة في البلاط. فجميع النبلاء باتوا يحتقرونني، بينما انا اسعى حثيثاً الى جعل الذين لم يحلموا يوماً، أن يكونوا نبلاء سموحين.

الملكة اليزابيت: أقسم بحياة جلالته الذي رفعني الى هذا المقام الرفيع، بأني لم أحرض الملك على دوق كلارانس، بل بالعكس دافعت عنه بكل ما أوتيت من براعة. يا مولاي، أنت تهينني اذ تزجني في مثل هذه الشبهات الدنيئة.

كلوسستر : هل بامكانك أن تنكري انك لم تكوني وراء سجن لورد هاستنكس مؤخراً ؟

ريفرز : هي تستطيع أن تنكر ذلك لأن...

كلوسستر : تستطيع ذلك يا لورد ريفرز، ومن يجهل الأمر؟ ان في امكانها أن تفعل أكثر من ذلك، وأن توصلك الى منصب مرموق، ثم أن تنكر انها فعلت ذلك، وان استحقاقك هو الذي رفعك الى مثل هذا المقام، وهل تعجز عن شيء؟ ما دامت تستطيع أن تتزوج...

ريفرز : حقاً، هي تستطيع أن تتزوج.

كلوسستر : حسناً، انها تستطيع أن تتزوج ملكاً شاباً جميلاً. وأعتقد بأن جدتك عقدت زواجاً غير موفق.

الملكة اليزابيت: مولاي كلوسستر، لقد تحملت أكثر مما يستوجبه توبيخك وهزئك. اقسم بالسماء، على اني سأعلم جلالته بجميع الاهانات التي وجهتها اليّ وتحملتها منك أكثر من مرة، اني أفضِّل أن أكون خادمة قروية على أن أكون ملكة مهانة مهملة. أنا لا ألاقي أي ابتهاج بكوني ملكة انكلترا.

(تدخل الملكة مرغريت وتتوقف برهة دون أن يراها أحد).

الملكة مرغريت (على حدة) : أتمنى أن يكون سرورك أقل مما يظهر عليك الآن. فان مقامك وعرشك يخصّاني في الأصل.

كلوسستر (يخاطب اليزابيت) : تهددينني بأنك ستخبرين الملك بكل شيء. ألا أعلميه بما تريدين ولا تزعجي نفسك، فان ما قلته بحقك سأصر على ترديده أمام الملك. اعلمي اني أتعرض لخطر القائي في سجن البرج. آن الأوان لأن أتكلم وقد أسدل الستار على جميع ما قمت به من خدمات.

الملكة مرغريت (على حدة) : أيها الشيطان، لا أزال اذكر خدماتك : لقد قتلت هنري زوجي في البرج، وادوارد ابني المسكين في تويكسبري.

كلوسستر (يخاطب اليزابيت) : قبل أن تصبحي ملكة، وقبل أن يصبح زوجك ملكاً، كنت فارسه المفضَّل في وجه ألد أعدائه، والمحسن

الأكبر الى جميع أصدقائه. ولكي أجعل دمه ملكياً أحرقت دمي.

الملكة مرغريت (على حدة) : لقد أهرق دماً هو أفضل بكثير من دمه ودمها.

كلوسستر : في هذا الوقت، كنت مع زوجك كراي تتآمران على اسرة لنكاستر. وأنت أيضاً يا ريفرز... ألم يقتل زوجك بسبب مرغريت في سنتلبان؟ دعيني أذكرك بما كنت عليه وبما صرت الآن اليه، وفي الوقت ذاته بما كنت انا عليه وما أصبحت الآن فيه.

الملكة مرغريت (على حدة) : يا لك من قاتل سافل! لقد كنت دائماً هكذا.

كلوسستر : المسكين كلارانس ترك والده ورويك، وحنث بيمينه. سامحته السماء.

الملكة مرغريت (على حدة) : عاقبه الله.

كلوسستر : ليت قلبي كان قاسياً مثل قلب ادوارد. بل ليت قلبه كان رقيقاً مثل قلبي. أنا أبدو على قدر كبير من السذاجة في عالم كعالمنا.

الملكة مرغريت (على حدة) : كان الأجدر بك أن تهرب خجلاً الى الجحيم وتترك هذه الدنيا فهناك مملكتك لا هنا.

ريفرز : مولاي كلوسستر، في هذه الأيام العصيبة التي تتهمنا فيها بأننا بتنا من اعدائك نحن نتبع اليوم سيدنا وملكنا الشرعي. فلو كنت أنت ملكنا لفعلنا ذلك أيضاً.

كلوسستر : لو كنت أنا ملككم؟ أفضّل أن أكون حمالاً على أن أكون ملكاً عليكم.

الملكة اليزابيت: بامكانك الآن أن تتصور قلة سروري، لكوني ملكة هذه البلاد، انها تعادل قلة سرورك لو كنت ملكاً عليها.

الملكة مرغريت (على حدة) : تقول ان فرحها قليل لكونها ملكة انكلترا! اني لا أشعر بأي فرح أنا التي أتبعها، ولا أستطيع أن أتمالك نفسي بعد الآن. (تتقدم) استمعوا اليّ أيها المتقاتلون،

بسبب اقتسام ما سلبتموني اياه، من منكم لا يرتجف عندما يحدق فيّ؟ أيتها الملكة اذا كنت لا تنحنين امامي بصفتك احدى أفراد رعيتي، لأني أصبحت مخلوعة، فانك لا شك ترتجفين أمامي بصفتك من أعدائي (تخاطب كلوسستر) أيها النبيل السمج لا أريد أن تنظر اليّ.

كلوسستر : أيتها الساحرة الشنيعة، ما وراءك من أخبار؟

الملكة مرغريت : قبل أن ترحل، جئت أريك العار الذي وصمتني به.

كلوسستر : ألم يتم نفيك تحت طائلة الموت ان بقيتِ؟

الملكة مرغريت : نعم، النفي بالنسبة اليّ أفظع من الموت هنا، أنت مدين لي بزوجي وبابني وبما ان احزاني هي أحزانكم، هكذا أفراحكم ينبغي أن تكون افراحي.

كلوسستر : اللعنات التي أطلقها والدي النبيل في وجهك، عندما قدمت له منديلاً مغموساً بدم رتلاند البريء ليمسح به الدموع المنهمرة من عينيه، تلك اللعنات تصاعدت من أعماق نفس مجروحة، فحلّت جميعها عليك، وهكذا عاقبك الله لا نحن على فعلك الدموي.

الملكة اليزابيت: وهكذا يكون الله قد انتقم للبريء.

هاستينكس : كان مصرعه عملاً منقطع النظير.

ريفرز : حتى الطغاة انفسهم بكوا عندما سمعوا بمصرعه.

دورست : لقد تنبأ الجميع بالعقاب الذي سيحل بقاتله.

بوكنكهام : نرتمبرلاند كان حاضراً وبكى عليه.

الملكة مرغريت : ماذا تقول؟ كنتم تتشاجرون قبل أن أحضر، والآن اصبحتم جميعكم عليّ. هل أثرت لعنات يورك الرهيبة على السماء الى درجة جعلت موت هنري وادوارد، وخسارة ملكها ونفيي أنا، جواب السماء على مقتل ذاك الطفل الكالح الوجه. هل تستطيع اللعنات أن تخترق الغيوم وتصعد الى السماء؟ اذا كان الأمر كذلك، أرجوك أيتها الغيوم السوداء

أن تفسحي في المجال للعناتي المجنَّحة ان تصل الى هدفها.
ليقتل ملككم بفعل رفض الحرب كما مات ملكنا قتلاً
في سبيل جعله ملكاً (يخاطب اليزابيت) ليمت ابنك ادوارد
الذي لا يزال أمير ويلز، مقابل ابني ادوارد الذي كان
سابقاً أميرها. ليمت في ريعان شبابه قصاصاً على أعمال
عنف لا مبرر لها. وأنت التي اصبحت الآن ملكة بعد
ان كنت أنا الملكة، أتمنى لك أن يطول عمرك لتبكي
خلاله على فقد أولادك، وتري بأم عينك امرأة أخرى تسلب
منك حقوق الملك، كما فعلت أنت بي. لتتهدم سعادتك
قبل أن يحين أجلك. وبعد أن يغمرك اليأس أتمنى لك
أن تموتي وقد فقدت صفتك كأُم وزوجة وملكة انكلترا.
(تخاطب الحاشية) وأنتم الذين شاهدتم مصرع ولدي، أتوسل
الى الله أن يقصِّر أعماركم ويميتكم بحادث مفاجئ.

كلوسستر : هل انتهيت من صب جام غضبك، أيتها الساحرة الرهيبة؟

الملكة مرغريت : أنصت اليّ أيها الحقير. اذا كانت السماء تدخر عقاباً افظع
من الذي أتمناه لك فلتحتفظ به الى أن تبلغ جرائمك
زوجها، عندئذ تنزل بك ويلاتها لأنك أفسدت علينا عالمنا
المسكين وبددت سلامه. لتخزك إبر الندم ما دمت حياً
ويعذب القلق نفسك الى الأبد. أتوسل الى الله أن يصيبك
بمرض الشك فتحسب اصدقاءك خونة، والخونة من
اصدقائك. ليهجر النعاس جفنيك، فلا تنام الا لتحلم بجهنم
وشياطينها لأنك لم تخلق الا لتكون عبد الجريمة وابن
الجحيم ومرذولاً أينما كنت.

كلوسستر : مرغريت!

الملكة مرغريت : ريتشارد!

كلوسستر : ماذا تريدين؟

الملكة مرغريت : انا لا أناديك.

كلوسستر : اطلب منك العفو. ظننت انك تناديني بهذه الأسماء البشعة.

الملكة مرغريت : وصفتك بها، لكني لم أكن أنتظر جواباً منك. دعني أكمل لعناتي.

كلوسستر : لقد ختمتها اذ ناديتك : مرغريت.

الملكة اليزابيت (تخاطب مرغريت) : مسكينة، أنت صورة باهتة الحظ. أيتها المجنونة سيأتي يوم تتوسلين اليّ لأساعدك على لعن هذا الضفدع السامّ.

هاستينكس : أيتها الكاذبة، أوقفي لعناتك قبل أن ينفذ صبري.

الملكة مرغريت : ليلبسكم العار جميعاً. لقد افقدتموني صبري.

ريفرز : ستنالين ما تستحقينه اذا كنت لا تزالين تتذكرين واجباتك.

الملكة مرغريت : أن أنال ما أستحقه، الا اذا تذكرتم اني ملكتكم، وانكم من أتباعي.

دورست : لا تكلمها بعد الآن. هي غريبة الأطوار.

الملكة مرغريت : اخرس، يا وقح. انت حديث العهد في ألقابك. اذا فقدت في يوم من الأيام ألقابك هذه، ستشعر بالعذاب الذي يسببه فقدان مقام ما لصاحبه، لأن الذين يتربعون في المناصب العالية هم عرضة لكثير من الصدمات، واذا سقطوا فانهم يتناثرون أشلاء مبعثرة.

كلوسستر : هذا درس رائع، احفظه جيداً.

دورست : يعنيك كما يعنيني، يا مولاي.

كلوسستر : لا شك في أنه يعنيني أكثر منك. ولكني خلقت رفيعاً الى درجة ان مسكني يعلو رؤوس اشجار الأرز التي تداعب الرياح وتتحدى أشعة الشمس.

الملكة مرغريت : أنت تلقي بظلك على الشمس، أليس كذلك يا الهي؟ ألم يحن الوقت للانتقام من ولدي الذي يسكن الآن في ظلال الموت.

بوكنكهام : اسكتي، اسكتي، واهدإي باسم الحياء وباسم المحبة.

الملكة مرغريت : لا تذكر امامي الحياء والمحبة لأنك براء منهما. اذ تصرفت حيالي بدون محبة وقتلت بدون حياء كل آمالي. فالمحبة التي تظهرها لي ليست سوى اهانة لأن حياتي اصبحت عاراً عليّ، وأمنيتي أن يُحيي هذا العار غضبي الى الأبد.

بوكنكهام : كفى. كفى.

الملكة مرغريت : أيها الأمير بوكنكهام، أنا أقبّل يدك وأخطب ودّك وصداقتك. ليكن النجاح حليفك مع أهل بيتك. وما دمت لم تلطخ يديك بدمنا فلا تصيبك لعناتي.

بوكنكهام : ولا تصيب أحداً من الحاضرين ها هنا. فاللعنات لا تتجاوز شفاه من يتفوّه بها.

الملكة مرغريت : أودّ أن أعتقد بأنها تصعد الى السماء وتوقظ أهلها من سباتهم. احذر، يا بوكنكهام، هذا الكلب المسعور. عندما يتملق أحداً يعضُّه، واذا عضه قضى عليه بسمُّه. لا تتعامل معه. إحذره، فالموت والجريمة وجهنم قد وسمته بوصمتها وهي تلازمه في كل خطوة يخطوها.

كلوسستر : ماذا تقول، يا مولاي بوكنكهام؟

بوكنكهام : ان ما تتبجح به لا يثير اهتمامي.

الملكة مرغريت : لماذا تحتقر نصائحي، وتداعب هذا الشيطان الذي وشيت به اليك؟ تذكّر كلامي، عندما سيحطم آمالك وعواطفك. ستقول عندئذ ان المسكينة مرغريت كانت نبيَّة. أنتم يا من تستمعون اليّ ليحيَ بعضكم تحت رحمة غضب البعض الآخر وليحيَ مجموعكم تحت رحمة غضب الله.

(تخرج).

هاستينكس : ان شعر رأسي ينتصب لدى سماعي لعناتها.

ريفرز : وشعر رأسي أيضاً. وأتساءل لماذا لم توضع في...

كلوسستر : انا لا ألومها، لأنها عوملت بطريقة سيئة. ومن جهتي انا نادم على كل أذى ألحقته بها.

الملكة اليزابيت: لا أذكر اني اسأت معاملتها في يوم من الأيام. وهذا ما حصل لكلارانس.

كلوسستر : ولكنك استفدت مما حل بها من شر. فمكافأته كانت عذاباً أليماً ما زال يعاني منه حتى الآن. ألا سامح الله الذين سببوا له ذلك.

ريفرز : لنصلِّ لأجل الذين اساؤوا الينا.

كلوسستر : لقد تعودت انا ذلك. (على حدة) لو تفوّهت هذه المرة بلعنة لإرتدّت اليّ.

(يدخل كاتسبي).

كاتسبي : سيدتي، ان جلالته يدعوك. (يخاطب كلوسستر) وأنت أيضاً (يخاطب أفراد الحاشية) وأنتم أيضاً.

الملكة اليزابيت: سأذهب اليه، يا كاتسبي. هل ترافقونني أيها النبلاء؟

ريفرز : سنتبعك، يا سيدتي.

(يخرج الجميع باستثناء كلوسستر).

كلوسستر (على حدة) : أفعل الشر، ومن ثم أصرخ، وألقي الجرائم التي أرتكبها سراً، أحمالاً ثقيلة على عاتق الآخرين. فأنا وحدي تسببت في سجن كلارانس. ومع ذلك أبكيه الآن أمام ستانلي وهاستينكس وبوكنكهام، وأدّعي أن الملكة وأعوانها قد أوغروا صدر الملك عليه. وقد صدقوا ما رويته لهم، وحثُّوني على الانتقام من ريفرز وفوكهان وكراي. وأنا أحاول تغطيتهم بتعابير أنتقيتها من الكتاب المقدس. هكذا أبدو صالحاً بينما أنا شيطان.

(يدخل اثنان من القتلة).

سكوت. انهما اثنان من جلّاديَّ. حسناً، هل تستعجلان تنفيذ الأمر؟

القاتل الأول : نعم يا سيدي. وقد أتينا لنستحصل على السماح لنا بالدخول عليه.

كلوسستر : ها هوذا. (يعطيهم الأذن) عندما تنتهيان من عملكما، اذهبا الى كروسبي بالاس. ولكن عجِّلا في التنفيذ. لا ترحماه، ولا تستمعا اليه حين يدافع عن نفسه. لأنه، أي كلارانس، يتكلم بطلاقة، وقد يثير الشفقة في قلبيكما اذا استمعتما اليه.

القاتل الأول : يا مولاي، لن نضيع وقتنا في الثرثرة، لأن الذين يحسنون الكلام ليسوا رجال أعمال. كن على ثقة بأننا سنستعمل ذراعينا لا لساننا.

كلوسستر : اني أقدّركما أيها الشابان. فهيا الى العمل بسرعة.

القاتل الأول : نحن رهن اشارتك، أيها اللورد النبيل.

(يخرجان).

المشهد الرابع

لندن — في احدى غرف البرج.

(يدخل كلارانس وبراكنبري).

براكنبري : لماذا تبدو اليوم مرهقاً؟

كلارانس : أمضيت ليلة مريعة حافلة بالأحلام والرؤوس المخيفة.

براكنبري : ماذا أبصرت في الحلم، يا مولاي؟ أرجو أن تطلعني عليه.

كلارانس : خيِّل اليَّ أني أفلتّ من السجن، وأبحرت بصحبة شقيقي كلوسستر الى بوركون. وعندما كنا على متن السفينة نظرنا الى ناحية انكلترا، وتذكرنا الف حادثة مرة تعرضنا لها

خلال حروب يورك ولنكاستر. وفجأة زلّت قدم كلوسستر وسقط في الماء. وعندما حاولت انقاذه دفعني الى أعماق المحيط الهائج. يا الهي! كم كان الغرق أليماً! وكم كان مخيفاً ضجيج الأمواج في أذني. كم كان شنيعاً منظر الموت الماثل أمامي. لقد كان البحر يعج بآلاف الرجال الذين اصبحوا طعماً للسمك وبالعديد من الجواهر الثمينة المبعثرة هنا وهناك في قعره، وكان بعضها مستقراً في محاجر الموتى فبدت عيونهم متألقة.

براكنبري : هل كان بامكانك، وأنت تموت، أن تتأمل كل هذا؟

كلارانس : لقد استطعت، وكدت أكثر من مرة أن أسلم الروح. لكن أمواج المحيط كانت تحول دون خروجها من صدري الذي ضاق ذرعاً بها.

براكنبري : ألم تستفق خلال هذا النزاع الشديد؟

كلارانس : لا، لا. كان حلمي يمتد الى ما وراء الحياة. في تلك اللحظة بدأ صراعي مع الحياة، فخيِّل اليّ اني أجتاز النهر الحزين برفقة الملاّح المشؤوم الذي تحدث عنه الشعراء، وأدخل مملكة الظلام الأبدي. وكان أول من استقبل نفسي الغريبة، جدي ورويك الذي كان يقول بصوت عالٍ : ما هو العقاب الذي تخبئه الملكية المشؤومة لكلارانس بسبب حلفانه الكاذب؟ ثم أغمي عليه. بعدئذ وصل شبح بشكل ملاك، له شعر مضيء وملطخ بالدم، وصرخ قائلاً : أقبل، كلارانس الخبيث الهارب الذي طعنني في حقول تويكسبري، امسكوا به وأسلموه الى العذاب. وفجأة خيِّل اليّ أن زمرة من الشياطين احاطت بي وراحت تصرخ في أذني صراخاً مزعجاً جعلني أستيقظ وأنا أرتجف. خيِّل اليّ في فترة من الزمن اني قادم من الجحيم بسبب الشعور المخيف الذي انتابني من جراء هذا الحلم.

براكنبري : لا أعجب لخوفك هذا لأن الرعب استولى عليّ أنا أيضاً من جراء ما قلته لي.

كلارانس : يا براكنبري، جميع هذه الأشياء التي تثقل الآن صدري، قمت بها حباً بادوارد. فانظر كيف كافأني على ما بذلته لأجله من جهود. يا الهي اذا كانت صلواتي الحارة لا تستطيع أن تجنبني غضبك، واذا كنت تبغي معاقبتي على جرائمي، فلا تنتقم الا مني وحدي. اشفق على زوجتي البريئة وأولادي المساكين. أتوسل اليك أيها الحارس اللطيف أن تبقى الى جانبي. ان نفسي مرهقة، وأريد أن أنام.

(يتراجع كلارانس الى آخر المسرح ويستلقي على سرير).

براكنبري : سأبقى الى جانبك، يا مولاي. لينعم الله عليك بنوم هادئ. فالألم يفسد علينا أوقات الراحة، اذ يجعل ليلنا نهاراً، ونهارنا ليلاً. الأمراء يتخذون من ألقابهم أمجاداً ويكتفون بها. وهي أمجاد خارجية يدفعون ثمنها متاعب داخلية، لا تجلب لهم سوى هموم لا خلاص منها. ولا يفرق بينها وبين مشاغل العوام سوى الضجة الخارجية فقط.

القاتل الأول : يا سيد.

براكنبري : ماذا تريد أيها الصديق؟ وكيف أتيت الى هنا؟

القاتل الثاني : أريد التحدث الى كلارانس، وقد أتيت الى هنا على رجليّ.

براكنبري : لماذا تختصر كلامك هكذا؟

القاتل الأول : أفضل أن أختصر كلامي كي لا أكون مملاً. لنطلعه على مهمتنا.

(يناول رسالة الى براكنبري ليقرأها).

براكنبري : اقرأ هنا امراً بتسليمكما دوق كلارانس. لن أناقشكما النية الكامنة وراء ذلك لأني لا أريد أن أزج بنفسي في هذه

القضية. الدوق نائم، وهذه هي المفاتيح. سألتقي بالملك وأبلغه اني تنازلت لكما عن مهامي.

القاتل الأول : بامكانك أن تتكل علينا يا سيدي. فهذا تصرّف حكيم.

(يخرج براكنبري).

القاتل الثاني : ماذا تقول؟ هل نطعنه وهو نائم؟

القاتل الأول : كلا. سيفكر عندما يستفيق بأننا تصرفنا بجبن.

القاتل الثاني : لن يستفيق الا يوم القيامة.

القاتل الأول : حسناً. سيقول اننا طعناه وهو نائم.

القاتل الثاني : ذكر القيامة خلق فيّ شعوراً بالندم.

القاتل الأول : كيف تصرح بهذا؟ هل أنت خائف؟

القاتل الثاني : لا لست خائفاً من قتله، لأن لدينا أمراً بذلك. لكني أخاف من الحكم علينا بالاعدام لأننا قتلناه. وهذا الحكم لا يستطيع أحد أن يجنبنا اياه.

القاتل الأول : اعتقدت بأنك مصمم على القيام بالمهمة الموكولة الينا.

القاتل الثاني : انا مصمم على تركه حياً.

القاتل الأول : سأعود الى دوق كلوسستر وأخبره بذلك.

القاتل الثاني : كلا، أرجوك أن تنتظر قليلاً ريثما يعبر شعوري بالشفقة الذي لا يدوم أبداً أكثر من عشرين ثانية.

القاتل الأول : بماذا تحس الآن؟

القاتل الثاني : لا تزال في أعماقي بقية من ضمير.

القاتل الأول : فكّر في المكافأة المعدّة لنا، عندما سننتهي من عملنا.

القاتل الثاني : هيا نقتله. نسيت المكافأة.

القاتل الأول : أين ضميرك الآن؟

القاتل الثاني : في محفظة دوق كلوسستر.

القاتل الأول : عندما سيفتح محفظته ليناولنا المكافأة سيطير ضميرك.

القاتل الثاني : هذا لا يهم. ليذهب ضميري الى حيث يشاء، فلن يجد له مأوى.

القاتل الأول : واذا عاد اليك؟

القاتل الثاني : لن ألتفت اليه. لأنه شيء خطير يجعل من الانسان جباناً. فلا يكاد يسرق أو يحلف زوراً أو يضاجع زوجة جاره حتى يتهمه ويحكم عليه بالهلاك، ويضع العراقيل في وجه المشاريع المفيدة. فقد أجبرني مرة على اعادة محفظة ملأى ذهباً عثرت عليها صدفة. في الحقيقة أراه يقضي على كل من يحافظ عليه. ولقد طُرد من المدن المتحضرة بسبب خطورته لأن كل انسان يسعى الى عيش رغيد لا يثق به ويفضل أن يحيا بدونه.

القاتل الأول : هذا الضمير يحثني الآن على الاقلاع عن قتل الدوق.

القاتل الثاني : لا تثق به. هو يندس في أعماقك لكي يعذبك.

القاتل الأول : انا أقوى منه، لذلك لا يستطيع أن ينال مني.

القاتل الثاني : نحن نتحدث كمن يريد المحافظة على سمعته. هيا نبدأ عملنا.

القاتل الأول : داعبه اذاً بسيفك. ثم نضعه في برميل ملفوازي في الغرفة المجاورة.

القاتل الثاني : هذه فكرة رائعة.

القاتل الأول : مهلاً. أظنه يستفيق.

القاتل الثاني : عجِّل بطعنه.

القاتل الأول : كلا. لنتحدث اليه قليلاً.

كلارانس (يستفيق) : أين أنت أيها السجّان؟ أعطني كأساً من الخمر.

القاتل الأول : سأحضر لك الكأس فوراً وبسرّية تامة.

كلارانس : بحق السماء، قل لي من أنت؟

القاتل الأول : رجل مثلك.

كلارانس : لكنك لست من سلالة ملكية نظيري.

القاتل الأول : أنا وفيّ، بينما أنت لست كذلك.
كلارانس : صوتك يشبه الرعد، انما نظراتك متواضعة.
القاتل الأول : صوتي هو صوت الملك، ونظرتي هي ملكي.
كلارانس : كم هي كلماتك كئيبة وحزينة. أرى تهديداً في عيونكما. لماذا أنتما شاحبا اللون؟ من أرسلكما اليّ. ما هي الغاية من قدومكما؟
القاتلان : جئنا لأجل...
كلارانس : القضاء عليّ؟
القاتلان : أجل، أجل.
كلارانس : أنتما لا تجرؤان على التصريح بذلك. ولن تستطيعا القضاء عليّ اذاً. بماذا اسأت اليكما، أيها الصديقان؟
القاتل الأول : الينا، أنت لم تسئ بشيء، بل الى الملك.
كلارانس : سأصالحه.
القاتل الثاني : لن تصالحه يا مولاي. فاستعد للموت.
كلارانس : هل انتقاكما من بين جميع الرجال للقضاء عليّ أنا البريء؟ ما هي جريمتي؟ ما هي الذريعة لقتلي؟ من حكم عليّ بالموت، أنا المسكين كلارانس؟ لا يحق لأحد أن يهددني بالموت قبل أن أقتنع بالاجراءات القانونية التي تخوّل بذلك. عودا الى ضميركما ولا تتعديا عليّ، بل اخرجا ولا ترفعا أيديكما عليّ لأن الجرم الذي تقدمان عليه عمل منكر.
القاتل الأول : ان ما نقدم عليه انما نقوم به بناء على أمر عالي المصدر.
القاتل الثاني : ومن أصدر الأمر، هو ملكنا بعينه.
كلارانس : يا لك من تابع مخدوع! هل نسيت ان ملك الملوك أمر في لوح وصاياه بأن لا تقتل. أتريدان كلاكما أن تدوسا شريعته لتنفذا أمر انسان؟ أنتبها. انه يمسك بيمينه العقاب المعد لمن يخالف وصاياه.

القاتل الثاني : هذا العقاب ينزل بك الآن لأنك قاتل. ألم تقسم أن تقاتل في صفوف اسرة لنكاستر.

القاتل الأول : وحنثت بقسَمك. وبسيفك الخائن مزقت أحشاء ابن ملكك.

القاتل الثاني : الذي عاهدت على محبته وحمايته.

القاتل الأول : كيف تطلب منا التقيد بشريعة الله الرهيبة التي خالفتها أنت؟

كلارانس : يا للأسف! لأجل من ارتكبت هذه الجريمة؟ لأجل ادوارد، لأجل شقيقي، الذي لم يرسلكما لقتلي بسبب هذه الجريمة لأنه شريكي في ارتكابها. اذا شاء الله معاقبة ذنب فانه يفعل ذلك علانية. لا تقاوما ارادته لأنه لا يحتاج الى وسائل غير مباشرة وغير مشروعة للقضاء على من اساؤوا اليه.

القاتل الأول : اذاً من أرسلك عندما قضيت على الأمير الفتى بلانتاجينيه؟

كلارانس : أجهزت عليه حباً بأخي وبالشيطان وارضاء لغضبي.

القاتل الأول : حسناً. ان حبنا لأخيك وواجبنا وكرهنا جرائمك، هي التي تدفعنا الى قتلك.

كلارانس : اذا كنتما تحبان أخي فعلاً، لا تبغضاني. فأنا شقيقه وحبيبه. واذا كنتما تقدمان على ذلك لقاء أجر، فتراجعا وأنا أرسلكما الى شقيقي كلوسستر ليكافئكما على ابقائي على قيد الحياة بأجزل مما سيكافئكما به ادوارد على تنفيذ مقتلي.

القاتل الثاني : انت تخدع نفسك، لأن شقيقك كلوسستر يكرهك.

كلارانس : لا، لا. انه يحبني وأنا عزيز عليه. اذهبا اليه وستوقنان بصحة كلامي.

القاتلان : سنذهب اليه.

كلارانس : قولا له من قبلي ان والدنا الأمير يورك، عندما بارك أولاده الثلاثة بيمينه، وأمرنا من أعماق نفسه بأن يحب بعضنا بعضاً، لم يكن يتوقع حدوث مثل هذه الخلافات العاطفية بيننا. اذكرا هذا أمام كلوسستر، وأنا واثق بأنه سيبكي.

القاتل الأول : هو أشبه ما يكون برحى الطاحون، من هذه الناحية.

كلارانس : لا تفتريا عليه. انه رجل طيب القلب.

القاتل الأول : هو كالصقيع الذي يداهم الحصاد. هيا لا تخدع ذاتك، فهو الذي أرسلنا لنجهز عليك.

كلارانس : هذا مستحيل. لقد بكى لأني سُجنت. فضمّني الى صدره وأقسم، وهو يبكي، بأنه سيسعى للافراج عني.

القاتل الأول : وهذا ما يفعله عندما يعتقك من عبودية الأرض ويسلمك الى أفراح السماء.

القاتل الثاني : صالح الله، لأنك مزمع أن تموت.

كلارانس : ماذا تقولان؟ أتنصحاني أن أصالح الله، وتجهلان أنكما تعاديانه بقتلي؟ فكّرا ملياً، لأن من دفعكما الى القيام بهذا العمل سيكرهكما لأنكما قمتما به.

القاتل الثاني : ماذا ينبغي لنا أن نفعل اذاً؟

كلارانس : ان ترضخا وتخلّصا نفسيكما. من منكما، اذا كان ابن أمير، فقد حريته كما هو حالي الآن، يرى أمامه اثنين من القتلة مثلكما، ولا يطلب البقاء على قيد الحياة. كم كنتما ستتوسلان للحفاظ على حياتكما لو كنتما في هوّة أحزاني!

القاتل الأول : الرضوخ للأمر عمل جبان لا يليق برجلين مثلنا.

كلارانس : ورفض الرضوخ عمل وحشي وشيطاني (يخاطب القاتل الثاني) أيها الصديق، أرى الشفقة تلوح في أنظارك. آه! لولا ألحاظك المخادعة لطلبت منك أن تقف الى جانبي وتتوسل لإنقاذي. عندما يتوسل الأمير، أي شحاذ لا يشفق عليه؟

القاتل الثاني : أدر رأسك، يا مولاي.

القاتل الأول : خذ، خذ. (يطعن كلارانس) واذا كان هذا غير كاف، سأغرقك في برميل مالفوازي.

(يخرج، وهو يجر الجثة).

القاتل الثاني : هذا عمل أثيم ومتسرّع. كم وددت أن أغسل يدي من دم هذا القتيل المفجع المروّع كما فعل بيلاطس.

(يدخل القاتل الأول).

القاتل الأول : حسناً. ألا تفكر في مساعدتي؟ أقسم بأن الدوق سيعرف كم أنت جبان.

القاتل الثاني : حتى لو علم بأني حاولت انقاذ شقيقه، فهذا لا يهمني. خذ أنت المكافأة كلها، وردد على مسمعه ما قلته لك. فأنا نادم على مقتل الدوق.

القاتل الأول : اما أنا فلا... اذهب من هنا أيها الجبان! (يخرج القاتل الثاني) الآن عليّ أن أخفي الجثة في حفرة، الى أن يأمر بدفنها، وعندما سأحصل على أجري سأرحل، لأن نبأ مقتله سينتشر. فينبغي أن أغادر هذا المكان.

(يخرج).

الفصل الثاني

المشهد الأول

في أحد قصور لندن.

(يدخل الملك وهو مريض، يساعده أحد أتباعه. ثم تدخل الملكة اليزابيت ودورست وريفرز وهاستينكس وبوكنكهام وكراي وبعض أفراد الحاشية).

الملك ادوارد (يجلس) : لقد قمت اليوم بعمل رائع. يا أعضاء مجلس اللوردات حافظوا على الوحدة التي انشأتها الآن بينكم اني أنتظر رسول الموت من قبل مخلصي ليعتقني من هذا العالم. وستذهب نفسي الى باريها بسلام. لأني أقمت السلام على الأرض بين اصحابي. يا ريفرز ويا هاستينكس، ليسلّم أحدكما على الآخر، ولا يحقد بعد الآن أحدكما على الآخر. بل أرغب في أن تربط الصداقة بينكما.

ريفرز (يقدم يده الى هاستينكس) : أقسم بأن نفسي أضحت طاهرة من كل حقد، واني أعزز المودة الصادقة التي تغمر قلبي.

هاستينكس : اني سعيد وصادق في قسَمي على ذلك أنا أيضاً.

الملك ادوارد : احذرا الخداع أمام ملككما خشية أن يرذلكما ملك الملوك،

بسبب الخداع الذي تخفيانه، ويحكم عليكما بأن يُهلك أحدكما الآخر.

هاستينكس : أقسم بشرفي اني صادق في مودتي.

ريفرز : وأنا أيضاً أقسم بأن مودتي لهاستينكس صادقة.

الملك ادوارد (يخاطب الملكة) : وأنت يا سيدتي، لست خالية من اللوم في كل هذا، ولا أنت أيها الابن دورست، ولا أنت يا بوكنكهام، جميعكم كنتم مشاغبين بعضكم حيال البعض الآخر. أيتها السيدة، دعي لورد هاستينكس يقبِّل يدك، وما تنوين فعله افعليه بدون نية مبطنة.

الملكة اليزابيت: هذه يدي، يا هاستينكس (يقبل هاستينكس يد الملكة) لن أذكر بعد الآن أحقادنا القديمة، أقسم بشرفي وشرف من أنتمي اليهم.

الملك ادوارد (يقدم هاستينكس الى دورست) : يا دورست عانقه، ويا هاستينكس احبب المركيز.

(يتعانق هاستينكس ودورست).

دورست : أقسم بأني لن أخالف أمرك، ولن أنقض عهد الصداقة بيننا.

هاستينكس : وأنا كذلك.

الملك ادوارد : والآن، أيها الأمير بوكنكهام، ثبت هذا العهد، وقبِّل أهل أمرائي، واسعدني بجمع شملكم.

بوكنكهام (يخاطب الملكة) : اذا حقدت عليك في يوم من الأيام واذا لم أكنّ لكِ ولأهلك كل مودة مشروعة، فليعاقبني الله، ويجعل كل من يحبني أن يضمر لي الحقد، وأن يحملني، وأنا في أمسّ الحاجة الى صديق، أثق به كل الثقة، على الشك بصداقته لي فأرى فيه خائناً ماكراً يضمر لي الشر والأذى. هذا هو العقاب الذي اطلب من السماء أن تنزله بي، اذا لم أكن وفياً في حبي لك ولذويك.

الملك ادوارد : تعهدك هذا، أيها الأمير بوكنكهام، هو بلسم شافٍ لقلبي المريض. أتمنى أن يحضر أخي كلوسستر حتى تكون خاتمة هذا العهد سعيدة.

بوكنكهام : ها هو الدوق النبيل قادم.

(يدخل كلوسستر).

كلوسستر : السلام على مليكي وملكتي، وعليكم أيها اللوردات النبلاء، وأسعد الله أوقاتكم.

الملك ادوارد : يا كلوسستر، ها قد قمنا بعمل أوجبته المحبة، وقضينا على الأحقاد القائمة بين اللوردات، فانقلبت العداوة بينهم الى سلام، والحقد الى مودة صادقة.

كلوسستر : بارك الله صنيعك هذا، أيها الملك. اذا كان هذا الحشد الجليل، من أسأت اليه بدون علم مني، أو في ثورة غضبي، فأنا اطلب الصفح. أني أفضّل الموت على أن أكنّ العداوة لأحد. أنا أحب جميع فاعلي الخير. (يخاطب الملكة) منك أولاً يا سيدتي، اطلب سلاماً صادقاً، ادفع ثمنه وفاء لك، ومنك أيضاً اطلب هذا السلام يا بوكنكهام، اذا حصلت بيننا أية ظلامة، ومنك أيضاً يا لورد ريفرز، ومنك أيضاً يا دورست أنت الذي كنت تعبس في وجهي دون أن استحق منك ذلك، ومنكم جميعاً أيها اللوردات النبلاء.

الملكة اليزابيت: هذا اليوم سيكون في المستقبل عيداً نحتفل به. وأتمنى أن تكون جميع خلافاتنا قد سويت. أتوسل اليك أيها الملك أن تعفو عن شقيقنا كلارانس.

كلوسستر : ماذا أرى؟ هل جئت الى هنا لأقدم صداقتي، فأصفع هكذا أمام الملك؟ من لا يعرف ان الدوق العزيز قد مات؟ (يرتعد الجميع) أنتِ توجهين اهانة اليه بشتمك جثمانه.

الملك ادوارد : ومن لا يعرف أن الدوق قد مات؟ بل من يعرف انه مات؟

الملكة اليزابيت: أيتها السماء الناظرة الى كل شيء، أي عالم هو عالمنا هذا؟
بوكنكهام : يا لورد دورست، هل أنا شاحب الوجه مثلكم جميعاً؟
دورست : أجل أيها اللورد الكريم. لم يبق شخص هنا لم يفقد خداه لونهما الأحمر.
الملك ادوارد : هل مات كلارانس؟ مع أن الأمر الذي أصدرته، قد ألغيته بعد برهة.
كلوسستر : مسكين، لقد مات بناء على أمرك الأول. لأن من حمل أمرك هذا الأول، رجل سريع الخطى. أما أمرك الثاني المعاكس، فقد حمله رجل بطيء الخطى. فعندما وصل رأى أن المسكين قد مات ودفن.

(يدخل ستانلي).

ستانلي (يركع أمام الملك) : ألتمس منك معروفاً أيها الملك، لقاء جميع ما قدمته لك من خدمات.
الملك ادوارد : أرجوك أن تدعني وشأني، لأن الحزن يمزق قلبي.
ستانلي : لن أنهض قبل أن تستجيب جلالتك طلبي.
الملك ادوارد : اذاً قل بسرعة، ماذا تريد؟
ستانلي : أيها الملك، أطلب العفو عن أحد رجالي وقد قتل نبيلاً وقحاً من أتباع دوق نورفولك.
الملك ادوارد : ماذا تقول؟ انا الذي أصدرت حكم الموت على شقيقي، تريدني أن أعفو عن أحد عبيدك؟ شقيقي لم يقتل أحداً، انما أخطأ في تفكيره فقط. ومع ذلك كان عقابه الموت المريع. من طلب مني أن أعفو عنه؟ من ركع أمامي، وأنا في ثورة غضبي وطلب اليَّ أن أتريث؟ من حدثني عن الأخوَّة التي تربطني به؟ من حدثني عن محبته لي؟ من ذكَّرني بأن المسكين ترك ورويك والتحق بي وقاتل في صفوف أتباعي؟ هو الذي حملني الى حقول تويكسبري

عندما طرحني أوكسفورد ارضاً، فأنقذ حياتي من الموت، وصرخ قائلاً لي : أخي العزيز، عش وكن ملكاً. من ذكّرني كيف انه، عندما كنا نحن الأثنين منطرحين أرضاً نكاد نهلك برداً نزع ملابسه وغطاني وبقي هو عارياً يواجه برد الليل المثلج؟ كل هذه الذكريات أنساني اياها غضبي الوحشي الآثم، ولم يتقدم أحد منكم ليذكّرني بها. فاذا أقدم أحد أنصاركم السكارى على القتل وعلى تشويه صورة مخلصنا المقدسة، يهرع ويركع ويطلب له الصفح، وتظنّون ان عليّ أن أمنحكم اياه. لكن من أجل شقيقي لم يتكلم أحد منكم، حتى أنا ناكر الجميل لم أشفع به. ان أفضلكم هو من المدينين له خلال حياته. مع ذلك لم يتوسط أحد منكم لأجله. يا الهي! أخشى أن ينالنا عقابك العادل بأجمعنا نحن الحاضرين ها هنا مع ذوينا أيضاً. بسبب مقتله. هيا، يا هاستينكس، ساعدني على الوصول الى غرفتي. مسكين كلارانس.

(يخرج الملك متوكئاً على هاستينكس، تتبعه الملكة وريفرز ودورست وكراي).

كلوسستر (يخاطب بوكنكهام) : هذه هي حصيلة التسرع. ألم تلاحظ ان جميع ذوي الملكة المذنبين علا الاصفرار وجوههم عندما تلقوا نبأ موت كلارانس؟ آه! لقد كانوا يطلبون موته من الملك كل يوم. لينتقم الله له. هيا بصحبتنا نعزّ ادوارد.

بوكنكهام : اننا نتبعك.

(يخرج الجميع).

المشهد الثاني

دائماً في أحد قصور لندن.

(تدخل دوقة يورك مع ابن كلارانس وابنته).

الابن : تكلمي، يا جدتي، هل مات والدي؟

الدوقة : كلا، يا ولدي.

الابنة : لماذا اذاً تفركين يديك وتقرعين صدرك وتصرخين : يا كلارانس، يا ولدي التعيس!

الابن : لماذا تنظرين الينا، وتهزّين رأسك، وتعتبريننا أيتاماً مهملين، اذا كان والدنا النبيل لا يزال حياً؟

الدوقة : أنتما مخطئان. ان ما يحزنني هو مرض الملك الذي أخشى أن أفقده، وليس موت والدكما. فالبكاء على الميت مضيعة للوقت.

الابن : تعترفين اذاً بأنه مات. والذنب في ذلك ذنب عمي الملك. عاقبه الله. سأصلي لأجله.

الابنة : وأنا أيضاً.

الدوقة : اسكتا يا ولديّ، اسكتا. ان الملك يحبكما. فبساطتكما وبراءتكما تحولان دون ادراك سبب موت أبيكما.

الابن : يا جدتي، قال لي عمي ان الملك بتحريض من الملكة، اختلق بعض الافتراءات ليضع والدي في السجن. وعندما أخبرني عمي بذلك، بكى وأشفق عليَّ كثيراً وقبلني بحنو. وقال لي أن أعتمد عليه كما لو كان والدي، وانه يحبني كولده.

الدوقة : هل يعقل أن تتقنَّع الخيانة هكذا بقناع الفضيلة؟ انه ولدي، أجل، لكن عمله عار عليّ، مع انه لم يرضع الخيانة من ثديي.

الابن : هل تعتقدين، يا جدتي، بأن عمي لم يعلن الحقيقة؟
الدوقة : نعم، يا ولدي.
الابن : لا استطيع تصديقه. اسمعي. ما هذا الضجيج؟

(تدخل الملكة اليزابيت، وهي تائهة، يتبعها ريفرز ودورست).

الملكة اليزابيت: من يستطيع منعي من البكاء والنحيب؟ ستحالف نفسي اليأس، وأصبح عدوة ذاتي.

الدوقة : لماذا هذا المشهد المفاجئُ من الحزن الشديد؟

الملكة اليزابيت: سيدي ادوارد ابنك قد مات. فلماذا تبقى الأغصان عندما تموت الجذور؟ لماذا لا تجف الأوراق عندما ينضب النسغ؟ اذا كنتم تبغون الحياة، فانتحبوا واذا كنتم تبغون الموت، فأسرعوا. لعل أرواحنا تستطيع اللحاق بروحه، ومرافقتها الى مملكتها الجديدة حيث الراحة الدائمة.

الدوقة : انا أشاطرك أحزانك. حتى الآن كنت أبكي موت زوجي، وأعيش لأرى صورته في ولديّ. لكن الموت الخبيث حطمهما الآن. ولم يبق لتعزيتي سوى مرآة خدّاعة لا أرى فيها سوى العار. أنت أرملة، ولكنك أم تتعزين بأولادك. أما أنا فالموت غيّب زوجي وولديّ كلارانس وادوارد اللذين كنت أتوكأ عليهما. آه! ان لدي من الأسباب ما يجعلني استطيع السيطرة على بكائك واغراقه في بكائي.

الابن (يخاطب الملكة) : أنت لا تبكين بسبب موت والدنا، فلماذا نشاطرك بكاءك؟

الابنة : لم يشاطرنا أحد حزننا العميق. فليبق حزنك بدون صدى.

الملكة اليزابيت: لا أريد أن يشاطرني أحد أتراحي. فان اليأس الكامن في صدري يستطيع أن يجعل أنهاراً من الدمع تجري من عيني وتغمر العالم. آه! أين أنت يا زوجي، يا سيدي العزيز ادوارد.

الولدان : آه! يا والدنا، يا سيدنا العزيز كلارانس.

الدوقة : يا للأسف، يا ولديّ ادوارد وكلارانس.

الملكة اليزابيت: كان ادوارد معيني الوحيد، وقد وافاه الأجل.

الولدان : كان كلارانس معيننا الوحيد، ورحل عن هذا العالم.

الدوقة : كانا المعينين الوحيدين لي، وفقدتهما.

الملكة اليزابيت: لم يسبق ان فقدت أرملة عزيزاً كالذي فقدته أنا.

الولدان : لم يسبق أن فقد يتيمان كالذي فقدناه كلانا.

الدوقة : لم يسبق ان فقدت أم كالذي فقدته أنا. اني محور جميع هذه الأحزان، والمآسي التي يشاطرها بعضكم بعضاً أتحملها مجتمعة. (تشير الى اليزابيت) هي تبكي ادوارد وأنا كذلك أبكي كلارانس، وهي لا تحزن لفقده. (تشير الى ابن كلارانس وابنته) هذان الولدان يبكيان كلارانس كما أبكيه أنا، وبينما أنا أبكي ادوارد هما لا يحزنان لفقدانه. اني أروي أحزانكم مجتمعة وأذرف عليها الدموع.

دورست (بخاطب اليزابيت) : هدئي من روعك، يا والدتي العزيزة. أنت تهينين العزة الالهية بتصرفك هذا. أليس من نكران الجميل أن نسيء الى اليد التي أحسنت الينا؟ فكيف بك اذا اتهمت السماء لأنها استردت المُلك الذي كان بحوزتك؟

ريفرز : يا سيدتي، فكري بابنك الأمير. ارسلي في طلبه فوراً توّجيه، لأنه عزاؤك الوحيد. ادفني يأسك في قبر ادوارد الميت، وارفعي فرحك عالياً فوق عرش ادوارد الحي.

(يدخل كلوسستر وبوكنكهام وستانلي وهاستينكس وراتكليف وآخرون).

كلوسستر (يخاطب اليزابيت) : تعزّي، يا شقيقتي. ان لدينا جميعاً داعياً للبكاء على النجم الملكي الذي غاب، ولكن لا أحد يستطيع بالبكاء أن يسترد ما خسره. (يخاطب دوقة يورك) يا والدتي، سامحيني اذا لم أركِ. أتوسل اليك بكل تواضع أن تمنحيني بركتك.

ألدوقة : ليباركك الله، ويحل في قلبك الرقيق المحبة والطاعة والوفاء للواجب.

كلوسستر (على حدة) : آمين. وأن يميتني بعد أن أمسي عجوزاً سموحاً.

بوكنكهام : أيها الأمراء، أيها اللوردات الحزانى، تعاضدوا جميعكم، وليحب بعضكم بعضاً. ان ما فقدتموه بموت الملك سيعوضه عليكم ابنه. بما ان الحقد الذي كان يملأ قلوبكم قد زال، فلنحافظ بمحبة على الوحدة الحديثة العهد بيننا. من الأفضل أن نرسل في طلب الأمير الشاب الموجود في لودلوي ونرافقه على رأس وفد متواضع الى لندن لتتويجه.

ريفرز : لماذا ينبغي أن يكون الوفد متواضعاً، يا مولاي بوكنكهام؟

بوكنكهام : خوفاً من أن يسبب الحشد الكبير نزف جرح الحقد الذي لم يندمل بعد، خاصة ان الدولة لا تزال ضعيفة. علينا أن نتدارك الشر قبل وقوعه واستفحاله.

كلوسستر : آمل أن يكون الملك قد وطّد السلام بيننا جميعاً لأن المصالحة بالنسبة اليّ متينة وصادقة.

ريفرز : وبالنسبة اليّ أيضاً، كما هي بالنسبة الى الجميع على ما أعتقد. لكن، بما ان المصالحة التي تمت بيننا لا تزال هشة يجب عدم تعريضها لخطر الانهيار وسط جمهور غفير. لذلك أنا أوافق النبيل بوكنكهام على رأيه في ارسال وفد صغير لإحضار الأمير.

هاستينكس : من جهتي، أنا أيضاً اوافق على ذلك.

كلوسستر : ليكن ما تريدون. فلنقرر من سيذهب الى لود لوي (يخاطب الملكة) يا سيدتي (يخاطب الدوقة) وأنت يا والدتي، ألا تبديان رأيكما في أمر هام كهذا؟

الملكة اليزابيت والدوقة معاً : من كل قلبينا.

(يخرج الجميع باستثناء ريتشارد وبوكنكهام).

بوكنكهام : أيها اللوردات بحق السماء، تعالوا ننطلق من هنا. وأثناء الطريق الى الأمير، سأنتهز الفرصة لأبعد عنه اسرة الملكة المتشامخة.

كلوسستر : يا ذاتي الأخرى، يا مستشاري، يا بنيّ... اني أنقاد اليك كالطفل. فالى لود لوي اذاً. ينبغي أن لا تتخلف عن الوفد.

(يخرجان).

المشهد الثالث

في أحد شوارع لندن.

(يدخل مواطنان ويلتقيان).

المواطن الأول : صباح الخير. الى أين تسرع هكذا؟

المواطن الثاني : اكاد لا أعرف الى أين، أنا ذاهب. هل علمت بالنبأ؟

المواطن الأول : أجل، مات الملك.

المواطن الثاني : انه لنبأ محزن، اذ من النادر أن يكون الخلف أفضل من السلف. أنا خائف. أنا خائف. هذا الحدث سيهز العالم.

(يدخل مواطن ثالث).

المواطن الثالث : ليكن الله في عونكما.

المواطن الأول : صباح الخير، يا سيدي.

المواطن الثالث : هل تأكدت وفاة الملك ادوارد؟

المواطن الثاني : أجل، يا سيدي. حمانا الله مما سيحدث.

المواطن الأول : حسناً، والملك الحالي هو أيضاً مثل أولئك، ان من جهة والده، وإن من جهة والدته.

المواطن الثالث : إن أطماع أعمامه سترعبنا اذا لم يضع الله لها حداً. فالدوق كلوسستر رجل خطر كأبناء الملكة، وأشقاؤهما المتغطرسون ليتهم كانوا محكومين بدلاً من أن يكونوا حاكمين ليتنفس بلدنا المريض الصعداء.

المواطن الأول : هيا بنا. نحن ننظر الى الأمور متوجسين، وأملنا أن يتم كل شيء على ما يرام.

المواطن الثالث : عندما تتلبد السماء بالغيوم، يرتدي الحكماء معاطفهم. وعندما تتساقط أوراق الشجر، يعني ذلك أن الشتاء قادم. وعندما تغيب الشمس فمن لا ينتظر حلول الظلام؟ وعندما تهب العواصف، تنذر بحدوث القحط. قد يتم كل شيء على ما يرام. ولكن اذا شاء ربك ذلك، فانه يكون قد وهبنا أكثر مما نستحق أو أكثر مما نأمل.

المواطن الثاني : في الحقيقة، الخوف يملأ قلوب جميع الناس. لا تستطيع التحدث الى شخص دون أن تلاحظ انه مرهق وخائف.

المواطن الثالث : هذا ما يجري دوماً عندما توشك الثورات أن تندلع. فأرواح البشر تشعر بذلك بوحي الهي. فلنوكل أمرنا الى الله. الى أين ستذهبان؟

المواطن الثاني : لقد استدعانا القضاة.

المواطن الثالث : وأنا أيضاً، سأصحبكما.

المشهد الرابع

لندن ــ في احدى غرف القصر.

(يدخل رئيس الأساقفة يورك، والدوق الشاب يورك،
والملكة اليزابيت ودوقة يورك).

رئيس الأساقفة : قيل لي ان الوفد أمضى الليلة الماضية في نورتمتون وسيصل هذا المساء الى ستوني سترافورد. وغداً أو بعد غد سيصل الى هنا.

الدوقة : أريد من كل قلبي أن أرى الأمير، وقد طالت قامته عما شاهدته عليه في المرة الأخيرة.

الملكة اليزابيت: علمت انه لم يكبر. يقال ان ولدي يورك قد أصبح تقريباً بطول قامته.

دوق يورك : هذا صحيح يا أمي. لكنني لم أكن أتمنى أن يكون الأمر كذلك.

الدوقة : لماذا يا عزيزي؟ حسن أن تكبر.

دوق يورك : يا جدتي، ذات مساء عندما كنا جالسين لتناول طعام العشاء، أبدى عمي ريفرز الملاحظة ذاتها وقال اني أنمو وأطول أكثر من أخي. كما قال عمي كلوسستر، ان الأعشاب الصغيرة تتمتع بالجمال والأعشاب الرديئة تنمو بسرعة. ومنذ ذلك الحين لم أشأ أن أكبر بسرعة. لأن الأزهار العطرة تنمو ببطء، بينما الأعشاب الرديئة تنمو بسرعة.

الدوقة : أقسم بأن من استشهد بهذا المثل يشذ عنه. لقد كان في شبابه مخلوقاً نحيلاً بطيء النمو الى درجة ان هذه القاعدة، لو كانت صحيحة، لأصبح هو الجمال بذاته.

رئيس الأساقفة : هذا صحيح، يا سيدتي.

الدوقة : أرجو ذلك. لكن الأمهات يقلقن دائماً على أبنائهن.

دوق يورك : أقسم بشرفي، لو ساعدتني ذاكرتي في تلك اللحظة لسخرت بدوري من نمو عمي الذي كان بوسعه أن ينمو أكثر مما هو عليه الآن.

الدوقة : أرجو أن تقول لي كيف، يا صغيري يورك؟

دوق يورك : يقال ان عمي كان ينمو بسرعة مذهلة الى درجة انه استطاع أن يقضم قشرة الخبز ولم يتجاوز بعد الساعتين من عمره. أما أنا فلم تظهر اسناني قبل بلوغي السنة الثانية من عمري.

الدوقة : ارجوك يا يورك، ان تقول لي من روى لك كل هذا؟

دوق يورك : مرضعته، يا جدتي.

الدوقة : مرضعته! كيف يكون ذلك، وقد ماتت قبل أو تولد أنت؟
دوق يورك : اذا لم تكن هي التي روت لي ذلك، فلا يسعني أن أقول لك من أعلمني به.
الملكة اليزابيت: يا لك من ثرثار صغير! أنت على قدر كبير من الخبث.
رئيس الأساقفة : لا توبخيه، يا سيدتي.
الملكة اليزابيت: ان للحيطان آذاناً تسمع.

(يدخل رسول).

رئيس الأساقفة : هوذا رسول. ماذا تحمل الينا من أخبار؟
الرسول : يعز عليّ أن أعلن لكم ما أحمله من أنباء.
الملكة اليزابيت: كيف حال الأمير؟
الرسول : انه بخير يا سيدتي.
الدوقة : ما هي الأنباء التي تحملها اذاً؟
الرسول : لقد أودع لورد ريفرز ولورد كراي ومعهما أيضاً سير توماس فوكهام في سجن بومفريت.
الدوقة : من أمر بإلقاء القبض عليهم؟
الرسول : دوق كلوسستر ودوق بوكنكهام.
رئيس الأساقفة : وماذا صنعا من شر؟
الرسول : لقد أعلنت لكم كل ما أعلم. أما لماذا اعتقل هؤلاء النبلاء، وما هو ذنبهم؟ فاني أجهل كل هذا.
الملكة اليزابيت: انا أشهد انهيار بيتي. لقد استولى النمر على الغزال اللطيف، وبدأ الطغيان اعتداءه على عرش البريء المجرد من السلاح. ها أنا أرى نهاية العالم مخطوطة على ورقة أمامي.
الدوقة : أيتها الأيام اللعينة المليئة بالاضطرابات والحروب، كم مرة شهدت عيناي ولادتك من جديد. مات زوجي ليحظى بالعرش. ما أولادي الذين كانوا دوماً يتأرجحون بين القمة والحضيض، فقد فرحت لنجاحهم وبكيت لنكباتهم. وعندما

استقر بهم الأمر، واضمحلت كل الخلافات الداخلية، نشبت الحرب فيما بينهم، وراح الأخ يقاتل أخاه. أيها الحقد الشرس أوقف غضبك عند هذا الحد. وإلا فضّلت أن أموت على أن أرى الموت أمام عينيّ يحصد الأحياء.

الملكة اليزابيت (تمسك بيد دوق يورك) : تعال، تعال، يا ولدي، نذهب الى قدس الأقداس وداعاً يا سيدتي.

الدوقة : انتظري، سأذهب معكما.

الملكة اليزابيت: لا داعي لرحيلك معنا.

رئيس الأساقفة (يخاطب الملكة) : تعالي، يا سيدتي، واحملي معي ثروتك وكل ما تملكين. سأسلمك الأختام التي حافظت عليها. وأرجو أن تعاملني السماء بحسب الخدمة التي أقوم بها نحوك ونحو ذويكِ. تعالي، سأرافقك الى قدس الأقداس.

(يخرج الجميع).

الفصل الثالث

المشهد الأول

في أحد شوارع لندن.

(تنفخ الأبواق. يدخل أمير ويلز وكلوسستر وبوكنكهام والكردينال بورشيه وآخرون).

بوكنكهام	:	أهلاً بك أيها الأمير في لندن مقرك الملكي.
كلوسستر	:	أهلاً بك يا ملك افكاري. أهي مشقة الطريق التي تجعلك تبدو حزيناً؟
الأمير	:	لا يا عمي. لكن خلافاتنا خلال الرحلة جعلتها مملة ومضنية. كنت أتمنى لو كان جميع أعمامي هنا في استقبالي.
كلوسستر	:	أيها الأمير الوديع، ان فضيلتك التي لا تشعر بأن لا شائبة تشوبها، لم تغرق بعد في بحر عالم الخداع. وليس باستطاعتك الآن أن تدرك سوى مظاهر الناس الخارجية. والله يعلم انها نادراً ما تتفق وما يضمره القلب. ان اعمامك الذين تتمنى وجودهم في استقبالك كانوا أشخاصاً خطرين، ولم تلاحظ، يا صاحب السمو، سوى كلامهم المعسول، ولم تحس قط بالسم الذي يملأ قلوبهم. حماك الله منهم ومن الأصدقاء الكذبة.

الأمير : وقاني الله من الأصدقاء الكذبة. لكن أصدقائي ليسوا منهم.
كلوسستر : يا مولاي، اتى محافظ لندن ليسلم عليك.

(يدخل المحافظ وموكبه).

اللورد المحافظ: ليمنّ الله عليك بالصحة والسعادة.
الأمير : أشكرك أيها اللورد. أشكركم جميعاً. (ينصرف المحافظ وموكبه) كنت أعتقد بأن والدتي وأخي يورك قد وصلا منذ مدة طويلة الى هنا للقائنا. كم هو بطيء هاستينكس هذا الذي لم يصل بعد ليقول لي ما اذا كانا سيحضران أو لا.

(يدخل هاستينكس).

بوكنكهام : ها هو قد وصل، والعرق يتصبب منه.
الأمير : أهلاً بك، يا مولاي. هل ستحضر والدتي؟
هاستينكس : دخلت امك مع أخيك الى قدس الأقداس. اما السبب فلا يعلمه الا الله. كان الأمير الصغير يريد أن يحضر ليسلّم عليك. لكن أمه منعته بالقوة.
بوكنكهام : ما هذا، يا مولاي الكردينال. هل تذهب لاقناع الملكة بارسال دوق يورك الى أخيه صاحب السمو؟ واذا رفضت فان لورد هاستينكس سينتزعه من بين ذراعيها.
الكردينال : مولاي بوكنكهام، اذا تمكنت من جلب دوق يورك عن طريق اقناع أمي فسيحضر الى هنا حالاً. لكن اذا أهملت توسلاتي اللطيفة، فليجنبنا الله مخالفة الامتياز المقدس الذي يتمتع به قدس الأقداس. لا أريد أن أرتكب خطيئة مميتة كهذه، ولو لقاء مملكة بكاملها.
بوكنكهام : أنت تصرّ بدون سبب، على الدفاع عن التقاليد. ولن تخرق حرمة قدس الأقداس بخطفك الأمير. أما اللجوء الى قدس

الأقداس فيفيد منه أشخاص جعلتهم أعمالهم يستحقون هذا المصير، أو أشخاص لهم من الادراك ما يكفيهم لطلب ذلك. لكن الأمير لم يطلب هذا ولم يستحقه. لذا، فان خطفك اياه من هذه العزلة لا يجعلك تخالف أية شريعة أو أي امتياز. غالباً ما سمعت بأن الرجال يستفيدون من اللجوء الى قدس الأقداس، انما لم أسمع قط بأن الأولاد يفيدون أيضاً من اللجوء اليه.

الكردينال : فاز رأيك هذه المرة على رأيي. هيا ألا تريد أن تذهب معي يا لورد هاستينكس؟

هاستينكس : أجل سأذهب، يا مولاي.

الأمير : اسرعا بقدر الامكان. (يخرج الكردينال ومعه هاستينكس) قل لي يا عمي كلوسستر، متى يصل اخي، وأين سنقيم الى أن يتم التتويج؟

كلوسستر : سنقيم في مكان يليق بشخصك الملكي. اذا كان لي أن أنصحك فانك يا صاحب السمو حسناً تفعل اذا استرحت يوماً أو يومين في البرج. هناك ستختار الاقامة التي ترضيك وتلائم صحتك وهواياتك.

الأمير : لا أحب البرج، يا مولاي. أحقاً بناه يوليوس قيصر.

كلوسستر : هو أرسى أسسه. وتم بناؤه في العصور اللاحقة.

الأمير : هل ذكر التاريخ ان يوليوس قيصر هو الذي قام بذلك أم ان التقليد المتواتر نسب اليه بناءه؟

بوكنكهام : هو التاريخ، أيها اللورد.

الأمير : لنفترض ان حقيقة هذا الأمر غير مدوّنة يكفي أن ترويه جميع الأجيال ليستمر من قرن الى قرن حتى نهاية العالم.

كلوسستر (على حدة) : هو على قدر من الحكمة رغم صغر سنه. انما أمثاله لا يعيشون طويلاً.

الأمير : ماذا تقول يا عماه؟

كلوسستر : أقول ان الشهرة تُعمّر طويلاً، بدون أن تحتاج الى خصائص معينة.

الأمير : كان يوليوس قيصر رجلاً مشهوراً. وقد استعمل الثروات التي أكسبته اياها بسالته لتخليد شجاعته هذه، ولم ينتصر الموت عليه، لأنه لا يزال يعيش ممجّداً مخلّداً بعد وفاته. سأعلمك بالأمر يا بوكنكهام.

بوكنكهام : ما هو يا مولاي؟

الأمير : اذا طال عمري وأصبحت رجلاً فسأستعيد حقوقنا القديمة على فرنسا، وإلا سأموت كجندي بعد أن أعيش كملك.

كلوسستر (على حدة) : الصيف القصير ينبئ بربيع عاجل.

(يدخل دوق يورك وهاستينكس والكردينال).

بوكنكهام : وأخيراً وصل دوق يورك لحسن الحظ.

الأمير : يا ريتشارد يورك، كيف حال أخي المحبوب؟

دوق يورك : انه بحالة جيدة أيها السيد المهاب. هكذا سأدعوك من الآن وصاعداً.

الأمير : هذا مؤسف بالنسبة اليَّ واليك يا أخي. لقد مات مؤخراً من كان يحتفظ بهذا اللقب، ومن فقدنا بموته الأبهة الملكية.

كلوسستر : كيف حال قريبنا النبيل لورد يورك؟

دوق يورك : اشكرك يا عمي على تلطفك. كنت تقول ان الأعشاب الرديئة تنمو بسرعة. فها قد أصبح أخي الأمير يكبرني كثيراً.

كلوسستر : هذا صحيح، يا مولاي.

دوق يورك : اذاً هو رديء.

كلوسستر : لا، ينبغي أن لا أقول هذا.

دوق يورك : اذاً أنت مدين له أكثر مني.

كلوسستر : بامكانه أن يأمرني بصفته مليكي. أما أنت فليس لك من سلطان عليّ سوى مودّة القرابة.

دوق يورك : أرجوك يا عمي، ان تهبني هذا الخنجر.

كلوسستر : أتريد خنجري. ها هو، أهبك اياه بكل سرور.

الأمير : لماذا تطلبه، يا أخي؟

دوق يورك : طلبته من عمي، وأنا واثق بأنه سيعطيني اياه بدون أن يأسف عليه، لأنه ليس سوى لعبة.

كلوسستر : أريد أن أهدي قريبي ما هو أعظم من هذا بكثير.

دوق يورك : هدية أعظم منه؟ هل تهديني سيفاً؟

كلوسستر : بكل طيبة خاطر، اذا كان السيف خفيفاً.

دوق يورك : اذاً تريد اهدائي أشياء خفيفة فقط، أما الأشياء الثمينة فتحجبها عني.

كلوسستر : السيف ثقيل، ولا تستطيع حمله.

دوق يورك : بامكاني حمله مهما كان ثقيلاً.

كلوسستر : هل تريد اقتناء سيفي أيها اللورد الصغير؟

دوق يورك : أريد اقتناءه لأشكرك على الاسم الذي تناديني به.

كلوسستر : أي اسم.

دوق يورك : صغير.

الأمير : أرى ان مولاي يورك ينكّت دائماً في كلامه. فأرجو أن تتحمله.

دوق يورك : تريد أن تقول ان يحملني لا أن يتحملني. عمّاه، ان أخي يهزأ بك وبي أيضاً، لأني صغير كالقرد، ويعتقد بأن عليك ان تحملني على كتفيك.

بوكنكهام : كلامه لاذع، ويسخر من ذاته بلباقة بغية تخفيف التهكم الذي يوجهه الى عمه. هذا رائع بالنسبة الى صغر سنه.

كلوسستر (يخاطب الأمير) : هل تريد أن تنطلق؟ أنا وبوكنكهام سنذهب الى

والدتك ونتوسل اليها أن تلحق بك الى البرج حيث تحتفل بعيدك.

دوق يورك : ماذا تقول؟ تريد الذهاب الى البرج؟

الأمير : اللورد الذي يقوم على حمايتي أوصاني بذلك.

دوق يورك : لم أنم براحة بال في البرج.

كلوسستر : لماذا؟ ممن تخاف هناك؟

دوق يورك : أنا أخاف شبح عمي كلارانس الغاضب، فقد قالت لي جدتي بأنه قتل في البرج.

الأمير : أنا لا أخاف من الأعمام الموتى.

كلوسستر : ولا من الأعمام الأحياء.

الأمير : لو كانوا على قيد الحياة، أنا على يقين بأني لا أخشاهم. تعال نذهب الى البرج لأني حزين لأجلهم.

(يخرج أمير ويلز ودوق يورك وهاستينكس والكردينال وأفراد الحاشية).

بوكنكهام : ألا تعتقد أن هذا الثرثار الصغير يورك لم تحرضه والدته اللطيفة على السخرية منك بهذه الطريقة المهينة؟

كلوسستر : بدون شك، بدون شك. هو متحدث صغير نشيط جريء ومدّعٍ مقتدر، يشبه والدته من رأسه الى أخمص قدميه.

بوكنكهام : حسناً. لندعهما بسلام. اقترب يا عزيزي كاتسبي. لقد أقسمت علناً بأن تنفذ كل ما تخططه لك وتكتم كل ما نأتمنك عليه، وسمعت ما تنوي القيام به عندما كنا نسير معاً في الطريق. فما رأيك؟ أليس من السهل أن ندخل لورد هاستينكس في مشروع تنصيب هذا الدوق النبيل على العرش؟

كاتسبي : هو يحب الأمير كثيراً بسبب ذكرى والده، الى درجة ان يصعب حمله على القيام بأي عمل يسيء اليه.

بوكنكهام : وستانلي، ما رأيك به؟

كاتسبي : موقفه سيكون مطابقاً لموقف هاستينكس.

بوكنكهام : حسناً، لنقف عند هذا الحد. يا عزيزي كاتسبي، ابحث عن هاستينكس وحاول معرفة رأيه في مشروعنا دون أن تدعه يدرك ما ترمي اليه، وادعه الى حفلة التتويج في البرج. واذا وجدته مستعداً لقبول مشروعنا، اعلنه له. اما اذا وجدته بارداً وصلباً ولم يحسن استقبالك، فقابله بالمثل. اقطع حديثك معه عند هذا الحد، وتعال لتطلعنا على ميله. لأننا سنعقد غداً مجلسين منفصلين، وستدعى أنت لتتسلم منصباً رفيعاً.

كلوسستر : بلِّغ سلامي الى لورد هاستينكس، وقل له : يا ستانلي، ان زمرة اعدائه القدامى ستذبح غداً في قصر بومفريت. ومُر اللورد مقابل هذا النبأ السارّ أن يطبع قبلة اضافية على خد السيدة شور.

بوكنكهام : يا كاتسبي المخلص، عجِّل في انجاز هذا الأمر.

كاتسبي : سأنجزه بكل ما أوتيت من همة.

كلوسستر : هل ستصلنا أخبارك قبل أن تنام؟

كاتسبي : أجل، يا مولاي.

كلوسستر : ستجدنا نحن الأثنين في كروسبي هاوس.

(يخرج كاتسبي).

بوكنكهام : والآن ماذا نفعل اذا وجدنا ان هاستينكس لن يشترك في مؤامرتنا؟

كلوسستر : سنقطع له رأسه، يا عزيزي. فلا بد من أن نفعل شيئاً. أما أنت فعليك عندما تصبح ملكاً أن تطالب لي بكونتية هيرفورد وبجميع الأملاك المنقولة التي كانت تخص أخي.

بوكنكهام : سأطالبك بهذا التعهد.

كلوسستر : سيكون لك ما تريد كما أتمنى لك من كل قلبي. هيا

تتناول طعام العشاء باكراً لنستطيع بعد ذلك أن نهضم مؤامرتنا.

(يخرجان).

المشهد الثاني

أمام منزل لورد هاستينكس.

(يدخل الرسول).

الرسول (يقرع الباب) : يا مولاي (هاستينكس من الداخل) من يقرع الباب؟
هاستينكس (من الداخل) : كم هي الساعة الآن؟
الرسول : الساعة الرابعة.

(يدخل هاستينكس).

هاستينكس : أينام سيدك بصعوبة في هذه الليالي الطويلة؟
الرسول : يبدو لي ان الأمر كذلك، نظراً الى ما سأقوله لك. أولاً، هو يحييك.
هاستينكس : وماذا بعد؟
الرسول : لقد أوفدني لأقول لك انه رأى هذه الليلة في الحلم أن خنزيراً برياً ينتزع عنه خوذته. وبالاضافة الى ذلك سينعقد مجلسان، ومن المحتمل أن تكون المقررات التي سيتخذها أحد هذين المجلسين مدعاة ندم بالنسبة اليك واليه أيضاً. اذا ما حضرتما جلسات المجلس الثاني. لذلك ارسلني لأطلب اليك أن تمتطي حصانك على الفور وتنطلق معه نحو الشمال لتتجنب المخاطر التي يتوقع قيامها في وجهك.
هاستينكس : عُد، أيها الصديق، الى سيدك. وقل له ان لا يقلق من

انعقاد هذين المجلسين كلٍ على حدة. انا وهو عضوان في احد المجلسين، بينما صديقنا كاتسبي عضو في المجلس الآخر. ولن يحصل فيهما ما يمسّه دون أن أعلم به. قل له ان لا داعي لمخاوفه، وأن لا أساس لها قطعاً. اما بالنسبة الى حلمه فأنا أعجب لضعفه في تصديق مثل هذه الترهات الناجمة عن نومه بقلق. ان نهرب من الخنزير البري قبل أن يهاجمنا، هذا يعني دفع الخنزير الى الاعتداء علينا. فنرغم على اصطياده في طريق لم يكن ليسلكها. اذهب وقل لسيدك ان ينهض ويلحق بي. سنمضي معاً الى البرج وسيرى ان الخنزير البري سيحسن معاملتنا.

الرسول : سأمضي وأنقل اليه ما قلته لي.

(يخرج).

(يدخل كاتسبي).

كاتسبي : أتمنى لك نهاراً سعيداً، أيها اللورد النبيل.

هاستينكس : صباح الخير، يا كاتسبي. ما هي أخبار مملكتنا المتداعية؟

كاتسبي : ان عالمنا عالم مضطرب. وأعتقد بأنه لن يقف على قدميه قبل أن يحمل ريتشارد الاكليل الملكي.

هاستينكس : ماذا تعني بالاكليل؟ أتريد أن تقول التاج؟

كاتسبي : أجل أيها اللورد.

هاستينكس (يرفع يده الى رأسه) : سيتدحرج هذا التاج عن رأسي قبل أن أراه قد انتقل الى غير من يستحقه. هل كنت تعتقد بأنه كان يطمح الى العرش؟

كاتسبي : نعم، أقسم لك بحياتي. وأرجو أن تكون في مقدمة المتعاطفين معه ليفوز بالتاج. وعلى هذا الأساس يريد ابلاغك انه سيقضي اليوم على أعدائك من ذوي الملكة في بومفريت.

هاستينكس : لن أرتدي ثياب الحداد لدى سماعي هذا النبأ، لأنهم كانوا دوماً أعدائي. اما أن أصوّت الى جانب ريتشارد وأمنع ورثته من خلعه فهذا ما لا أستطيعه. يعلم الله اني لن أقدم على ذلك، ولو أدّى بي الأمر الى الموت.

كاتسبي : وفّق الله مقاصدك الشريفة.

هاستينكس : أما بالنسبة الى من أثاروا عليّ حقد سيدي، فسأكون في غاية السعادة ان عشت وشاهدت مأساتهم. أعلم يا كاتسبي، ان بامكاني أن أدفع الى الموت أشخاصاً آخرين على غير علم منهم، وذلك قبل مرور خمسة عشر يوماً.

كاتسبي : امر محزن أن يموت الانسان عندما لا يكون مستعداً للموت ولا في انتظاره.

هاستينكس : لكن هذا ما جرى لريفرز وفوكهان وكراي. وهذا ما سيجري لآخرين أيضاً يعتقدون بأنهم في أمان. وقد يجري لي ولك رغم كون الأمير ريتشارد وبوكنكهام يحبانا كثيراً.

كاتسبي : الأميران يقدّرانك حق قدرك (على حدة) الى درجة أنهما ينويان قطع رأسك.

هاستينكس : أنا أعرف ذلك، وربما أستحقه.

(يدخل ستانلي).

هيا، هيا. أنت تخاف من الخنزير البري وتذهب لأصطياده بدون سلاح؟

ستانلي : صباح الخير، يا مولاي. صباح الخير يا كاتسبي. بامكانك أن تسخر مني ولكني أقسم لك بأني لا أحب هذه المجالس المنفصلة.

هاستينكس : أنا متمسك بحياتي كما تتمسك أنت بحياتك. ولو لم أكن واثقاً بأن وضعنا نحن الأثنين يدعو الى الاطمئنان لما بدت على وجهي علامات النصر.

ستانلي : كان اللوردات في بومفريت سعداء، عندما غادروا لندن في موكب من الفرسان، ومطمئنين الى وضعهم. مع ذلك أنت تعلم كيف اصبح نهارهم ليلاً. لأن طعنة الحقد المفاجئة هذه تقتلني. لا سمح الله بأن أكون جباناً ومروّج أخبار مشؤومة. حسناً، هل تريد أن ننطلق الى البرج؟ ها قد طلع النهار.

هاستينكس (يكلمه على حدة) : تعال، تعال. هل تعلم ماذا حدث؟ اليوم تقطع رؤوس اللوردات الذين تكلمت عنهم.

ستانلي : نظراً الى وفائهم كانوا أحق بالاحتفاظ برؤوسهم من الذين اتهموهم. لكن، هيا نذهب.

(يدخل فارس).

هاستينكس : سر أمامنا. أريد أن أكلم هذا الفارس (يخرج ستانلي وكاتسبي) كيف حالك بالنسبة الى هذا العالم؟

الفارس : على أحسن ما يرام، يا سيدي.

هاستينكس : انا وسط هذا العالم أفضل مما كنت عليه عندما التقيتك مؤخراً هنا. كنت في ذلك الحين ذاهباً الى البرج كسجين بتحريض من ذوي الملكة. أما الآن فبامكاني أن أؤكد لك ان هؤلاء الأعداء قضي عليهم، واني في وضع أحسد عليه.

الفارس : أسعد الله أوقاتك، يا سيدي.

هاستينكس : شكراً لك أيها الفارس. خذ.

(يعطيه محفظته).

الفارس : اشكرك جزيل الشكر، يا سيدي.

(يخرج الفارس).

(يدخل رجل دين).

رجل الدين : انا سعيد بلقائك.

هاستينكس : اشكرك من كل قلبي. انا مدين لك بالخدمة التي قدمتها لي مؤخراً. تعال يوم السبت المقبل وسيسرك لقائي.

(يدخل بوكنكهام).

بوكنكهام : ما بك؟ أنت هنا تحادث رجل دين، وأصدقاؤك في بومفريت بحاجة اليه. في الحقيقة ليس لديك اعتراف ملحّ للادلاء به.

هاستينكس : أقسم لك بأني، عندما التقيت هذا الرجل الصالح، تذكرت من تحدثت عنهم. على كل حال أنت ذاهب الى البرج.

بوكنكهام : أجل، لأني لا أستطيع البقاء هنا طويلاً. سأغادره قبلك.

هاستينكس : لا بأس، سأبقى في البرج لتناول طعام الغداء.

بوكنكهام (على حدة) : لتتناول أيضاً طعام العشاء، رغم انك لا تعلم شيئاً عن ذلك. (بصوت عالٍ) هل أنت ذاهب؟

هاستينكس : ها أنا أتبعك.

(يخرجان).

المشهد الثالث

في بومفريت، أمام القصر.

(يدخل راتكليف، يتبعه موكب يصطحب ريفرز وكراي وفوكهان الى الاعدام).

راتكليف : هيا، هيا، أخرجوا المساجين.

ريفرز : يا سير ريتشارد راتكليف، اسمح لي بأن أقول لك أنك ستشهد اليوم مصرع شخص يموت في سبيل الوفاء والحق.

كراي : حمى الله الأمير من طغمتكم. أنتم زمرة من مصّاصي الدماء.

فوكهان : فيما بينكم الآن، من سيصرخ ذات يوم : الويل لنا.

راتكليف : عجِّل، لقد انتهت حياتكم.

ريفرز : بومفريت، بومفريت! أيها السجن المظلم المشؤوم بالنسبة الى أعضاء مجلس اللوردات النبلاء. هنا في داخلك قضي على ريتشارد الثاني بتقطيعه ارباً ارباً. سيتضاعف خزيك، وسنسقيك من دمنا البريء.

كراي : لقد نزلت على رؤوسنا لعنة مرغريت، تلك اللعنة التي اطلقتها على هاستينكس وعليّ وعليك، لأننا وقفنا غير مبالين عندما طعن ريتشارد، ولدها.

ريفرز : لقد لعنت ريتشارد أيضاً، ولعنت بوكنكهام وهاستينكس. يا الهي، استجب توسلاتي لأجلهم، كما تفعل الآن بحقهم وكما تفعل الآن بحقنا. أما بالنسبة الى شقيقتي وأولادها، فأملي بأن تكتفي بدمنا النقي الذي يراق رويداً رويداً.

راتكليف : يجب أن نسرع. فقد مضى الوقت المحدد للقضاء عليهم.

ريفرز : تعال، يا كراي، تعال، يا فوكهان نتعانق هنا. الى اللقاء في السماء.

(يخرج الجميع).

المشهد الرابع

لندن ــ في احدى قاعات البرج.

(يدخل ستانلي، وأسقف ايلي، وكاتسبي ولوفيل وهاستينكس وبعض المستشارين. يأخذ الجميع أماكنهم حول طاولة. يحضر حجّاب المجلس).

هاستينكس : موضوع اجتماعنا اليوم هو البت في مسألة التتويج. بربكم، تكلموا. متى سيتم هذا التتويج؟

بوكنكهام : هل أعدّ كل شيء لهذه المناسبة؟
ستانلي : كل شيء. بقي أن نحدد اليوم.
الأسقف : يوم غد هو في رأيي مناسب.
بوكنكهام : لكن، من يعلم مقصد لورد كلوسستر ؟
بوكنكهام : كلّ منا يعرف وجه الآخر، لكن لا أحد يعرف قلبه. يا لورد هاستينكس، أنت على علاقة وثيقة بالدوق.
هاستينكس : أعرف ذلك. وأشكر الدوق على اصطحابه اياي. لم أقف بعد على رأيه في التتويج، لأنه لم يقل لي أي شيء بهذا الصدد. على كل حال، بامكانكم، أيها اللوردات النبلاء أن تحددوا الوقت المناسب، وسأصوّت أنا نيابة عن الدوق، وأنا واثق بأنه لا يسيء الظن بي من هذه الناحية.

(يدخل كلوسستر).

الأسقف : ها قد وصل الدوق.
كلوسستر : أسعدتم صباحاً أيها اللوردات والأقرباء. تأخرت في النوم، لكني أرجو أن لا يكون غيابي قد أخّر تقرير أي من المسائل الهامة التي كان سيُبت بها أثناء حضوري.
بوكنكهام : لو لم تأت في الوقت الملائم، لصوّت لورد هاستينكس بالنيابة عنك على موعد التتويج.
كلوسستر : لا أحد يستطيع أن يفعل ذلك بجرأة تفوق جرأة لورد هاستينكس الذي يعرفني جيداً ويحبني كثيراً. أيها الأسقف عندما كنت مؤخراً في هولندن، رأيت ثمار التوت في حديقتك وأعجبتني. أرجوك أن ترسل أحداً ليأتيني ببعض منها.
الأسقف : بكل طيبة خاطر.

(يخرج).

كلوستر (يأخذ بوكنكهام على حدة) : يا بوكنكهام، أود أن أقول لك كلمة.
لقد وقف كاتسبي على رأي هاستينكس بصدد ما ينوي القيام به ووجد ان هذا العنيد يفضل الموت وعدم الموافقة على فقد الأمير حقوقه في عرش انكلترا.

بوكنكهام : انسحب لفترة وجيزة، وسأتبعك.

(يخرجان).

ستانلي : لم يحدد بعد يوم التتويج. أفضِّل أن لا يكون غداً، لأني لست على أتم الاستعداد.

(يدخل الأسقف).

الأسقف : أين مولاي. ارسلت من يحضر له بعض القوت.

هاستينكس : بدا اليوم سعيداً. اذ يظهر ان في رأسه فكرة تعجبه، لأنه حيَّانا وهو في غاية الفرح. لا أعتقد بوجود رجل مثله لا يخفي مودته أو حقده. فوجهه مرآة صادقة تعكس ما يجيش في صدره.

ستانلي : وماذا عرفت عن مقصده من خلال محياه، هذا الصباح؟

هاستينكس : عرفت أنه لا يريد الشر لأحد من الحاضرين هنا، لأنه لو كان يشاء ذلك لدلَّت عليه نظراته.

(يدخل كلوستر وبوكنكهام).

كلوستر : اطلب اليكم جميعاً أن تقولوا لي ماذا يستحق قوم متآمرون يريدون القضاء عليّ بممارساتهم ومكائدهم الشيطانية، وقد أخضعوا جسدي لسحرهم الجهنمي؟

هاستينكس : محبتي لك تجعلني أتجرأ قبل غيري في هذا الحقل الكريم، وأحكم بالموت على هؤلاء المجرمين أياً كانوا.

كلوستر (يكشف عن يده اليسرى) : حسناً. لتشهد عيونكم على ما صنعوه

بي من شر. لاحظوا كيف سحروني. انظروا كيف يبست يدي وأصبحت كغصن جاف. امرأة ادوارد الساحرة الرهيبة وشريكتها شور هما اللتان سلطتا على يدي سحرهما المؤذي.

هاستينكس : اذا كانتا قد ارتكبتا هذا العمل، أيها اللورد النبيل...

كلوسستر : كيف تجرؤ على التشكيك بكلامي، أنت الذي تحمي هذه الشريرة؟ أنت خائن تستحق قطع رأسك. أقسم بأني لن أتناول طعام الغداء قبل أن يقضى عليك. يا لوفيل، ويا كاتسبي، اشرفا على تنفيذ الأمر باعدامه. أما الآخرون فلينهض منهم كل من يحبني ليتبعني.

(يخرج كلوسستر وبوكنكهام ويتبعهما المستشارون، ويبقى لوفيل وكاتسبي وحدهما مع هاستينكس).

هاستينكس : أنا أشفق على انكلترا، لا على نفسي. اذ بامكاني أن أتلافى الأمر لولا غبائي. لقد أبصر ستانلي في الحلم أن الخنزير البري انتزع منه خوذته، فسخرت منه وأبيت الفرار. لقد كبا حصاني اليوم بي ثلاث مرات، وتجهم وجهه عندما أبصر البرج، كأنه يرفض أن يحملني الى هذه المجزرة. كم أنا بحاجة في هذه الساعة الى رجل الدين الذي كان يكلمني منذ قليل. أنا نادم على ما قلته لذلك الفارس، بأن أعدائي سيذبحون اليوم في بومفريت. اني واثق أكثر من أي وقت مضى بأني محظوظ. يا مرغريت، ها هي لعنتك القاتلة تنزل على رأسي المرهق، أنا هاستينكس المسكين.

كاتسبي : هيا، هيا نسرع! الدوق يريد أن يتناول طعام الغداء. استعجل، فهو ينتظر بفارغ الصبر أن يرى رأسك مقطوعاً.

هاستينكس : نعمة زائلة تلك التي يمنحها البشر السائرون الى الفناء،

والتي نجدّ في طلبها بحماس يفوق حماسنا في طلب نعمة الله. ان من يعقد عليك آماله يحيا كبحّار سكران تسلق حتى رأس الصاري حيث يتعرض عند أول ارتجاج للسقوط في أعماق اللجة.

لوفيل : هيا، هيا اسرع. لن يفيدك الصراخ.

هاستينكس : أيها السفاح ريتشارد. أيتها البائسة انكلترا! أنا أتنبأ لك بأزمنة مريعة. هيا، خذني الى خشبة الجزار، واحمل رأسي اليه. سيفرح بموتي من ينتزع الموت أرواحهم قريباً.

(يخرج الجميع).

المشهد الخامس

عند أسوار برج لندن.

(يدخل كلوسستر وبوكنكهام بسلاح غطّاه الصدأ، وهما في حالة اضطراب عجيب).

كلوسستر : هيا قل لي كيف استطعت أن ترتجف ويتغير لونك وتخنق أنفاسك وأنت تتكلم، وثم تبدأ من جديد وتتوقف بعد ذلك كما لو كنت مجنوناً من شدة الرعب؟

بوكنكهام : باستطاعتي أن أقلد أمهر ممثلي المأساة. فأتكلم وأنظر الى الوراء وأرصد كل الجهات وأرتعش، وأتظاهر بالقلق الشديد. لكن، هل ذهب راتكليف؟

كلوسستر : أجل. أنظر، ها هوذا قد جاء بالمحافظ.

(يدخل المحافظ وراتكليف).

بوكنكهام : دعني أكلمه بمفردي، يا سيدي المحافظ.

كلوسستر : راقب الجسر هناك.
بوكنكهام : اسمع، اسمع، هذا صوت طبل.
كلوسستر : راقب الأسوار، يا راتكليف.
بوكنكهام : سيدي المحافظ، السبب الذي لأجله ارسلنا في طلبك...
كلوسستر : التفت الى ورائك، ودافع عن نفسك. ها قد قدم الأعداء.
بوكنكهام : وقانا الله، وحمتنا براءتنا.

(يدخل لوفيل وكاتسبي، وهما يحملان رأس هاستينكس).

كلوسستر : دع الأمور تأخذ مجراها الطبيعي. هما من أصدقائنا. هذا كاتسبي وذاك لوفيل.
لوفيل : انظروا الى رأس الخائن السافل هاستينكس.
كلوسستر : لقد أحببت هذا الرجل كثيراً الى درجة اني لا أتمالك عن البكاء على حظه العاثر، لأني اعتبرته دوماً أطهر مخلوق عرفته على وجه الأرض، وجعلته الكتاب الذي دوّنت فيه تاريخ افكاري الخفية. وكان يستر عيوبه بقناع الفضيلة الى درجة انه عاش بمنأى عن الشكوك، باستثناء خطيئة واحدة ظاهرة للعيان لم يستطع اخفاءها، هي حبه للسيدة شور.
بوكنكهام : هيا هيا. لقد كان الخائن الأكثر قدرة على كتم حقيقة أمره. (يخاطب المحافظ) هل كان باستطاعتك أن تتصور أن هذا الخائن البارع قد تآمر للقضاء علينا اليوم في قاعة المجلس، انا ولورد كلوسستر؟ لكن العناية الالهية...
المحافظ : ماذا تقول؟ هل كان ينوي القيام بذلك فعلاً؟
كلوسستر : هل تعتبرنا خونة؟ هل تعتقد بأن تصرفاتنا تخالف القانون، واننا تسرّعنا في اعدام هذا الشقي، لو لم تجبرنا على ذلك خطورة الموقف وسلامة انكلترا وسلامتنا الشخصية؟
المحافظ : أتمنى أن تلاقيا كل ما فيه الخير. لقد استحق موته. وحسناً

فعلتما بتلقين الخونة أمثاله الذين يسعون الى محاولات اغتيال كهذه، درساً قاسياً. لم أكن أنتظر منه تصرفاً لائقاً منذ أن أحب السيدة شور.

كلوسستر : مع ذلك، لم نشأ أن يموت قبل أن يأتي الى هنا لنشهد نهايته. لكن الحاح اصدقائنا حال دون ذلك. كنا نتمنى لو انك استمعت اليه وهو يعترف بعد اخضاعه لأساليب الترهيب، بالوسائل والأساليب التي كان سيعتمدها لتنفيذ خيانته، فتطلع عليها المواطنين كي لا يسيئوا تفسير ما قمنا به ولا يأسفوا على موته.

المحافظ : لكن كلامك يكفي. سأطلع مواطنينا الأمناء على عدالة أجراءاتكم في هذه القضية.

كلوسستر : كنا نرغب في حضورك لهذه الغاية، كي تتجنب انتقاد مجتمع دأب على الطعن بالآخرين.

بوكنكهام : لكن، بما انك تخلفت عن الحضور، وفقاً لمقاصدنا، فبامكانك أن تؤكد ذلك بناء على ما قلناه لك. وعلى هذا الأساس نقول لك وداعاً أيها المحافظ.

(يخرج المحافظ).

كلوسستر : إلحق به يا بوكنكهام، لأنه يسرع الى كيلدهال. هناك أعلن عدم شرعية أبناء ادوارد. قل امام الجميع ان ادوارد قتل كمواطن فقط، لأنه أعلن انه سيجعل من ابنه وريثاً للعرش. ثم أطلعه على تهتكه الذي يمس بناتهم ونساءهم. وعند الضرورة وجه أفكارهم نحو شخصي. بيِّن لهم ان أمي عندما حبلت بالحقير ادوارد كان والدي النبيل يورك يحارب في فرنسا، وانه أدرك ان الجنين لم يكن من صلبه، وقد انكشف امره عندما اتضح انه لا يشبه أبي مطلقاً.

كن ماهراً وحذراً في اعلان هذا الأمر لأن أمي لا تزال على قيد الحياة.

بوكنكهام : اطمئن بالاً، سأجيد الكلام. وداعاً.

كلوسستر : اذا نجحت في مهمتك، اصطحبهم الى قصر باينارد، حيث ستجدني محاطاً بالآباء الأجلاء والأساقفة العلماء.

بوكنكهام : سأمضي. وحوالي الساعة الثالثة أو الرابعة ستصلك أخباري من كيلدهال.

(يخرج بوكنكهام).

كلوسستر : اسرع، يا لوفيل، الى الدكتور شاو (يخاطب كاتسبي) وأنت اذهب الى الأخ بنكر. قولا لهما أن يحضرا للقائي قبل مرور ساعة في قصر باينارد (يخرج لوفيل وكاتسبي) والآن لنعد ونصدر أمراً سرياً باخفاء جثة كلارانس وبمنع أي كان من الوصول الى الأمراء.

(يخرج).

المشهد السادس

في أحد شوارع لندن.

(يدخل كاتب المحكمة).

كاتب المحكمة : هوذا الاتهام الذي وجِّه الى لورد هاستينكس، مكتوباً بخط يدي، بطريقة واضحة ليُقرأ اليوم في معبد القديس بولس. لاحظوا ترابط الأحداث التي استغرقت احدى عشرة ساعة لنقل هذا الاتهام. لأن كاتسبي سلمني اياه مساء البارحة، واستغرق نقل النسخة الأصلية وقتاً مماثلاً. مع ذلك كان لورد هاستينكس لا يزال على قيد الحياة منذ خمس ساعات، ولم يكن قد اتهم بعد أو استجوب. فمن لا يلاحظ هذا الغش الظاهر للعيان؟ لكن من يجرؤ على اعلان ذلك. ان عالمنا هذا عالم فاسد خبيث، وسيبقى هكذا طالما ظلت اعمال سافلة كهذه لا يسع أحداً أن يتطرق اليها الا بالفكر.

(يخرج).

المشهد السابع

لندن ــ في قصر باينارد.

(يدخل كلوستر وبوكنكهام ويلتقيان).

كلوستر : حسناً، حسنا. ماذا يقول المواطنون؟

بوكنكهام : اقسم لك بأنهم يلوذون بالصمت.

كلوسستر : هل أعلنت عدم شرعية أبناء ادوارد؟

بوكنكهام : أجل، لقد تكلمت عن مغامراته العاطفية في فرنسا بصحبة ليدي لوسي، وعن عنفه حيال النساء في المدينة، وعن استبداده بذويه، وعن عدم شرعية بنوّته هو ذاته لأن أمك حبلت به حين كان والدك في فرنسا. تأمل صفاتك، وانك صورة صادقة عن والدك، ان من حيث المظهر الخارجي أو من حيث سمو النفس. لقد أعلنت امامهم انتصاراتك في اسكتلندا، وانضباطك العسكري في الحرب وحكمتك أيام السلم وكرمك وفضيلتك وتواضعك... أخيراً لم يفتني شيء يخدم مقاصدك في خطابي عنك. وعندما أشرف خطابي هذا على الانتهاء طلبت الى جميع الذين يحبون بلادهم أن يصرخوا : حفظ الله ريتشارد ملك انكلترا.

كلوسستر : وهل فعلوا؟

بوكنكهام : كلا. لم ينبسوا ببنت شفة، لكنهم كالتماثيل الخرساء أو الحجارة الصمّاء نظر بعضهم الى بعض وعلا وجوههم شحوب الموت. وعندما رأيتهم على هذه الحالة، وبختهم وسألت المحافظ عن معنى هذا السكوت المريب. فأجابني بأن الشعب لم يعتد أن يخطب فيه أحد سوى الشخص الذي يسجل الخطابات. عندئذ كلفت هذا الأخير بأن يلقي خطابي، فشرع يلقيه هكذا : هذا ما قاله الدوق، هذا ما قرره الدوق. لكنه لم يلفظ كلمة تأييد واحدة. وعندما انتهى هتف بعض رجالي في مؤخرة القاعة، بعد أن رموا بقبعاتهم في الهواء : ليحفظ الله الملك ريتشارد. فانتهزت هذه الفرصة وقلت : شكراً لكم أيها المواطنون الأعزاء. ان هذا التصفيق وهذه الهتافات الجماعية تدل على حكمتكم ومحبتكم لريتشارد ثم توقفت عند هذا الحد ومضيت.

كلوسستر : يا لهم من خرس بكم لم يشاؤوا الكلام! هل يأتي المحافظ وزملاؤه؟

بوكنكهام : المحافظ موجود على بعد خطوتين من هنا. تظاهر ببعض الخوف، ولا تخطب الا بعد الحاح شديد. عندئذ أمسك بيدك كتاب صلاة، واظهر امام الحفل يحيط بك اثنان من رجال الدين لأني سألقي عظة بهذا الشأن. لا تستجب طلبنا بسهولة.

كلوسستر : سأدخل. اذا أحسنت الدفاع عن مصالحهم كما انا احسن الرفض لصالحي، فلا شك في أننا سنبلغ النهاية السعيدة التي نتوخاها.

بوكنكهام : هيا، هيا الى الشرفة. المحافظ يقرع الباب.

(يخرج كلوسستر).

(يدخل المحافظ وزملاؤه والمواطنون).

بوكنكهام : أهلاً بك، يا مولاي. أنا هنا أنتظر مقابلة الدوق. وأعتقد بأنه لا يريد أن يكلم أحداً.

(يدخل كاتسبي).

حسناً يا كاتسبي. ماذا قال لك سيدك بخصوص طلبي؟

كاتسبي : هو يرجو منك أيها اللورد النبيل أن تأتي اليه غداً أو بعد غد. انه على انفراد باثنين من الآباء الأجلاء غارق في تأملات تقويّة. ويرغب في أن لا يقطع عليه تأملاته هذه أي مطلب دنيوي.

بوكنكهام : عُد الى الدوق، يا كاتسبي، وقل له اني مع المحافظ وزملائه أتينا لنتداول معه في مسائل خطيرة وأمور هامة تخصنا جميعاً.

كاتسبي : سأعلمه بذلك فوراً.

(يخرج).

بوكنكهام : هذا الأمير ليس كادوارد، لأنه ليس متهتكاً مثله. هو الآن راكع يتأمل بصحبة اثنين من كبار اللاهوتيين. يا لسعادة انكلترا، اذا اصبح الأمير الفاضل ملكاً عليها. لكني أخشى ان يرفض طلبنا تنصيبه ملكاً.

المحافظ : معاذ الله أن يرفض طلبنا هذا.

بوكنكهام : أنا أخشى ذلك. ها قد عاد كاتسبي.

(يدخل كاتسبي).

حسناً. ماذا قال لك، يا كاتسبي؟

كاتسبي : يتساءل الدوق بدهشة : ما هي الغاية التي لأجلها جمعت هذا الحشد من المواطنين وجئت للقائه. هو يخشى ان تضمر له سوءاً، لأنك لم تعلمه بمجيئك مسبقاً.

بوكنكهام : وأنا مستاء لأن قريبي النبيل يشك فيّ. أقسم بشرفي أننا جئنا اليه والمحبة تغمر قلوبنا. عُد مرة ثانية اليه وبلِّغه ذلك. عندما يكون رجال الدين والأتقياء غارقين في التأمل، فمن العسير صرفهم عن تأملهم هذا نظراً الى ما ينعمون به من نشوة أثناءه.

(يخرج كاتسبي. يظهر كلوسستر في رواق مرتفع يحيط به اسقفان. يعود كاتسبي).

المحافظ : انظر، ها هوذا الدوق يقف بين اثنين من رجال الدين.

بوكنكهام : سندان للأمير، يحميانه من السقوط في المعاصي، هما كتاب الصلاة في يده ومظهره الذي يدل على انه رجل صالح. أيها الأمير، استمع الى طلبنا وسامحنا لأننا قطعنا عليك تعبدك.

كلوسستر : أنا لا أرى من حاجة الى مثل هذا التمجيد. حري بي

أن أطلب الصفح منك، اذا كنت في تعبدي لله قد أهملت زيارة اصدقائي. لكن دعنا من هذا. ماذا تريد مني؟

بوكنكهام : ما اطلبه منك يرضي الله وجميع سكان هذه الجزيرة الأخيرة الذين ليس لهم من يرعاهم.

كلوسستر : لا أظن اني ارتكبت ذنباً أساء الى المدينة، فجئتم لتلوموني عليه.

بوكنكهام : أنت قلت. عليك الآن أن تكفر عن ذنبك بناء على الحاحنا.

كلوسستر : وما هو ذنبي؟

بوكنكهام : أعلم ان ذنبك هو تخليك عن العرش العظيم الذي أورثك اياه أجدادك لصالح ولد متحدّر من أصل وضيع. أجل، هذه الجزيرة النبيلة، تندب تقطُّع أوصالها ووجهها الملطخ بالعار الذي لحق بها، وأرومتها الملكية التي طُعِّمت بنباتات بذيئة غرقت في لجُّة الاستهتار والنسيان. لقد جئنا نطلب منك أن تصبح ملكاً على انكلترا لانقاذها، نطلب منك أن تصبح ملكاً فعلياً لا وصياً على العرش. جئنا اليك لأجل هذا بايعاز من اصدقائك هؤلاء المواطنين.

كلوسستر : لا أدري ماذا ينبغي عليّ أن أفعل. اذا طاوعتكم، ربما اعتقدتم بأن طموحي عقل لساني فوافقت على حمل النير الملكي الذهبي الذي تسعون الى فرضه عليّ. واذا رفضت طلبكم الذي رفعته اليَّ محبتكم الصادقة، اخشى أن أصدّ بذلك اصدقائي. فلكي أتجنب هذين الخطرين، أعطيكم جوابي النهائي فأقول : ان محبتكم لي تستحق شكري، لكن استحقاقي لا يعادل طلبكم. أولا، حتى وان ذللت جميع الصعاب القائمة امامي، وأصبح طريقي الى التاج سالكاً، فأنا أرى أن عيوبي كثيرة وبليغة الى درجة اني أفضِّل الابتعاد عما تعدونه لي، كي لا أغرق فيه وأهلك. لكني أشكر الله على انكم باستطاعتكم الاستغناء عني.

فالشجرة الملكية تركت لنا أميراً رائعاً، أينع وبات أهلاً لتسلم العرش، وسيوفر لنا جميعاً كل السعادة خلال حكمه. ولهذا الأمير اسند ما شئتم اسناده اليّ... ولن أغتصب حق الملكية هذا الآئل الى غيري.

بوكنكهام : ان ما قلته الآن يكشف لنا عن ضميرك الحي. لكن هذه الوساوس التي تساورك تبدو عقيمة نظراً الى الظروف التي رافقت ظهورها. تقول ان هذا الولد هو ابن شقيقك ادوارد. أجل، لكنه ليس ابن زوجته الشرعية. كان ادوارد عشيق ليدي لوسي، وأمك لا تزال حية لتشهد على ذلك. ثم انه خطب بون شقيقة ملك فرنسا، كما تعرّف الى امرأة ثالثة انجبت له من ندعوه « الأمير » مجاملة. كان باستطاعتي مناقشتك الموضوع بمرارة أكثر مما فعلت، وأن أسترسل في الكلام لولا احترامي مشاعر امرأة ما زالت على قيد الحياة. هكذا، ما عليك الا أن تتسلم الملك حفاظاً على الخلافة الشرعية التي تحق لسلالتك. فنسعد نحن وتسعد معنا البلاد كلها.

المحافظ : نستحلفك بأن تستجيب طلبنا أيها اللورد.

بوكنكهام : لا ترفض طلبنا.

كاتسبي : أسعدهم، واستجب طلبهم.

كلوسستر : لماذا تهيلون كل هذه الهموم على رأسي. انا لم أخلق لأجل الامبراطورية ولا لأجل العظمة. أرجوكم أن لا تسيئوا تفسير تمنُّعي. حقاً لا أستطيع القبول، ولن أزعن لطلبكم.

بوكنكهام : بما انك ترفض أن تخلع ابن أخيك عن العرش بداعي محبتك وما نعرفه عنك من عطف على اسرتك وعلى سائر الناس، إعلم اننا لن نرضى بابن شقيقك ملكاً علينا، شئت أو أبيت. سنجلس على العرش شخصاً آخر غير آبهين

بأسرتك، وبنتيجة قرارنا هذا سنتركك هنا. تعالوا أيها المواطنون. لن أتوسل اليه بعد الآن.

كلوسستر : لا تقسم، يا بوكنكهام.

(يخرج بوكنكهام ويتبعه المواطنون).

كاتسبي : نادِهم أيها الأمير. استجب طلبهم. فاذا رفضت البلاد كلها ستشقى.

كلوسستر : هل تريد أن تزجني في عالم الهموم؟ هيا، نادهم. لست من صخر. لذا أزعن لتوسلاتكم، بالرغم من رغبة قلبي وضميري.

(يخرج كاتسبي، ويعود بوكنكهام والآخرون).

يا لورد بوكنكهام، وأنتم أيها الرجال الحكماء الموقرون، بما انكم تصرّون على أن أتولى العرش، سأطاوعكم وأفعل ما تريدون. لكن اذا ما افترى عليّ أحد فيما بعد، سأستعمل القوة التي أملكها لدرء ما سيلحق بي من جراء افتراءاته. يعلم الله وأنتم أيضاً تعلمون، اني أكره الوصول الى مثل هذا.

المحافظ : بارك الله بأصلك. نحن نعلم بذلك ونجاهر به.

كلوسستر : أنت تقول الحق باعلانك هذا.

بوكنكهام : أحييك اذاً بهذا الهتاف الملكي : أطال الله عمر ريتشارد ملك انكلترا.

الجميع : آمين.

بوكنكهام : هل تريد أن تتوّج غداً؟

كلوسستر : اذا شئتم ذلك، فلا مانع لديّ.

بوكنكهام : غداً اذاً، نصحبك في موكب حافل. والآن نستأذنك بالانصراف ونحن مسرورون.

كلوسستر (يخاطب الأسقفين) : هيا نرجع الى تأملاتنا التقوية. (يخاطب بوكنكهام)
وداعاً. وداعاً أيها الأصدقاء الأعزاء.

(يخرج الجميع).

الفصل الرابع

المشهد الأول

في لندن ـــ امام البرج.

(من جهة تدخل الملكة اليزابيت ودوقة يورك ومركيز دورست،
ومن جهة أخرى ليدي آن ودوقة كلوسستر مصطحبة الفتاة
ليدي مرغريت ابنة دوق كلارانس).

الدوقة : من الآتي الينا؟ ابنة أخي تصحبها عمتها دوقة كلوسستر؟ أقسم بحياتي بأنها تبحث عن مدخل البرج لتذهب وتهنئ الأمير الفتى من كل قلبها. (تخاطب ليدي آن) لقاء سعيد يا ابنتي.

ليدي آن : أتمنى لكم أياماً سعيدة.

الملكة اليزابيت: ولك أيضاً، يا شقيقتي. الى أين أنت ذاهبة؟

ليدي آن : لا أبغي الذهاب الى أبعد من البرج، وأعتقد بأنكن تنويان ذلك أيضاً. أريد أن أهنئ الأمراء.

الملكة اليزابيت: شكراً لك. سندخل اذاً معاً.

(يدخل براكنبري).

ها قد وصل الملازم في حينه. يا سيدي الملازم، أرجوك أن تخبرني كيف حال الأمير وابني يورك؟

براكنبري : هما بصحة جيدة يا سيدتي. اعذريني اذا لم اسمح لك بزيارتهما. فقد منع الملك ذلك منعاً باتاً.

الملكة اليزابيت: الملك! أين الملك؟

براكنبري : أودّ أن أكون دوق كلوسستر.

الملكة اليزابيت: وقاه الله من لقب الملك هذا. هل وضع حاجزاً بيني وبين محبتي لولديه؟ انا أمهما، ومن يجرؤ على فصلي عنهما؟

الدوقة : وأنا والدة أبيهما. أريد رؤيتهما.

ليدي آن : أنا عمتهما. خذني اذاً اليهما. سأتحمل شخصياً نتيجة ذلك.

براكنبري : كلا، يا سيدتي. لا أستطيع، لأني أقسمت يميناً بهذا المعنى، فاعذريني.

(يخرج).

(يدخل ستانلي).

ستانلي : يا سيداتي، سألتقيكن بعد ساعة من الآن، وأؤكد لكنّ بأني أحيّي في دوقة يورك أماً لأجمل ملكتين. (يخاطب دوقة كلوسستر) هيا يا سيدتي، ينبغي عليك أن تذهبي فوراً الى وستمنستر ليتم تتويجك ملكة كزوجة ريتشارد.

الملكة اليزابيت: ألا حلّوا وثاقي ليستطيع قلبي المنقبض أن ينبض، وإلا انهارت اعصابي لمجرد سماعي هذا النبأ الصاعق.

ليدي آن : يا لها من مغامرة رهيبة. يا له من نبأ مفجع!

دورست (يخاطب اليزابيت) : تشجعي، يا أمي. كيف حالك الآن؟

الملكة اليزابيت: يا دورست لا تكلمني، إذهب. الموت والهلاك اصبحا على قيد أنملة منك. فاسم والدتك اصبح نحساً على أولادها. اذا أردت تضليل الموت، أعبر البحار، واذهب الى ريتشموند وعش معه بعيداً عن الجحيم. اذهب وانجُ

بنفسك من ركام الجثث هذا، خشية أن تزيد عدد الموتى، وتجعلني أقضي نحبي تحت وطأة لعنة مرغريت، لكوني لم أعد أماً ولا زوجة ولا ملكة انكلترا.

ستانلي : نصيحتك هذه، يا سيدتي، أوحاها اليك قلق حكيم. (يخاطب دورست) عجِّل وانتهز الفرصة المناسبة. سأعطيك رسائل توصية لولدي الذي سيهبّ الى لقائك. فلا تتأخر.

الدوقة : يا له من فراق قاس سببته رياح المصيبة. ملعون بطني الذي احتضن قاتلاً مثله.

ستانلي (يخاطب ليدي آن) : هيا، يا سيدتي، لقد أرسلت في طلبك بسرعة.

ليدي آن : سأتبعك مرغمة. ليت الدائرة الذهبية التي ستحيط بجبيني تنقلب الى حديد ملتهب يحرق رأسي. ليتني أشرب سماً قاتلاً فأموت قبل أن يتسنى للناس أن يصرخوا : تحيا الملكة.

الملكة اليزابيت: اذهبي، اذهبي. لن أحسدك على مجدك، أيتها المسكينة. لن أرضي حقدي وأتمنى لك الشر.

ليدي آن : لا. لماذا؟ عندما جاءني ريتشارد وهو الآن زوجي، حين كنت أمشي وراء نعش هنري زوجي الأول، ذلك الملاك الطاهر الذي أبكيه، قلت له، ولم يغسل بعد يديه من دمه : لتكن ملعوناً لأنك جعلتني ارملة، وأنا لا أزال في ريعان الشباب. وعندما تتزوج فلتلازم الكآبة سريرك ولتحزن امرأتك بحياتك أكثر مما حزنت أنا بموت زوجي. لكن، لم تمض فترة حتى جذبني اليه بكلامه المعسول وهكذا أنزلت على نفسي اللعنة التي أطلقتها بحق من ستقترن به. ومنذ ذلك الوقت هجر النوم عينيّ، ولم أذق طعم النوم والراحة في سرير ريتشارد. اذ كانت الأحلام المرعبة توقظني باستمرار. بالاضافة الى ذلك، هو يكرهني بسبب والدي، ولا شك في أنه ينوي أن يتخلص مني قريباً.

الملكة اليزابيت: وداعاً أيها القلب المسكين. كم أرثي لأحزانك!

ليدي آن : وأنا بدوري أرثي لأحزانك.

دورست (يخاطب ليدي آن) : أحييك أيتها البائسة، وأنت تقاومين الأمجاد.

ليدي آن (تخاطب دورست) : وداعاً أيها الروح المسكين لأنك تركت هذه الأمجاد.

الدوقة (تخاطب دورست) : اذهب أنت الى ريتشموند وليحالفك الحظ السعيد (تخاطب آن) اذهبي أنت أيضاً الى ريتشارد، وليرافقك ملاك الخير. (تخاطب اليزابيت) اذهبي أنت الى المعبد، ولترافقك الأفكار السامية. أما أن فسأمضي الى القبر حيث يرقد معي السلام والارتياح. لقد أمضيت ثمانين سنة في الأحزان ولم أعرف السعادة خلالها الا نادراً.

الملكة اليزابيت: لنتوقف برهة وننظر أيضاً الى البرج. أيتها الحجارة القديمة، اشفقي على ولدي. يا لك من سرير قاس على هذين الصغيرين الجميلين. يا لك من مرضعة قاسية عليهما. أيتها الحجارة القديمة أحسني معاملة ولديّ. وداعاً.

(يخرج الجميع).

المشهد الثاني

لندن ـــ قاعة العرش في القصر.

(تسمع أنغام موسيقية. ريتشارد يجلس على العرش بثيابه الملكية وبجواره بوكنكهام وكاتسبي وخادم وغيرهم).

الملك ريتشارد: اصطفُّوا جميعاً... يا بوكنكهام.

بوكنكهام : ماذا تريد، أيها الملك المعظم؟

الملك ريتشارد: اعطني يدك. بمساعدتك وبمشورتك ارتقى الملك ريتشارد

الى سدة الملك. لكن، هل تدوم هذه العظائم والأفراح أم ستتبخر قريباً؟

بوكنكهام : ليتها تدوم الى الأبد.

الملك ريتشارد : يا بوكنكهام، سأخبرك الآن لأعرف اذا كان معدنك فعلاً من الذهب الصافي. ادوارد الشاب لا يزال حياً... فكِّر في ما أرمي اليه.

بوكنكهام : تكلم، يا سيدي المحبوب.

الملك ريتشارد : حسناً، يا بوكنكهام. أكرر عليك : أريد أن أصبح ملكاً.

بوكنكهام : حسناً. ها قد اصبحت ملكاً يا سيدي.

الملك ريتشارد : اصبحت ملكاً. انما ادوارد لا يزال حياً.

بوكنكهام : أجل، أيها الأمير النبيل.

الملك ريتشارد : لماذا أنت بطيء الفهم هكذا؟ هل ينبغي عليّ أن أشرح لك بالتفصيل ما أريده منك. أريد أن يموت ابناء الزنى حالاً. ماذا تقول الآن. تكلم بسرعة واختصر جوابك.

بوكنكهام : بامكانك أن تفعل ما تشاء.

الملك ريتشارد : ألاحظ أن تفانيك نحوي قد تجمّد. قل لي هل توافق على موتهم؟

بوكنكهام : اعطني وقتاً لأتنفس وأفكر، وحالما أقتنع وأوافق سأجيبك فوراً.

(يخرج).

كاتسبي (على حدة) : الملك في حالة غضب، انظر اليه كيف يعض شفتيه غيظاً.

الملك ريتشارد (ينزع عن عرشه) : اني أخاطب اناساً عنيدين، فقدوا عقولهم وليس من أتباعي من ينظر اليّ نظرة استفسار. اصبح بوكنكهام متحفظاً عندما بلغ أهدافه، أيها الخادم.

الخادم : مولاي.

الملك ريتشارد: هل تعرف أحداً يغرر به الذهب الذي يفسد الأخلاق، للقيام بعملية اعدام سرية؟

الخادم : أعرف نبيلاً لم تعد موارده تلائم طموحه. وسيدفعه الذهب حتماً الى القيام بأي عمل.

الملك ريتشارد: ما اسمه؟

الخادم : اسمه تيريل.

الملك ريتشارد: انا أعرف هذا الرجل. اذهب واحضره الى هنا. (يخرج الخادم) المفكر العظيم بوكنكهام، لن يكون في عداد مستشاريّ. لقد مشى معي طويلاً ولم يتعب. والآن يتوقف ليتنفس. فليكن ما يريد.

(يدخل ستانلي).

حسناً، يا لورد ستانلي، ما الخبر؟

ستانلي : ليكن معلوماً لديك، يا سيدي، ان مركيز دورست قد هرب ليلحق بريتشموند في عزلته.

الملك ريتشارد: تعال الى هنا، يا كاتسبي. اطلق اشاعة مفادها ان امرأتي تعاني من مرض خطير. وسأصدر أمراً بالحجر عليها. ابحث لي عن نبيل شاب لأزوجه فوراً ابنة كلارانس. اما ابنه فهو أبله، ولا أخشاه. ما رأيك؟ هل تحلم؟ أكرر عليك اني اطلب منك أن تطلق اشاعة مفادها ان امرأتي تعاني من مرض خطير. هيا انطلق. يجب أن أجهض جميع الآمال التي تسيء اليّ. (يخرج كاتسبي) يجب أن أتزوج ابنة أخي، وإلا كان عرشي مبنياً على الرمل. سأقتل أخوتها، ثم أتزوجها. هذه وسيلة محفوفة بالمحاذير. لكني أصبحت غارقاً في الدم الى درجة اني لا أرتكب جريمة حتى تجرّني الى جريمة أخرى. لم تعد عيناي تعرفان الشفقة والتباكي.

(يدخل الخادم، يتبعه تيريل).

أأنت اسمك تيريل؟

تيريل : عبدك المطيع جيمس تيريل.

الملك ريتشارد: هل أنت فعلاً هكذا؟

تيريل : اختبرني، يا مولاي.

الملك ريتشارد: هل تجرؤ على قتل صديق لي؟

تيريل : أجل، اذا كنت تريد ذلك. لكني أحب أن أقتل اثنين من اعدائك.

الملك ريتشارد: حسناً، ستقتل اثنين من ألد أعدائي يقضّان عليّ مضجعي. يا تيريل، انا أتكلم عن ولدَي الزنى الموجودين في البرج.

تيريل : زودني بالوسائل التي تمكنني من الوصول اليهما وسأريحك منهما.

الملك ريتشارد: ستنشد هناك أغنية عذبة. قم واقترب مني. (يخاطبه بصوت منخفض). هذا كل شيء. قل لي هل أنت موافق؟ سأكرمك وأعطيك مالاً كثيراً.

تيريل : سأجهز عليهما حالاً.

(يخرج).

(يدخل بوكنكهام).

بوكنكهام : لقد فكرت في الاقتراح الذي عرضته عليّ.

الملك ريتشارد: حسناً. دعنا من هذا... لقد هرب دورست ليلحق بريتشموند.

بوكنكهام : علمت بالأمر، يا مولاي.

الملك ريتشارد: ستانلي هو ابن امرأتك، ولا بد من أن تسهر عليه.

بوكنكهام : وعدتني وأقسمت بشرفك أن تعطيني كونتية هيرفورد وتوابعها لتكون ملكاً لي.

الملك ريتشارد: يا ستانلي، راقب امرأتك. اذا بعث برسائل الى ريتشموند، اعلمني بذلك.

بوكنكهام : ما هو جوابك على طلبي، يا سيدي؟

الملك ريتشارد: اذكر بأن هنري السادس زعم بأن ريتشموند سيصبح ملكاً حين لم يكن ريتشموند سوى ولد كريه بغيض... وربما اصبح ملكاً.

بوكنكهام : يا مولاي.

الملك ريتشارد: كيف لم يقل لي ذلك في نفس الوقت؟ سأقتله.

بوكنكهام : يا مولاي، وعدتني بكونتية...

الملك ريتشارد: آه من ريتشموند! عندما كنت مؤخراً في اكساتر، دلني المحافظ على القصر الذي دعاه روجموت. ولدى سماعي هذا الاسم ارتعدت فرائصي لأن شاعراً ايرلندياً قال لي ذات يوم اني لن أعمِّر طويلاً بعد أن أرى ريتشموند.

بوكنكهام : يا مولاي.

الملك ريتشارد: كم هي الساعة الآن؟

بوكنكهام : أود أن أذكِّرك بما وعدتني به.

الملك ريتشارد: لكن كم هي الساعة الآن؟

بوكنكهام : الساعة العاشرة.

الملك ريتشارد: لست اليوم في حالة تسمح لي بالعطاء.

بوكنكهام : حسناً. قل لي : هلِ أنت مصمم على اعطائي اياها أم لا؟

الملك ريتشارد: أنت تزعجني. لستَ اليوم على ما يرام.

(يخرج ريتشارد مع حاشيته).

بوكنكهام : هكذا يكافئني على خدماتي الجلّى بالاحتقار. هل نصَّبت ملكاً لأجل هذا؟ عليَّ أن أتذكر هاستينكس، وأن أذهب الى بيركنوك، ما دام رأسي المهدد بالقطع لا يزال منتصباً فوق كتفيّ.

(يخرج).

المشهد الثالث

في ذات المكان.

(يدخل تيريل).

تيريل : لقد تم العمل الدموي، وارتكبت افظع جريمة عرفتها الأرض. رشوت ديكتون وفوريست للقيام بهذه المذبحة فانفطر قلب هذين المجرمين السفاحين شفقة وانهمرت الدموع من مآقيهما عندما رويا لي ما فعلاه. قال ديكتون ان الصغيرين الجميلين كانا نائمين وأيديهما الناصعة البياض متشابكة، وكانت شفاههما اشبه بوردتين تقبل احداهما الأخرى فوق غصن واحد. وكان كتاب الصلاة موضوعاً على وسادتهما. وقال فوريست انه عندما رأى المشهد كاد يعدل عن فكرته. لكن الشيطان فوريست توقف هنا، فأكمل ديكتون : عندئذ خنقنا أجمل ولدين بين البشر. ثم ذهبا وهما على هذه الحالة من الندم الى درجة انهما اصبحا عاجزين عن الكلام، وقد تركتهما وجئت انقل النبأ الى الملك السفّاح.

(يدخل الملك ريتشارد).

ها هو قد وصل. السلام عليك أيها الملك.

الملك ريتشارد : هل ستفرحني أخبارك، يا تيريل؟

تيريل : اذا كان تنفيذ ما أمرتني به يسعدك. فاهنأ لأن كل شيء قد تم.

الملك ريتشارد : وهل رأيتهما مائتين؟

تيريل : أجل، يا صاحب الجلالة.

الملك ريتشارد : وهل دُفنا؟

تيريل : أجل، دُفنا، لكني لا أعلم أين.

الملك ريتشارد: تعال اليّ بعد العشاء، وستروي لي تفاصيل موتهما. وبانتظار قدومك فكّر في ما تريده مني كمكافأة، وستحصل على ما تشاء. وداعاً.

تيريل : استأذنك بالانصراف.

(يخرج).

الملك ريتشارد: القيت بابن كلارانس في السجن. وزوجت ابنته. وولدا ادوارد يرقدان في أحضان ابراهيم، وامرأتي آن ودّعت هذا العالم. والآن، بما ان ريتشموند، رجل بريطانيا، يرغب في الاقتران بابنة أخي اليزابيت طمعاً بالوصول الى العرش، سأتقدم اليها وأطلب يدها.

(يدخل كاتسبي).

كاتسبي : مولاي.

الملك ريتشارد: هل أخبارك سارة أم سيئة حتى أتيت هكذا مسرعاً.

كاتسبي : انبائي سيئة. ايلي التحق بريتشموند، وبوكنكهام انتقل الى الريف يساعده رجال ويلز الشجعان، وقواته تزداد باستمرار.

الملك ريتشارد: انضمام ابني الى ريتشموند يقلقني أكثر من تمرد بوكنكهام المتسرّع. هيا، علمتني الأيام ان الذين يسترسلون في تفسير المخاوف هم الساعد الأيمن في الإحجام. والاحجام يجلب الضعف والويل. اذاً عليّ أن أستنجد بالسرعة الصاعقة. هيا، إجمع الرجال. لن استشير سوى درعي. لا بد من الاختصار عندما يتعلق الأمر بالخونة.

(يخرجان).

المشهد الرابع

في لندن ــ أمام القصر.

(تدخل الملكة مرغريت).

الملكة مرغريت : هكذا نضج ازدهارهم وأصبح لقمة سائغة في فم الموت. اختبأت لأراقب انهيار أعدائي. وبدأت طلائع انهيارهم تلوح في الأفق. سأذهب الى فرنسا، وآمل أن تكون نهايتهم مرة ومأسوية. ابتعدي أيتها البائسة مرغريت، فقد وصل شخص...

(تدخل الملكة اليزابيت ودوقة يورك، تبتعد الملكة مرغريت).

الملكة اليزابيت: آه يا ولديّ، يا زهرتين صغيرتين، يا عطرا لم يفح بعد شذاه. اذا كانت روحاكما لا تزالان في الهواء ولم تستقرا بعد في الأبدية، فحلّقا حولي ورفرفا بأجنحتكما البيضاء واستمعا الى نحيب والدتكما.

الملكة مرغريت (على حدة) : أجل حلّقا حولها وقولا لها : عدل بعدل. لأن طفولتكما الندية ابتلعها الليل الأبدي.

الدوقة : بُحّ صوتي لتعاظم المصائب عليَّ حتى ان لساني الذي أرهقته الحسرات، عُقل ولم يعد يقوى على الحراك. لماذا متَّ، يا ادوارد؟

الملكة مرغريت (على حدة) : ادوارد القتيل دفع ضريبة الموت لادوارد القاتل.

الملكة اليزابيت: كيف أمكنك يا الهي أن تشيح بوجهك عن هذين الحملين الوديعين وترمي بهما في هوة الظلام؟ هل كنت نائماً عند ارتكاب مثل هذا العمل الشنيع؟

الملكة مرغريت (على حدة) : وأيضاً عندما مات هنري ولدي الصالح المحبوب؟

الدوقة : يا حياة منطفئة، يا عيناً عمياء، يا شبحاً مسكيناً، يا ألماً مجسداً، يا عاراً للعالم، يا من أصبحت في غياهب القبر، يا سجل أيام المصائب، افرضي مشيئتك التي لم تعرف الراحة على أرض انكلترا، أرض الشرائع المعادية في هذه الأيام لكل الشرائع السكرى بدم البريء.

(تجلس على الأرض).

الملكة اليزابيت: لو كنت تستطيعين القيام من القبر بما يتسنى لك من السرعة في تقديم كرسي لي، سأدفن عظامي ولن أدعها تستريح. من سوانا أحوج الى البكاء؟

(تجلس الى جانب الدوقة).

الملكة مرغريت : اذا كان للحزن العريق في القدم أن يتقدم على ما عداه من البلايا، فدعي أحزاني تتلوّى حسرة في ساحة الشرف. (تجلس بالقرب منهما) واذا كان لليأس أن يصبح مشتركاً فضما آلامكما الى آلامي. كان لي ادوارد فقتله ريتشارد، وكان لي زوج فقتله ريتشارد (تخاطب الملكة اليزابيت) وكان لك ادوارد فقتله ريتشارد. وكان لك ريتشارد فقتله ريتشارد.

الدوقة (تخاطب مرغريت) : كان لي ريتشارد فقتلتِهِ أنتِ، وكان لي رتلاند أيضاً فساعدت على قتله.

الملكة مرغريت (تخاطب الدوقة) : كان لك كلارانس أيضاً فقتله ريتشارد. ومن أحشائك هرب كلب الجحيم ليصطادنا جميعاً، ذاك الكلب الذي نبتت اسنانه قبل بروز عينيه لكي يمزق الحملان ويمتص دماءها البريئة. ان من يهلك خليقة الله، الذي يملك العيون التي قرحتها الدموع، لهو أفظع طاغية عرفته الأرض.

خرج من أحشائك ليطاردنا حتى الموت. يا الهي العادل، أشكرك شكراً جزيلاً، لأن هذا الكلب يفترس من خرج من أحشاء والدته، ويلقي به جانباً مع الآخرين الى هوة الأحزان.

الدوقة : يا زوجة هنري، لا تشمتي بمصائبي. يشهد الله على بكائي لما حل بك من المصائب.

الملكة مرغريت : دعيني أتكلم. أنا أتوق الى الانتقام. وأتعزّى بتأملي هذا الانتقام. ادوارد زوجك مات بعد أن قتل ادوارد زوجي. وكذلك الشاب يورك وكلارانس الذي طعن ادوارد ومعهما هاستينكس الزاني وريفرز وفوكهان وكراي، جميعهم ماتوا قبل أوانهم. ريتشارد لا يزال حياً، وهو سمسار الجحيم، بقي حياً ليشتري النفوس ويرسلها الى هناك. لكن نهايته التعيسة وغير المأسوف عليها باتت قريبة. فها هي الأرض تنشق ويشتعل الجحيم وتزمجر الشياطين. بينما القديسون يصلّون لكي ننقل بسرعة من هنا. أقطع حبل حياتي يا الهي العادل لأقول قبل أن أموت : لفظ هذا الكلب أنفاسه الأخيرة.

الملكة اليزابيت: لقد تنبأت لي بأن يوماً قريباً سيأتي، ألتمس فيه مساعدتك لألعن هذا الضفدع المخيف ابني ريتشارد.

الملكة مرغريت : قلت لك يومذاك انك صورة مشوهة شبيهة بحظي. حسناً. أين زوجك الآن؟ أين ولدك؟ ماذا بقي لك من سعادتك؟ من يتوسل اليك ويركع امامك قائلاً : لتحيَ الملكة؟ أين هم اعضاء مجلس اللوردات الذين كانوا يخرّون امامك ويتملقونك؟ أين هي الجماهير المحتشدة التي كانت تتبعك؟ تذكري كل هذا وانظري الى أين وصلت الآن. كنت زوجة سعيدة، وأنت الآن أرملة مفجوعة. كنت أماً متباهية مبتهجة، واليوم ترثين لهذا الاسم. كان الناس يتوسلون اليك،

واليوم أنت تتوسلين اليّ. كنت ملكة وأصبحت بائسة تتوجها الأشواك والهموم. كنت تحتقرينني والآن أنا أحتقرك. كنت ترعبين الجميع فأصبحوا الآن يخيفونك. كنت تأمرين الجميع فأصبح لا يطيعك أحد. لقد دار دولاب حظك وتركك فريسة لغدرات الزمان، اذ لم يعد في حوذتك سوى ذكرى ما كنت عليه. لقد اغتصبت مكاني، فلماذا لا تغتصبين قسماً من احزاني؟ ها هو عنقك المتكبر يحمل الآن نصل النير الذي أحمله. وداعاً يا زوجة يورك، وداعاً أيتها الملكة السيئة الطالع. ستجعلني آلام انكلترا أبتسم في فرنسا.

الملكة اليزابيت: انت يا من اصبحت ماهرة في توزيع اللعنات، توقفي قليلاً وعلميني كيف ألعن اعدائي.

الملكة مرغريت : امتنعي عن النوم ليلاً وصومي نهاراً. قارني سعادتك التي ماتت بشقائك الذي لا يزال حياً. تصوري ان ولديك ما زالا أجمل مما كانا عليه، وان من قتلهما بات أقبح مما كان عليه. عندما نرفع شأن خسارة ما نجعل مسببها يزداد سوءاً. لا تنسي شيئاً من هذا فتتعلمي كيف تلعنين.

الملكة اليزابيت: ارهقت الأحزان كلماتي، فشدديها بكلامك.

الملكة مرغريت : مصائبك تجعلها حادة قاطعة مثل كلامي.

(تخرج).

الدوقة : هل من الضروري أن تكون الفاجعة الكلامية مهينة الى هذا الحد؟

الملكة اليزابيت: اذا لم يفد الكلام شيئاً فانه على الأقل يخفف آلام القلب.

الدوقة : اذا كان الأمر كذلك، فتعالي معي لنخنق بكلامنا ولدي الملعون الذي خنق ولديك المحبوبين. (يسمع قرع طبل) اسمع قرع طبله، فلا نبخل في صب اللعنات على رأسه.

(يدخل الملك ريتشارد وحاشيته على ايقاع موسيقى عسكرية. دوقة يورك والملكة اليزابيت تقطعان عليه طريقه).

الملك ريتشارد: من يجرؤ على قطع الطريق عليّ؟

الدوقة : من تجرؤ على ذلك هي التي لو خنقتك في أحشائها اللعينة لحالت بينك وبين ما ارتكبته من الجرائم أيها الشقي.

الملكة اليزابيت: انت تخبئين تحت هذا التاج الذهبي جبيناً كان ينبغي أن يُكتب عليه بالحديد الملتهب: هذا هو قاتل الأمير الذي يعود اليه هذا التاج المجرم الرهيب قاتل ولديّ. قل لي أيها القاتل: أين ولديّ؟

الدوقة : يا لك من ضفدع! أين شقيقك كلارانس؟ أين ابنه؟

الملكة اليزابيت: أين ريفرز؟ أين فوكهان وكراي؟

الدوقة : أين هاستينكس؟

الملك ريتشارد: اقرعوا الطبول، لتصمّ آذان السماء، فلا تسمع هاتين الثرثارتين تهينان الرب القدير. قلت لكم اقرعوا الطبول. (تقرع الطبول) كونا هادئتين وتكلما، وإلا اغرقت صراخكما في ضجيج هذه الحرب الصاخبة.

الدوقة : هل أنت ولدي؟

الملك ريتشارد: أجل، أشكر الله، وأشكركِ كما أشكر أبي على ذلك.

الدوقة : حسناً استمع اذاً بصبر الى نفاد صبري.

الملك ريتشارد: ورثت عن طبعك، يا سيدتي الوالدة، صفة عدم تحمل الملامة.

الدوقة : دعني أتكلم.

الملك ريتشارد: فليكن ما تشائين. انما لن استمع اليك.

الدوقة : سأكون لطيفة في الحديث.

الملك ريتشارد: تكلمي باختصار، يا والدتي، لأني مستعجل.

الدوقة : أنت مستعجل؟ وأنا انتظرتك بالآلام والنزاع.

الملك ريتشارد: لكني أتيت أخيراً لكي أثلج صدرك.

الدوقة : كلا، بحق ايمانك المقدس، أتيت الى الأرض لتجعل منها جحيمي. كان مولدك عبئاً ثقيلاً عليّ، وطفولتك المشاكسة كريهة بغيضة، وأيام دراستك مريعة هائلة، وفي شبابك كنت مقداماً متهوراً وعندما اصبحت ناضجاً صرت ماكراً متعالياً ودموياً هادئاً خطراً تخفي حقدك وراء تودّدك. هل يسعك أن تذكر لي ساعة انشراح واحدة أتحفتني بها في صحبتك؟

الملك ريتشارد: لم تسعدي بجانبي سوى ساعة واحدة، حين عضك الجوع فذهبت لتأكلي بعيداً عني. اذا كانت مشاهدتي تسبب لك كل هذا العذاب، فدعيني أنطلق كي لا أزعجك بحضوري بعد الآن. لتقرع الطبول.

الدوقة : أرجوك أن تسمعني.

الملك ريتشارد: أنت تكلمينني بكثير من المرارة.

الدوقة : عبارة واحدة أقولها لك، ولن أخاطبك بعدها أبداً.

الملك ريتشارد: ليكن ما تريدين.

الدوقة : إما أن تموت في هذه الحرب بقرار الهي عادل قبل أن تخرج منها منتصراً، وإما أن أموت أنا من الحزن وعجز الشيخوخة. وفي كلتا الحالتين لن أرى وجهك فيما بعد. اذاً ستثقل عليك لعنتي المرهقة يوم القتال أكثر من جميع السلاح الذي تحمله، لأن صلواتي ستناصر الفريق المعادي لك. وعندئذ ستهمس روحا ولديْ ادوارد في نفوس اعدائك مشجعة، وتعدانهم بالانتصار. أيها الرجل الدموي ستكون آخرتك مضرجة بالدماء. فالعار الذي خدم حياتك سيصحب موتك.

(تخرج).

الملكة اليزابيت: لدي من الأسباب أكثر مما لديها لتوجيه اللعنة اليك. لكن قواي لا تسعفني، ولا يسعني الا أن أقول آمين.

(تبتعد).

الملك ريتشارد: قفي، يا سيدتي، لدي كلمة أقولها لك.

الملكة اليزابيت: لم يعد لديّ ابن من اصل ملكي لتقتله. أما بناتي فيسكنّ راهبات يكرسن حياتهن للصلاة، لا ملكات نصيبهن العويل والبكاء. وهكذا لن تطمع في تدمير حياتهن.

الملك ريتشارد: لك ابنة فاضلة وجميلة تدعى اليزابيت.

الملكة اليزابيت: هل ينبغي أن تموت لأنها كذلك؟ دعها تعش، وأنا أفسد أخلاقها وألوّث جمالها، وأفتري على نفسي بنفسي، وأزعم اني خنت ادوارد، وهكذا ألحق بها العار، شرط أن تبقى في منأى عن القاتل السفّاح، فأعترف بأنها ليست ابنة ادوارد.

الملك ريتشارد: لا تسيئي الى أصلها الملكي.

الملكة اليزابيت: كي أصون حياتها سأذلّ اصلها هذا.

الملك ريتشارد: اصلها هو الضمانة الأكيدة لكي تحيا.

الملكة اليزابيت: لقد مات شقيقاها من جراء هذه الضمانة.

الملك ريتشارد: كانت النجوم يوم مولدها على خلاف فيما بينها.

الملكة اليزابيت: بل قل ان الخلاف نشب بين أهلها.

الملك ريتشارد: حكم القدر لا يقاوم.

الملكة اليزابيت: خاصة عندما تعجل مقاومة الشفقة في اصدار هذا الحكم. كان ولداي مهيَّئين لميتة أفضل لو ان الشهامة وهبتك حياة أصلح.

الملك ريتشارد: أنت تكلمينني كأني قتلت ولدَي أخي.

الملكة اليزابيت: ولدا أخيك، عمهما سلبهما كل شيء: السعادة والتاج والأسرة والحرية والحياة. أياً كانت الذرائع التي طعنت قلبيهما، فإن رأسك هو الذي وجّهها بطريقة غير مباشرة لا شك في أن الخنجر الذي اخترق أحشاءهما كان قد

كلٌّ لو لم يشحذ على قلبك الذي قُدَّ من صخر. آه!
لو لم يكن اعتياد الألم قادراً على ترويض أقسى الآلام،
لما كفَّ لساني عن ترداد اسمي ولديّ على سمعك، قبل
أن تقتلع اظافري عينيك. وقبل أن أتحطم انا على قلبك
المتحجر وقد بلغت ميناء الموت بعد أن فقدت كل شراع.

الملك ريتشارد: سعادتي تكمن في خروجي منتصراً من الحرب، وتعادل صراحتي في وعدي لك ولذويك بأني سأفيض عليك خيراً يفوق الشر الذي قابلتكم به.

الملكة اليزابيت: أي خير يأتيني من السماء، وحده يغمرني بالسعادة.

الملك ريتشارد: هذا الخير هو ارتقاء ولديك، يا سيدتي.

الملكة اليزابيت: الى المقصلة لقطع رأسيهما.

الملك ريتشارد: كلا، بل الى قمة المجد ليكونا عنواناً ملكياً لجميع أمجاد الأرض.

الملكة اليزابيت: انت تحاول تخدير آلامي بهذه الرواية. قل لي أية امجاد، وأية عظائم يمكنك أن تتنحَّى عنها لأجل واحد من ولديّ؟

الملك ريتشارد: انا مستعد لأن اعطي كل ما أملك، حتى ذاتي، لأحد ولديك. ستغرقينني في نهر الغضب النابع من نفسك، والذكرى الحزينة في المصائب التي تتهمينني بأني سببتها لك.

الملكة اليزابيت: تكلم بسرعة، مخافة أن يعبُر كرم الأخلاق الذي أشعر به الآن، قبل أن تتكلم.

الملك ريتشارد: اعلمي اذاً اني أحب ابنتك من أعماق روحي.

الملكة اليزابيت: مربية ابنتي قد تعتقد بذلك.

الملك ريتشارد: وبماذا تعتقدين أنت؟

الملكة اليزابيت: اعتقد بأنك تحب ابنتي من أعماق قلبك، كما أحببت شقيقتها. وأنا أشكرك على هذه المحبة القاتلة.

الملك ريتشارد: لا تتسرعي هكذا في تفسير أفكاري. أحب ابنتك من أعماق قلبي وأريد أن أجعل منها ملكة انكلترا.

الملكة اليزابيت: كيف يتم ذلك؟ ومن سيكون ملكها؟

الملك ريتشارد: الذي سيجعل منها ملكة.

الملكة اليزابيت: أنت؟

الملك ريتشارد: أجل، أنا. فما رأيك في الأمر يا سيدتي؟

الملكة اليزابيت: كيف يمكنك أن تغازلها؟

الملك ريتشارد: هذا ما سأتعلمه منك، لأنك أدرى بطبعها من سواك.

الملكة اليزابيت: تريد أن تتعلمه مني؟

الملك ريتشارد: من كل قلبي، يا سيدتي.

الملكة اليزابيت: ارسل اليها بواسطة من قتل شقيقيها، قلبين ملطخين بالدماء، وقد حفر عليهما اسما ادوارد ويورك، فهذا سيحملها على البكاء. ثم قدم لها منديلاً شبيهاً بالذي قدمته مرغريت لوالدك، وقد لطخ بدم رتلاند، وقل لها ان هذا المنديل استعمل لمسح دماء شقيقيها، وحثها على استعماله لتجفيف دموعها. واذا لم تحملها كل هذه الاغراءات على أن تحبك، فابعث اليها برسالة تخبرها فيها عن أعمالك النبيلة. قل لها انك قضيت على عمها كلارانس وعمها ريفرز. أجل، قل لها انك لأجلها أجهزت أيضاً على خالتها آن.

الملك ريتشارد: أنت تهزئين بي يا سيدتي. ليس بهذه الوسيلة تحافظين على ابنتك.

الملكة اليزابيت: ليس هناك من وسيلة أخرى، الا اذا استطعت أن تتخذ شكلاً آخر، ولم تعد ريتشارد الذي فعل كل هذا.

الملك ريتشارد: واذا قلت اني فعلت كل ذلك حباً بها؟

الملكة اليزابيت: اذ ذاك، أقسم لك بأنها ستكرهك لأنك دفعت ثمن حبها كل هذه الجثث المضرجة بالدماء.

الملك ريتشارد: اسمعي، ان ما حصل لا يمكن التعويض عنه. لأن الناس

يرتكبون أحياناً أعمالاً طائشة، ويندمون عليها خلال ساعات معدودة. فاذا كنت انتزعت الملكية من ولديك، سأعوض عن ذلك بمنحها لأبنتك. اذا كنت قد قتلت ثمرة أحشائك فسأحيي ذريتك بما سأنجبه من ابنتك. فاسم الجدة يعادل من حيث المحبة اسم الأم. سيكونون أولادك من دمك ويتحلون بطبعك. سيولدون من ذات الآلام، لأن أولادك عذبوك أثناء شبابك. أما أولادي فسيكونون عزاء شيخوختك. ماذا خسرت؟ ابناً كان سيصبح ملكاً؟ حسنا. هذه الخسارة ستجعل من ابنتك ملكة. طبعاً لا يسعني أن أؤمِّن لك كل التعويضات التي أتمنى منحك اياها. فاقبلي اذاً ما استطيع ان اعطيك اياه. ها هو ولدك دورست يجرّ أقدامه فوق أرض غريبة، والخوف يتملكه. لكن زواجنا سيعيده بسرعة ليتبوأ المقامات الرفيعة. الملك الذي سيدعو ابنتك الرائعة زوجته، سيدعو ابنك دورست أخاه. ستصبحين أم الملك وستعوض عليك السعادة المقبلة كل مآسي الماضي. امامنا أيام سعيدة، فامضي الى ابنتك، يا أمي، وشجعيها بخبرتك على حبي، واشعلي في صدرها الطموح الى الملكية. اكشفي لها عن مفاتن الحياة الزوجية، وعندما ستعاقب ذراعي هذا المتمرد العنيد بوكنكهام، سأرجع مكللاً بالمجد وسأقود ابنتك الى سريري، وتكون هي المنتصرة الوحيدة؟

الملكة اليزابيت: ماذا سأقول لها؟ ان شقيق أبيك يريد الاقتران بك؟ هل أقول لها ان زوجها سيكون عمها أو انه قاتل شقيقيها وعمها؟ كيف سأمتدحك أمامها لأجعلها تحبك.

الملك ريتشارد: قولي لها ان ارتياح انكلترا يتوقف على زواجنا.

الملكة اليزابيت: هذا الارتياح تكسبه مقابل اضطرابات ابدية.

الملك ريتشارد: قولي لها ان الملك الذي يستطيع أن يأمر، يتوسل اليها...

الملكة اليزابيت: سأقول لها ان توافق على ما يحرّمه ملك الملوك.
الملك ريتشارد: قولي لها انها ستصبح ملكة قوية.
الملكة اليزابيت: لكي ترثي لحال هذا اللقب مثل والدتها.
الملك ريتشارد: قولي لها اني سأحبها الى الأبد.
الملكة اليزابيت: لكن الى متى سيدوم هذا الأبد؟
الملك ريتشارد: حتى نهاية حياتها.
الملكة اليزابيت: وكم من الوقت ستدوم حياتها السعيدة؟
الملك ريتشارد: بقدر ما ستمد السماء والطبيعة بعمرها.
الملكة اليزابيت: بل بقدر ما يشاء الجحيم وريتشارد.
الملك ريتشارد: قولي لها اني انا ملكها، لست سوى فرد متواضع من رعيتها.
الملكة اليزابيت: لكنها هي التي ليست سوى فرد من رعيتك، تكره هذه السيادة.
الملك ريتشارد: ساعديني حيالها ببلاغتك.
الملكة اليزابيت: العرض الشريف لا يحتاج الى البلاغة كي يصبح مقبولاً.
الملك ريتشارد: بلغيها اذاً عرضي بتعابير بسيطة.
الملكة اليزابيت: من التهوّر أن نعلن ببساطة ما هو غير شريف.
الملك ريتشارد: حججك سطحية ولاذعة.
الملكة اليزابيت: كلا، حججي عميقة وكئيبة، فالقبر الذي يضم ولديّ عميق وكئيب.
الملك ريتشارد: لا تمسّي هذا الوتر، يا سيدتي، فالأمر اصبح في ذمة الماضي.
الملكة اليزابيت: سأظل أمسّه حتى ينقطع وتر قلبي.
الملك ريتشارد: حسناً. بحق شفيع المملكة جاورجيوس ورتبة حمّالة الجراب، وحق تاجي...
الملكة اليزابيت: لقد دنست الأول وألحقت العار بالثانية واغتصبت الثالث.
الملك ريتشارد: اقسم...

الملكة اليزابيت: اذا أردت أن تقسم يميناً كي أصدقك، أقسم بما لم تسيء اليه.

الملك ريتشارد: حسناً، بحق العالم.

الملكة اليزابيت: انه مليء بجرائمك الفظيعة.

الملك ريتشارد: بحق موت والدي.

الملكة اليزابيت: حياتك قد ألحقت به العار.

الملك ريتشارد: اذاً أقسم بذاتي...

الملكة اليزابيت: لكنك عملت على الحط من كرامتك.

الملك ريتشارد: حسناً، اقسم بالله...

الملكة اليزابيت: لقد اسأت الى الله أكثر من سواك. لو كنت تخشى ان تحنث بقسَمك بالله، لما فشلت المصالحة التي سعى اليها شقيقاك، ولما ذُبح شقيقي، ولكان التاج الذي يعلو الآن رأسك، يزين رأس ولدي، ولكان ولداي الآن على قيد الحياة بدلاً من أن يرقدا تحت التراب ويأكلهما الدود. بماذا تستطيع أن تقسم الآن؟

الملك ريتشارد: بالمستقبل...

الملكة اليزابيت: اسأت اليه في الماضي. وعليّ أن أذرف الكثير من الدموع قبل أن يصبح المستقبل خالياً من اساءتك اليه. الأبناء الذين قتلت أهلهم سيعيشون ليرثوا في شيخوختهم لحال شبابهم الذي هجرهم، والأهل الذين ذبحت أولادهم سيعيشون ليرثوا مع شيخوختهم لاضمحلال ذريتهم. فلا تقسم بالمستقبل لأنك اسأت تهيئه في ماضيك.

الملك ريتشارد: اذا لم يحالفني النجاح في ندمي، فليكن الأمر كذلك في قتالي مع العدو المسلح، ولأخزي نفسي بنفسي. ليحجب النهار عني نوره والليل راحته. لتعارض جميع كواكب الحظ السعيد مشاريعي، اذا لم يكن الحب الطاهر النزيه والأفكار المباركة هي التي تدفعني الى التقدم لطلب يد ابنتك وخطب

ودها. ان سعادتي وسعادتها تتوقفان على قبولها بي زوجاً. اما اذا لم أحصل عليها فأنا أتوقع لنفسي ولها وللبلاد وللعديد من الأنفس، الموت والحزن والشقاء والدمار والانهيار. كل هذا لا يمكن تجنبه الا اذا لبّت طلبي. هكذا يا أمي العزيزة، أريدك أن تدافعي لديها عن حبي لها، وتدافعي عما سأكون وليس عما كنت، عما سأستحقه وليس عما استحق الآن. لا تقاومي اهدافاً عظيمة كالتي أسعى الى تحقيقها.

الملكة اليزابيت: لماذا يجربني الشيطان هكذا، يا ترى؟

الملك ريتشارد: أجل، الشيطان يجربك للوصول الى الخير.

الملكة اليزابيت: هل أنسى حالتي؟

الملك ريتشارد: نعم، ان تذكرك ما أنا عليه يسيء اليك.

الملكة اليزابيت: لأنك قتلت ولديّ.

الملك ريتشارد: لكني دفنتهما في أحشاء ابنتك. وسيولدون من رمادهما لتعزيتك.

الملكة اليزابيت: هل يسعني أن أستميل ابنتي الى رغباتك؟

الملك ريتشارد: بهذا التصرف تصبحين أماً سعيدة.

الملكة اليزابيت: انا ذاهبة اليها. اكتب اليّ عما قريب، وسأطلعك على نواياها.

الملك ريتشارد: اطبعي على وجنتيها قبلة حبي الصادق. وداعاً. (يعانقها ثم تخرج). يا لها من امرأة تافهة متقلبة سرعان ما ترضخ للواقع.

(يدخل راتكليف، يتبعه كاتسبي).

راتكليف: أيها الملك القدير، على الشاطئ الغربي يبحر أسطول هائل. وعلى الشاطئ مجموعة من الأصدقاء، يساورهم الشك وتسيطر عليهم قلة الوفاء، وهم عزّل من السلاح، وغير

راغبين في صد العدو. يعتقد ان ريتشموند هو أميرال هذا الأسطول الراسي هناك بانتظار أن يحميه بوكنكهام ليبحر.

الملك ريتشارد: ليسرع أحد الأصدقاء الى دوق نورفولك. أنت يا راتكليف أو كاتسبي... حسناً. أين هو؟

كاتسبي : أجل سأمضي اليه حالاً، يا مولاي.

الملك ريتشارد: يا راتكليف اسرع الى سالزبري. وعندما تصل الى هناك (يخاطب كاتسبي). أيها الأحمق، لماذا أنت لا تزال هنا، ولم تسرع الى الدوق؟

كاتسبي : قل لي أولاً، أيها الملك، ماذا ينبغي أن أنقل اليه من أخبار؟

الملك ريتشارد: أنت على حق يا كاتسبي... قل له أن يجند كل القوات الهائلة التي يستطيع جمعها، وأن يلحق بي فوراً الى سالزبري.

كاتسبي : ها أنا أنطلق فوراً.

(يخرج).

راتكليف : اعذرني. ماذا عليّ أن أفعل في سالزبري؟

الملك ريتشارد: ماذا، ماذا تبغي القيام به هناك، قبل أن أصل انا الى المكان المذكور؟

راتكليف : جلالتك أمرتني بأن أسرع امامك الى هناك.

(يدخل ستانلي).

ما وراءك من أخبار، يا ستانلي؟

ستانلي : الأخبار التي أنقلها الى جلالتك ليست حسنة ولا سيئة.

الملك ريتشارد: ما هذه الأحجية؟ أخبارك ليست حسنة ولا سيئة؟ هيا، قل لي، ما هي الأخبار التي تحملها؟

ستانلي : ريتشموند في البحر.

الملك ريتشارد: فليغرق في أعماقه. ماذا يفعل هناك هذا المارق؟

ستانلي : لا أعرف أيها الملك. لكني أستشف شيئاً ما.

الملك ريتشارد: وماذا تستشف؟

ستانلي : أرى أنه يستقوي بدورست وبوكنكهام وموريتون ويقلع الى انكلترا ليطالب بالعرش.

الملك ريتشارد: وهل العرش خالٍ؟ هل فقد السيف الذراع التي تحمله؟ هل مات الملك؟ هل من وريث ليورك سواي؟ ومن يمكنه أن يكون ملكاً على انكلترا سوى وريث يورك العظيم؟ اذاً قل لي ماذا يفعل ريتشموند في البحر؟

ستانلي : اذا لم يكن هذا هدفه، فلا أدري ماذا يريد.

الملك ريتشارد: أنا أخشى أن يتمرد عليّ وأن تلحق أنت به.

ستانلي : كلا، أيها الملك القوي، لا تشك فيَّ.

الملك ريتشارد: حسناً. أين قواتك التي أعددتها لصدّه؟ أين رجالك؟ أليسوا على الشاطئ الغربي يقومون بتغطية إبحار المتمردين؟

ستانلي : كلا أيها الملك، ان خيرة اصدقائي يقيمون في الشمال.

الملك ريتشارد: يا لهم من أصدقاء فاترين! ماذا يفعلون في الشمال؟ بينما ينبغي عليهم أن يخدموا ملكهم في الغرب.

ستانلي : سيتلقون أمراً بذلك أيها الملك. تكرّم جلالتك وأمرني فأجمع اصدقائي وألحق بك الى المكان، وفي الزمان اللذين تريدهما.

الملك ريتشارد: أجل، أجل، أنت تبغي الذهاب للانضمام الى ريتشموند. فأنا لا أثق بك.

ستانلي : أيها الملك ليس لديك من سبب يجعلك تشك بصداقتي واخلاصي لك. لم أكن ولن أكون في يوم من الأيام خائناً.

الملك ريتشارد: اذهب واجمع رجالك. لكن دع ابنك جورج ستانلي معي، هل تسمع؟ احرص على أن تكون شجاعاً، والا اصبح رأس ابنك في خطر.

ستانلي : عامله بحسب اخلاصي لك.

(يخرج ستانلي).

(يدخل رسول).

الرسول : أيها الملك، نبهني بعض الأصدقاء الى أن ريتشموند يرابط مع سير ادوارد كورتنـي وشقيقه البكر الأسقف المتجبِّر وأنصارهما، وأنهم جميعهم يحملون السلاح.

(يدخل رسول ثان).

الرسول الثاني : في مقاطعة كنت، يا مولاي، حمل رجال ملفورد السلاح، والعديد من الأنصار ينضمون الى المتمردين، وقواتهم تتعاظم باستمرار.

(يدخل رسول ثالث).

الرسول الثالث : يا مولاي، ان جيش بوكنكهام العظيم...
الملك ريتشارد : الى الجحيم أيها البوم. أليس بوسعكم أن تفعلوا شيئاً سوى انشاد ترانيم الموت؟ خذ هذا يا رسول الشؤم الى أن تأتيني بأنباء أفضل.

(يضربه).

الرسول الثالث : النبأ الذي أود نقله اليك مفاده ان جيش بوكنكهام قد تشرذم بفعل الفياضانات التي سببتها الأمطار الغزيرة وقد بقي وحيداً هائماً على وجهه.
الملك ريتشارد (يدفع اليه بمحفظته) : اطلب منك السماح. هذه محفظتي اعطيك اياها تعويضاً عن الصفعة التي تلقيتها مني. هل اعلن أحد الأصدقاء الفطناء عن مكافأة للشخص الذي سيأتيني بالخائن؟
الرسول الثالث : لقد تم الاعلان عن ذلك أيها الملك.

(يدخل رسول رابع).

الرسول الرابع : مولاي الملك: يقال ان سير توماس لوفيل ولورد دورست هما بسلاحهما في يورك شاير. لكني أنقل الى جلالتك نبأً مفرحاً: حطمت العاصفة اسطول بريطانيا، وأرسل ريتشموند زورقاً الى شاطئ دورست شاير ليطلب الى السكان أن يقفوا بجانبه. فأجابوه بأنهم أتوا من قبل بوكنكهام ليساعدوه. لكنه لم يثق بهم فنشر شراعه وعاد الى بريطانيا.

الملك ريتشارد: بما اننا نحمل الآن سلاحنا، فلنمض للقضاء على المتمردين في الداخل طالما اننا لا نريد الذهاب لمقاتلة الأعداء في الخارج.

(يدخل كاتسبي).

كاتسبي : مولاي الملك. لقد اعتقل دوق بوكنكهام أو كونت ريتشموند على أثر نزوله مع قوات هائلة في ملفورد.

الملك ريتشارد: هيا بنا الى سالزبري. قد نربح المعركة أو نخسرها هناك، بدلاً من أن نضيع هنا وقتنا في التفكير. على أحدكم أن يتولى احضار بوكنكهام الى سالزبري وليتبعني الآخرون.

(يخرج الجميع).

المشهد الخامس

في جناح قصر لورد ستانلي.

(يدخل ستانلي وسير كريستوف أورسويك).

ستانلي : يا سير كريستوف بلِّغ ريتشموند من قبلي : « ان هذا الخنزير البري الملطخ بالدماء احتجز ولدي. فاذا تمردت قطع رأس ولدي. وهذا ما يجعلني أمتنع عن مساعدته مباشرة ». لكن قل لي أين الآن الأمير ريتشموند؟

كريستوف : في بمبروك أو في هارفورد ويست في مقاطعة ويلز.

ستانلي : من هم الأشخاص البارزون الذين التحقوا به؟

كريستوف : سير ولتر هربرت الجندي الشهير، وسير جلبرت تالبوت، وسير وليم ستانلي وأكسفورد وبيمبروك المخيف، وسير جيمس بلونت، ورايسب توماس ورجاله الشجعان والعديد من الشخصيات البارزة الأخرى. وهم متجهون الى لندن، اذا لم يصادفوا في طريقهم من يحاربهم ويصدهم.

ستانلي : اذهب فوراً الى سيدك وأوصه بي خيراً. قل له ان المحكمة وافقت على تزويجه اليزابيت. وهذه الرسائل تطلعه على نواياي. وداعاً.

(يسلم رسائل الى سير كريستوف. يخرجان).

الفصل الخامس

المشهد الأول

سالزبري ـــ في الساحة العامة.

(يدخل الشريف وحراسه وهم يقودون بوكنكهام الى الاعدام).

بوكنكهام : ألا يريد الملك ريتشارد أن أكلمه؟

الشريف : كلا، أيها اللورد، وهكذا ما عليك الا أن تستسلم لمصيرك.

بوكنكهام : يا هاستينكس، يا ابني ادوارد، يا ريفرز، يا كراي، يا أيها الملك القديس هنري وأنت يا ادوارد ابنه النبيل، ويا فوكهان، ذهبتم جميعاً ضحية الظلم. ما الفائدة اذا كانت أرواحكم النائحة الساخطة تراقب الساعة الحاضرة من خلال الغيوم المتلبدة. انتقموا لأنفسكم بسخريتكم من هلاكي. اليوم هو يوم تذكار الموتى، أليس كذلك أيها الأصدقاء؟

الشريف : أجل، يا مولاي.

بوكنكهام : حسناً. ان يوم تذكار الموتى هو يوم الدينونة بالنسبة الى جسدي. ففي مثل هذا اليوم خشيت، في عهد الملك ادوارد، أن يكون لي يوم تذكار الموتى مشؤوماً اذا خنت

اولاده أو ذوي امرأته. في مثل هذا اليوم حملني على الوقوع في التجربة، من وضعت فيه كل ثقتي. ويوم تذكار الموتى هذا هو الخاتمة المحددة لجرائمي. فالعلي العظيم الذي سخرت منه في صلاتي الكاذبة، انزل عليّ ردة فعل هذه الصلاة، وهو وحده يرغم الشرير على توجيه حربته الى صدر سيده. لقد نزلت على رأسي لعنة مرغريت بكل ثقلها، اذ قالت لي : عندما يحطم الحزن قلبك، تذكّر ان مرغريت كانت نبية. هيا أيها السادة، امضوا بي الى مقصلة العار، لأن الشر لا يسعه أن يحصد سوى الشر، والعار لا يسعه أن يجني سوى العار.

(يقتاد الشريف وحراسه بوكنكهام).

المشهد الثاني

في سهل بجوار تافوورث.

(يدخل على صوت الطبل، وقد رفعت الرايات، ريتشموند واكسفورد وسير جيمس بلونت وسير ولتر هربرت وآخرون ومعهم فصائل من أنصارهم تسير الى جانبهم).

ريتشموند (يحمل رسالة في يده) : يا رفاق السلاح، أيها الأصدقاء الأعزاء الذين أرهقهم نير الاستعباد، ها نحن قد وصلنا بدون عائق الى قلب البلاد. لقد أرسل الينا ستانلي هذه السطور التي تحضنا على الثقة بالنفس والتحلي بالشجاعة. يقال ان الشقي الدموي، الخنزير البري الذي أتلف محاصيلكم وعنبكم والذي يشرب من دمائكم، ان هذا الخنزير الوسخ يتمرغ الآن وسط هذه الجزيرة بالقرب من مدينة ليسستر. يقتضينا

يوم واحد للوصول اليه سيراً على الأقدام. فالى الأمام أيها الأصدقاء الشجعان. لنوطد أركان السلام الأبدي بلجوئنا للمرة الأخيرة الى سيف الحرب الدامي.

اوكسفورد : ضمير كل منا يضاهي الف سيف لمحاربة هذا القاتل السفاك.

هربرت : لا شك في أن جميع أصدقائه سيلتحقون بنا.

بلونت : جميع أصدقائه يظهرون له الصداقة عن خوف، وسيتركوه عندما يكون بأمسّ الحاجة اليهم.

ريتشموند : كل شيء يسير لصالحنا. وهكذا أستحلفكم بالله أن تسيروا الى الأمام. الأمل العادل سريع التحقيق، ويجعل من الملوك آلهة، ومن المتواضعين ملوكاً.

(يخرج الجميع).

المشهد الثالث

في سهل بوسوورث.

(يدخل وسط فصائل الجيش، الملك ريتشارد ودوق نورفولك وكونت سري وآخرون).

الملك ريتشارد: انصبوا خيمتي هنا في سهل بوسوورث. مولاي سري، لماذا تبدو حزيناً؟

سري : قلبي فرح أكثر مما يظهر على محياي.

الملك ريتشارد: مولاي نورفولك.

نورفولك : ماذا تريد أيها الملك؟

الملك ريتشارد: ستنزلان الضربات بالعدو، أليس كذلك؟

نورفولك : سنسدد أقسى الضربات وستتلقى بعض الضربات أيضاً.

الملك ريتشارد : انصبوا لي خيمتي. (يتقدم جنود وينصبون خيمة الملك). سأنام هنا هذه الليلة. لكن أين سأنام غداً؟ هيا، هذا لا يهم. من عرف عدد الرجال الخونة؟

نورفولك : هم لا يتجاوزون الستة أو السبعة آلاف.

الملك ريتشارد : ماذا تقول؟ ان مقاتلينا يبلغون ثلاثة أضعاف هذا العدد. ثم ان اسم الملك قلعة لا يملكها الفريق المعادي. انصبوا لي خيمتي. تعالوا أيها النبلاء. هيا بنا ندرس طبيعة الأرض التي ستجري عليها المعركة. استدعوا بعض أصحاب الخبرة الواسعة في هذا الميدان. ينبغي علينا ألا نهمل أي فن من فنون الحرب، وأن نعمل بسرعة، لأن نهاراً مضنياً ينتظرنا غداً.

(يخرج الجميع).

(يدخل من الجانب الآخر في ساحة المعركة، ريتشموند وسير وليم براندون وأوكسفورد وسير جيمس بلونت ووجهاء آخرون. ينصب بعض الجنود خيمة ريتشموند).

ريتشموند : غابت الشمس تاركة لنا الأمل بيوم مجيد. يا سير وليم براندون، ستحمل رايتي. احضروا لي الى خيمتي حبراً وورقاً. سأضع خطة لقتالنا، وسأحدد لكل رئيس مركزه الخاص وسأوزع قواتنا كما ينبغي. يا لورد اوكسفورد، وأنت يا سير وليم براندون، وأنت يا سير ولتر هربرت، ابقوا معي. أما كونت بمبروك، فعليه أن يلزم كتيبته. يا سير بلونت بلّغ تحياتي للكونت، واطلب اليه أن يحضر لمقابلتي في خيمتي حوالي الساعة الثانية صباحاً... بقي شيء واحد، يا سير بلونت. هل تعلم أين يقع مقر لورد ستانلي؟

بلونت : كتيبته تعسكر الآن على بعد نصف ميل من جيش الملك.

ريتشموند : اذا كان بامكانك الاتصال به، دون أن تعرّض نفسك لخطر، سلّمه هذه الرسالة الهامة من قبلي.

(يسلم رسالة الى بلونت).

بلونت : اقسم لك بحياتي بأني سأحاول الاتصال به. فليمنّ الله عليك بنوم هادئ هذه الليلة.

ريتشموند : اسعدت مساء، أيها القائد بلونت. تعالوا أيها السادة لنعقد مجلساً نناقش فيه مسألة يوم غد في خيمتي.

(يتوجه الجميع الى خيمة ريتشموند).

(يدخل الملك ريتشارد الى خيمته ومعه نورفولك وراتكليف وكاتسبي).

الملك ريتشارد: كم هي الساعة الآن؟

كاتسبي : لقد حان وقت العشاء يا مولاي. فالساعة بلغت التاسعة.

الملك ريتشارد: لن أتناول العشاء هذا المساء. اعطني حبراً وورقاً. هل جعلتم واقية الوجه في خوذتي سهلة الحركة؟ وهل وضعتم في خيمتي درعي وخوذتي؟

كاتسبي : أجل أيها الملك، كل شيء أصبح جاهزاً.

الملك ريتشارد: يا نورفولك، اذهب بسرعة الى مركزك، واختر أفضل الحراس.

نورفولك : انا ذاهب، يا مولاي.

الملك ريتشارد: انهض غداً باكراً جداً، يا نورفولك.

نورفولك : كن على يقين من ذلك يا مولاي.

(يخرج).

الملك ريتشارد: يا راتكليف.

راتكليف : نعم، يا مولاي.

الملك ريتشارد: ارسل شخصاً الى كتيبة ستانلي ليبلغه أن يأتي بقواته قبل

شروق الشمس، خوفاً من أن يسقط ولده جورج في هوة الليل الأبدي. إملأ كأسي خمراً، واحضر لي قنديلاً (يخاطب كاتسبي) أسرج حصاني الأبيض للقتال يوم غد، واحرص على أن تكون حرابي صلبة وغير ثقيلة. يا راتكليف.

راتكليف : مولاي.

الملك ريتشارد: هل رأيت اللورد الحزين نورتمبرلاند؟

راتكليف : حوالي الساعة التي يرقد فيها الديك، شاهدته كما شاهدت ايضاً توماس وكونت سري، وهما يشقان طريقهما بين الجيوش ويحضّان الجنود على القتال.

الملك ريتشارد: انا منقبض الصدر. اعطني كأس خمر، لأني لا أشعر بالفرح الذي كان يغمر قلبي عادة. حسناً، ضع هذا هناك. هل أحضرت لي حبراً وورقاً؟

راتكليف : أجل، يا مولاي.

الملك ريتشارد: قل لحراسي أن يسهروا جيداً. دعني يا راتكليف، وعُد الى خيمتي حوالي منتصف الليل. ستساعدني على تسلحي. قلت لك : دعني.

(يعود ريتشارد الى مؤخرة خيمته، يخرج راتكليف وكاتسبي).

(تفتح خيمة ريتشموند الذي يشاهد وسط ضباطه. يدخل ستانلي).

ستانلي : ليكن حليفك الحظ والنصر.

ريتشموند : ليحمل هذا الليل المظلم كل انشراح الى شخصك العزيز، يا زوج أمي النبيل. قل لي كيف حال والدتنا المحبوبة؟

ستانلي : بصفتي وكيلها، أباركك باسمها. هي تصلي دائماً لأجل سعادتك، يا ريتشموند، هذا هو جوابي. الساعات الصامتة مرت، والليل أوشك أن يولي. فلنختصر، لأن الوقت يستدعي ذلك. استعد للقتال عند بزوغ الفجر. انا لا أستطيع أن أحقق لك كل ما أريد. لكني سأنتهز كل المناسبات

وسأغتنم الفرص لأهبّ الى مساعدتك في هذا القتال الذي لا يستطيع أحد أن يتوقع نتائجه. لكن، لا يمكنني أن أقف بسرعة الى جانبك، خوفاً من أن يقتل أخوك جورج على مرأى من أبيه عند أول تحرك أقوم به. وداعاً. خطورة اللحظة الحاضرة تقتضي العجلة وتوجب على صديقين لم يلتقيا منذ وقت طويل أن يختصرا حديثهما. وداعاً للمرة الثانية. كن شجاعاً وانتصر.

ريتشموند (يقدم ستانلي للضباط المحيطين به) : أيها اللوردات، امضوا به الى كتيبته. رغم ما يسيطر من القلق على أفكاري، سأحاول أن استريح قليلاً، خوفاً من أن يستولي النعاس عليّ غداً، عندما يتوجب عليَّ أن أطير على أجنحة النصر. مرة أخرى، أتمنى لكم ليلة سعيدة. (يخرج اللوردات مع ستانلي). يا الهي، أنا أُعتبرك القائد الأعلى لجنودي، فانظر اليهم من عليائك، وضع بين أيديهم سلاح غضبك ليحطموا به رؤوس اعدائنا المغتصبين. اجعل منا رسل عقابك لكي نمجدك في انتصارك. اليك اعهد بنفسي القلقة قبل أن أنام. دافع عني دائماً، أثناء نومي وأثناء يقظتي.

(ينام).

(شبح الأمير ادوارد بن هنري السادس ينتصب بين الخيمتين).

شبح الأمير ادوارد (يخاطب الملك ريتشارد) : كم ستكون مضايقتي لك عظيمة غداً! تذكر انك طعنتني طعنتين وأنا في ريعان شبابي، في تويكسبري ليس أمامك اذاً الا القنوط والموت. (يخاطب ريتشموند) ثق بنفسك، يا ريتشموند، لأن أرواح الأمراء الذين قُتلوا تحارب الى جانبك، وابن الملك هنري يشجعك، يا ريتشموند.

(شبح هنري السادس ينتصب).

شبح هنري السادس (يخاطب الملك ريتشارد) : عندما كنت حياً، طعنت جسدي الذي مسحه الرب. فكّر في البرج وفيّ. لم يبق أمامك سوى القنوط والموت. وهذا هنري السادس أيضاً يقول لك : ليس أمامك سوى القنوط والموت. (يخاطب ريتشموند) أيها الفاضل الصالح، كن أنت المنتصر. فهنري الذي تنبأ لك بأنك ستصبح ملكاً يشجعك أثناء نومك ويقول لك : عش وانتظر.

(شبح كلارانس ينتصب).

شبح كلارانس (يخاطب الملك ريتشارد) : كم ستكون مضايقتي لك هائلة غداً، انا الذي اسلمت خيانتك الى الموت. غداً عندما يحتدم القتال، فكّر فيّ. سيسقط سيفك من يدك وقد كلّ، ويصيبك القنوط والموت. (يخاطب ريتشموند) لأجلك أنت سليل بيت لنكاستر يصلي ورثة يورك المهانون. ليرع الملائكة قتالك. عش وانتصر.

(اشباح ريفرز وكراي وفوكهان تنتصب).

شبح ريفرز (يخاطب الملك ريتشارد) : كم ستكون مضايقتي لك هائلة غداً، انا ريفرز الذي قتلته في بومفريت. نصيبك الآن اليأس والموت.

شبح كراي (يخاطب الملك ريتشارد) : فكّر في كراي، فيغمر اليأس نفسك.

شبح فوكهان (يخاطب الملك ريتشارد) : فكّر في فوكهان، كي تسقط الحربة من يدك تحت وطأة الندم، ويصيبك القنوط والموت.

الأشباح الثلاثة (يخاطبون ريتشموند) : استيقظ وفكّر في مآسينا القابضة على قلب ريتشارد. فانك ستنتصر عليه. استيقظ.

(شبح هاستينكس ينتصب).

شبح هاستينكس (يخاطب الملك ريتشارد) : يا سفاك الدماء، أيها المجرم الشرس، استيقظ كما يستيقظ القتلة. ولتقض عليك هذه المعركة الدموية. فكّر في لورد هاستينكس فيدركك اليأس والموت. (يخاطب ريتشموند) أيتها النفس المطمئنة وغير القلقة، استيقظي وهبي الى القتال. قاتل أيها النبيل وانتصر لأجل خلاص انكلترا الجميلة.

(شبحا الأميرين الصغيرين ينتصبان).

الشبحان (يخاطبان الملك ريتشارد) : فكّر في ولدَي أخيك اللذين خنقتهما في البرج. سنكون رصاصاً في صدرك، وسنقودك الى الهلاك. نصيبك القنوط والموت. (يخاطبان ريتشموند) نم يا ريتشموند قرير العين، نم بسلام واستيقظ بفرح. ستحميك الملائكة من طعنات الخنزير البري. عش واترك وراءك سلالة ملكية سعيدة. نحن ولدا ادوارد التعيسان، نتمنى لك نوماً هنيئاً.

(شبح الملكة آن ينتصب).

شبح الملكة آن (يخاطب الملك ريتشارد) : يا ريتشارد، زوجتك المسكينة آن، زوجتك التي لم تنم ساعة واحدة مطمئنة اليك، تأتي الآن لتملأ نومك بلبلة واضطراباً. غداً عندما سيحتدم القتال، فكّر فيّ، فيسقط السيف من يدك وقد كلّ. نصيبك القنوط والموت المحتم. (يخاطب ريتشموند) اما أنت أيتها النفس المطمئنة فارقدي بسلام. احلمي بالنصر والسعادة، لأن زوجة عدوك تصلي لأجلك.

(شبح بوكنكهام ينتصب).

شبح بوكنكهام (يخاطب الملك ريتشارد) : أنا أول من رفعك الى سدة العرش وآخر من اصابه طغيانك. عندما سيحتدم القتال، فكّر في

بوكنكهام ومت من هول جريمتك. إحلم بأفعالك الدموية وبجرائمك فيدركك القنوط والموت (يخاطب ريتشموند) انا لاقيت حتفي لأني رغبت في مساعدتك. لكني لم استطع ذلك. تشجع ولا تقلق، فالله وملائكته يقاتلون الى جانبك. وسيسقط المجرم ريتشارد من علياء كبريائه.

(تختفي الأشباح ويستيقظ الملك ريتشارد فجأة).

الملك ريتشارد: جيئوني بحصان آخر. ضمدوا لي جراحي. ارحمني، يا الهي. ان ما حصل لم يكن سوى حلم. اهدأ يا ضميري الجبان. لماذا تعذبني؟ ها ان الأنوار الساطعة تبدو زرقاء. هذه ساعة الليل الكئيبة. قطرات العرق البارد تتجمد على جسدي المرتجف. بماذا أشعر؟ هل أنا خائف من نفسي؟ ليس من أحد هنا سواي. انا ريتشارد أحب ريتشارد. هل من قاتل هنا؟ لا... أجل انا هو. اذاً لأهرب. ماذا أقول؟ اهرب من ذاتي؟ هذا سبب وجيه. لماذا؟ أخاف من أن أعاقب نفسي بنفسي. من؟ أنا أعاقب نفسي؟ لكني أحب نفسي. لماذا؟ لأجل الخير القليل الذي صنعته لنفسي؟ لا. يا للأسف. حري بي أن أمقت ذاتي لأجل الأعمال البغيضة التي ارتكبتها. انا قاتل. لكني كاذب، لست قاتلاً. أيها الأحمق، تكلم بالحسنى عن نفسك. أيها الأحمق، لا تتبجح. ان لضميري الف لسان ولسان، وكل لسان يروي قصة، وكل قصة تحكم عليّ بأني مجرم. القسم الكاذب، والقتل المتعمد، وكل الجرائم التي ارتكبتها بوحشية لا مثيل لها، جميعها تصرخ أمام القضاء العادل متُّ، فلن يأسف عليّ أحد. ولماذا يأسف عليَّ الآخرون عندما لا أشفق أنا على نفسي. خيِّل اليّ أن أرواح جميع الذين قتلتهم قد تقاطرت

على خيمتي وان كل واحدة منها تحث على الانتقام غداً من ريتشارد.

(يدخل راتكليف).

راتكليف : يا مولاي.

الملك ريتشارد: من الآتي الى هنا؟

راتكليف : انا راتكليف، يا مولاي. انا راتكليف. لقد صاح الديك في القرية معلناً بزوغ الفجر. وأصحابك على أهبة الاستعداد.

الملك ريتشارد: يا راتكليف، لقد حلمت حلماً مريعاً. هل تعتقد بأن جميع اصدقائنا سيكونون أوفياء؟

راتكليف : بدون شك، يا مولاي.

الملك ريتشارد: يا راتكليف، انا خائف، خائف جداً.

راتكليف : يا سيدي، لا تخف من الأشباح

الملك ريتشارد: اقسم لك بالرسول بولس، بأن أشباح هذه الليلة قد ألقت في نفسي انا ريتشارد من الرعب، ما لن يستطيع تحمله العشرة آلاف جندي الذين يقودهم هذا الأبله ريتشموند. لم يطلع الفجر بعد. هيا، تعال معي. سأتنصّت حول خيامنا، لأعرف ما اذا كان أحد اصدقائنا يفكر بمغادرتنا.

(يخرج الملك ريتشارد وراتكليف).

(يستيقظ ريتشموند ويدخل اوكسفورد وبعض اللوردات).

اللوردات : صباح الخير، يا ريتشموند.

ريتشموند : أستميحكم عذراً عن الكسل الذي يبدو عليّ.

اللوردات : هل نمت بهدوء، يا مولاي؟

ريتشموند : منذ أن تركتموني، نمت نوماً هادئاً وأبصرت أحلاماً جميلة، لم يسبق لأي شخص تملّكه النعاس أن رآها. لقد خيِّل اليّ أن أرواح الذين قتلهم ريتشارد قد أتت الى خيمتي

وهي تصرخ : الى الأمام سيكون النصر حليفك يا ريتشموند. قلبي يرقص فرحاً عندما أتذكر هذا الحلم الجميل. كم هي الساعة الآن؟

اللوردات : الساعة الرابعة تقريباً.

ريتشموند : اذاً، حان الوقت لأن نأخذ سلاحنا ونصدر الأوامر (يتقدم نحو الفصائل) يا مواطنيّ الأحباء، الوقت ومقتضيات الساعة تمنعني من الاستفاضة في ما سبق ان قلته لكم. مع ذلك تذكروا هذا : ان الله، وحقنا المشروع، يقاتلان معنا وصلوات القديسين وأرواح من أُسيء اليهم تقف أمامنا كحصون منيعة باستثناء ريتشارد، فان جميع الذين يقاتلوننا يتمنون النصر لنا لا للذين يناوئوننا. لأن من لا يتبعوننا فعلاً، كما تعرفون أيها السادة، يتبعون طاغية سفاكاً قاتلاً نشأ على هدر الدم وترسَّخ فيه، رجلاً استخدم جميع الوسائل لبلوغ مآربه. وقد قتل حتى الذين ساعدوه على الوصول الى غايته. انه حجر وضيع، جعله ثميناً عرش انكلترا العظيم الذي تربع عليه بخيانته. كان دائماً عدو الله. اذاً حين تقاتلون عدو الله، يحميكم الله بعدله لأنكم جنوده. واذا سعيتم لقتل الطاغية تنامون بسلام بعد موته، واذا قاتلتم اعداء بلادكم فثروتها ستكون أجركم لقاء أتعابكم. واذا قاتلتم لأجل الحفاظ على زوجاتكم، فتستقبلكم نساؤكم بكل ترحاب لدى عودتكم منتصرين. واذا خلصتم أولادكم من سيف الظلم، فان أولادكم سيقدرونكم حق قدركم ويكرمون شيخوختكم. اذاً باسم الله وباسم جميع حقوقنا، ارفعوا راياتكم واستلوا سيوفكم الماضية. اما أنا فمستعد لأن أترك جسدي الدافئ هذا على وجه الأرض الباردة ثمناً للمشروع الجريء الذي أقوم به. واذا انتصرت، فالأخير بينكم سيكون له نصيب في الربح الذي سنجنيه

من مشروعي هذا. دقوا النفير واقرعوا الطبول بشجاعة وفرح. ليحفظكم الله والقديسون. ارجو، يا ريتشموند، أن يكون النصر حليفك.

(يخرج الجميع).

(يعود الملك ريتشارد، يتبعه راتكليف وبعض الخدم والجنود).

الملك ريتشارد: ماذا قال نرتمبرلاند بشأن ريتشموند؟

راتكليف : انه لم يتدرب مطلقاً على القتال.

الملك ريتشارد: قال الحقيقة. وماذا أضاف سري؟

راتكليف : ابتسم وقال ان هذا سيكون لصالحنا.

الملك ريتشارد: لقد كان على حق، لأن ما قاله صحيح. (تدق الساعة) كم دقت الساعة الآن؟ اعطني رزنامة، من رأى الشمس اليوم؟

راتكليف : لم أبصرها يا مولاي.

الملك ريتشارد: هذا يعني، أنها تأنف من الشروق. اذ بحسب الرزنامة كان ينبغي أن تكون قد سطعت في المشرق منذ ساعة. سيكون هذا اليوم يوماً أسود بالنسبة الى البعض. يا راتكليف.

(يهطل المطر).

راتكليف : مولاي.

الملك ريتشارد: الشمس ترفض الظهور اليوم، والسماء تكفهر وتتلبد بالغيوم وتبكي على جيشنا. كنت أتمنى لو ان الدموع لم تكن سوى ندى يتناثر على الأرض. لا شمس اليوم. لكن، لماذا أهتم بهذا الأمر أكثر من ريتشموند، فالسماء التي تبدو لي حزينة تظهر له كذلك.

(يدخل نورفولك).

نورفولك : الى القتال، هبوا الى القتال. يا مولاي، العدو يتبختر في السهل.

الملك ريتشارد: هيا بنا نرسل الانذار. وليجلَّل فرسي. استدعوا لورد ستانلي، وقولوا له أن يحضر قواته. سأقود جنودي الى السهل وأنظم سير المعركة. ستنتشر مقدمة الجيش على خط واحد وستتألف من أعداد متساوية من الخيالة والجنود والمشاة. أما فصيلة النبّالة فتأخذ مكانها في الوسط. دوق نورفولك وكونت سري سيقودان المشاة وفصيلة النبّالة. وعندما يتوزعون على هذا الشكل، سنلحق بهم نحن مع معظم الجيش، يساندنا جناحاه المؤلفان من أفضل الخيالة. قبل كل هذه الترتيبات نطلب العون من الله. فما رأيك في الموضوع، يا نورفولك؟

نورفولك : هذه خطة محكمة. حقاً أنت ملك محارب. لقد وجدت هذه عند مدخل خيمتي هذا الصباح.

(يسلم ريتشارد رسالة).

الملك ريتشارد: « يا فارس نورفولك، لا تحزن اذا سمعت ان سيدك ريتشارد خان أعوانه ». هذا محض تلفيق يذيعه العدو. هيا بنا أيها السادة. ليتسلم كل رجل منكم مركزه. لا تقلقنّ أنفسنا بأحلام الليل. فالضمير ليس سوى كلمة يستعملها الضعفاء، وقد استُنبط للحفاظ على احترام الأقوياء. فلنجعل من سواعدنا القوية ضميراً ونفرّ ونكر في حومة القتال. هيا ننطلق، ان لم يكن الى السماء فالى الجحيم. ماذا أضيف الى ما قلته لكم؟ تذكروا من ستقاتلون : ستقاتلون جماعة من المتشردين المنبوذين الذين لفظتهم بلادهم وتركتهم اسرى مغامراتهم اليائسة وهلاكهم المحتم. كنتم تنامون مطمئنين، فعكروا عليكم سكينتكم. انتم تملكون اراضي

وسعادة عظيمة ونساء جميلات. بينما هم يريدون السيطرة على البعض والحاق العار والذل بالبعض الآخر. ثم من الذي يقودهم؟ شقي عاشق مزمن في بريطانيا على نفقة أمنا. فتى لم يشعر طوال حياته بالبرد. لنضرب هؤلاء اللصوص المتسولين الجائعين اليائسين من حياتهم، الوافدين الينا من وراء البحار، من فرنسا، وهم لو لم يقوموا بهذه الحملة المحمومة المجنونة لشنقوا أنفسهم تحت وطأة تعاستهم. اذا قدّر لنا أن ننهزم فليهزمنا رجال نبلاء، لا عصابة من أبناء الزنى الذين قاتلهم آباؤنا في عقر دارهم، وجعلوا منهم ورثة العار والهوان في مسيرة التاريخ. هل ندع هؤلاء الناس ينعمون بأرضنا، ويضاجعون نساءنا ويخطفون بناتنا؟ (تقرع الطبول) انصتوا، اسمعوا اصوات طبولهم. الى القتال يا نبلاء انكلترا. الى القتال أيها الجيش المقدم. اطلقوا أيها المشاة سهامكم باتجاه رؤوسهم. اهمزوا جيادكم الأصيلة، أيها الخيالة، وليبهر عيون السماء لمعان حرابكم.

(يدخل رسول).

ماذا يقول لورد ستانلي؟ هل سيحضر قواته؟

الرسول : يا مولاي، لقد رفض أن يأتي.

الملك ريتشارد: ليقطع اذاً رأس ولده جورج.

نورفولك : يا مولاي، اجتاز العدو المستنقع. لا تقتل جورج ستانلي الا بعد انتهاء المعركة.

الملك ريتشارد: ألف قلب وقلب يخفق في صدري. الى الأمام يا حمَلة الرايات. اهجموا على العدو. عونك اللهم. نحن بحاجة الى غضب التنانين التي تقذف النار من أفواهها. هيا هاجموا العدو بلا رحمة، فالنصر يرفرف بأجنحته فوق رؤوسنا.

(يخرج الجميع).

المشهد الرابع

في ساحة المعركة.

(تسمع أبواق الانذار. بعض فصائل الجيش تتقدم على المسرح وعلى رأسها نورفولك، وكاتسبي يسرع اليه).

كاتسبي : النجدة، يا مولاي نورفولك. النجدة، النجدة. لقد قام الملك بمعجزة فائقة. اذ وقّف وحده في وجه جميع المخاطر. قتل حصانه وظل يقاتل راجلاً، يبحث عن ريتشموند ليجهز عليه. النجدة، يا مولاي، وإلا خسرنا المعركة.

(يسمع صوت انذار).

(يدخل الملك ريتشارد).

الملك ريتشارد: اعطني حصاناً، اعطني حصاناً، ولو كان ثمنه مملكتي بأسرها.

كاتسبي : صبراً، يا مولاي. سأحضر لك الحصان.

الملك ريتشارد: أيها السارق. لقد جازفت بحياتي، وسأتحمل النتائج. أعتقد بأن هناك ستة رجال من أمثال ريتشموند في ساحة القتال. ولقد قتلت خمسة منهم هذا اليوم. اعطني حصاناً، اعطني حصاناً ولو كان ثمنه مملكتي.

(يخرج الجميع).

المشهد الخامس

في ذات المكان.

(يسمع انذار. يدخل الملك ريتشارد وريتشموند، يتقاتلان. يسقط الملك ريتشارد قتيلاً. انسحاب وموسيقى. بعد لحظات يخرج ريتشموند ثم يعود بصحبة ستانلي حاملاً تاج الملكة، يتبعه اللوردات والجنود).

ريتشموند : ليتمجد اسم الله، وليدم سلامكم أيها الأصدقاء المنتصرون. لقد كسبنا المعركة، ومات الكلب السفاك.

ستانلي : أيها الشجاع ريتشموند، قمت بواجبك على أكمل وجه. خذ هذا التاج الذي اغتصبه الخائن مدة طويلة. انتزعته عن جبين هذا الشقي المجرم لأزين به رأسك، فاحمله وافرح به وارفع شأنه.

ريتشموند : يا إله السماء، بارك كل هذا. لكن قل لي أولاً أما زال جورج ستانلي على قيد الحياة؟

ستانلي : أجل، يا مولاي. هو الآن في أمان في مدينة ليستر، حيث يمكننا أن نذهب اذا شئت.

ريتشموند : من هم الأشخاص البارزون الذين ماتوا من الطرفين؟

ستانلي : دوق نورفولك ولورد فيررز، سير روبرت براكنبري وسير وليم براندون.

ريتشموند : ليدفن جثمانهم كما يليق بأهلهم. وليعلن العفو الشامل عن جميع الجنود الغزاة الذين سيعودون الينا طائعين. سنفي بقسَمنا وسنجمع الوردة البيضاء والوردة الحمراء، وبتحالفهما ستبتهج السماء التي طالما حزنت بسبب عداوتهما. هل يوجد بيننا خائن يسمعني أقول آمين؟ لقد جنَّت انكلترا طويلاً ومزقت أحشاءها الكوارث. كان الأخ يهدر دم أخيه، والأب الطامع الغاضب يذبح ولده، والولد العقوق يطعن

أباه. لقد كانوا جميعاً منقسمين على ذواتهم نتيجة الخلافات الرهيبة التي كانت قائمة بين أسرتي يورك ولنكاستر. ليتحد الآن ريتشموند واليزابيت، الوريثان الحقيقيان لكلا الأسرتين الملكيتين، وليقترنا برضى الله، وليملأ خلفاؤهما في الأزمنة المقبلة، هذه البلاد سلاماً وازدهاراً. أيها الرب القدير ألجم سيوف الخونة الذين يريدون أن يجعلوا من هذه الأيام أيام شقاء ودموع ودماء تجري كالأنهار، لئلا تبكيها انكلترا المسكينة. ليمت ويحرم من ثمار هذه الأرض جميع الخونة الذين يودون أن يعكروا عليها سلامها. لقد التأمت جراحنا المدنية وخيّم السلام من جديد. جعل الله هذا السلام سلاماً حقيقياً دائماً.

(يخرج الجميع).

(تمت)

الملك جون

تعـريـب

أ . ر . مشـاطي

اشخاص المسرحية

الملك جون.

الأمير هنري : ابنه، وقد أصبح فيما بعد هنري الثالث.

أرثور : دوق بريطانيا، ابن جوفرْوَا آخر دوق بريطانيا، إبن شقيق الملك جون.

وليم مارشال : كونت بمْبروك.

جوفرْوَا فيتز بيتر : كونت إسّيكس، كبير قضاة انكلترا.

غليوم لونْكْ إيبي : كونت سالزبري.

روبرت بيكوت : كونت نورفولك.

هيوبرْتْ دي بورغ : مرافق الملك جون.

روبيرت فولْكنْبريدْج : ابن سرْ روبرت فولْكنْبريدْج.

فيليب فولْكنْبريدْج : شقيقه من أمه، لقبه اللقيط.

جيمس كورْني : خادم السيدة فولكنْبريدْج.

بيار دي بومْفرات : عرّاف.

فيليب : ملك فرنسا.

لويس : ولي عهده.

ارشيدوق النمسا.

الكردينال بنْدولْف : مندوب البابا.
ميلون : سيّد فرنسي.
شاتيّون : سفير فرنسا لدى الملك جون.
جلّادان.
ألْيونور : والدة الملك جون، ارملة هنري الثاني.
كونْستانْس : والدة ارثور.
بلانْش : ابنة ألْفونْس ملك اسبانيا، وابنة شقيق الملك جون.
السيدة فولكنبريدْج : والدة اللقيط وروبيرت فولكنْبريدْج.

لوردات وسيدات، ومواطنون من أنجيه، ورجل أمن، وقوّاسون وموظفون، وجنود، ورسل، ومستخدمون.

(تجري الأحداث تارةً في انكلترا وطوراً في فرنسا).

الفصل الأول

المشهد الأول

في قاعة العرش داخل قصر نورثمتن.

(يدخل الملك جون وامه الملكة ألْيونور، وبمبروك وإسّيكس وسالزبري وشخصيات أخرى، ثم شاتيّون).

الملك جون : ما وراءك من الأخبار، يا شاتيّون ؟ تكلّم ماذا تريد فرنسا ؟

شاتيون : بعد التحية والمجاملة، يتحدّث ملك فرنسا بواسطتي الى جلالتك المستعارة من انكلترا.

اليونور : مقدمة غريبة. أتقول جلالة مستعارة ؟

شاتيون : إن فيليب ملك فرنسا، حسب حقوقه وبإسم أرثور بلانتاجيني ابن المرحوم اخيك جوفروا، يطالب شرعياً بهذه الجزيرة وبكافة أراضيها وإيرلندا وبواتيه وانجو وتورين وماين. ويسألك ان تلقي السلاح الذي يحمي جميع هذه الممتلكات المغتصبة وان تعيدها الى سلطة الفتى أرثور ابن أخيك ومليكك المبجّل.

الملك جون : وما هي النتائج المترتّبة اذا لم أستجب طلبه ؟

شاتيون : إضطراره إلى شنّ حرب دموية شرسة كي يستردّ بالقوة حقوقه المغتصبة بالقوّة.

الملك جون : نحن هنا مستعدون لمجابهة العدوان بالعدوان، ومبادلة إراقة الدماء بإراقة الدماء أيضاً، ونقابل الكيل بالكيل. هكذا أكلّفك بالردّ على فرنسا.

شاتيون : تقبّل اذاً على لساني جواب التحدّي من قبل مليكي. هذا أقصى ما باستطاعتي أن أبلّغك اياه من مشيئة من أمثّله.

الملك جون : وانا أكلفك بأن تنقل قراري، واتمنى لك سلامة العودة. بيّن جوابي هذا الصريح للمسؤول في فرنسا، وإلّا اضطررت الى إسماعك رعود مدافعي قبل أن تصل انت وتبلّغه رسالتي. اذهب مسرعاً وكن بوق غضبي ونذير شؤم يتوقع خراب دياركم. دعوا سُلّة من الجند ترافقه لإكرام وفادته. عليك بالتنفيذ، يا بمبروك. الوداع يا شاتيون. (يخرج شاتيون وبمبروك).

اليونور : (للملك بصوت خافت) : ألم أقل لك، يا ولدي، ان فورة طموح كونستانس لن تهدأ حتى تشعل نار الحرب في فرنسا وسائر أقطار العالم لتأمين حقوق ولدها. ربما امكن تجنب شرّ هذه القضية بتدبير الامور عبر بعض الاحتجاجات وتدخّلات الاصدقاء عند توسيطهم كحكم للتسوية بين مملكتينا. ولكن سبق السيف العزل وبات المخرج الآن من هذا النفق الضيق مروّعاً ودموياً.

الملك جون : (للملكة بصوت خافت) : حق الملكية والقوة الضاربة الى جانبنا، وما علينا ان نخشى اي ضرر.

اليونور : (للملك بصوت خافت) : لا بل حق الملكية أرجح من القوة الضاربة. وإلّا ساءت العاقبة بالنسبة اليك واليّ ايضاً. ها هو ضميري يهمس في اذنك ما يجب ان لا يسمعه احد، ما عدا السماء وانا وانت.

(يدخل رجل أمن مقاطعة نورْثمْتُن ويقول بضع كلمات بصوت خافت لإسّيكي)

إسّيكس : يا مليكي الموقّر، تُرفع الآن إليك من إحدى المقاطعات، أغرب ما سمعت به من القضايا لتنظر وتبتّ فيها. فهل تريد أن أنادي أصحابها للمثول أمامك ؟

الملك جون : دعهم يدخلون. (يخرج رجل الأمن). ستدفع أديارنا ومصلّاتنا نفقات هذه الحملة.

(يعود رجل الامن وبصحبته روبرت فولكنبريدج واللقيط وفيليب شقيقه).

الملك جون : (للاخوين) : ما هي صفتكما ؟

اللقيط : انا خادمكم الأمين، وجيه مولود في مقاطعة نورْثمْتُن، وبِكْر روبرت فولكنبريدج، على ما أعلم، وجندي اصبحتُ فارساً في ساحة القتال على يد الملك قلب الأسد الذي منحني هذا الشرف.

الملك جون : (لروبرت) : وانت ما هي صفتك ؟

روبرت : ابن المذكور فولكنبريدج ووريثه.

الملك جون : (يشير الى اللقيط) : أهذا هو البِكْر، وأنت الوريث ؟ لكنك لست من أمه على ما أظن ؟

اللقيط : حتماً نحن من والدة واحدة، أيها الملك القدير، فهذا أمر معروف، وكذلك من أب واحد ايضاً على ما اعتقد. ولكي تكون على يقين من صحة هذه المسألة أحيلك الى شهادة السماء وايضاح والدتي. فأنا إن خامرني أيّ شك في هذه الحقيقة يكون حالي نظير سائر اولاد آدم.

اليونور : تبّا لك، ايها الابن العاق. أنك تلوّث سمعة أمك وتجرح شعورها وتلطّخ شرفها بهذا الشك الدنيء.

اللقيط : انا، يا سيدتي ؟ كلا، ليس لديّ أي داع، بل هذه هي حجة

اخي الذي لا اوافقه عليها. فإن أمكنه ان يثبت ادّعاءه، يحرمني من مورد يدرّ عليّ مبلغ خمسمئة ليرة استرلينية على الاقل. لذا أسأل السماء ان تصون كرامة أمّي وميراثي.

الملك جون : ها هوذا إنسان صريح، قل لي لماذا يطالب شقيقك الأصغر بما يعود اليك كإرث من أبيك ؟

اللقيط : لست أدري سبباً غير الاستيلاء على ما يؤول اليّ بالوراثة. فذات يوم اتهمني بأني ولد غير شرعي. إن انا تكوّنتُ بصورة شرعية ام لا، وإن جاء هو الى هذا العالم بطريقة تختلف عني، أني أترك لوالدتي ان تجيب على ذلك حسب مسؤوليتها. ولكي أوقن بأني خلقت مثله تماماً، أرجو، يا مولاي، أن يكون التراب خفيف الوطأة على عظام من زجّني في هذه الورطة المؤسفة. ارجوك ايضاً أن تقارن بين وجهينا، أيها الملك العادل، وتحكم بنفسك في هذه القضية الواضحة المعالم. إن كان المرحوم روبرت هو حقّاً والدنا نحن الاثنين وانبثقنا كلانا من صُلبه، فلا بدّ لنا من ان نشبهه كما هو الحال عادة بين الأب وأولاده. اني أشكر السماء، وأنا اجثو على ركبتيّ لكوني لا اشبهها من كل النواحي.

الملك جون : ما هذا التفكير الملتوي الذي ألمسه في أقوالك ؟

اليونور : محياه يشبه الملك قلب الأسد، وصوته يذكّرنا بنبرة صوته. أوَلَا تجد في ملامح ولدي ما اتّصف به هذا الرجل الفذّ.

الملك جون : عيني قد تفحّصت جيداً مظاهره التي تذكّرني بصورة ريتشرد قلب الأسد تماماً. (لروبرت فولكنبريدج) قل لي، يا مغفّل، لماذا تطالب بميراث اخيك ؟

اللقيط : لان ملامحه تشبه ملامح ابي، وبموجب هذا الشبه الطبيعي، يريد أن يستولي على جميع الأراضي التي تخصني وعلى حصّتي السنوية التي تبلغ خمسمئة ليرة استرلينية من مجموع الواردات، ويحرمني من حقي الشرعي.

روبرت : ايها الملك الكريم، عندما كان ابي على قيد الحياة استثمره اخوك كثيراً.

اللقيط : لكن هذا لا يمنحك حق الاستيلاء على ما يعود اليّ من الأراضي، رغم تداولك والعاهل في أمور كانت تهمّه آنذاك. فاغتنم الملك فرصة هذا الغياب ومكث بقرب أبي طوال تلك الفترة. أمّا كيف تسنى له ذلك، فأنا أخجل من كشف وسيلته. لكن الحقيقة يجب أن تُعلَن. كانت مساحات شاسعة من البحار والشواطئ تفصل بين أبي وأمي. وقد سمعته يوماً يقول هو ذاته لوالدي عندما حبلت أمّي بهذا الرجل الصلب الماثل أمامك وأقسم قبل وفاته ان هذاالمخلوق ليس ابنه، لأنه رأى النور قبل اربعة عشر شهراً من الوقت المناسب. وبناءً على ذلك، أرجوك، أيها الملك المنصف، أن تردّ لي كل ما يعود اليّ بالوراثة حسب مشيئة والدي.

الملك جون : يا مغفّل، اخوك ابن شرعي، وقد ولدته أمك بعد زواجها، فإن كانت قد خدعت اباك فالذنب ذنبها وحدها. وهذا أحد الأخطاء التي يتعرّض لها معظم الرجال يوم يبادرون الى الاقتران بامرأة. لنفترض ان شقيقي المتوفّي بعد ان انجب هذا الابن، كما تقول، طلب من ابيك بصفة كونه ابيه أن يؤكد الأمر، ألا تعتقد، يا صديقي، بأن والدك كان رغم كل العقبات اعترف بهذه الحقيقة ؟ اجل، طبعاً كان في وسعه ان يفعل ذلك. واذا وافقنا على كونه ابن اخي، لم يكن هذا الأخير يستطيع ان يطالب به حتى لو لم يكن الولد من صلب أبيك إذْ لم يكن بإمكان هذا الأخير أن ينكره. هذا لعمري برهان قاطع على ان ابن أمّك قد أصبح وارث ابيك. ووارث والدك يحق له ان يمتلك ارزاق أبيك بعد وفاته.

روبرت : اظن أن ارادة أبي ليس لها أي مفعول لحرماني، كما ان مشيئته لم يكن لها أي تأثير على إنجابي.

اليونور : (للقيط) : هل تفضّل ان تنتسب الى اسرة فولكنبريدج، وأن تشبه اباك، او أن تكون ابن قلب الاسد المولى العالي الجبين الذي لا يملك أية أرض ؟

اللقيط : يا سيدتي، لو شاءت الأقدار أن يكون اخي مثلي وأنا مثل شقيقي، ونشبه كلانا سرْ روبرت، لكان لي فخذان مقوّسان وذراعان مفتولان مكسوّان بجلد كثوب الحيات ووجه نحيل جداً الى حدّ يجعلني لا أجسر على تعليق وردة وراء أذني خشية ان يقال عني اني لا اساوي اكثر من ثلاثة فلوس. ولو كنت فضلاً عن كل هذه الغرائب، ورثت كافة أرجاء مملكته، لما كنت ابتعدت شبراً واحداً عن هذا المكان، وإن كنت لا أحيد قيد أنمل عن رغبتي في الاحتفاظ بالوجه الذي أنعَمُ به، ولما كنت رضيت بأي ثمن أن أصبح نظير سيّدي العزيز روبرت.

اليونور : انت تعجبني، أيها الشاب النبيه. فهل تريد أن تتنازل عن ثروتك، وأن تمنحه أرضك وتتبعني ؟ فأنا كالجندي مقرّي الحالي في فرنسا.

اللقيط : (لروبرت) : خذ املاكي، يا اخي. وانا اكتفي بما كتبه لي حظي من نصيب. ان ملامحك تؤمن لك خمسمئة ليرة استرلينية سنوياً. مع ذلك يمكنك ان تبيعها بمبلغ خمسة فلوس، ويكون هذا السعر غالياً (لإليونور) ساتبعك حتى الموت يا سيدتي.

اليونور : لا، انا افضّل ان تسير امامي في عكس الإتجاه نحو مراتع الحياة.

اللقيط : نحن في بلادنا اعتدنا أن نسير خلف رؤسائنا.

الملك جون : ما اسمك ؟

اللقيط : فيليب، يا صاحب الجلالة، فيليب الابن البِكْر الذي انجبته زوجة الكبير بالسنّ والصالح سرْ روبرت.

الملك جون : من الآن وصاعداً، ستحمل اسم من يشبه وجهك محياه. إركع، يا فيليب، ثم انهض وانت أرفع قدراً مما كنت عليه. انهض، يا سرْ رتشرد بلانتاجيني. (يركع اللقيط ويمنحه الملك جون رتبة فارس).

اللقيط : (ينهض ويوجه كلامه الى روبرت) : يا اخي... من جهة والدتي، هات يدك. فأبي مَنحني الشرف، ووالدك وهبك المال. والآن، تباركت ساعة الليل او النهار التي حبلت فيها بي امي اثناء غياب سرْ روبرت والدي.

اليونور : هكذا يفكّر كل واحد من اسرة بلانتاجيني. انا جدّتك يا ريتشرد، فلا تبخل عليّ بهذا الاسم.

اللقيط : انت جدّتي، بالصدفة، يا سيدتي، وليس بالحقّ. لكن هذا لا يهمّ. لأن الامرَ واحد في كلا الحالين، وإن كان ذلك من باب المجاملة. اذ سيّان عندي إن دخل الانسان من الباب أو من النافذة. فمن لا يجسر على التحرّك في وضح النهار لا بد له من ان يتسلّل تحت جنح الليل. عليك ان تسلك الطريق الذي يعجبك، والمهم ان تثبّت أقدامك. فمن قريب أو من بعيد، لكي تصيب الهدف، عليك ان تسدّد سلاحك اليه. واذا تصرّفت كيفما تسنى لك، أظل أنا كما كنت.

الملك جون (لروبرت) : هيا يا فولكنبريدج، فقد حصلت على ما تتوق إليه، وأصبحت فارساً بلا مال، أي سيّداً تابعاً لا متبوعاً. (لوالدة الملك) تعالي، يا سيدتي، لنمضي بسرعة. هيا إلى فرنسا، إلى فرنسا. الأمر يستوجب العجلة.

اللقيط (لروبرت) : وداعاً، يا اخي. اتمنى لك حظًّا سعيداً. لانك اتيت الى هذا العالم عن طريق المروءة والشهامة. (يخرج الجميع ما عدا اللقيط الذي يواصل كلامه وحيداً) لقاء الخطوة الشريفة التي قمت بها خسرت مواطئ أقدام كثيرة. لذلك أصبحت الآن قادراً على جعل جينون سيدة جليلة. مساءً سعيداً،

يا سرْ ريتشرد، حفظك الله، يا صديقي. وإذا كان مَن يكلمني اسمه جورج سأناديه بطرس. لان الارتقاء الحديث العهد ينسيك اسماء الناس. وانت بحاجة الى كثير من الانتباه واللياقة لأذكّرك بها في وضعك الجديد. ها قد حضر احد المسافرين. سأدعوه الى تناول الطعام بصحبتي. وعندما أملأ بطني امتصّ اسناني وأوجّه حديثي الى شخص انيق من تلك البلاد البعيدة، وأقول له، وانا استند الى كوعي : سيدي العزيز، هذا هو السؤال المطلوب ان تردّ عليه، كما ورد في كتاب التعليم الديني. يا سيدي، كلنا، بأمرك وبتصرفك، مستعدّون لإداء كل خدمة. لكن الجواب جاء : كلّا يا سيدي الكريم، انا في خدمتك. وقبل ان تعرف الجواب وما يقتضيه من ردّ، تختصر تبادل المجاملة، ثم يدور حديثك على جبال الألب وجبال أبينّان والبيريني والبو. وعندما تنتهي من هذه المهمة، يكون وقت تناول العشاء قد حان. هذا هو المجتمع الصالح الذي يناسب ما ارجوه من الأماني الطيّبة. اما اللقيط الحقيقي في ايامنا الحاضرة وأنا مثله مهما فعلت، فهو الشخص الذي يصدر عنه موقف غير مأنوس، ويكون مميّزاً لا في تصرّفه ونفوذه وسحنته ومظهره الخارجي، بل بحركاته الحميمة، وهو الذي يألف دسّ هذا السمّ اللطيف الشهي الطعم في عرف أهل العصر، ألا وهو الكذب. لا بدّ من إجراء دراسات على هذا السمّ لا لإتقان طريقة استعماله بل لاتّقاء اذاه لأنه سيعمّ ويحتلّ كل درجات الإرتقاء. ولكن من هو الآتي بمثل هذه السرعة ممتطياً متن حصان ؟ أو بالأحرى من هي هذه الزائرة ؟ اليس لها من زوج يريد أن يتحمّل عناء وضع سياج حولها ؟ يا الهي، هذه هي والدتي.

(تدخل السيدة فولكنبريدج وجميس وكورني)

اللقيط : يا سيدتي، ماذا أتى بك الى البلاط بمثل هذه العجلة ؟

السيدة فولكنبريدج : أين أخوك ؟ أين هو هذا المغفّل الذي يلوّث هكذا شرفي ؟

اللقيط : أخي روبرت، هو إبن سرْ روبرت العجوز، هذا الجبار القوي المدهش. هل تبحثين هكذا عن ابن سرْ روبرت ؟

السيدة فولكنبريدج : ابن سرْ روبرت، اجل، هذا الصبي الوقح، هو سرّ أبيه. لماذا تهزأ بسرْ روبرت ؟ وهو ابن الرجل المذكور، مثلك أنت أيضاً ؟

اللقيط : أتريد أن تتركنا وحدنا، يا جيمس كورْني ؟

كورْني : بكل طيبة خاطر، يا فيليب.

اللقيط : لماذا هذا الصراخ الحادّ، يا فيليب ؟ هل علمت، يا جيمس، بما يسري الآن من شائعات مزعجة ؟ سأزوّدك بعد لحظة بكافة تفاصيلها. (يخرج كورني) يا سيدتي، انا لست ابن سرْ روبرت العجوز. فهذا الرجل كان باستطاعته ان يأكل حصتي برمّتها يوم الجمعة العظيمة بدون أن يَنقُضَ صيامه. وكان بإمكانه أن يتصرّف بصورة مقبولة. لكن، لنتكلّم بصراحة، هل كان قادراً على انجابي ؟ كلّا، ان سرْ روبرت لم يكن قادراً. لأننا كلّنا نعرف تمام المعرفة إمكانيّاته المحدودة. فإذاً، يا والدتي، لمن أنا مدين بجسمي هذا ؟ حتماً لم يكن سرْ روبرت يقوى على تكوين ساق كهذه.

السيدة فولكنبريدج : هل أصبحت تتحدّث نظير اخيك، انت المفروض أن تدافع عن شرفي ؟ فما معنى هذه الوقاحة والحقارة ؟ ايها الولد العاق ؟

اللقيط : بل قولي : يا فارس. فقد اصبحت الآن فارساً، يا امي المحترمة، كما هو حال سيادة باسيلسْكو. نعم، نعم، لقد منحت رتبة فارس. وانا لا ازال اشعر حتى الساعة بالسيف الذي لامس كتفي اثناء الاحتفال بهذا الترفيع. لكني لست ابن

سرّ روبرت، يا والدتي. لقد تنصّلتُ منه وتنازلت عن ميراثي. وهكذا تخلّيْت عن شرعيتي وعن اسمي. ولذا ارجوك، يا أمي، ان تعدّدي لي صفات أبي، آملاً ان يكون رجلاً يناسبني.

السيدة فولكنبريدج : هل تنصّلت من أسرة فولكنبريدج ؟

اللقيط : تماماً كما أتنصّل من الشيطان الرجيم.

السيدة فولكنبريدج : الملك رتشرد قلب الاسد هو والدك. وعندما لاحقني طويلاً بإلحاح واستمرار، توصّل الى إغوائي، فأفردت له مكاناً في سرير زوجي. وأنا الآن ألتمس من السماء ان لا تحاسبني على هذه الهفوة. وكنت أنت ثمرة هذه الغلطة العزيزة التي طغت على ارادتي.

اللقيط : على هذا الضوء، يا سيدتي الوالدة، إن كان مجيئي الى هذه الدنيا محتّماً، انا لا أتمنى أن يكون لي أب أفضل منه. ان لبعض الذنوب امتيازات على هذه الارض، وخطيئتك هي من هذا النوع. أؤكد لك ان زلّتك لا تمتّ الى الهوس بأية صلة. وهل كان باستطاعتك ان لا تسلّمي قلبك كعربون خضوع لحب ملكي، لريتشرد هذا الذي لم يجرؤ الأسد الجسور على مواجهة غضبه وقوّته التي لا تضاهى والتي لم يتسنَّ لها ان تنجّي فؤاده الملكي من سحر عينيك. أجل، يا أماه، أنا أشكرك بكل جوارحي على مسايرتك عواطف والدي. اذ ليس بين الأحياء من يستطيع ان يصرّح بأنك أسأت التصرّف في انجابي، وإلا ألقيتُ بروحه الى أعماق الجحيم. تعالي، يا سيدتي. أودّ أن أقدّمك الى اسرتي، فيهتف كل الناس : لو كنتِ رفضتِ حب ريتشرد يوم اصبح أبي، لارتكبتِ افدح الأخطاء. وكل من يدّعي ان مطاوعتك كانت غلطة يكون متحاملاً كاذباً، واصرخ في وجهه : إن قوله هذا غير صحيح.

(يخرجان).

الفصل الثاني

المشهد الأول

أمام سور انجيه في فرنسا.

(يدخل من جهة على رأس الجنود أرشيدوق النمسا مرتدياً جلد اسد، ومن جهة أخرى فيليب ملك فرنسا وجنوده، ثم لوِيس وكونستانس وأرثور ورجال الحاشية)

لويس : (للارشيدوق) : أنا سعيد بمقابلتك امام اسوار انجيه، ايها النمساوي الشجاع. وأنت، يا ارثور، يا من انتزع ريتشرد سلفك الكبير قلب الاسد، وخاض غمار الحروب المقدسة في الشرق، قد اضجعت هذا الدوق في مثواه الاخير قبل الاوان، حين شاء ان يؤمن حقوق خلفائه. فجاء الى هنا بناءً على إلحاحنا كي ينشر أعلامه لصالحك، يا ولدي، ويعاقب عمك الانكليزي المغتصب ويردّ لك ما سلبك اياه أقرب أقربائك. تعال عانقه وتودّد اليه واحتفِ بشخصه الكريم.

ارثور : (للأرشيدوق) : أبقاك الله بعد موت قلب الأسد. بما أنك مدين لأبنائه وانت ترعى حقوقهم بأمانة اثناء الحرب، فأنا ارحّب بك وأصافحك بيد صديقة وبقلب حافل بالحب الصافي.

فأهلاً بك، أيها الدوق امام أبواب أنجيه.

لويس : (لارثور) : ايها الولد النبيل، من لا يريد ان يساند حقوقك ؟

الارشيدوق : (يعانق ارثور) : بهذه القبلة الحارة التي أطبعها على وجنتيك، أؤكد لك عهد المودّة الذي قطعته على نفسي بأن لا أعود الى بلادي قبل ان تعلن لك الولاء مدينة انجيه وسائر ما يعود اليك من مقاطعات فرنسا، وهذا الساحل الابيض الساحر اللون الذي يدْحَر مدّ المحيط المزمجر ويجعل سكان هؤلاء الجزر يبتعدون عن كافة البلاد ولا سيما انكلترا التي يحميها البحر كسياج منيع، هو ساحل طويل يقوم كجدار عند الشواطئ ويصونها من مثل هذه المحاولة الأجنبية إلى الأبد. إن هذه البقعة تحيّيك من أقصى الغرب كمليكها المبجّل. وأنا، حتى الآن، أيها الولد الوسيم، لم افكّر في الرجوع الى بيتي، ولم أُلقِ سلاحي.

كونستانس : (للأرشيدوق) : إقبل شكري أنا أمّه الأرملة بانتظار يوم تتوصّل فيه يده المستقوية الى منحه الصلابة اللازمة كي يفيك ما يتوجّب عليّ لقاء اخلاصك الذي تبديه نحوي.

الارشيدوق : السماء من نصيب الذين يشهرون سيوفهم في حرب عادلة منصفة كهذه.

الملك فيليب : هيا اذاً الى القتال. سنوجّه مدافعنا الى جبهة هذه المدينة المقاومة. ألا استدعوا أمهر مهندسينا لاختيار انسب المواقع لهجومنا. حتى إن اضطررنا الى ترك عظامنا الملكية هنا أثناء شق طريقنا بسفك دمائنا الفرنسية في الساحات الرئيسية سنخضعها الى مشيئة هذا الولد.

كونستانس : انتظروا الجواب الموجّه الى سفارتكم، اذا لم تريدوا أن تلوثوا شهامتكم بالهمجية. فان السيد شاتيون يستطيع ان يحصل بالطرق السلميّة على ما تطالب به انكلترا من حقوق.

حينئذٍ لن نندم ولن نريق نقطة دم هدراً كمساهمة شرسة ظالمة.

(يدخل شاتيون)

الملك فيليب : هذا امر عجيب، يا سيدتي... انظري ها هو الرسول شاتيون قد وصل حسب رغبتك. وما ترمي اليه انكلترا، ها هي تعلنه بإيجاز. ايها المولى النبيل، كما ننتظرك مترقّبين، فتكلّم، يا شاتيون.

شاتيون : هيا، فكّوا حصاركم عن هذا الموقع غير الحصين، ولتتولَّ قوّاتكم مهمةً أجدى. فالانكليز وقد أثارت طلباتكم المجحفة قلّة صبرهم، سرعان ما لجأوا الى السلاح. والرياح المعاكسة التي أحسّوا بها امّنت لهم فرصة انزال فرقهم الى هذه البقعة حين وصولي اليكم. وهم يستعجلون في زحفهم على المدينة باعدادهم الوافرة وجنودهم الواثقين من تفوقهم وتغلّبهم. ومعهم الملكة الام يحدوها حب الانتقام الذي جعل الدم يغلي في عروق رجالها، وبصحبتها ابنة اخيها السيدة بلانش الاسبانية، وكذلك لقيط من صلب الملك الراحل. وهكذا ترى جميع مغامري المنطقة متحمّسين باعتداد وبسالة قتالية نادرة، وقد تركوا راحتهم وهدوءهم في ديارهم وحملوا اطماعهم وشدة بأسهم وجاؤوا الى هنا يطلبون الفوز المجيد الذي يطمحون اليه فضلاً عمّا يدفعهم من شجاعة النخبة التي تحوم في سماء الإندفاع الديني. (تقرع الطبول). ها هي طبولهم تدعم شرحي حول موضوع تأهبهم القائم على قدم وساق بدافع القتال والظفر. لذا احرّضكم على التأهب لمواجهتهم كالابطال.

الملك فيليب : كم هي حملتهم العسكرية هذه غير متوقعة.

الارشيدوق : وبمقدار ما هي غير منتظرة، علينا أن نضاعف همّتنا وقدرتنا

على الزود عن انفسنا. لان الفرصة تزيد فعالية الشجاعة والإقدام. فأهلاً بهم وسهلاً نحن على أتم الاستعداد لمجابهتهم.

(يدخل الملك جون والملكة الام اليونور وبلانش واللقيط وبمبروك وعدد من الجنود.)

الملك جون : نتمنى السلام لفرنسا، اذا كانت فرنسا السلام تدعنا نحصل على حقوقنا الشرعية في الارث. وإلّا، لا بد لها من ان تستنزف دماءها حتى يبلغ صراخها عنان السماء، بينما نحن مظهر الغضب الإلهي نلومها هي المزدرية الوقحة التي ترفض ما نعرضه عليها من سلام.

الملك فيليب : ونحن ايضاً نتمنى السلام من جهتنا لإنكلترا، اذا رجع محاربوها من فرنسا الى انكلترا ليعيشوا هناك بوئام. نحن نحب الانكليز، وفي سبيل سلام انكلترا نكدّ هنا ونتعب تحت وقر الدروع التي تحمي صدورنا من ضربات العدى. هذه المهمة التي تقع على كاهلنا يجب أن تكون شغلك الشاغل. لكنك بعيد جداً عن ان تحب بريطانيا التي انقلبت على مليكها الشرعي الحديث السنّ. وقد قوّضتَ تسلسل وراثة عرشه وانت الآن تسيطر على سلطته الفتية وتغتصب حقه بالتاج. (يشير الى ارثور) هل تتذكّر محيّا اخيك جوفروَا ؟ ان هاتين العينين وهذه الجبهة تطابق تماماً عينيك وجبهتك. ففي قسمات وجهك تتجلّى العظمة التي ماتت في ملامح جوفروا، ويد الزمان تضفي على هذا الانجاز عظمة لا تضاهى. فعندما ابصر جوفروا النور كان هذا شقيقك البكر ثم تلاه ابنه في الوجود. وكانت انكلترا من حق جوفروا، وحق هذا هو من حقوق ارثور طبعاً بنعمة الله. فكيف تسنّى لك ان تصبح انت ملكاً ؟ عندما لا يزال الدم ينبض في

عروق صاحب الحق، والحياة تملأ جوارحه، لمن يعود التاج الذي تطمع أنت به ؟

الملك جون : ممّن استمدّت فرنسا هذه السلطة العليا التي تتذرع بها لتطالبني بالاجابة على أسئلتك ؟

الملك فيليب : مِنَ الديّان العادل الذي يملي على الاذهان سلطته القادرة، ومن الفكر السديد الذي ينظر في قضايا المعاصي والذلّات والتطاول على القانون. فهذا الديان اقامني حارساً على مصالح هذا الولد، وبموجب حقوقه انا اتهمك بالعدوان، وبعونه تعالى أتذرّع لأنزل بك اقصى العقوبات.

الملك جون : تبّاً لك من ظالم مستبدّ، تريد ان تغتصب هذه السلطة.

الملك فيليب : اسمح لي... انا الذي أضع كل مغتصب عند حدّه.

اليونور : (للملك فيليب) : اتعتبر فرنسا مغتصبة ؟

كونستانس : (للملك فيليب) : دعني اردّ على هذا السؤال. (للملكة الام) : ابنك هو المغتصب.

اليونور : اغربي عن وجهي، أيتها الوقحة. انت تريدين ان يكون لقيطك هو الملك لكي يتسنى لك، على ما أرى، أن تكوني ملكة وتسيطري على الجميع.

كونستانس : سريري كان دوماً طاهراً وأميناً لإبنك، كما كان سريرك بالنسبة الى زوجك. وهناك شبه كبير بين ملامح هذا الولد وأبيه جوفروا، نظير التقارب الموجود بينك وبين جون الذي يشبهك كما تشبه قطرة المطر مجموع المياه التي خرجت منها، وكما يشبه إبليس والدته. تقولين ان ابني لقيط. أقسم لك بروحي، ان والده لم يأتِ الى هذه الدنيا بطريقة أشرف واسمى منه. ولَمّا كان أبصر النور لو لم تكوني والدته.

اليونور : (لأرثور) : هذه أم مشبوهة، ايها الولد، تلوّث سمعة أبيك.

كونستانس : وهذه جدّة لئيمة، أيها الحفيد، تريد ان تلطّخ سمعتك.

الارشيدوق : إهدأوا، يا جماعة.

اللقيط : (يشير الى الارشيدوق) : أصغوا الى ما يعلنه المنادي.

الارشيدوق : (للقيط) : من أين أتيت، أيها الشيطان ؟

اللقيط : من الجحيم الذي ستهرول اليه، يا سيدي. ولو أمسك بك إبليس على انفراد لسلخ جلدك عن لحمك وسحق عظامك. (يشير الى جلد اسد يرتديه الارشيدوق تحت درعه) انت الثعلب الذي تروي القصة حكايته وهو غير قادر إلّا على لمس الاسد الميت من ذنبه. سأخضّب بالدم جلدك ان أمسكت بك. وأنا مستعد لأن أهشّم رأسك، يا صاح، فكن على حذر.

بلانش : فعلاً، يليق جلد الاسد بمن اختلسه منه ليتباهى به.

اللقيط : حقاً، هذا الجلد يليق به نظير نعل ألسيد الكبير حين لبسه حافر الحمار. لكني سألقي بهذا الثقل عن كتفك، يا حماري، أو أضيف اليه حملاً آخر يقصم ظهرك.

الارشيدوق : من الذي سيقصم ظهري ويصمّ أذنيّ بمثل هذه الضجة الصاخبة ؟ أيها الملك فيليب، عليك أن تقرّر ما يجب ان نفعله.

الملك فيليب : أيتها النساء، ويا أيها المجانين، كفّوا الآن عن حديثكم. أيها الملك جون، هذا هو برنامج عملنا : بإسم ارثور اطالبك بتسليمنا انكلترا وايرلندا وانجو وتورين وماين. فهل تريد ان تتنازل لنا عنها وتلقي السلاح ؟

الملك جون : لن أفعل ذلك، وأنا على قيد الحياة. اني أتحدّاك ، يا فرنسا، وأنذرك انت أيضاً، يا ارثور بريطانيا. ليضع كل منكما نفسه بتصرفي، فتنالا من يدي اضعاف ما قد تنتزعه مني يد فرنسا الجبانة. استسلم ايها الولد.

اليونور : تعالَ الى جدتك، يا حفيدي العزيز.

كونستانس : اجل، ليذهب هذا الصبي الى جدته ويسلمها مملكته، لتعطيه خوخةً وكرزة وتينة. وما أكرمها من جدة سخيّة.

اليونور : (لكونستانس، بينما هو يبكي) : كفاكِ كلاماً، يا أمّاه. كما

أتمنى أن أتمدّد في قبري لأني لا استحق اثارة كل هذه المشاكل حول شخصي.

اليونور : لقد اخجلته تصرفات امه المنحطّة، وا ولداه، حتى سالت دموعه على وجنتيه.

كونستانس : (للملكة الام) : إن كان هذا صحيحاً أو لا، فذلك على كل حال عار عليك. ان ما يؤلمه هو المذّلة التي جرّتها عليه جدّته لا امّه. وما تزرفه عيناه من الدمع تجعل السماء ترثي لحاله وتعتبره نوعاً من التعويض عليه. أجل، سينصفه مَن في العلاء إذْ يقتص منكم عمّا سببتموه له من المآسي.

اليونور : يا لك من مجرمة تغتابين الارض والسماء معاً.

كونستانس : أنت تشتمين السماء والأرض، فلا تتهميني بما لست مسؤولة عنه. أنتِ وعزيزك جون قد اغتصبتما الأملاك والتاج والحقوق التي تعود إلى هذا الغلام المظلوم. هو ابن ولدك البكر، ولم يحلّ به كل هذا الشقاء إلا على يدك. وذنوبك قد ارتدّ صداها على هذا الولد المسكين. فاقتصّت شريعة السماء منه لأنه يشكّل الجيل الثاني الذي خرج من احشائك المدنّسة.

الملك جون : كفى ثرثرة، ايتها المرأة المهووسة.

كونستانس : هذه كلمتي الأخيرة في هذا الموضوع. (للملكة الام) لم يصبه فقط رذاذ معصيتك بل جعل الله شخصك وخطيئتك مجلبة عار وقصاص لابنائك واحفادك الذين لحق بهم عقابك. ولولاك لما حلّ بهم أي اذى. فجريرتك سبّبت اذلالك واذلاله في آن واحد. وهي المدية المسلّطة على رأسه. فكل قصاصك اضحى من نصيب هذا الولد المسيكن، بينما أنت المسؤولة والوحيدة عن ذنوبك. ولا يستحق القصاص احد سواكِ.

اليونور : ايتها اللائمة المتسرعة، ألَا تدرين اني قادرة على كتابة وصية خاصة تحرم ابنك من جميع ألقابه ؟

كونستانس : من يشكّ بذلك من قبَلكِ ؟ أنت لا تتردّدين في كتابة وصية مزوّرة تعبّر عن مشيئة امرأة منحطة مستهترة وجدّة مستبدة جائرة.

الملك فيليب : اسكتي، يا سيدتي، وكفّي عن تطاولك والزمي الاعتدال. فانا لا أريد أن أشجّع في حضوري مثل هذه المهاترات المهينة. دعوا ألحان الموسيقى ترافق حتى الاسوار رجال انجيه الشجعان الذين يأتون الى هنا، ليُعلنوا أي فريق يقبلون، وأي طرف يؤيّدون، ارثور أم جون ؟ (ينفخ البوق ويظهر مواطنون من انجيه عند الاسوار).

مواطن : مَن الذي يستدعينا الى هذه الأسوار ؟

الملك فيليب : فرنسا تودّ ان تطّلع على رأيكم بخصوص انكلترا.

الملك جون : بل بالعكس، هي انكلترا بإسمها الشخصي، تطلب ذلك. فيا رجال انجيه، يا رعاياي المحبوبين...

الملك فيليب : يا رجال انجيه رعايا ارثور المعزّزين، استدعتكم ابواقنا لنتبادل الآراء سلمياً...

الملك جون : وذلك طبعاً لصالحكم. فاعرفوا اذاً أوّلاً ان أعلام فرنسا المرفوعة امام انظاركم وتجاه مدينتكم لم تحضر إلا للإضرار بكم. وهذه المدافع المحشوّة حقداً ونقمةً قد نُصبت حولكم، وهي على اتمّ الاستعداد لتقذف جدران منازلكم بالنار والدمار. وجميع التأهّبات الفرنسية قائمة لضرب حصار هدّام حول اسوار مدينتكم ولاقتحام بيوتكم المحصّنة، ولولا مساهمتنا الفعّالة لكانت الحجارة الصامدة التي تحيط بكم كالحزام انهارت فوق رؤوسكم بفعل ارتجاجات مدفعيتهم التي كانت احدثت ثغرة كبيرة تمكّنهم من هدر دمكم وسلب راحتكم وامانكم. لكنّني بصفتي مليككم الشرعي

جئت مع رجالي لإحباط مساعيهم امام ابوابكم، ولإنقاذ مدينتكم من الذل والخراب الذي يهدد كيانكم. لكن بفضلنا ها هم الفرنسيون، والدهشة مرتسمة على وجوههم، يفاوضوننا الآن بدلاً من ان يرموكم بقنابلهم ويهدموا اسواركم وينشروا الفوضى والهلع في دياركم، بل يوجّهون اليكم حلو كلامهم يغلّفه الغمام الابيض الذي يحجب عنكم غلطتهم المميتة. فنرجوكم ان تمنحوهم ايها المواطنون، ما يستحقّونه من ثقتكم الغالية ودعونا نحن ندخل. فان ملككم وقوّاته المنهوكة من جراء السير الطويل، يلتمس منكم ملجأً داخل اسوار مدينتكم.

الملك فيليب : (يمسك بيد ارثور) : بعد أن أتكلم، تجيبنا نحن الاثنين. انظروا، ان من تمسك به يدي اليمنى في ظل أقدس الوعود، هو الشاب بلانتاجيني بكر شقيق هذا الرجل الذي يودّ أن يملك عليه وعلى جميع اراضيه. ولأجل السيادة المنتهكة امام مدينتكم، جئنا نطأ هذه السهول بأقدام متثاقلة، ونحن لسنا اعداءكم ما دامت غيرتنا المنصفة التي تشمل هذا الولد المظلوم تحرّضنا على نجدتكم بروح العطف والإنسانية. فالمطلوب منكم ان تقرّروا مناصرة من يستوجب حقكم ان تساندوه اعني به هذا الأمير الصغير. عندئذ تنطلق اسلحتنا الشبيهة بدبّ كان مكموم الشدق، لتمزق اعداءكم، فيبلغ دويّ مدافعنا عنان السماء. ثم بعد تأمين الهدوء ننسحب برفق وبدون ان تفلّ سيوفنا أية آفة ويصيب خوذنا اي شرخ. سنعود الى بلادنا بعد حقن الدماء التي أتينا لإراقتها في سبيل صيانة مدينتكم موطّدين استتباب الأمن حفاظاً على اولادكم ونسائكم. لكنكم اذا رفضتم عرضنا بإمتهان، فإن اسوارنا العالية تضمن حياة من نرسلهم الى الحرب وتصون ايضاً كيان جميع الانكليز اللاجئين الى فيء مقرّاتهم الأمينة.

تكلموا اذاً. هل نأمل بأن نكون سادة مدينتكم التي جئنا نطالب بها لصون كرامتكم ومصلحتكم ؟ ام يتحتم علينا ان نُفلت غضبنا من عقاله ونخوض في الدماء على ارض تصبح من ممتلكاتنا.

المواطن : سأختصر الردّ : نحن رعايا ملك انكلترا، وفي سبيله وللمحافظة على حقوقه تتشبّث بدخول هذه المدينة.

الملك جون : اذاً قرّرتم مناصرة الملك دعوني أدخل.

المواطن : لا نستطيع تلبية طلبك. ولا يسعنا ان نعلن ولاءنا إلّا للذي يتمكن من إثبات حقوقه الملكية. وحتى ذلك الحين، سنظل محصّنين خلف ابوابنا واسوارنا في وجه العالم كله.

الملك جون : ألا يُثبت تاج انكلترا على رأسي مَلَكيّتي انا ؟ واذا كان هذا لا يكفي سأجلب لكم ثلاثين الف شاهد شجاع من الانكليز الاقحاح.

اللقيط : (على حدة) : أيّ من اللقطاء وسواهم.

الملك جون : انا على اتمّ الاهبة لتثبيت لقبي ببذل حياتي وحياة رجالي.

الملك فيليب : الديك كل هؤلاء البواسل الكرماء الأصل ؟ وهل أنت واثق من ولائهم لك ؟

اللقيط : (على حدة) : لا بدّ من ان يكون بينهم بعض اللقطاء.

الملك فيليب : اجل، وهم هنا لتكذيبه.

المواطن : الى ان تقرروا مَن هو صاحب اللقب الاصيل الذي يستحق الفوز، نحن نصرّ بإسم الأصلح على أن نحجب عن كليهما هذا اللقب الذي يتنازعان عليه.

الملك جون : اذاً، فليغفر الله ذنوب كل من ينتقل، عند تساقط ندى الصباح، الى مقره الابدي في السماء، اذا رفض الخضوع لملك بلادنا الرهيب.

الملك فيليب : آمين ثم آمين. هي امتطوا صهوة جيادكم، ايها الفرسان، وجهزوا اسلحتكم.

اللقيط : ايها الفارس القديس جاورجيوس، انت الذي صرعت التنّين، ومنذ ذلك الحين ربضتَ على ظهره عند باب السماء مضيفتي، علّمنا كيف نسدّد ضرباتنا بإحكام. (للارشيدوق) يا صاح، لو مكثت أنا في عرينك بصحبة لبوءتك لأضفت الى جلد الاسد الذي ترتديه انت رأس بهيمة ذات قرنين وجعلتُ منك مسخاً فظيعاً.

الارشيدوق : هدئوا روعكم. كفاكم مهاترة.

اللقيط : ارتعدوا وارتجفوا، يا سامعي زئير الاسد.

الملك جون : هيا نتوجّه الى السهل حيث نتفقّد صفوف فيالقنا وننظّمها.

اللقيط : عجلوا اذاً لنأخذ أفضل الاستحكامات في ساحة القتال.

الملك فيليب : (يكلم لويس بصوت خافت) : اجل، اجل، وأنت فوق المرتفعات، عليك ان تجهز الاحتياطي... فلنتكل على الله لصيانة حقوقنا (يخرجون).

(تسمع الموسيقى، وتتحرك الجيوش ثم تنسحب. يتقدم المنادي الفرنسي على صوت البوق نحو أبواب انجيه ويخاطب المتسارعين نحن الاسوار).

المنادي الفرنسي : يا رجال انجيه، افتحوا ابوابكم على مصراعيها واستقبلوا ارثور الشاب دوق بريطانيا. فقد جاء متأبطاً ذراع فرنسا ليُسيل فيضاً من دموع الامهات الانكليزيات اللواتي اصبح اولادهن في عداد سكان القبور الملطّخة بدمائهم، بينما تنهمر عبرات الارامل اللواتي يعانقن جثث ازواجهن الباردة المبعثرة على الارض المخضّبة بالدماء. لقد رقص الفرنسيون المنتصرون، وأعلامهم تخفق فوق رؤوسهم اثناء دخولهم مدينتنا كفاتحين لإعلان أرثور بريطانيا ملكاً على انكلترا وعلينا ايضاً.

(يدخل المنادي الانكليزي وصوت الابواق يملأ الفضاء).

المنادي الانكليزي : تراجعوا، يا رجال انجيه واقرعوا أجراسكم. فالملك جون ملككم وملك انكلترا يقترب ظافراً في هذا اليوم الحارّ القاسي. ودروعنا المبتعدة من هنا تلمع كالفضة تجت وهج النور وتعود ملوّثة بدماء الفرنسيين. ليس هناك من ريشة تزيّن خوذة انكليزية لم يصبها رمح فرنسي بعطب. وأعلامنا عادت الى الأيدي عينها التي رفعتها لتخفق فوق رؤوسنا، ونحن نزحف، ونظير فرقة مرحة من القنّاصين وصل جنودنا الانكليز الاشداء وأيديهم ملطخة بدماء اعدائهم المجندلين على الارض. إفتحوا ابوابكم ودعوا المنتصرين يدخلون.

المواطن : (من أعلى الأسوار) : ايها المنادون من أعلى الأبراج، لقد تمكّنّا من رؤية اصطدام الجيشين وتقهقرهما منذ البداية حتى النهاية. ولم يشكّ احد بتعادلهما حتى الخبراء المحنّكون أجمعوا على ذلك. فالدم دفع فدية الدم وردّت الضربات صلابة الضربات، وقاومت القوة هول القوة، وعاندت السلطة صمود السلطة. واذا بالخصمين يتوازيان، ونحن نحبّهما معاً سوءً بسواء. لكن لا بدّ لاحد الفريقين من ان يتغلب على الآخر. لأنهما إن ظلّا على هذا التوازن سنحتفظ بمدينتنا ولن يستولي عليها احد بمفرده، بل تبقى صديقة كليهما معاً.

(يدخل الملك جون ويتبعه جيشه وبلانش والملكة الأم اليونور واللقيط من جهة، ولويس والارشيدوق من جهة اخرى).

الملك جون : (للملك فيليب) : ألا يزال دمكِ ينزف، يا فرنسا ؟ وهل ستدعين حقوقنا تضيع هكذا هدراً ؟ هذه الحقوق التي تستبيحين مجراها بما تقيمينه في طريقها من عقبات، وتتركينها تحيد عن سيرها العادي.

الملك فيليب : وانتِ، يا انكلترا لم تحقني نقطة واحدة من الدم اكثر مما فعلنا نحن الفرنسيين، في هذه المعركة الحامية الوطيس، بل

خسرت اكثر منا. أُقسم على ذلك بساعدي الذي يحكم المنطقة بعدل ويكيّف مناخها المتقلّب. ألا اعلمي اننا لن نُلقي سلاحنا الذي فرضتْ علينا العدالة حمله، قبل ان نخضعكِ انت التي أشهرناه في وجهك، وان نضخّم عدد القتلى الموالين لك، ونوسّع لائحة خسائرك في هذه الحرب الضارية ونقرنها بإسم ملك ارتبط بهذه المجزرة الرهيبة.

اللقيط : آه، كم إرتجّ مجدك، يا صاحب الجلالة، فعندما يتضاعف نزف دم الملوك بوفرة في جحيم المعركة، فالموت يبالغ في مضاعفة عدد مَن تتلقّفهم أشداق الحرب المتلهّفة الى الضحايا، ولها من سيوف الجنود أسنان وأضراس هائلة تمزّق لحوم البشر وتبتلعها بشراهة، منتهزةً فرصة خلافات الملوك وعداواتهم المزمنة. فلماذا تظل هذه الجباه الجليلة مطأطأةً ؟ ألا اهتفوا، ايها الملوك : إبتعدي عن السهول المصبوغة بالدم الاحمر، أيتها المجازر الشرسة. فالقوّات متعادلة والعبقريات متوازية، لتؤمّن فوضى الاولى وسلام الثانية. إذاً تراجعي ايتها الحرب، واحتقن ايها الدم، وتوقّف ايها الموت عن حصد الارواح.

الملك جون : (للمواطن) : مَن مِن الطرفين يريد السكان أن يقتبلوه ؟

الملك فيليب : تكلموا، أيها المواطنون، وصرحوا اكراماً لبريطانيا، من تريدون أن يكون ملككم ؟

المواطن : ملك انكلترا عندما نعرفه عما قريب.

الملك فيليب : اعترفوا بي انا لأني أساند حقوقكم.

الملك جون : بل اعترفوا بي انا لأني امثل أهم مصالحي الشخصية، وانا املك زمام نفسي، انا سيد وجودي ها هنا في انجيه امام مجموع شخصياتكم.

المواطن : ان قوةً أعظم منا تؤكد كل ذلك. وطالما ظلّت المسألة متأرجحة، سنخبّئ بوادر شكوكنا وراء أبوابنا المغلقة، وقد

تحصّنت خلفها ضمائرنا حتى عزمت هذه الضمائر على الاستناد والانقياد الى مشيئة الملك الاصيل.

اللقيط : بحق السماء، يا اهالي انجيه، هؤلاء يضايقون الملوك ويظلّون قابعين بهدوء وراء متاريسهم كأنهم في مسرح يرقبون من خلاله، وهم مشدوهون، مشاهد الموت وفصوله حيث تتجلّى عبقريّتكم. إتّكلا عليّ يا صاحبَيْ الجلالة، واعتمدا على توجيهاتي، تصرفا كمتمرّدي القدس وكونا أصدقاء في الوقت الحاضر واتفقا معاً على توجيه آلاتكما الحربيّة الهدّامة نحو هذه المدينة ليحل بها أفدح الدمار. أطلقوا مدافع فرنسا وانكلترا بعد حشو أشداقها ورصفها صفوفاً وصبّ حممها من الغرب ومن الشرق حتى يدكّ دويها المريع جميع معالم هذه المدينة المتجبّرة. كم أودّ ان ارى كل وسائل الدمار هذه تتدفق على هؤلاء المغفّلين الى ان يبتلعهم الفناء عن بكْرة أبيهم. وبعد إتمام هذه الابادة فرّقوا القوى التي اتّحدت فترة من الزمن، ولتفترق اعلامكم ثانية ثم لتتقابلوا وجهاً لوجه، فلا يلبث الحظ أن يختار احد الطرفين ويغدق عليه أول امتياز، إذْ يخصّه بمسرّات ذلك اليوم ويطبع على جبينه قبلة الانتصار والمجد. كيف تجدون هذا التوجيه، ايها الملوك الاقوياء ؟ أولا تلمسون فيه سياسة حكيمة ؟

الملك جون : بحق السماء المهيمنة على رؤوسنا، هذا يعجبني كثيراً. (للملك فيليب) أيها الفرنسيون ما قولكم اذا دمجنا قوّاتنا وهدمنا بيوت مدينة انجيه وجعلنا ركامها يغطي وجه الارض ؟ بعدئذ نتقاتل ونرى من منّا سيكون الملك.

اللقيط : (للملك فيليب) : هذه المدينة العنيدة قد خزلتنا. فاذا كنت حقاً من فئة الملوك القادرين الحازمين، أَدِرْ فوهات مدفعيّتك كما تفعل مدفعيتنا نحن ايضاً، نحو هذه الأسوار الوقحة. وحالما ندكّها سيتحدّى احدنا الآخر ونتصادم ويختلط حابلنا

بتابلنا ويكون نصيبنا إمّا النعيم الكريم أو الجحيم المقيم.

الملك فيليب : فليكن ما تقول. هيّا تكلّم وحدّد لي من أين تبدأ بهجومك ؟

الملك جون : سأوجّه من الغرب حمم مدافعي لهدم دعائم هذه المدينة.

الارشيدوق : أما أنا فمن الشمال.

الملك فيليب : مدافعي ستصبّ قذائفها المدمّرة من جهة الجنوب.

اللقيط : (على حدة) : ما ابرع هذه الخطط. من الشمال الى الجنوب سيتبادل النمساويّون والفرنسيون قذائفهم وجهاً لوجه. فلنشجّعهم على الفناء. (بصوت مرتفع) الأفضل لي أن أذهب من هنا.

المواطن : اصغوا اليّ ايها الملوك الكبار، تنازلوا عن مطامعكم واصطبروا برهة، وسأريكم السلام والتحالف الساخر العجيب. اربحوا هذه المدينة بدون ضرب ولا تهديم. دعوا هؤلاء الاحياء يموتون على اسرّتهم بعد أن جاؤوا لاهثين ليتذابحوا في ساحة القتال. لا تكابروا، أيها الملوك الاقوياء، بل أصغوا إليّ...

الملك جون : تكلم بأمان، فكلنا آذان صاغية.

المواطن : هذه الفتاة الاسبانية السيدة بلانش التي تشاهدونها، هي نسيبة ملك انكلترا. فاحسبوا سني عمر ولي العهد لويس وسني هذه العذراء اللطيفة. فاذا كان الحب رغبة مميّزة تبحث عن الجمال، أي يجد أروع من محاسن بلانش ؟ واذا كان الهوى ميل ملحّ يبحث عن الفضيلة فأين يلاقي انقى واطهر من بلانش ؟ واذا كان الهيام طموحاً يبحث عن حليف فأين يتيسّر له وجود أنبل من الدم الذي يسري في عروق السيدة بلانش ؟ لذلك هي، نظير لويس الشاب، كاملة الأوصاف من جميع النواحي : جمال وفضيلة ونسب عريق. واذا لم يكن الامر هكذا فالسبب هو انهما كلاهما شخصان مختلفان. أمّا هي، إن نقصها شيء فهو ان تتّحد به ليكتملا ويؤلفان معاً

انساناً واحداً. هو نصف إنسان مثالي يتحتم عليه ان يكتمل باتّحاده بها. وهي الكمال بعينه منقسماً وهو وحده يكمّلها. آه، هذان الينبوعان الصافيان عندما يتّحدان يمجّدان مواهبهما وأهدافهما. انتما سليلا الملوك تتّحدان ايضاً في وجهتيكما ليشكل مجرياكما نهراً واحداً متدفقاً جارفاً. اجل لا بد من ان يتم قران هذا الامير بتلك الاميرة فيقومان سدّاً منيعاً يحمي شخصيهما ومصالحهما. وسيكون لهذا الزواج على الفريقين أثر أقوى من مرابض مدافعكما المصوّبة نحو ابوابنا المغلقة. فحيال هذا الزفاف سنفتح الطريق بسرعة تفوق عنف البارود المتفجّر، ونفسح لكم مجال العمل. وإلا، عليكم أن تعلموا علم اليقين بأن البحار ليست صمّاء اثناء هياجها، والأُسُود ليست اكثر تحفزاً والجبال والصخور اكثر تأثيراً على مجرى الأمور. فالموت ذاته اثناء غضبه القاتل اكثر ضراوة منّا نحن في الدفاع عن مدينتنا.

اللقيط : انظروا الى هذا الخصم الذي يرتجف هيكله العظمي تحت اسمال الموت البالية. هذا الكائن في الحقيقة يدور معظم كلامه على القتلى والجبال والصخور والبحار، ثم يتحدّث بإلفة عن أُسود تزأر وعن فتاة في ربيعها الثالث عشر تتبع بغريزتها جرْو كُلَيْب. فمن اي مدفعيٍّ استمدّ هذا الحماس المتفجّر ؟ ان صوته يحاكي دويّ قنبلة يتصاعد دخان بارودها في الفضاء، وبيده سوط يشبه لسانه السليط الذي قرّح آذاننا المرهفة. ان كلمةً منه توازي كلمةً من قبضةٍ فرنسية. لعمري، لم يطُش صوابي قط مثلما دوّختني ألفاظه الشديدة الوطأة منذ أول لحظة ناديت فيها والد أخي، يا أبي. (الملك فيليب ولويس والارشيدوق يتحدثون بصوت خافت).

اليونور : (على حدة للملك جون) : يا ولدي، علينا ان ننضمّ الى هذا التقارب ونحقّق هذا الزواج ونمنح ابنة أخينا بائنة مناسبة. لأن

هذا الوثاق سيُحكم تثبيت تاج غير مضمون بعد، وليس على قياس رأسك. فلا تتسنى لهذا الفتى الضعيف شمس كافية تساعد على نضج ثمرة هذه الزهرة المتفتحة التي لا تَسْتَشفّ منها نفحة القوة والعزيمة. وأنا أرى في عيون الفرنسيين استعداداً للتسليم. انظر اليهم كيف يتهامسون. فما عليك إلا ان تحصرهم بينما تستهويهم هذه الرغبة خوفاً من ان تدفعهم غيرتهم الى تجميد موقفهم وتوطيد وضعهم بداعي الرجاء والصلاة ووخز الضمير الحيّ.

المواطن : لماذا لا يلبّي اصحاب الجلالة هذا العرض المفعم بالصداقة لإنقاذ المدينة المهدّدة ؟

الملك فيليب : (للملك جون) : تكلم أنت أوّلا، يا سيد انكلترا، لانك بدأت بمفاوضة هذه المدينة. فما قولك ؟

الملك جون : (للملك فيليب) : اذا كان ابنك الامير ولي العهد قادراً على تصريف فعل الحبّ ضمن إطار جمال هذا الزفاف، فان بائنة الاميرة بلانش ستوازي ما تناله ملكة، ما دامت مقاطعات انجو وتورين وماين وبواتو ما عدا المدينة التي نحاصرها وكل ما تشتمل عليه المنطقة من جهة البحر، وهي من جملة الاراضي التابعة لتاجي وسلطتي، ستُلحَق بمخصّصاتها من جرّاء زواجها هذا السعيد، وستصبح هكذا، بسعة ثرائها فضلاً عن لقبها النبيل وشرفها وكرامتها وجمالها وتربيتها واصالتها، من فضليات سائر اميرات الدنيا.

الملك فيليب : (للويس) : ما رأيك يا ولدي ؟ تفحّص جيداً محيا هذه الصبيّة الرائعة.

لويس : هذا ما أفعله يا مولاي، وقد اكتشفت في عينيها فتنة هي اعجب معجزة، اذ رأيت فيها ظلّ شخصيتي وقد رسمته شمس عالمها السحري. وأُقسم اني لم اجد نفسي هكذا

مجذوباً إلا حين انطبعت معالم ملامحي في عمق لحظها المتعطّف. (يكلّم بلانش بصوت خافت).

اللقيط : (على حدة) : « ملامحه في عمق لحظها المتعطّف »، وقد نسي ان يقول انه يهوى ما سيحصل عليه من جاه وأموال، بعد أن تساءل عمّا يختلج من عواطف في نفس هذه الحسناء. فان عاشقنا يجد في ذلك عقاباً على خيانته الظاهرة للعيان. فما اتعسه من غبيّ أصبحت له قضية، وبات فؤاده سجين قلب حبيبته.

بلانش : (لولي العهد) : رغبة عمّي، في الحقيقة، هي أعزّ أمنية لديّ. فإن لقي فيك ما استرعى انتباهه وعطفه، فذلك دليل كافٍ على استحواز رضاي وقبولي، وبصريح العبارة، على كسب ودّي ومحبتي. انا لا أريد ان اتزلّف اليك، يا ولدي، واعلن لك ان كل ما فيك من صفات يستحق تقديري ومودّتي، وأصرّ على التأكيد اني لا ارى فيك ما يثير في صدري اي تردّد او نفور.

الملك جون : بماذا يتناجى هذان البلبلان ؟ وماذا تقول ابنة أخي ؟

بلانش : اني على الدوام راغبة في قبول ما تتنازل الى اعتباره حسب حكمتك السديدة، أفضل ما يناسبني من النصح والخيار.

الملك جون : تكلم اذاً، يا ولي العهد. هل تستطيع ان تحب هذه السيدة ؟

لويس : بل ارجوك ان تسألني ان كنت قادراً على الامتناع عن التعلق بها ؟ لأنيّ منذ الآن انا اسير هواها.

الملك جون : اذاً، أمنحك ما يحقّ لها أي خمس مقاطعات هي : فاكْسان وتورين وماين وبواتو وأنجو، فضلاً عن ثلاثين الف قطعة ثقيلة من العملة الانكليزية. فيا فيليب ملك فرنسا، ان اعجبك هذا مُرّ ابنك وكنّتك ان يمسك احدهما بيد الآخر. (بلانش وولي العهد يمسك كل منهما بيد رفيقه).

الملك فيليب : والآن يا سكان انجيه، افتحوا ابوابكم واستقبلوا هذا الإرتباط

الذي تمّ بفضلكم، لأن مراسم الزفاف ستقام فوراً في معبد السيدة العذراء. أوليست السيدة كونستانس بمعيّتنا ؟ لا، انا واثق بأنها غير موجودة هنا. لان حضورها كان حتماً عقّد اجراء مراسم الزواج الذي جرى الاتفاق عليه الآن بسهولة. أين هي ؟ واين ابنها ؟ من يعرف مكانها، عليه أن يهدينا اليه.

لويس : هي في خيمة سموّك، تسيطر عليها العزلة والكآبة.

الملك فيليب : لا بدّ للمعاهدة التي ابرمناها منذ هنيهة من ان تبدّد حزنها وتسكب العزاء في قلبها. (للملك جون) يا اخي الانكليزي كيف السبيل الى مراضاة هذه الأرملة المشاكسة. لقد جئنا لكسب ودّها، والله يعلم كم تحمّلنا من مشقة للوصول الى هذه الغاية.

الملك جون : سنجد علاجاً لكل معضلة. لاننا سنرفع مقام ارثور الشاب ونمنحه لقب دوق بريطانيا وكونت ريتشموند، وفي الوقت ذاته نجعله سيّد هذه المدينة الجميلة الغنية. نادوا السيدة كونستانس. ارسلوا شخصاً ليستدعيها ويجيئ بها الى هنا على عجل كي تشاركنا في هذا الاحتفال. (للملك فيليب). انا على يقين باننا عندما نلبي بعض رغباتها، نكون قد عملنا على ارضائها ومنعها من الاعتراض والصراخ. وما علينا إلّا ان نبادر بأقصى السرعة الى اقامة شعائر هذا الزفاف بصورة ارتجالية غير متوقعة.

(يخرج الجميع ما عدا اللقيط. وينسحب كل اهالي انجيه من أعلى الأسوار).

اللقيط : (على حدة) : هذا العالم مجنون، وقد تملّك الهوس ايضاً هؤلاء الملوك، وبنوع أخص، هذا الاتفاق حتماً يحفل بالجنون. فلكي يضع جون حدّاً لأطماع أرثور بكامل المملكة، يتنازل هذا الأخير بطيبة خاطر عن جزء منها. والفرنسي الذي كان محتمياً بدرعه ثقلت عليه وطأة ضميره.

هذا الفرنسي الذي قادته غيرته وانسانيته، جاء الى ساحة القتال كجندي شجاع متحمّس وتبادل الرأي هو وهذا الذي يعرقل ويغيّر التصاميم، هذا الشيطان الخبيث. هذا المنافق الخدّاع الذي يهدم كل قصد شريف. هذا المخاتل الذي يُقسم كل يوم يميناً لا يفي به، بل يستغلّ بموجبه الجميع من ملوك ومتسوّلين وشيوخ وشبان وصبايا. ولم يبقَ عليه إلّا ان ينتحل فضيلة البتولية، ويسلب العذراء المسكينة اثمن كنوزها. هذا المولى الغدّار صاحب الوجه المشرق الصبوح الذي لا يرى في كل الأمور سوى مصلحته الشخصية. هذه المصلحة التي تغرّر بكل الناس وفي كل العصور، ضمن عالم متوازن يتحرّك على خط مستقيم في أرض مسطحة عندما تتدخّل المصلحة في متاهات الدنيا التي تحوّر الاندفاع وتحوّل الحزازات إلى الانحياز والتوجيه الخاطىء، فتضلّ سواء السبيل مبتعدة عن أهدافها الأساسية. هذه المصلحة المتلوّنة الخداعة الهدّامة المفسدة باقوالها البعيدة عن رسالته المتحررة في حرب ترمي الى رفع الغبن فتنتهي الى سلام مجحف غاشم. لكن، لماذا أحمل هذه الحملة الشعواء على المصلحة ؟ ألأني لم انل مبتغاي ولم تقبض يدي إلّا على الزبد الزائل. فإن أرادت أناملي دغدغة هؤلاء الملائكة المزدانة اجنحتها بالذهب الوهّاج، لن يفلح سحرها في استمالتي الى بهرجة غناها. ومهما بلغتُ من الثراء سيحملني ترفّعي على تجنّب دنايا البؤس، ما دام الملوك يحنثون بأيْمانهم لنيل مآربهم. فيا أيتها المصلحة أتوسّل اليك ان تكوني إلهي لأسجد لك وأعبدك بكل قواي ومن أعماق قلبي.

الفصل الثالث

المشهد الأول

في خيمة ملك فرنسا.

(تدخل كونستانس وارثور وسالزبري).

كونستانس : (لسالزبري) : لقد ذهبا ليتزوجا. مضيا لِيُقسِم كل منهما ان يؤمّن السلام لصاحبه. ها هو دم فاسد يمتزج بدم آخر فاسد. أجل ذهبا ليصبحا صديقين. سيحظى لويس ببلانش التي تنال عدة مقاطعات. هذا غير صحيح اذ انك اخطأت التعبير كما اخطأت السمع ايضاً. فكّر جيداً، وكرّر عليّ روايتك. هذا مستحيل. انت تقول بكل بساطة ان الامر جرى هكذا. وانا على يقين بأن كلامك لا يقوى على اقناعي، ما دام حديثك يخرج من فم رجل بذيء. صدّقني إن اكّدت لك ان قولك غير مقنع. وانا لديّ حلفان ملك يثبت عكس ما تدّعي. ستعاقب على ما ابديته لي مما لم يرتحْ اليه ضميري. فانا مريض، والخوف يقضّ مضجعي، والقلب ينخر قلبي، وعندما يجتاحني الفزع انا الأرملة المعرّضة للرعب كباقي النساء، لا اقوى على مجابهة الهلع. ولو مهما اكّدت لي انك تمازحني

لن يطمئنّ بالي ولن يهدأ روعي وسأظلّ مضطربة طوال العمر. لماذا تهزّ رأسك هكذا ؟ لماذا تُلقي على ابني هذه النظرة الحائرة الكئيبة ؟ لماذا تضع يدك على صدرك، لماذا تجول الدموع في عينيك الحزينتين وتسيل من مآقيك كالينبوع ؟ هل تُثبت هذه الاشارات اليائسة صحة كلامك ؟ كرّر لي اذاً لا حديثك الأوّلي فقط، بل هذا التصريح الذي يعلن ان روايتك صحيحة.

سالزبري : أوكد لك انها صحيحة أكثر ممّا يمكن ان يُخامرك الشك بأنها غير حقيقية.

كونستانس : بما أنك تعلّمني كيف أصدّق لوعتك، علّمني ايضاً بموجب هذه الآلام المريرة كيف أموت وأرتاح من هذه الشكوك المضنية. ان هذا الاعتقاد وحظي السعيد هما نظير غضب القانطين الذي يضعُف في أول صدمة ثم لا يلبث ان يضمحلّ. لويس يقترن ببلانش. فإلى أيّ درك تدنّيت، يا ولداه ؟ فرنسا اضحت صديقة انكلترا، فماذا حلّ بي انا من مذلّة وشقاء ؟ (لسالزبري) إرحل يا صاحبي، فلم يعد يسعني ان اراك، لان هذا النبأ جعلك في نظري أحطّ الرجال على وجه الأرض.

سالزبري : أي ذنب اقترفت أنا، أيتها السيدة الصالحة، سوى إعلامك بما أتاه غيري من شرّ وأذى.

كونستانس : هذا الفساد القبيح للغاية في حدّ ذاته، جعل ألسنة المناوئين النمّامين تلوكه وتجترّ أصداءه باستمرار.

ارثور : أتوسل اليك، يا سيدتي، أن تزعني وترضي بالأمر الواقع.

كونستانس : أأنت الذي تطلب مني ان أزعن لقهري ؟ إن كنت أنت فظّاً ومختلّا تغتاب هكذا بطن امك التي حملتك وولدتك، فأنت ترتكب أفظع الاخطاء المؤذية الكريهة وتبدو أعرج بغيضاً ومقوّس الظهر ذميماً بل مسخاً رهيباً تكسوه البثور النتنة

والتشويهات المفزعة، وكلها لديّ سيّان. سأزعن اذاً، لأنني أحبّك انت الذي لست اهلاً لنبالة محتدك ولا تستحق ان يكلّل رأسك اي تاج. لكنك وسيم الطلعة، وحين أتيت الى هذا العالم، يا ولدي، تضافرت الطبيعة والحظ السعيد ليجعلك رفيع المقام. وفي ما يتعلّق بالمواهب التي حبتك اياها هذه الطبيعة الكريمة يمكنك ان تنافس الزنابق والورود قبل ان يكتمل تفتّح اكمامها. لكن الحظ لشدة انحطاطه ودناءته انقلب عليّ، وحالف عمك جون في ستر زنىً مستمرّ. وقد جرّ حظه الذهبي فرنسا الى دوس السيادة وقادت صاحب الجلالة الى خفر عهود الحب والوئام. ففرنسا اذاً هي التي أفسدت طالعنا الشبيه بالمومس المبتذلة حيال الملك جون المغتصب. قل لي، يا صاح، أوليس رئيس فرنسا انساناً مخادعاً غداراً؟ فما عليك إلا ان تدسّ له سمّ أقوالك الفاضحة. وإلّا تحتّم عليك أن تكمل طريقك وتدع المفسدين يغرقون في مستنقع آلامهم وعزلتهم. وأنا وحدي اتحمل جميع العواقب.

سالزبري : سامحيني، يا سيدتي، إذْ لا يسعني ألّا ان امتثل بين يدي الملوك.

كونستانس : يمكنك بل يجب عليك ان تتصرّف هكذا. انا لن ارافقك، بل سأحمل آلامي على المفاخرة بالصبر الجميل في الملمّات مهما ثقلت وطأتها. لأن الكارثة لا تأبه لرضوخ ضحيتها. دعِ الملوك يأتون اليّ، ليجتمعوا ويلمسوا فظاعة أوجاعي الاليمة الى حدّ لا يتسنى إلا للارض الصلبة وحدها ان تتحمّلها. اما انا وشقائي فنقبع هنا منزوين فوق عرشي هذا. فقل للملوك ان يجيئوا ويحيّوني (ترتمي على الأرض).

(يدخل الملك جون، وفيليب ملك فرنسا ولويس وبلانش واليونور الملكة الأم، واللقيط والأرشيدوق ورجال الحاشية).

الملك فيليب : (لبلانش الاسبانية) : صحيح، يا ابنتي الحبيبة، سيُحتفل على الدوام في كل ارجاء فرنسا بهذا اليوم السعيد. ولكي نزيده مهابةً ستتوقف الشمس الساطعة مسيرتها، وكساحر عجيب ستبدّل مظهرها البهيج طبيعة هذه الأرض الموحلة وتحوّلها الى ذهب وهّاج. وسيجعل المستقبل ذكر مولدها حتماً يوم عيد عظيم.

كونستانس : (وهي تنهض) : بل يوم حداد وشؤم لا يوم عيد بهيج. فبماذا امتاز هذا النهار ؟ لماذا استحقّ ان يُكتب بحروف من نور كأن ساحراً بارعاً اضفى عليه هذا الوهج في رزنامة اضحت من أمجد المناسبات ؟ بل بالعكس علينا ان نرذل هذا اليوم من الاسبوع، لأنه غاص في العار والظلم والخساسة. وإن كتب له ان يبقى في حيّز الوجود، على النساء الحبالى ان يطلبن من السماء ان لا يضعن اطفالهن في مثل هذا اليوم المنحوس خشية ان يلدن مسوخاً رهيبة. على البحّارة ان لا يخافوا من الغرق في هذا النهار المشؤوم، والصفقات المعقودة في هذا اليوم لا بدّ من إلْغائها والتخلص من سوء عاقبتها. ولا بدّ لجميع الامور المباشر بها في هذا النهار، من ان تكون نهايتها سيئة لأن في هذا اليوم بالذات، حتى الولاء الأكيد ينقلب خيانةً نكراء.

الملك فيليب : بحق السماء، يا سيدتي، ليس لك من حجة لتلعني النتائج المرضية المحققة في هذا النهار. أولم أضع تاجي بتصرّفك ؟

كونستانس : لقد منحتني شبه تاج، اذ تعرّض لأخفّ لمسة تبيّن ان معدنه رديء لا قيمة له. وهكذا كنت خدّاعاً مضلّلا، لأنك جئت شاهراً سيفك لسفك دم اعدائي، واذا بك الآن قد مددت يدك الأثيمة لمصافحة أخصامي وتحالفت واياهم على النيل من كرامتي بينما أصحاب القبضة المهدّدة والحاجب المقطّب اثناء الحرب انبسطت اساريرهم في معانقة حميمة

وسلامٍ مبرقعٍ وتعاهدٍ على الظلم ضمن عصابة تعاضد ومساندة. فيا أيتها السماء حرّضي الشعب على حمل السلاح لمحاربة هؤلاء الأمراء الماكرين. ولا تنسيْ اني انا الأرملة المنكوبة أصرخ : أيتها العلياء، هبّي الى معونتي، ولا تدعي ساعات هذا التدنيس والتنكيل تنتهي اليوم بسلام. لكن قبل غياب الشمس اجعلي الخلاف المسلّح يدبّ بين هؤلاء الملوك المخاتلين. ألتمس منك أن تصغي الى دعائي، واستحلفك ان تستمعي الى توسّلي.

الارشيدوق : هدّئي روعك، ايتها السيدة كونستانس.

كونستانس : بل الحرب، الحرب، لا اريد السلام. لان السلام بالنسبة اليّ يعني الكفاح. يا مدينة ليموج اسمعيني، ويا أيها النمساوي، احذر تلطيخ يدك بالدم، انت مشعوذ دجّال انت شقي حقير، انت جبان قليل الشهامة كثير اللؤم، تلتزم جانب القويّ لتبطش بالضعيف، وتتشبث بأذيال المكر لتهرب من الواجب، انت ايضاً خداع مراوغ تتظاهر بالاستقامة والجبروت، وفي الواقع لا تعرف لهما من معنى، يا ايها المهرّج السخيف، اذ تدّعي الدفاع عن صديقك وانت تغدر به وتستغل أوضاعه الصعبة. انت ايها الضفدع القذر، يا صاحب الدم الفاسد، أولم تتكلم سابقاً بصوت كهزيم الرعد لصالحي ؟ ألم تكن كالجندي توصيني بأن اتّكل على حسن طالعي وعلى وفائك وقدرتك ؟ وها انت قد انتقلت الى صفوف اعدائي. اراك ترتدي جلد الاسد وتتصرف كالنعجة وتتواضع كالحمل وتكشّر عن انيابك كالذئب. ألّا اخلع عن وجهك برقع الحياء المستعار، والقِ جلد ضبع على كتفَيْكَ الهزيلَيْن واكشف عن حقيقتك.

الارشيدوق : آه، ليتني لم أسمع من شخصٍ نظيرك هذا الكلام البذيء.

اللقيط : (للأرشيدوق) : هيا ألْقِ حالاً جلد الضبع على هذين الكتفين ايضاً.

الارشيدوق : (للقيط) : هل يسعك ان تكـرّر هذا القـول عن نفسك بالذات، يا مغفّل ؟

اللقيط : ألْقِ أيضاً جلد ضبع على هذين الكتفين المتخاذلَيْن.

الملك جون : (للقيط) : أنا لا استحسن هذا المزاح، فما بالك تنسى حدودك وتسترسل فيه ؟

(يدخل الكردينال بندولف)

الملك فيليب : ها هو مندوب بابا روما.

بندولف : (يحيّ الملكين) : السلام على ممثلَيْ شريعة السماء على وجه الارض. بقربك، أيها الملك جون، رسالتي المقدسة تُختصر بأن أسألك، انا كردينال مدينة ميلانو، مندوب البـاب إنّوسنْتوس، لماذا تثور بمثل هذا العناد على أنظمة الدين ؟ ولماذا أبعدت بعنف «إتْيان لنْكْتوف» عن مقره الاساسي الذي إنْتُخب لأجله ؟ هذا ما أستفسر منك عنه باسم البابا المذكور الذي أمثّله.

الملك جون : ارجوك ان تفيدني بأية صفة دنيويّة تتذرّع لتستجوبني في هذا الموضوع المقدس المتعلّق بي وحدي كملك ؟ أنت غير قادر، ايها الكردينال، على ابتداع صفة هكذا ضعيفة عاجزة بل غبيّة لتجبرني على الجواب. انقل من قبل انكلترا لمن أوفدك أن أي كاهن ايطالي لا يسعه ان يجبي فلساً واحداً أو يفرض اية ضريبة على أتباعي وممتلكاتي. وبما أني انا هنا الرئيس الأعلى تحت القبّة الزرقاء، اصرّ بدون مساعدة أيّ كان، على الدفاع عن سلطتي المطلقة في كل بقعة تشملها مملكتي. فقل هذا للبابا وبلغه اني لا اكنّ اي اعتبار لشخصه او لسلطته.

الملك فيليب : انت تجدّف، يا اخي الانكليزي.

الملك جون : انت وسائر ملوك الأرض يمكنكم ان تظلّوا خاضعين لسلطة هذا المغامر المتسلط تحت طائلة اللعنة التي يُعوّض عنها المال ويفتديها الذهب الرنان الذي ليس في نظري سوى نفاية وتراب يمكنه ان يشتري في هذه الصفقة صفح رجل لا يبيع إلا غفرانه الشخصي. اجل إلبثوا انتم كلكم خاضعين ومنقادين باطلا كي تدفعوا عائدات ترتكز على الشعوذة والتدجيل. لكن هذا الأمر لا يهمني، وانا وحدي اعارض مآرب الباب واعتبر اصدقاءه كألدّ أعدائي.

بندولف : بموجب السلطة الشرعية التي اتمتع بها، لتكن ملعوناً ومحروماً. وليتبارك كل من يرفض الولاء لهرطوقيّ مثلك. فيُعتبر سلوكه مثالياً، ويكون مباركاً كل من يسعى سرّاً الى خطف حياتك الدنيئة.

كونستانس : أفسح المجال لحظة لروما كي تجد مبرّراً لهذه اللعنات. يا ابتِ الكردينال، قلْ آمين، بعد اعلاتي لعناتي الصارخة. لأنّ بدون تحمّل آلامي لا يحق لإنسان ان يتلفّظ بلعنة.

بندولف : أنا ألعنه باسم القانون.

كونستانس : هذا لسان حالي انا ايضاً. لكن عندما لا يقوى القانون على صيانة الحقوق، تقضي العدالة ان تخلي مكانها للكبت والألم. فالشرع لا يستطيع ان يردّ لإبني مملكته. لأن من استولى عليها سيطر ايضاً على القانون. وعندما لا يكون الشرع سوى الاستبداد والظلم بعينه، بأي حق تكمّ فمي وتمنعني من صبّ اللعنات على رأس من يستحقها.

بندولف : يا فيليب ملك فرنسا، تحت طائلة حلول اللعنة عليك، لا تساند هذا الهرطوقيّ الكافر، بل هدّده بقطع رأسع بموجب السلطة التي تستمدها من عرش فرنسا اذا لم يخضع صاحبه لروما.

اليونور : (لفيليب) : لماذا يمتقع لون وجهك خجلاً، أيها الفرنسي ؟ لا بدّ من فكّ ارتباطك به.

كونستانس : انتبه ايها الشيطان الخسيس، واحذر أن يخشى الفرنسي وخز ضميره، واذا ابتعدت عنه، ان يخسر نفسه ويتدهور الى اعماق الجحيم.

الارشيدوق : ايها الملك فيليب، اصغِ الى الكردينال.

اللقيط : (للملك فيليب، وهو يشير الى الارشيدوق) : والقِ جلد الضبع على كتف هذا الجبان.

الارشيدوق : ايها المحتال، يتحتّم عليّ ان اتحمّل هذه الاهانة بما أنه...

اللقيط : (للارشيدوق) : يمكنه ان يحلّ محلك.

الملك جون : ماذا تريد ان تقول للكردينال، يا فيليب ؟

كونستانس : وماذا يستطيع ان يردّد غير ما نطق به الكردينال نفسه ؟

لويس : فكّر جيدا، يا أبي، واخترْ بين حرم روما الثقيل والتضحية الزهيدة التي يتحملها الانكليز راضياً. وغامر بما هو أقل خطراً من سواه.

بلانش : أي حرم روما.

كونستانس : يا لويس، هذه نقطة حسّاسة. فإبليس يحاول أن يغريك بهيئة عروس. في ثوبٍ شفّاف.

بلانش : يا سيدتي كونستانس، ليس ضميرك الذي يتكلم هكذا بل فائدة مصلحتك.

كونستانس : آه، ليتني عرفت ما هي مصلحتي التي لا تؤمّن إلّا بموت ضميري. لذا وصلت الى الاستنتاج ان ضميري لن يرضى إلا بالقضاء على مصلحتي. فهل ترغبين في تعطيل مصلحتي ؟عليك ان تدعي ضميري حيّاً لأنك اذا قضيت عليه تُحْيين مصلحتي.

الملك جون : لقد غلب التأثّر على الملك الذي لم يعد يستطيع الإجابة.

كونستانس : (للملك فيليب) : يجب عليك أن تبتعد عنه، وهذا افضل ردّ.

الارشيدوق : تصرّف هكذا، ايها الملك فيليب. ولا تترك المسألة تتعثّر وقتاً أطول.

اللقيط : (للارشيدوق) : وانت ايها الخدّاع الظريف لا تجرّ وراءك إلا جلد ضبع.

الملك فيليب : انا محتار، ولم أعد أدري ما يجب علي ان أقول.

بندولف : ان ما تريد ان تقوله ربما يزيد حيرتك واسفك اذا صرت هدفاً للحرم واللعنة.

الملك فيليب : (للكردينال) : انتِ الجليل، ضع نفسك في مكاني وقل لي كيف تتصرّف أنت ذاتك. ها قد تشابكتْ ايدينا الملكية واتحدتْ ارواحنا ايضاً وتعانقت وارتبطت بوثاق الدين المتين إثر قَسَمنا المقدس، حسب أعزّ مقصد من حلفاني للمحافظة على الأمانة والوئام والصداقة والحب الخالص بين مملكتينا وشخصينا الساميين، ولكين نتصافح في نهاية المطاف ونتصافى لتوطيد هذه المعاهدة الملكية، وإن لم يتسنَّ لنا الوقت الكافي لنغسل ايدينا... يعلم الله في الواقع، قبل هذه الهدنة كم لطخْتها هذه المجزرة التي أثارها روح الانتقام والمشاحنة بين هذين العاهلين الغاضبين وما كادت ايديهما تطهران، وكانتا في وقت ليس ببعيد متشابكتَيْن في حبّ متبادل وثيق، وتجرّد مشكور ساعد على مصالحتهما وتفاهمهما ثانية، حتى تلاعبا كأنهما صبيّان متخاصمان يتعاركان بالايدي. وكان بالامكان خفر العهود والحنث بالوعود وتسيير زمر دموية لتحطيم السلام الباسم واثارة الفتنة النائمة والتمرد على مواثيق الودّ والوفاء. ايها الرجل الصالح القديس، يا ابت الوقور، ارجو أن لا تتواصل الامور على هذا المنوال. وألتمس من مقامك الرفيع ان تفكّر وان تقرّر وأن تفرض بعض التوجيهات برفق حتى نتوافق برضى وسرور ونظل اصدقاء مخلصين.

بندولف : (للملك فيليب) : كل ما وصلنا اليه ليس له شكل نظامي، وهكذا لم يبقَ امامنا سوى اللجوء الى حسم خلافنا بقوّة السلاح. فكن انت بطل طائفتنا وهي في الحقيقة امّنا العادلة التي لا تتردّد عند اللزوم في صبّ لعنتها الوالدية على ابنها المشاكس العقوق. يا فرنسا، تستطيعين ان تمسكي برأس الحية وتقتلعي انيابها السامة، وبالأسد الهائج وتنتزعي براثنه الحادة، وبالنمر الشرس وتحطمي اسنانه الفتاكة، لأن ذلك أسهل من مصافحة اليد القذرة التي تمتدّ لمبادرتك بسلام غادر.

الملك فيليب : انا استطيع ان اسحب يدي في مثل هذا الحال، لكني لا استطيع ان اتغاضى عن تلويث شرفي.

بندولف : الآن عرفت الشرف الذي يناوىء الشرف، وها انت تثير الحلفان على حلفان من نوع آخر وتخالف كلامك عينه بكلام مناقض صادر عنك انت بالذات سابقاً. أوّلاً، عليك ان تصون النذر الذي تعهدت بالحفاظ عليه امام السماء، وأن تكون حامي معتقداتنا ومقدّساتنا. وها انا ألْمس ان ما أقسمت عليه يخالف موقفك وانت لا تقوى على التقيّد به. اذ من الغبن ان لا تفي بما أقسمت على القيام به، وانت غير صادق، والخطأ كامن في تنفيذك بأمانة ما يفضي الى عمل الشرّ. وانت تعلم ان اردأ الافعال السيئة هي المثابرة على التشبث بالغلط. لأن هذا الانحراف يحيد عن الطريق القويم، باعتبار ان الكذب يداوي الكذب، كما ان الإلتهاب يعالج الالتهاب في عروقٍ حرقها الكيّ. المبادئ الدينية تجبر الانسان على التقيّد بالنذور، لكنك انت حلفت بما يتعارض وتعاليم الدين. ولضمان محافظتك على الايمان نقضتَ قسمك بحلفان آخر. بينما القسم الذي يؤدّيه المرء بدون قناعة ليس بحلفان بل هو نوع من المكر والخداع. هكذا يأتي القسم كأنه مهزلة ذريّة،

فيكون نذرك الاخير على عكس نذرك الاول، ويكون في الحقيقة ثورة تشنّها على ذاتك. ولن يتسنى لك ان تفوز بأي نجاح ملموس إلّا اذا كبحت جماح انانيتك وانتصرت بنبل وترفّع على هذه الخساسات الهوجاء. ولعلّ مقاصدنا الصالحة والتماساتنا وتضرعاتنا تساعدك اذا تنازلت الى اقتبالها بروح سمح وصدر رحب. وإلّا، كن على يقين بان لعناتنا ستلحق بك الى القبر، ثقيلة الوطأة الى حدّ ان تريدك في هوّة اليأس والقنوط وتجعلك تنوء تحت وقر أحمالها المرهقة.

الارشيدوق : لا يغرب عن بالك ان التمرد يستفزّ التمرّد.

اللقيط : اجل، اجل. أولا يوجد جلد ضبع لسدّ هذا الفم المتشدّق ؟

لويس : يا ابتاه، هيا الى إشهار السلاح.

بلانش : (لولي العهد) : في يوم زفافك، ورغم ارادتي انا التي وافقت على الاقتران بك، هل تريد في مأدبة عرسك ان تقدّم ما قطعت من رؤوس الرجال ؟ وهلْ تنوي سماع الابواق المزعجة والطبول التي تصمّ الآذان كأنها منبعثة من اسفل دركات الجحيم، لا الموسيقى التي تشنّف الآذان اثناء حفلة زفافك. أيا زوجي العزيز، استمعْ اليّ. وا أسفاه، كم هو غريب هذا الصراخ الذي يخرج من فمي قسراً. فباسم الشخص الذي لم يلفظْه قط لساني قبل هذا النهار، أتوسّل اليك وانا جاثية على ركبتيّ ان لا تلجأ الى السلاح وتشهره في وجه عمك.

كونستانس : أرجوك، يا ولي العهد الفاضل، رحمةً بركبتيّ اللتين إخشوْشنتا منْ كثرة الركوع، أن لا تغيّر القرار الذي أعلنته السماء مسبقاً.

بلانش : الآن يسعني ان اعرف إن كنت حقاً تحبني، وأية صفة ستؤثر عليك أكثر من كوني زوجتك ؟

كونستانس : هذا هو أغلى ما جعلك تفتخرين به، وأعني الشرف.

فاحرص اذاً على شرفك يا لويس ؟

لويس : (للملك فيليب) : كم هي دهشتي عظيمة لرؤية جلالتك جامد الشعور عندما تزحمه مثل هذه المصالح الملحّة.

بندولف : سأنزل به الحرْم لا محالة.

الملك فيليب : (للكردينال) : لست بحاجة اليه... (للملك جون) : سافترق عنكِ ، يا انكلترا.

كونستانس : ما اروع رجوع جلالتك بعد النفي.

اليونور : وما أحطّ خيانة فرنسا المقبلة.

الملك جون : (للملك فيليب) : ستتحسّرين على هذه اللحظة المؤاتية، قبل مرور ساعة من الزمن، يا فرنسا.

اللقيط : ستزرف فرنسا دموعها السخينة مهما رؤف بها الزمان المتقلّب.

بلانش : الدماء تغطّي عين الشمس رغم صحو النهار، فالوداع اذاً. في أي اتجاه عليّ ان اسير ؟ انا مع هذا وذاك، والجيشان يمسك كل منهما بإحدى يديّ ويشدّها نحوه حتّى يكاد يخلعها بعنف مؤلم. (لولي العهد) : لا استطيع ان اصلي لاجل انتصارك، يا زوجي الحبيب. (للملك جون) وانت، يا عماه، يتحتّم عليّ ان اصلّي لأجل هزيمتك وانكسارك. (للملك فيليب) اما انت، يا ابي، فلا يسعني أن ألتمس لك الحظ السعيد. (للملكة الام) وانتِ، يا جدتي، لا سبيل لي إلّا ان اتمنى تحقيق أمنياتك. فالظافر كائناً من كان، لن ينوبني منه إلا الخسران، وأنا على يقين بأني الخاسرة قبل أن تظهر نتيجة المعركة.

لويس : ظلّي الى جانبي، يا سيدتي، لأن حُسْن الطالع لن يحالفك إلا بصحبتي.

بلانش : لا تنسْي ان ما ينعش آمالي قد يهدم حياتي.

الملك جون : (للقيط) : يا ابن عمي، إذهب واجمع قوّاتنا (يخرج اللقيط.

للملك فيليب) أيها الفـرنسي، يضايقنـي غضبك المحـرج، ويحرقني لهيبه الذي لا تطفئه سوى اراقة دماء فرنسا ودمه هو الغالي.

الملك فيليب : غضبك لن يحرق إلا شخصك ويحوّلك الى رماد، قبل ان يطفئ دمك لهيبه. فاحذر من نفسك لأنك في خطر داهم.

الملك جون : ليس أكثر من الشخص الذي يهدّد حياتي... هيا الى السلاح، ولنتقدّم بخطىً ثابتة. (يخرجون).

المشهد الثاني

في سهل قرب انجيه. تسمع موسيقى الانذار.

(يتحرك الجنود على خشبة المسرح).
(يدخل اللقيط حاملاً رأس الارشيدوق).

اللقيط : صدّقني. لقد أصبحت حرارة الشمس في هذا النهار لا تُطاق. فأي شيطان من الفضاء يصبّ علينا حمم الدمار. أيها الرأس النمساوي، ارتحْ ها هنا ريثما يُتاح للملك فيليب أن يتنفّس الصعداء. (يلقي الرأس إلى الأرض).

(يدخل الملك جون، سائقاً أمامه ارثور سجيناً، ثم يدخل هيوبرت).

الملك جون : يا هيوبرت، أحرس هذا الولد. (للقيط) يا فيليب، لنحسم الأمر بسرعة. فإن والدتي محاصرة في خيمتنا ومحبوسة هناك. لذا انا خائف عليها.

اللقيط : لقد خلّصتها أنا، يا مولاي، وسموّها الآن في أمان، فلا تخشَ اي مكروه. الى الامام، يا مليكي المفدّى. وبقليل من الجهد نصل بهذه العملية الى شاطئ الأمان.

(يخرجان).

المشهد الثالث

(حركة جنود بالإنسحاب. يُشاهَد الملك جون عائداً تصحبه الملكة الأم اليونور، وهيوبرت ممسكاً بيد أرثور، ثم اللقيط ولوردات انكليز)

الملك جون : (للملكة امه) : هذا ما سيتمّ عمله. ستبقين انت في المؤخرة مع قسم من الجيش. (لأرثور) وانت يا ابن العم، لا تكن حزيناً. فإن جدّتك تحبك وسيكون عمك العطوف لطيفاً معك تماماً نظير ما عهدته في ابيك.

ارثور : لكن الغم سيقتل أمي.

الملك جون : (للقيط) : لا تقل نعم لانكلترا، يا ابن عمي. بل سارع الى أخذ المبادرة. وقبل مجيئنا، عليك ان تهزّ اكياس نقود هؤلاء الرهبان، لتطلق سراح ملائكتهم المسجونة وهي مصنوعة من الفضة. لا بد لجياع الحرب ان ان يشبعوا من خيرات السلم. ويمكنك استخدام سلطتي الى اقصى مداها.

اللقيط : لن يؤخرني قرع الاجراس ولا تلاوة كتب الصلاة ولا إضاءة الشموع عندما يستدرجني رنين الذهب ولمعان الفضة للتقدّم والهجوم. سأغادر سموّك (للملكة الأم) وانتِ، يا جدتي، وإن لم اتذكّر قط اني من الاتقياء، سأصلي لأجل خلاصك، وها أنا أقبّل يدك المباركة.

اليونور : الوداع، يا ابن العم. (يخرج اللقيط) لي كلمة اقولها لك.

(يترك ارثور يد هيوبرت ويذهب الى الملك الام التي تأخذه جانباً. ينسحب اللوردات الى مؤخرة خشبة المسرح).

الملك جون : تعالَ الى هنا، يا هيوبرت. (يتقدم هيوبرت نحو الملك) ما ألطفك، يا هيوبرت، نحن مدينون لك بالكثير. في هذا المكان إنسان يعتبر ذاته مديناً لجميلك يودّ أن يسدّد لك ما يوازي إخلاصك وتفانيك. يا صديقي العزيز، قَسَمك الطوعي

يحيا هنا في قلبي، وانا احفظ لك أصدق المودّة. هات يدك... فلديّ ما اقوله لك. لكني أحتفظ به لمناسبة افضل بحقّ السماء، يا هيوبرت، كم أريد ان أُبيّن لك مدى تقديري ولاءَك لي.

هيوبرت : انا لا انسى افضالك، يا صاحب الجلالة.

الملك جون : يا صاح، ليس ما يحملك على التصريح بذلك. لكن الظروف القادمة ستضطرك الى اعلانه، ومهما تأخّر الوقت ستساعدني الاحوال على ردّ المعروف اليك بودّي ان اصارحك بأمر... لكني افضّل ان أدعه لفرصة اخرى الشمس تسطع في كبد السماء، وقد وضح النهار بما فيه من ملذات العالم المستهتر، ومباهجه الساحرة التي تملأ قاعة اجتماعاتي... اذا دقّ الناقوس الليلي بلسانه الحديدي وفمه النحاسي ذات ساعةٍ في الآذان المتناومة ليلاً. وإذا بتْنا هنا في مقبرة، وكان يسكنك الف روح نجسٍ. واذا كان هذا المزاج القاتم وهذا الحزن الكئيب قد جفّف جلدك وكثّف دمك، هذا الدم الذي يجري في عروقك ويهدهد أحلامك ويرسم في عينيك ضحكة سخيفة ويمسح خدودك بفرحة مهووسة .وإحساس بغيض بالنسبة الى مشاريعي الغريبة. واذا كان باستطاعتك ان تراني وعيناك مغمضتان وتسمعني واذناك مسدودتان وتجيبني وصوتك مخنوق، معتمداً على تفكيرك فقط بدون ان تلجأ الى نظرك وسمعك وهمس كلامك الذي تقطعه الغصة. حينئذ رغم نور النهار الذي يغمرنا بوهجه، أبثّ في أعماق وجدانك أفكاري الخفيّة بدون أن أقوم بأي عمل سواه... مع ذلك أنا أحبك كثيراً وأعتقد بأنك أنت أيضاً تكنّ لي محبة فائقة إلى حدّ أنك ستطلب مني عندما يحين أجلي أن أنفّذ ما تطلبه مني، بحق السماء، إكراماً لعينيك.

الملك جون : نعم، أنا على يقين بأنك فاعل. يا هيوبرت الطيب القلب، ألقِ

نظرة على هذا الصبي، ليتأكّد لك أنه ثعبان خبيث ناعم الملمس يعترض سبيلي. وحيثما وطأت قدماي الأرض اراه أمامي زاحفاً متربّصاً بي. هل تفهم ما أقول ؟ أرجوك أن تسهر عليّ كالحارس الأمين المتيقّظ لتحميني من شرّه.

هيوبرت : سأسهر عليه ايضاً بيقظة وحذر لأمنعه من اصابتك بأي مكروه، يا صاحب الجلالة.

الملك جون : أشعر بالموت يدنو مني.

هيوبرت : لماذا تقول هذا، يا مولاي ؟

الملك جون : وأنا أهرول الى قبري بعجلة.

هيوبرت : إطمئن، يا صاحب الجلالة، لن يعيش من يمسّك بأذى.

الملك جون : كفى. ها هي السكينة تعود الآن الى قلبي المضطرب. أنا أحبّك، يا هيوبرت... هيا بنا ننطلق معاً. لن أقول لك ماذا اودّ ان افعل لأجلك. لا تنسَ... (يقترب من الملكة الام) الوداع، يا سيدتي الوالدة. سأرسل لك بعض القوّات لتمكث الى جانبكِ ، يا صاحبة الجلالة.

اليونور : لتحلّ عليك بركتي، يا ولدي.

الملك جون : (لأرثور) : هذا يكفي انكلترا، يا ابن عمي... سيكون هيوبرت الرجل الذي تحتاج اليه، ويسعك ان تتكل عليه. سيخدمك بكل ما يحق لك من الاخلاص والاحترام. اما أنتم، أيها الرجال، فسيروا نحو مدينة كاليه. (يخرج الجميع).

المشهد الرابع

في خيمة ملك فرنسا

(يدخل فيليب ملك فرنسا، ثم لويس وبندولف والحاشية).

الملك فيليب : هكذا بسبب عاصفة رفعتْ من الأمواج جبالاً، تفرّقتِ المراكب الحربية وتبدّدت أشلاؤها وفُقِد الاسطول بكامله.

بندولف : مهلاً وصبراً. فكل حال مهما ساء سيتحسّن.

الملك فيليب : ما الذي سيتحسّن بعد هذه الكارثة الفادحة ؟ وقد نزلت بنا هذه الهزيمة الماحقة. مدينة انجيه لم تخسرِ المعركة، وارثور أصبح اسيراً، وعدد كبير من اصدقائنا قد قُتل. أما الانكليزي المضرج بدمه فلم يعد الى انكلترا، بعد أن تغلّب على كل مقاومة رغم انف فرنسا.

لويس : ان ما استولى عليه الانكليزي قويّ وضعه بمثل هذه السرعة المحسوبة بمهارة فائقة وتدبير حكيم في سباق جنوبي لا مثيل له. من ذا الذي قرأ أو سمع رواية انجاز نشيط كهذا ؟

الملك فيليب : سأتحمّل راضياً مديح انكلترا هذا، اذا وجدنا فيه عبرة بعدما ألحق بنا من العار. انظر من يأتي الى هنا. ثم القِ نظرة على هذا الضريح الذي يسوده جوّ سجنٍ ابدي وقد ضمّ إنساناً مظلوماً.

(تدخل كونستانس مشعّثة الشعر).

الملك فيليب : (لكونستانس) : أرجوك، أيتها السيدة النبيلة ان ترافقيني.

كونستانس : ماذا تقول ؟ أهذه هي نهاية سلمك ؟

الملك فيليب : صبراً، يا سيدتي، تشجّعي، يا كونستانس.

كونستانس : كلا. انا أرفض نصيحتك وكل ما يرمي الى انهاض الهمم، ما عدا الاقلاع عن اسداء التوجيه الخيّر. لأن الخلاص الحقيقي

هو في الموت. فاسمعني جيداً ايها الموت الرحوم. الموت، ويا له من منقذ هذا الموت الشهيّ حتى إن كان انحلالاً محنّطاً. ايها الفناء المريح، أفِقْ من غفوتك اثناء ليلك الابدي. يا لهول ما تخلّفه من البؤس وما أبغض ما تثيره من الهلع المقيت. مع ذلك سأقبّل عظامك البشعة، وسأضع حدقة عيني في محجرك المجوّف، وسأجعل من دودك خواتم لأصابعي وسأسدّ فمي بترابك النتن، كي أصبح مثلك جيفة كريهة. هيّا، أسرع اليّ أيها الموت، وأنا اعتقد بأنك ستبسم لي، وسأدلّلك كما لو كنت شريك حياتي، هيا هيا تعال اليّ، يا حبيب شقائي.

الملك فيليب : ما هذا التفجع اليائس؟ هدّئي روعك.

كونستانس : لا، لا. انا لا اريد ان يهدأ بالي ما دام فيّ عرق ينبض لأصرخ: يا ليت لساني كفوهة المدفع المدوّي، لكنت ارعدت فرائص العالم باسره، وأيقظت في اعماقه رعشة منتفضة امام هذا الهيكل العظميّ المريع الذي يداهمني ولا يسمع صوتي النسائي الخافت الذي يأبي ان يلجأ الى اية وسيلة مفزعة.

بندولف : انّ ما تتلفظين به، يا سيدتي، يمتّ الى الجنون وليس تعبيراً عن الألم.

كونستانس : انت جاحد كافر تفتري عليّ. هذا الشَعْر الذي انتفه يخصّني، أنا كونستانس زوجة جوفروا، وقد خسر أرثور ابني كل ما كان له. أنا لست مجنونة، لا سمحت السماء بذلك. لكن، ربما خسرت نفسي. عليك ان تزوّدني بفلسفة لا تجعلني مهووسة فتكسب ثواباً جليلاً، ايها الكردينال. لأني ما دمت أتمتّع بكامل قواي العقلية واملك جميع إحساسي بالألم، فما في داخلي من منطق معقول يعلّمني كيف يتسنّى لي أن أتخلّص من كل هذه الشرور، أو يحملني على الانتحار بشنق

ذاتي. لو كنت مجنونة لنسيت ابني وفقدته لأجل الحصول على سراب. انا لست مختلّة، بل أنعم بكافة مشاعري وأحسّ بشتى عذاباتي وفواجعي (تغطّي وجهها بشعرها وتسترسل في النحيب).

الملك فيليب: إرفعي هذه الجدائل. فكم من الحب ألاحظ في هذه الخصل الذهبية الرائعة. ولو سالت دمعةٌ صدفةً من عينيك كاللؤلؤة، لتضافرت عشرة آلاف خيط ذهبي لتلقّي هذه الدمعة الغالية وكوّنت حولها شبكة واقية من آلامنا المشتركة، لأننا في الحقيقة اصدقاء أوفياء لا نفترق بل نظل دائماً أمناء تجمعنا كارثة شاملة.

كونستانس: (تنتف شعرها وتنثره في الهواء): طر إلى انكلترا، إذا شئت.

الملك فيليب: ارجوك ان تُزيحي شعرك عن عينيك.

كونستانس: سأزيحه... ولكن لماذا؟ عندما إستأصلته من جذوره صرخت: «يا ليت يديّ هاتين تقويان على انقاذ ولدي، كما منحت الحرية لشعري المتناثر في الهواء». الآن انا احسد شعري هذا على انطلاقته وسأحاول ردّه الى منشإه، ما دام ولدي المسكين لا يزال سجيناً. يا أبتِ الكردينال، سمعتك تردّد أننا سنشاهد ثانية احباءنا في السماء ونتعرّف اليهم. فان كان هذا صحيحاً سأرى ولدي حتماً. اذ منذ عهد قايين، وهو أوّل ولد ذكر، حتى بين الذين لا يتنشّقون إلا هواء الأمس القريب. لم يولد في العالم ألْطف وأظرف من ابني الحبيب. لكنه الآن معرّض لأن تنهش جسمه أنياب الحزن والفناء، وهو لا يزال برعماً، وسيسلبه ورد خدّيه الطبيعي، ويحفر أخاديد الشيخوخة في جبهته العالية ويجعله فريسة شحوب الحمّى وهزالها، فيموت هكذا ويُبعث حيّاً هكذا. وحين أُلاقيه في رحاب السماوات لن أعرفه أبداً. لذلك أُوقن بأني لن أشاهد ثانية ابني وعزيزي أرثور.

بندولف : ما بالكِ تنوئين تحت وقر العذاب وتستسلمين الى الانهيار ؟

كونستانس : أهكذا تكلمني، يا من حُرمت من نعمة الاولاد ؟

الملك فيليب : أنت مهووسة لما أصابك من الالم بقدار ما اثارته فيك حسرتك على ولدك.

كونستانس : لقد حلّ الألم في نفسي محلّ ابني الغائب عن عيوني. لا بدّ له من أن ينام في سريره ويذهب ويجيء بمعيّتي، ويتزيّى بمظهره المألوف ويردّد كلماته الحلوة ويذكّرني بجميع ألطافه ويرتدي ثيابه الخالية التي لم يعد يتسنّى له ان يلبسها. فكل الحق الى جانبي ان انا جننت من شدة اوجاعي. الوداع، يا من تحملت كافة الخسائر التي لحقت بي. فأنا أقدّم لك التعازي بصورة افضل من التي تكرّمت بها انت عليّ. (تنزع قبّعتها عن رأسها). لا أريد ان أترك هذه الزينة على رأسي حين يجتاح ذهني كل هذا التشويش والاسى. يا إلهي، لماذا حرمتني من ابني ارثور، ابني الوسيم ينبوع حياتي وسروري وعزائي وسائر دنياي وسند ترمّلي وشفاء جراحي

(تخرج).

الملك فيليب : أخشى أن تقدم على عمل مؤسف يوحي به اليها قنوطها. سأتبعها لأرى ما سيكون من أمرها.

(يخرج).

لويس : لا شيء في هذا الكون يسعه ان يدخل الفرح الى فؤادي المكلوم. أجد الحياة باهتة كقصة يُعاد سردها تكراراً وتصمّ الأُذن التي اصابها الطرش في إنسان منهوك القوى. وهذه مرارة العار التي أفسدت حلو مذاق كل ما يخصني وأضحى طعمه كريهاً كالحنظل والخيبة والمذلة.

بندولف : قبل شفاء المرض العضال الشديد الوطأة، وعند عودة الصحة الى بدن العليل تتضاعف الأزمة في داخله عادةً، لأن الآلام

التي تفارقنا تصرّ على إشعارنا لا سيما في الفترة التي تسبق زوالها بما تنطوي عليه من خبث وضراوة. فماذا خسرت بمن فقدته في هذا النهار ؟

لويس : كل ايام مجدي وفرحي وهنائي.

بندولف : لو ربحت في هذا اليوم لخسرت الكثير حتماً في الغد. لكن لا، لا. فالحظ عندما يريد أن يبسم للمرء، لا يُستبعد أن ينظر اليه ايضاً بعين الغضب والتهديد. ومن الغريب ان نفكّر بمقدار خسارة الملك جون الذي أوشك ان يفوز وينتصر على أخصامه. أولم تتكدّر لعلمك بأن أرثور اصبح سجيناً ؟

لويس : بالعكس، غمر السرور قلبي تماماً كما اسعده الحظ للاحتفاظ به كأسير.

بندولف : تفكيرك صبياني نظير ذهنك الفتي. إصغ الآن اليّ، اذ اني سأكلمك بروح النبوءة. ان مجرد التلفّظ بكلماتي سيزيل أقل ما يمكن من الغبار، وأصغر قشّة واخف عقبة من الدرب الذي يؤدي بك الى حقك بعرش انكلترا. ولذلك اسألك ان تتبع حديثي بكل انتباه : جون أخذ أرثور أسيراً. وما دام قلب هذا الولد ينبض بالحياة ستظل الشعلة متّقدة في عينيه ويستحيل على المغتصب جون أن يحظى بساعة أو دقيقة من الهدوء. ماذا اقول ؟ بل بلحظة سكون وارتياح. لأن إمساك شبح مثله بيد من حديد، لا بدّ من حراسته بعنف كما تمّ أسره وسجنه. ومن يقف على منزلقٍ حادّ الانحدار لا يحجم عن التشبث بأوهى من خيط العنكبوت. ولكي يوطّد جون أقدامه يتحتم على ارثور ان يتقلّص ويزول من عالم الوجود. هكذا كان دوماً حال الامراء، ولم يتمكن مصيرهم من الانتهاء الى غير هذا المآل.

: ولكن ماذا يفيدني انا سقوط الفتى ارثور ؟

بندولف : انت، بإسم زوجتك السيدة بلانش، يسعك ان تطالب بجميع حقوق ارثور.

لويس : وأخسرها كلها بالمحافظة على حياتي، تماماً كما حلّ بهذا الأخير.

بندولف : كم انت حديث السنّ وقليل الخبرة والنضوج بالنسبة الى مشاكل هذا العالم العتيق. جون يتآمر لأجل مصلحتك، وعلى وجودك انت تتآمر الاحداث. ومن يغمس أمانة بالدم الزكي لا يلاقي إلا هدنة ملطخةً بالدماء الدنسة. هذا العمل الذي ادّى اليه اللؤم سينفّر منه قلوب جميع رعاياه ويشحذ نقمتهم عليه الى حدّ انهم يتحيّنون الفرص ليدحرجوا التاج عن رأسه. لن يكون هناك عواطف مسالمة من وحي السماء ولا اهواء غريزية ولا ايام مغايرة لموسمها ولا عواصف موسمية ولا احداث بديهية لن تُجرّد من اسبابها الواقعية التي تعتبر كالغرائب الفضائية والمعجزات والعلامات الرهيبة والتنبؤات وصرخات السماء التي تشجب في العلاء فكرة الانتقام من جون.

لويس : قد لا يمسّ حياة الفتى ارثور، اذا اطمأن الى سجنه فقط.

بندولف : آه، يا ولدي، عند اول خبر عن إتصالك به، اذ لم يكن ارثور الفتى قد رحل، سيموت حتماً. وعندئذٍ ستبتعد جميع النفوس عن جون وتنقلب عليه. وكلهم سيرحّبون بالتبدّل المفاجئ ويعبّرون عن رغبتهم في التمردّ والسخط على جون لان يديه تلوّثتا بدم بريء. يخيّل اليّ اني ارى الشعب قائماً على قدم وساق. ولكن، ها هي الامور تترتب وتصبح أحسن مما توقعته انا. فلقيط فولكنبريدج هو الآن في انكلترا، ليقوّض المعبد على من فيه ويقضي على روح الدين والتقوى، ولو كان هنا إثنا عشر فرنسيا كطُعم لاصطياد عشرة آلاف انكليزي، أو ككرة ثلج صغيرة تتدحرج من علو شاهق

وتصبح كتلةً هائلة تسحقه. يا ولي العهد النبيل، تعالى معي لنذهب الى الملك... ان ما يمكننا ان نستخلصه من هذا التغيير حقاً لعجيب، لا سيما الآن وقد ضاقت جميع الخلائق ذرعاً بهذا الاعتداء السافر. لا بدّ من رحيلنا الى انكلترا لنهزّ عرش الملك.

لويس : أجل، دقّة الحسبان تحقّق أغرب الأعمال. هيّا بنا. فإن أجبت أنت بنعم، لن يقول الملك لا.

(يخرجون).

الفصل الرابع

المشهد الأول

في السجن.

(يدخل هيوبرت واثنان من الجلادين).

هيوبرت : (للجلاد الأول) : حمّي لي هذين القضيبين الحديديين. (للجلاد الثاني) وانت اختبئ خلف هذه الجدرانية. وحالما أضرب قدمي بالأرض تبرز وتشد الى المقعد بمتانةٍ وثاق الولد الذي تجده الى جانبي. كن يقظاً. اخرج الآن وانتبه.

الجلاد الأول : آمن ان تضمن هذه العملية وتتحمّل مسؤوليتها.

هيوبرت : تعالَ الى هنا، ايها الشاب، فلديّ ما اقوله لك.

(يدخل ارثور)

ارثور : نهارك سغيد، يا هيوبرت.

هيوبرت : نهارك سعيد، ايها الامير الصغير.

ارثور : انا اصغر امير، ولي من الحقوق كأكبر أمير... هل انت حزين ؟

هيوبرت : فعلاً. فيما مضى كنت اكثر سروراً ممّا انا الآن عليه.

ارثور : سامحني الله. لا أحد، على ما يظهر، يتسنّى له ان يكون اشد كآبةً مني. مع ذلك انا اتذكر، عندما كنت في فرنسا، عدداً من الوجهاء الذين كانوا يتمنون ان يسيطر عليهم النسيان ليلاً للتغلّب على شعورهم بالحزن نهاراً. يذمّتي، لو كنت خارج السجن أرعى خرافي لابتهجت طوال النهار، ولسعدت أيضاً هنا لو لم يخامرني الشكّ بان عمي لا يزال يضمر لي الشر. هو يخافني، وانا اخشاه. فهل الذنب ذنبي إن كنت أنا ابن جوفروا ؟ كلّا ثم كلّا. كم اتمنى ان اكون ابنك بشرط ان تحبني، يا هيوبرت

هيوبرت : (على حدة) : اذا كلّمته بلهجته البريئة، سيستدرّ شفقتي وإن كانت دفينة. لأعملْ اذاً بسرعة وأبادر الى تنفيذ مهمتي بعجلة.

ارثور : هل انت مريض، يا هيوبرت ؟ لماذا أراك اليوم شاحب اللون ؟ في الحقيقة، قُلْ لي إن كنت منحرف الصحة قليلاً كي اسهر عليك طوال الليل. أؤكد لك أني أحبك اكثر مما تحبني انت.

هيوبرت : (على حدة) : كلماته تأخذ بمجامع قلبي. (بصوت مرتفع) اقرأ هذا، ايها الفتى ارثور. (يمد اليه ورقة. على حدة، وهو يمسح عينيه) ما هذا التباكي السخيف ؟ ألا أقوى على طرد عذابي الأليم ؟ عليّ ان أتخلّص منه خوفاً من ان يهرب تصميمي وعزمي من عينيّ نظير دموع النساء. (بصوت مرتفع لأرثور) ألا تستطيع القراءة ؟ هل الكتابة غير واضحة ؟

ارثور : بالعكس هي واضحة جداً بالنسبة الى عمل بشع كهذا. هل يتحتم عليك ان تحرق لي عينيّ بهذين القضيبين المحمّيين ؟

هيوبرت : لا بد من ذلك، كما تلاحظ، أيها الفتى.

ارثور : وهل انت عازم على تنفيذ هذا العمل القبيح ؟

هيوبرت : نعم سأقوم به.

ارثور : وهل بلغت بك قساوة القلب الى ارتكاب هذه الفعلة الرهيبة ؟ عندما اصابك مرةً صداع ربطتّ منديلي حول جبينك، وهو منديل رائع زركشتْه لي اميرة شابة، ولم اطالبك بردّه لي. وأثناء الليل أمسكتُ مراراً برأسك بين يديّ وسهرتُ عليك طوال ساعات العتمة، وانا اقول لك : « ماذا تريد ؟ أين وجعك ؟ وأية خدمة تودّ أن أؤدّيها لك ؟ » كم من الاولاد الفقراء ظلّوا هادئين في مثل وضعك، ولم تبدر منهم كلمة مزعجة. أمّا أنت فقد تسنّى لك أن يسهر عليك ويمرّضك أمير. مهما يكن الامر، لا أستغرب ان تظنّ بأن حنوّي هو عطف مصطنع وتعتبره حيلة. إعتقد ما يحلو لك. واذا، لا سمح الله، شئت ان تسيئ معاملتي، فلا تتردّد لحظةً... هل تريد ان تفقأ لي عينيّ اللتين لم تشاءا أن تُلقيا عليك نظرة واحدة لائمة ؟

هيوبرت : لقد اقسمتُ على تنفيذ ما أُمرتُ به. ولا بدّ لي من احراقهما بقضيب حديدي محمّى.

ارثور : آه ! ليس من بشري إلّا في هذا العهد القاسي كالفولاذ، يودّ تنفيذ صنيع مشين كهذا. فالحديد مهما كان حامياً محمرّاً حين يدنو من عيني ستقاومه دموعي وتطفئ جذوة سعيره وداعةُ براءتي. نعم، ثم يصدأ ويتلف لمجرد اقتراب اللهيب الذي يلتهم بصري. فهل تكون أعند من الحديد المحمّى كأنه معدّ للتطريق ؟ آه، لو جاءني أحد الملائكة وأنبأني بأن هيوبرت سيفقأ لي عينيّ، لما صدّقته، إلّا اذا خرج هذا من فم هيوبرت ذاته.

هيوبرت : (يضرب الارض بقدمه) : اليّ، اليّ.

(يدخل الجلادان حاملَين حبالاً وقضيبين حديديين وغيرها).

هيوبرت : إصنعا ما أطلبه منكما.

ارثور : أنْجُ بنفسك، يا هيوبرت، أنجُ بنفسك. لقد أصيبت عيناي منذ الآن بالعمى، لمجرد رؤيتي منظر هؤلاء الرجلين الرهيبين.

هيوبرت : (للجلادين) : اليّ بقضيب الحديد. هيا اربطاه هنا.

(يأخذ هيوبرت القضيب المحمّى المحمرّ، ويمسك الجلادان بأرثور لربطه بوثاق الى المقعد).

ارثور : (للجلادَين) : وا أسفاه. ما حاجتكما الى هذه القسوة الوحشية التي تسيطر عليكما ؟ انا لا يسعني ان أقاومها. سيجنّ جنوني. فبحقّ السماء، يا هيوبرت، لا تربطني. هيا استمع الي توسّلي واصرف هذين الرجلَين. وانا اعدك بأن اظلّ وديعاً كالحمل. لن اتحرّك، ولن اقفز ولن أُنطق بكلمة واحدة. لن اتطلّع الى هذا القضيب الحديدي بغضب. فأبعد هذين الرجلين عني واصرفهما. وانا اسامحك بكل العذابات التي اذقتني اياها.

هيوبرت : (للجلادين) : انتظراني خارجاً، واتركاني وحدي معه.

الجلّاد الأول : أنا مغتبط لأني لم اشترك بهذه الفعلة الشنعاء. (يخرج الجلادان).

ارثور : يا للاسف. لقد طردت صديقاً له سحنة غريبة، لكن طيبة قلبه ظاهرة. (لهيوبرت) دعه يرجع. أتمنى ان تعيد شفقته الحياة الى عواطفك.

هيوبرت : هيا، يا فتى، استعد للامر.

ارثور : ألم يبقَ من وسيلة لتغيير تصميمك هذا ؟

هيوبرت : كلا، ليس لي من إجراء آخر مقرّر لك، سوى إفقادك بصرك.

ارثور : ايتها السماء، لو كان في عينك جزء قذى أو حبة تراب أو بعوضة او شعرة تائهة أو أصغر ذرّة. تضايق هذه النظرة الهائمة لأحسست بمقدار ما يولّده من الألم هذا التصرّف

الحقير ولحملك على لمس دناءة هذا العمل المريع.

هيوبرت : هل هذا كل ما تصارحني به ؟ يجدر بك ان تصون لسانك.

ارثور : يا هيوبرت، لن يكون اعتراض شخصين كثيراً في الدفاع عن بصر عينين إثنتين. لا تطلب مني ان أصون لساني. نعم، لا تطلب ذلك مني، يا هيوبرت، إلّا اذا شئت ان تقطع لساني وأن تبقي لي نور عينيّ. ارجوك ان تحفظ لي نظري، وإن لم يفدني إلا بمشاهدتك انت فقط على الدوام. ألَا تجد ان القضيب قد برد ولن يأتي بأي مفعول.

هيوبرت : يمكنني ان احمّيه ثانية، يا ولدي.

ارثور : لا، صدّقني ان النار قد خبا لظاها وأصابها الخمود، اذ أدركت انها تأججت أصلاً لرفاهيتي، وإذا بها تُستخدم لمضايقتي بعنف لا أستحقّه. انظر انت بنفسك الى هذه الجمرة التي لم يبقَ فيها اية قدرة على إلحاق الضرر بأحد. فقد أطفأت رياح السماء هذه الجذوة التي همدت وغطّاها رماد الندم.

هيوبرت : انا باستطاعتي ان أزكي لهيبها ثانية، يا ولدي.

ارثور : اذا واصلت مسعاك، لن تتوصل إلّا الى جلب العار على نفسك، وتمسي نظير وحش ضار محصور في زاوية ومضطر الى المهاجمة إذْ لا يجد مفرّاً للتراجع أو للهرب. ان كل ما توسّلته لايقاع الأذى بي لم يطاوعك عليه ضميرك، فعمدت الى استنفاد كل امكانياتك للتغلّب عليه بدون رحمة، ولا شفقة.

هيوبرت : لا بأس، سترى بذاتك في الأيام القادمة، اني لا اريد أن أمسّ عينيك بسوء، ولو منحني عمك كل ما لديه من كنوز الأرض. مع اني اقسمت له، يا ولدي، ان افقأهما بهذا القضيب الحديدي المحمّى.

ارثور : انت الآن تتكلّم بصورة معقولة، يا هيوبرت، وكنت منذ برهة مختبئاً خلف قناع من الطغيان والغموض.

هيوبرت : هدّئ روعك، ولا تنطق بكلمة اخرى بعد الآن. الوداع. لا بدّ من ايهام عمّك بأنك أصبحت في عالم الأموات. وأنا عازم على تزويد جواسيسه، هؤلاء الكلاب المسعورة، بتقارير مغلوطة مضلّلة. فاستحلفك بكل عزيز لديك ان لا تقلق ولا تخش اي مكروه.

ارثور : تباركت السماء. اشكرك جزيل الشكر، يا هيوبرت.

هيوبرت : اسكت، ولا تتلفّظ بأية عبارة، اخرى. لنخرج معاً بسريّة تامّة. لأني اعرّض حياتي هكذا لأخطار رهيبة. (يخرجان).

المشهد الثاني

في قاعة القصر الكبرى.

(يدخل الملك جون وعلى رأسه التاج، ثم بمبروك وسالزبري، وغيرهما من اللوردات. يصعد الملك للجلوس على عرشه).

الملك جون : ها أنا أجلس ثانية على عرشي والتاج يكلّل رأسي. وكلكم تنظرون اليّ بعيون البهجة والفرح.

بمبروك : هذا التتويج الثاني، لو لم يلذّ لك القيام به، لم يكن له من موجب. اذ سبق وتُوجّت شرعياً قبل الآن، ولم تُنتزع منك سلطتك العليا في اي وقت من الأوقات، ولم يزعزع إيمان الشعب بك أي تمرّد او انقلاب، ولم يعكّر صفو أمن البلاد أي شغب ناجم عن حسم أو طمع بإقامة نظام جديد أو إنشاء دولة فضلى.

سالزبري : هكذا جاءت مضاعفة الأبهة لتزيد وهج لعبةٍ زاخرة بالامجاد، ولمعان الذهب الخالص، وإبراز بياض الزنبق الناصع، ورش العطر على زهور البنفسج ومسح صفحة المرآة لإجلاء ما

تعكسه من صُوَر، وإضافة لون جديد على الوان قوس قزح او محاولة رفع المشعل الى كبد السماء المزدانة بما لا يحصى من الكواكب والنجوم، وكل هذه زوائد غير ضرورية لا حاجة ماسّة تفرضها.

بمبروك : لقد تمّ ذلك لإرضاء خاطرك، يا صاحب الجلالة. اذ جاءت نظير قصة قديمة تُحكى للمرة الثانية مع ان الجميع لا يزالون يتذكرونها.

سالزبري : انا لست من هذا الرأي، لأن عملاً كهذا يمحي من الاذهان روعة الاحتفال الاول الاساسي، وكالرياح الهوجاء المتلاعبة بالشراع الهادئ، يشوّش الأفكار في أعماق الضمائر ويخلق الظنون في النوايا الطيبة ويثير الشبهات في حقوق موطّدة بما يُلقى عليها الآن من وشاح جديد.

بمبروك : العمال الذين يجتهدون لتسحين انتاجهم يفقدون مهارتهم في سبيل طموحهم، غالباً بمحاولة ستر غلطهم، أو بتسبيب العمى للعين وهم يكحلون اهدابها بقصد تجميلها. وهكذا عندما يُراد اصلاح شائبة طفيفة كثيراً ما يتّسع الخرق فيبدو العيب أبشع مما كان عليه قبل محاولة ازالته.

سالزبري : قبل تتويجك الثاني، همستُ بمحاذير هذه الرغبة لتلافي إجرائها حسب ما ارتأيته في هذا الموضوع لكن سموّك لم تُعِر قولي اذناً صاغية. وهكذا سرّنا جميعاً تحقيق هذه الرغبة لأن ارادتنا توقّفت عند مشيئة جلالتك.

الملك جون : لقد ابديت لكم بعض الاسباب التي دعتني الى إجراء هذا التتويج الثاني، واعتقد بأنها مقنعة. وعندما تزول مخاوفي تماماً سأطلعكم على أهم الأسباب التي أدّت الى تشبّثي بذلك. وبانتظار هذه الفرصة ارجو ان تدلّوني على التماديات التي تتمنّون تلافيها وستلمسون مدى ما أبذله من الاهتمام للنزول عند طلباتكم.

بمبروك : انا الذي امثّل صوت الجميع واستطيع ان اعبّر عما يخالج اذهان الاغلبية من إفكار، باسمهم وباسمي الشخصي، ولا سيما لأجل سلامتك، يا صاحب الجلالة، ألْتمس منك ان تطلق سراح أرثور. لأن أسره يطلق الالسنة في تضخيم الاستياء العام لإثارة هذا الكلام امامك. واخيراً بما ان ما تمتلكه بالسلم يعود اليك بالحق، لماذا تدع الخوف، يضنيك، كسَيْفٍ مسلّط على رأس الجاني، من جرّاء سجْن نسيبك اللطيف بغية طمس معالم وجوده وتجاهله وإهماله بدون علم ولا معرفة ولا تربية لائقة بمقامه الرفيع ؟ ولكي لا تترك مجالاً لأخصامك البارزين، ولا تستهدف مضاعفة الأقاويل بهذه المناسبة، يجمل بك ان تبادر، يا صاحب الجلالة، الى منح ارثور حريته وإطلاق سراحه. أجل، نحن كلنا نلتمس منك هذا، لا لأنه في صالحنا فقط بل لأن مصلحتنا هي مصلحتك ايضاً. لذا نسألك بإلحاح ان تعتبر مطالبتنا بحرّيّته هي من صميم مصلحتك المقدسة.

الملك جون : لكن لكم ما تريدون. ها انا اضع مصيره في تصرف إدارتكم.

(يدخل هيوبرت)

الملك جون : (يواصل كلامه) : ما وراءك من الأخبار، يا هيوبرت ؟

(الملك يجر هيوبرت جانباً ويحدّثه بصوت خافت).

بمبروك : (يشير للّوردات الى هيوبرت) : هذا هو الرجل الذي كان مزمعاً ان يقوم بالعمل الدموي، وقد أُري احد اصدقائي الأمر الخطّي الصادر إليه بهذا المعنى. وها هي صورة الشرّ الشنيعة بادية في عينيه، ومظهره المريب يدلّ على ما يعتمل في أعماقه من اضطراب، واخشى ان يكون قد نفذّ ما نتمنّى عدم وقوعه.

سالزبري : ان وفاءه للملك يطغى على ضميره نظير المنادين الساهرين

على تقليص خطر التهديد بالهجوم والإبادة بين جبهتي قتال. وها هو تأثّره يتفاقم الى حد الانفجار.

بمبروك : واذا انفجر، اخاف ان تنجلي الحقيقة البشعة عن مقتل ولد وديع كالحمل.

الملك جون : (يتقدّم) : لا يسعني ان امنع إمتداد يد المنيّة، ايها السادة الاجلاء، رغم رغبتي الملحة في العفو. لقد سبق السيف العزل، وموضوع إلتماسكم لم تعد استجابته في حيّز الامكان لانني علمت ان ارثور قد توفّي اثناء الليل الفائت.

سالزبري : انا خشيت ان لا يكون لعلّته من شفاء.

بمبروك : فعلاً، أنا على يقين بانه أشرف على الموت، حتى قبل ان يشعر هو ذاته بمرضه. وهذا ما تحتّمت الإجابة عليه هنا أوْ في أي مكان آخر.

الملك جون : (للوردات) : لماذا تلقون عليّ هذه النظرات اللائمة ؟ هل تعتقدون بأن يدي تقوى على ايقاف المصير عن مواصلة مسيرته، أو أنّ لي سلطاناً على جعل الحياة تنبض باستمرار في عروق البشر ؟

سالزبري : (لسائر اللوردات) : نوايا الخداع بادية للعيان. ومن العار على العظماء أن يرتكبوا هذه الشائنة الدنيئة. (للملك) هل لك ان تربح في هذه اللعبة ؟ على كل حال، الوداع.

بمبروك : تمهّل قليلاً، يا سيدي سالزبري. انا ذاهب بصحبتك لأبحث عن ميراث هذا الولد المسكين، وعن ضريح بسيط يضم جثمان هذا المغدور. اذ يكفي مدى ثلاثة أقدام لإحتواء هذا الفتى الذي أوشك ان يحكم جزيرتنا. لكن العالم الفاسد الشرير عاجله بحرمانه نعمة الحياة. وهذه قضية لا يجوز الإغضاء عنها بمثل هذا الاستخفاف. فآلامنا على غيابه تطغى على عقولنا، وقد توقّعت أنا هذه النهاية الكئيبة قبل حدوثها.

(يخرج اللوردات).

الملك جون : الحزن والاسف ينهشان فؤادي. انا متحسّر على ما جرى. اذ ليس من اساس متين يمكن أن يرتكز على إراقة الدماء، ولا وجود لأمن يضمنه موت الآخرين.

(يدخل رسول).

الملك جون : الخوف ظاهر في نظراتك. أين اللون الوردي الذي كنت أشاهده على خدودك ؟ أمّا هذا الجوّ المكفهرّ فلا تنقشع غيومه الدكناء بدون عاصفة ترسل زخّات من المطر. أطلق سبيل خصمك... كيف الحال في فرنسا ؟

الرسول : من فرنسا الى انكلترا... لم يشهد احد مثل هذه القوّات في حملة انطلقت من قلب ارضنا الى خارج البلاد. لقد عرف أعداؤك كيف يستخدمون السرعة التي إمتزت أنت بها في الماضي. إذْ عندما كان من المفروض ان تعلم باستعدادهم، بلغنا النبأ بأنهم قد وصلوا جميعاً الى المكان المقصود.

الملك جون : اين كان رجال امننا يسكرون ؟ واين كانوا يغطّون في نومهم العميق ؟ أين يقظة والدتي، وكيف تجمّعت كل هذه الجيوش في فرنسا، وهي غير عالمة بما جرى ؟

الرسول : يا مليكي المفدّى، لقد سدّ التراب اذنيْ والدتك النبيلة التي توفيت في أول يوم من نيسان. وعلى ما علمت، يا مولاي، ماتت السيدة كونستانس قبلها بثلاثة ايام في ازمة جنونية. فقد بلغني ذلك بغموض عن طريق الشائعات. ولست ادري ان كان هذا النبأ صحيحاً او لا.

الملك جون : اوقفي مسيرتك، ايتها الظروف المريعة. هيا ننشئ خط دفاع معاً، الى ان اتفاهم انا ومعاونيّ المستائين. ماذا تقول ؟ امّي ماتت ؟ آه، ماذا حلّ من نحس بمملكتي في فرنسا ؟ من أصدر الاوامر بالتحرك الى اراضينا الانكليزية ؟

الرسول : هو ولي العهد، يا مولاي.

(يدخل اللقيط وبيار دي بومْفرات).

الملك جون : طاش صوابي بما نقلته اليّ من انباء مشؤومة. (للقيط) على اثر هذه الأخبار، ماذا يقول الناس من حولك ؟ لا تحاول ان تحشو رأسي بأنباء سيّئة أخرى، لانه غرق في ما تلقّيته الآن منها.

اللقيط : امرك مطاع. اذا كنت خائفاً من سماع المزيد وهو الأبشع، فهذا المزيد المفاجئ سينهال، لا محالة، على رأسك عاجلاً أو آجلاً.

الملك جون : اعذرني، يا ابن عمي. لقد خنقتني امواج المدّ المتصاعد. وليس أمامي الآن إلّا استعادة انفاسي برفع رأسي قليلاً فوق الأمواج المتلاطمة. وانا على اتمّ الأهبة لسماع مختلف الاصوات المتعالية مهما تضاربت إفاداتها.

اللقيط : كيف تسلّلت، ونجوت من بين رجال الدين المحيطين بك ؟ ها هي المبالغ التي جمعتها تفسّر هذا اللغز. لكني عندما اجتزت البلد لأعود اليك وجدت الشعب مستعداً بصورة غريبة لقبول كل الاحتمالات، وقد أثّرت الشائعات عليه وسيطرت الاحلام الشاذة، وهو لا يدري ماذا يجب ان يخشى. لكني اصطحبت في رجوعي عرّافاً في أحد شوارع بومْفرات حيث صادفته، وقد تعقّبه رجال مستطلعون كان ينشد لهم قوافي رديئة ثقيلة على السمع، مفادها ان جلالتك قبل ظهر عيد الصعود القادم ستتنازل عن العرش.

الملك جون : (لبيار) : انت صاحب رؤى خيالية. من الذي تكلّم هكذا ؟

بيار دي بومفرات : شعوري المسبق يتوقّع ان تتحقق هذه النبوءة في حينها.

الملك جون : يا هيوبرت، أبعد عني هذا المنافق الدجال، اسجنه ثم اشنقه في نفس النهار الذي يدّعي اني اثناءه سأتنازل عن العرش. ضعه في مكان حريز وعدْ اليّ لأني بحاجة ماسّة اليك.

(يخرج هيوبرت بصحبة بيار دي بومْفرات. يتابع الملك كلامه للقيط).

يا ابن عمي الحبيب، هل بلغتك أخبار جديدة ؟ هل تدري من أتى ؟

اللقيط : الجيوش الفرنسية، يا مولاي، لا يتحدث الجميع إلا عن وصولها، وقد صادفت السيد بيكوت والسيد سالزبري، وعيونهما تقدح شرراً أحمر مثل نار متأججة، كما صادفت غيرهما من الذاهبين للبحث عن ضريح ارثور الذي قُتل غدراً هذه الليلة، حسب ما يقال، بناءً على طلبك.

الملك جون : أيها النسيب الكريم، اذهب واختلط بصفوف التجمّعات، اذ لديّ وسيلة لاسترداد ما فقدته من عطف ومساندة، وعُدْ اليّ بمن تستميلهم.

اللقيط : ها أنا ذاهب لآتيك بهم.

الملك جون : حسناً. عجّل بأسرع ما يمكنك، ولا تتأخر في الرجوع الى هنا. اذ يتحتّم عليّ أن لا أدع لي من أخصام بين رعاياي خصوصاً عندما يصل اعدائي الأجانب لنشر الرعب والبلبلة في مدن مملكتي، وهم يطبّلون ويزمّرون لتمهيد اجتياح هائل يقومون به وشيكاً. عليك ان تستمدّ السرعة من الإله عطارد المجنّح القدمين، بل بسرعة الفكر والبرق، ثم أن تطير من لدنهم وتعود اليّ لتطمئنني.

اللقيط : كن على يقين، بأني من مرور الوقت العَجول سأستعير السرعة اللازمة لرجوعي

(يخرج).

الملك جون : هذا حديث رجل وجيه نبيل. (للرسول) إلْحَق به، اذ ربما احتاج الى رسول يؤمّن الاتصال بيني وبين أعواني، فتكون أنت جاهزاً لهذه المهمّة.

الرسول : بكل طيبة خاطر، يا مولاي الكريم.

(يخرج).

الملك جون : ما اشدّ وقع موت أمّي على قلبي المنسحق.

(يدخل هيوبرت)

هيوبرت : يا مولاي، يقال ان خمسة أقمار شوهدت الليلة، اربعة منها ثابتة والخامس يدور كالدوّامة في حركة عجيبة حول الاربعة الباقية.

الملك جون : أتقول خمسة أقمار ؟

هيوبرت : الشيوخ والعجائز خرجوا كلهم الى الشوارع، وهم ينشرون نبؤات مقلقة، وخبر موت ارثور الشاب يجري على كل لسان. يتحدثون عنه ويهزون رؤوسهم ويهمسون في الآذان، وكل متكلم يصافح يد سامعه بينما تبدو على مَن ينصت، سمات الخوف ويقطّب حاجبيه ويميل برأسه يميناً ويساراً وينقّل نظراته في كل مكان. لقد رأيت حدّاداً يقف مذهولاً ومطرقته مرفوعة في الهواء، بينما الحديد المحمّى يبرد فوق السندان ليتلقّف فاغراً فمه تقرير خيّاط بيده مقصه ومقياسه وهو واقف مرتدياً نعله مقلوباً من شدة استعجاله، وهو يتكلم عن آلاف الفرنسيين المحاربين الذين تأهبوا لخوض المعركة في مقاطعة كَنْتْ. وهناك حِرَفِيّ آخر هزيل غير نظيف جاء ليقاطع روايته ويتحدّث عن موت ارثور.

الملك جون : لماذا أتيت تهوّل عليّ بكل هذه التفاصيل ؟ لماذا تؤكّد بإصرار موت الفتى ارثور ؟ لا بدّ من ان تكون يدك قد اشتركت في اغتياله. وإن كانت اعزّ أمنياتي أن أشاهده ميتاً، فانت شجعتني على ذلك لتنال مأربك في قتله.

هيوبرت : كيف تقول انك لم تكن لك اية رغبة في التخلص منه، يا مولاي ؟ الم تحرضني انت بنفسك على إزالته من عالم الوجود ؟

الملك جون : لعنة الملوك المنكوبي الحظ، تكمن في وجود مساعدين حولهم على شاكلتك، هم كالعبيد الذين يعتبرون فورة الغضب كأمر يجبرهم على خطف روح آمنة، ويظنون غمضة جفن يقوم بها ملكهم سماحاً باغتيال من يهدّد سلامته، بينما هو يقطّب حاجبيه بحركة مزاجيّة بدون تفكير واعٍ أو سابق تصميم وإصرار.

هيوبرت : ها هوذا توقيعك وخاتمك يثبت ان ما قمت أنا به قدْ تمّ بناءً على طلبك الصريح.

الملك جون : أُفٍّ من بلادتك. حالما يدخل آخر حساب بين الأرض والسماء في طور التصفية، تقيم هذا التوقيع وهذا الخاتم شهادةً دامغة على جريرتي. كم وكم تدفع رؤية آلة الشر الى ارتكاب الجرائم. فلو لم تكن انت هنا الى جانبي كمساند وسَمَتْك يد الطبيعة بالميل الى العنف وحمّستك على إتيان عمل مشين، لم تتبادر الى ذهني جريمة الإغتيال هذه. لكني لاحظت فظاعة مظهرك وأيقنت بأُهليّتك لهذه الدناءة الدموية وباستعدادك لتنفيذ هذه المغامرة البشعة، ففاتحتك بغموض بأمر مقتل أرثور، وانت لاكتساب عطف ملك، لم يردعك ضميرك الميت عن سفك دم أمير صغير.

هيوبرت : لكن، يا مولاي ...

الملك جون : لو كنت هززت رأسك استنكاراً، أو أبديت تردداً عندما قلت لك بإبهام ما كنت أنوي تحقيقه، أوْ ألْقيت نظرة عتب وحذر على محياي، كأنك تودّ أن تعبّر لي بكلمات معيّنة عن معارضتك، لكان ردعني الحياء عما شجعني عليه صمتك العميق، ولكان تمنّعك نهاني عن الإقدام على موافقتي الضمنية. لكنك فهمت مقصدي وتبنّيت فكرتي وصمّمت على ارتكاب الجريمة. اجل، انت وافقت بدون اي اعتراض او تردّد على تلويث سمعتك بهذا الاثم، وقامت يدك القاسية

بتنفيذ ما كانت شفاهنا نحن الاثنين تأبى خجلاً ان تتلفّظ باسمه. اليك عني. أخرج من هنا، ولا تريني وجهك بعد الآن. ها هم نبلاء مملكتي ينفضّون عني، وسلطتي لم يعد يهابها احد. حتى ابوابي إقتحمها اعدائي الذين داسوا كرامتي في عقر داري. وفي أعماق نفسي ضمن مملكتي الواسعة، وهذه البقعة المضرّجة بالدماء، هبّت رياح العداء والحرب الاهلية لتضخّم توبيخ ضميري تجاه اغتيال ابن عمي البريء.

هيوبرت : انت تصرّ على محاربة أعدائك، وأنا أقوم بالمصالحة بينك وبين نفسك. فالشاب ارثور هو على قيد الحياة. ويدي لا تزال طاهرة نقيّة لم تتلوّث بأي دم مسفوك، وقلبي لم يداخله ابداً أي شعور بالميل الى القتل والإجرام. لقد تحاملت على الطبيعة المتمثلة في ملامحي التي رغم خشونة مظهرها، تنمّ عن روح مسالمة هي أجمل بكثير من أن تكون جزار ولد مظلوم.

الملك جون : أتقول ان ارثور لا يزال حياً ؟ آه، إذهب وانقل الى أعواني في الحكم هذا النبأ السار لتهميد غضبهم المتأجج، وحرّضهم على الخضوع والامتثال ثانية لسلطتي. ثم سامحني على النعوت والتعليقات التي تفوّهت بها اثناء فورة غضبي عليك. لأن استيائي كان كالاعمى، ومنظر الدم الذي ظننته مهدوراً قد صوّرك في نظري بهيئة وحشية اكثر مما كنت انت عليه وقتئذ. لا تردّ على قولي، بل اذهب حالاً واجلب مساعديّ الحانقين الى هنا. هي أسرع في الذهاب، لأن رجائي هذا في نظري بطيء للغاية. هيا إجْرِ بأسرع ما يمكن. (يخرجان).

المشهد الثالث

أمام برج في القلعة

(يظهر أرثور في أعلى السور).

ارثور : السور مرتفع جداً، ومع ذلك سأقفز الى الأرض. فيا أيها التراب كن شفوقاً ولا تسبّب لي أي ضرر. تقريباً لا أحد يعرفني هنا. ومن كان يعرفني إلْتبس عليه ما ارتديه من ثياب كساها الغبار كأني في ملابس تنكّريّة. انا خائف، ومع ذلك سأغامر بقفزي. فاذا وصلت الى الارض بدون اي كسر في اعضائي سأجد الف وسيلة لأهرب. إذْ إنّي أفضّل ان اموت بعيداً أثناء هربي، على أن أموت وانا امكث هنا. (يقفز). اليّ، ساعدوني ايها الأصحاب لأن روح عمي كامنة في هذه الحجارة. استودع السماء نفسي، ولتحتفظ انكلترا بعظامي (يموت).

(يدخل بمبروك وسالزبري وبيكوت).

سالزبري : يا سادتي، سألاقيه في سان إدْمنْسْدري. فبذلك يكون خلاصنا، وعلينا ان نقتبل هذه المنّة حيال الخطر والهلاك.

بمبروك : من أتى بهذه الرسالة من قِبَل الكردينال ؟

سالزبري : كونت ميلون، وهو سيد نبيل من فرنسا يحبّذ شخصيّاً تصرّف ولي العهد، ويكنّ له كل محبة وتقدير، وها هو يشرح الوضع بوضوح اكثر مما في هذه الاسطر الوجيزة.

بيكوت : هيا بنا نذكي اليه منذ صباح الغد الباكر.

سالزبري : أو بالحري، لنذهب إليه حالاً. إذ يلزمنا يومان طويلان سيراً على الاقدام للوصول اليه، يا مولاي.

(يدخل اللقيط)

اللقيط : يسرّني ان ألقاكم ثانية في بحر هذا النهار، يا سادتي المستائين. فالملك يبلغكم على لساني بأنه يرجو منكم الحضور اليه فوراً.

سالزبري : الملك لم يعد يهمه أمرنا. ونحن لا نودّ ان يكون شرفنا النقي بطانة معطفه الملطّخ المهلهل. ولا ان نتبع خطاه التي تنشر في كل مكان آثار الدم كيفما توجّه. عُدْ اليه وأبلغه اننا مطّلعون على قبائحه اكثر مما يظن.

اللقيط : مهما شرحت له افكاركم في هذا الموضوع، اعتقد بأن رقّة كلامكم سيكون لها أجمل الوقع عليه.

سالزبري : هو امتعاضنا وليست لياقتنا ما يناسب الظرف الحاضر.

اللقيط : لكن امتعاضكم ليس له سوى مبرّر هزيل، امّا لياقتكم فتتمتع في هذه الايام بكل الحقوق.

بمبروك : يا سيدي، بسبب قلة صبرنا أضحت كل الموجبات ممكنة.

اللقيط : هذا صحيح، وأهمها خطورة الجرح الأليم اكثر من سواه.

سالزبري : هذا هو السجين المقصود. (يبصر جسم ارثور) من هو هذا المتمدّد ها هنا ؟

بمبروك : ايها الموت المزدان ببراءة أمير طاهر، أوليس على وجه الأرض حفرة لتواري هذا الصنيع الاجرامي ؟

سالزبري : جريمة القتل تركته هكذا مكشوفاً، كأنها خجلت من هذا العمل الفظيع الذي يستوجب الانتقام.

بيكوت : أو بالحري، بعد أن وصل صباه الوسيم الى القبر، وجدته اروع وأجلّ من ان يحتويه المثوى الأخير.

سالزبري : (للقيط) : يا سرْ ريتشرد، ماذا تعتبر هذا الصنيع ؟ هل رأيت في حياتك أوْ قرأت أو تصوّرت أنك تستطيع أن تعتقد بإمكان حدوث ذلك حتى إن رأيته بأمّ عينك ؟ وهل يتوصل تفكيرك في هذا الواقع المفجع الى تصوّر حدوث مثله ؟ ها هوذا العمل الأقوى أي حمْل التاج، أوْ بالحري تاج التيجان

يشكل الدافع الى الاغتيال، بل ها هي الدناءة الدموية والوحشية الشرسة والفظاعة الاغرب من كل ما رأته العين الكليلة، أو الإثارة العجيبة التي تستدرّ دموع صاحب الضمير المستيقظ بعد طول الإغفاء.

بمبروك : كل جرائم القتل السابقة صفح عنها هذا الاحمق المتساهل، لأنه فريد لا يجاريه احد. فليخلع اذاً وشاح القداسة والطهارة على جرائمه اللاحقة. وليعتبر كمهزلة اسوأ مجازره بالنسبة الى هذا المشهد الوحشي.

اللقيط : حقاً هذا العمل الدموي مشين، لأنه تدنيس قامت به يد بربرية وان يكن من صنع البشر.

سالزبري : اذا كان حقا من صنع الانسان، فهذا يلقي بعض الضوء على ما ستأتينا به الأيام المقبلة، وتبيّن لنا ان يد هيوبرت الجانية هي التي اقترفت هذا الاثم البغيض. لذا احرّم على نفسي الخضوع لهذا الملك المستهتر. فانا اجثو أمام هذه الحياة العزيزة المسلوبة، وأحرق امام هذا الكمال النادر بخور نذر مقدس، هو النذر الذي يحتّم عليّ عدم التمتّع بمباهج الدنيا والامتناع عن تبديد الافراح التي يتذوّقها الاعتدال وحسن النية، قبل أن أمجّد ذراعي المشترك في الانتقام الرهيب.

بمبروك وبيكوت : نحن نؤيد أقوالك بأمانة دينيّة صادقة.

(يدخل هيوبرت)

هيوبرت : لقد بذلت جهداً جهيداً في البحث عنك، يا مولاي، فأرثور لا يزال على قيد الحياة، لذا أرسل الملك في طلبكم.

سالزبري : ها هوذا شخص جسور لا يهاب الموت (لهيوبرت) أخرج من هنا، أيها الوقح الخسيس.

هيوبرت : انا لست خسيساً ولا وقحاً.

سالزبري : (يستلّ سيفه) : هل يتحمّ عليّ أن اخالف القانون ؟

اللقيط : سيفك يلمع ويبهر، يا سيدي. ارجوك ان تعيده الى غمده.

سالزبري : لا، ليس قبل ان أغمده في جلد أحد القتلة.

هيوبرت : اذهب من هنا، يا سيدي سالزبري. ارجوك أن تمضي وحق السماء، انا اعلم ان سيفي حاد فتاك نظير سيفك البتار. وأنا أتمنّى، يا مولاي، ان لا تنسى ذاتك، ولا ان تجابه مخاطر دفاعي عن نفسي حين أضطر الى ذلك. إذ إني لا أخشى إلا غضبك المحتمل، ونسيانك قدرتك وعظمتك ونبلك.

بيكوت : اليك عني، أيها القذر. أوتبلغ بك الوقاحة الى التعرّض لنبيل مثلي ؟

هيوبرت : انا لست خائفاً على حياتي. وبامكاني ان أدافع عن براءتي حيال أيٍّ من الملوك اذا وجّه الي اتهاماً ما.

سالزبري : انت قاتل شرس رهيب.

هيوبرت : لا تجبرني ان أصبح كما تدّعي. حتى الآن ظلّت صفحتي بيضاء ناصعة، ولم ارتكب اي جرم. فمن يخطئ في كلامه لا ينطق بالصواب، ومن لا يقول الحقيقة هو بكل صراحة كاذب منافق.

بمبروك : تعال وقطّعني إرباً إرباً.

اللقيط : ارجوك ان تهدّئ روعك.

سالزبري : تنحّ عن هنا، وإلّا سلخت جلدك عن لحمك، يا فولكنبريدج.

اللقيط : يجدر بك ان تسلخ جلد ابليس، يا سالزبري. اذا نظرت إليّ جانبيًا، أو إذا حرّكت رجلك باعتباط أو إذا سمحت لغضبك الطائش بأن يضايقني، سأرديك قتيلاً. استلّ سيفك عاجلاً وإلّا حطّمتك انت وسيفك، حتى لتظنّ أن الشيطان حضر من جهنّم ليقاتلك.

بيكوت : ماذا تنوي ان تفعل، يا من تدعي فولكنبريدج ؟ هل تريد أن تساعد قاتلاً مجرماً ؟

هيوبرت : يا سيدي بيكوت، انا لست هذا ولا ذاك.

بيكوت : من الذي قضى على الأمير اذاً ؟

هيوبرت : لم تمضِ بعد ساعة على مغادرتي اياه وهو ينعم بكامل عافيته. أنا أحترمه وأحبه وسأظلّ بقية عمري أندب فقْد حياة شخصه العزيز على قلبي لو كان هذا النبأ حقيقياً.

سالزبري : لا تثق بما تجود به مآقيه من دموع التمساح. لأن الحياة ليست غريبة عن تباكيه، هو المدرَّب على هذه المهنة الخبيثة، والماهر في التمويه والتشبّه بمن يعطف فعلاً على البراءة. تعالوا نذهب معاً من هنا، يا جميع الذين تكرهون هول الدناءة الفظيعة المنبعثة نتانتها من جثث الأموات، ورائحة هذه الجريمة تكاد تخنقني.

بيكوت : هيا بنا الى مدينة بَري لننضمّ الى جماعة ولي العهد.

بمبروك : (لهيوبرت) : قل للملك ان باستطاعته ان يأتي الى هنا للاجتماع بنا

(يخرج اللوردات).

اللقيط : هذا عالم قائم بذاته... (لهيوبرت) هل أطلعت على هذا الفعل الغريب ؟ ان كنت انت ارتكبت جريمة القتل هذه التي تطالها يد العدالة غير المتهاونة فانت هالك لا محالة، يا هيوبرت.

هيوبرت : أصغِ اليّ على الأقل، يا سيدي...

اللقيط : لا يغربْ عن بالك انك انت ايضاً من الهالكين... إذْ ليس هناك أشدّ بشاعة من صنيعك، بل انت هالك الف مرة اكثر من رئيس الابالسة لوسيفورس. وليس هناك شيطان في اعماق الجحيم أحطّ مما ستكون عليه لو قتلت هذا الولد البريء.

هيوبرت : أقسم لك بحياتي...

اللقيط : بما أنك وافقت على إتمام هذا العمل الشرس ليس أمامك إلا القنوط، واذا احتجت الى حبل لتشنق نفسك، أقول لك ان

أوهى خيط من نسيج العنكبوت يكفي لخنقك، وحَسْبك قضيب خيزران ليكون عود مشنقتك. واذا شئت أن تموت غرقاً فقليل من الماء في فنجان يكون بالنسبة اليك أوفر من لجّة مياه المحيط لخنق شقيّ قاتل نظيرك. ان اقتناعي بإجرامك ليس له من حدود.

هيوبرت : إن كنت بالعمل أو بالموافقة أو بالفكر، قد أجرمت لأني سلبت حياة عذبة كان جسم من التراب ينعم ببهجتها، أودّ ان لا توجد في الجحيم عذابات كافية لمعاقبتي. أؤكد لك اني غادرته وهو يتمتّع بتمام الصحة والعافية.

اللقيط : إذهب واحمله على ذراعيك. فقد طاش صوابي، ويبدو لي ان ضللت سواء السبيل بين الأشواك والمخاطر التي يحفل بها هذا العالم الفاسد. (يحمل هيوبرت الجثة على ذراعيه) كم هو هكذا سهل ان تحمل انكلترا بأجمعها. فمن هذا الجثمان صعدت الى السماء مملكته المغتصبة وحياته وحقوقه وما تحويه كل هذه المملكة من ايمان راسخ. والآن ليس أمام انكلترا سوى ان تربط وتبدّد وتمزّق بأسنانها الحادة خيرات هذه المملكة المنهارة بعد ازدهارها. الآن، لأجل هذه العظمة التي نخرها سوس الخيانة يهزّ اسد الحرب لبدته بغضب ويزأر لمنظر السلام الرائع المجندل. والآن تنظّم قوّات الخارج واشمئزازات الداخل صفوفاً صفوفاً. وتنقضّ الفَوضى كالغراب الحائم حول الجيفة النتنة ويبحث عن حتميّة سقوط السلطة المنتحلة. ويحظى بالسعادة من يستطيع أن يخرج سالماً من دوّامة هذه العاصفة الهوجاء الجارفة... احمل هذا الفتى واتبعني بسرعة. فأنا ذاهب الى الملك. وهناك سنجد الف قضية تنتظر الحلّ. فحتى السماء ذاتها تقطّب جبينها حيال تجاوزات اهل الأرض.

(يخرجون).

الفصل الخامس

المشهد الأول

في قاعة داخل القصر.

(يدخل الملك جون يتبعه بندولف حاملاً تاجاً ثم يدخل بعض الاشخاص).

الملك جون : هكذا وضعتُ بين يديك هالة مجدي.

بندولف : استرجعها من يدي كما لو كنت تستلم من البابا نفسه عظمتك وسلطتك المطلقة.

(يعيد التاج الى الملك).

الملك جون : الآن اصبح لزاماً عليك ان تفي بوعدك المقدس. إذهب واجتمع بالفرنسيين واستخدم كل النفوذ الذي تستمده من قداسته، وأوقف زحفهم قبل ان نندحر. لأن نبلاءنا المستائين اخذوا يتململون ويتمردون، وشعبنا يرفض الخضوع، ومن اعماق قلبه أقسم يمين الولاء والحب لشخص أجنبي، لملك من خارج البلاد. انت وحدك تستطيع ان تصدّ هذا التمادي والإنحراف. فلا تتأخر اذاً عن التحرك بسرعة لأن المرض

خطير ويتحتم ايجاد الدواء حالاً لئلا نضطر بالتالي الى معالجة نتائج العلة المستعصية.

بندولف : لقد اثرت انا هذه العاصفة بعد مخالفتك مشيئة البابا. ولكن بما انك اعلنت الآن خضوعك وإزعانك سيُخمد صوتي انفاس هذه الحرب ويعيد ايام الصفاء الى هذه البلاد المضطربة. وبعد أن تُقسم جلالتك يمين الولاء للبابا، تذكّر جيداً ان اليوم عيد الصعود، وإني عازم على مقابلة الفرنسيين ودعوتهم الى إلقاء السلاح.

(يخرج).

الملك جون : اليوم عيد الصعود ؟ ألم يصرّح العرّاف اني في هذا النهار سأتنازل عن العرش ؟ ها هوذا هذا التوقّع قد تمّ. وكنت اظن انني سأفعل ذلك تحت وطأة الخوف والاكراه. لكن، لله الحمد تصرّفت طوعاً راضياً.

(يدخل اللقيط).

اللقيط : مقاطعة كَنْتْ استسلمت برمّتها. وقصر دوفر وحده لا يزال عاصياً. لندن استقبلت وليّ العهد كضيف صديق ومعه قوّاته. ونبلاؤك بدون تلكّؤ ذهبوا ليقدموا مساعدتهم لعدوّك. وهناك مطاردة مريعة تضخّمها الفوضى قد لاحقت وحاصرت اصدقاءك القلائل.

الملك جون : ألم يشأ اللوردات ان يعودوا اليّ عندما علموا بأن ارثور لا يزال حياً ؟

اللقيط : لقد وجدوه ميتاً فألقوه الى الشارع لأنه أمسى كصندوق فارغ سلبت منه جوهرة الحياة يدٌ آثمة جهنمية.

الملك جون : لقد اكّد لي هيوبرت المراوغ انه على قيد الحياة.

اللقيط : بحياة رأسي، قال لك ما كان يظنه الحقيقة. لكن لماذا اراك

تنهار ؟ لماذا تبدو حزيناً ؟ كن عظيماً في تصرفاتك كما كنت شامخاً في افكارك. من الضروري ان لا يرى العالم دلائل الخوف والأسى تسيطر على نظراتك الملكية. سِرْ حسب ما يقتضيه الزمان، اي هادن من يهادنك وهدّد من يهدّدك وواجه الجسارة التي يتستّر وراءها الخوف من المجهول. وهكذا ترى جماعات الصغار الذين يحذون عادةً حذو الكبار يبادرون الى اتخاذ المواقف الباسلة الصلبة. تقدّم دائماً وكن لامعاً نظير إله الحرب عندما يرتدي ملابس القتال. إعتصمّ بالإقدام والطموح والثقة بالنفس. هل تريد أن يأتي أخصامك لاختطاف الأسد من عرينه. ويهاجموه ويَدَعوه يرتجف هلعاً؟ هذا ما يجب أن لا يُقال علناً. هيا إلى السهل، وانطلق من خلف هذه الأبواب وجابه التمرّد واضبطه قبل أن يكرّ عليك ويصرعك.

الملك جون : قابلت مندوب الباب، وعقدت معه صلحاً مشرّفاً، فوعدني بأن يصرف فِرَق الجنود التي يقودها ولي العهد.

اللقيط : يا لها من عصابة شريرة حقيرة. عندما يطأ الأغراب أرضنا سنهتف بشعارات مسالمة ونقترح تسويةً وتفسيراً ومفاوضة وهدنة اضطرارية لمواجهة اجتياح الجيش. هل يعقل ان يقتحم سهولنا صبيٌّ لم تبرز بعد لحيته، ساذج مدلّل عاش متنعماً بالحرير ويحاول ان يُظهر قوته على ارض معادية، وهو ينشر اعلامه الباهتة المرفوعة بفتور واستهتار بدون ان يلقى أية مقاومة ؟ هيا، يا مليكي، لنهبّ الى السلاح. ربما لم يتمكّن الكردينال من الحصول على السلم، وإن توصّل الى تحقيقه يجب ان يعلن على الملأ أننا كنا نستعد للدفاع عن اراضينا.

الملك جون : تولّج انت تدبير هذه المسألة.

اللقيط : هيا اذاً الى العمل بجدّ ونشاط. انا واثق بأن قواتنا تستطيع ان تقف في وجه عدوّ اكبر من الذي نواجهه.

(يخرجون).

المشهد الثاني

في سهل قريب من سان اذمنْدسبري.

(يدخل لويس وسالزبري وميلون وبمبروك وبيكوت، وجميعهم مدجّجون بالسلاح مع جنودهم).

لويس : (لميلون ويسلمه ورقة) : سيدي ميلون، أُطلبْ كتابة نسخة من هذه الورقة، وضَعْها في مكان أمين بين محفوظاتنا. ثم أرجع الأصليّة إلى هؤلاء اللوردات، حتى يتمكنوا نظيرنا، باعادة قراءة بنود هذه الاتفاقية، من تذكُّر ما تعاقدنا عليه وأقسمنا اليمين للتقيد به. وهكذا يلتزم كلٌّ منا بواجباته وحقوقه.

سالزبري : لن نحيد من جهتنا عن هذه المعاهدة، لكن، يا ولي العهد، مع اننا لم نقسم على الولاء التلقائي الأعمى. صدّقني، ايها الامير اني لست مسروراً بان تجتاح مساوئ العصر الى ثورة بغيضة لاستئصالها والى شفاء القروح الناجمة عن جراح قديمة وعن أُخرى مستجدّة. أؤكد لك ان ما يضايقني هو اضطراري ربما الى استلال سيفي لترميل نساء هذا البلد، وا أسفاه، كما يتبادر الى الذهن عند استدعائي انا سالزبري الى الانقاذ والى الدفاع عن الشرف المهان. لكن، هذه هي علّة هذا الزمان الذي يحملنا على اللجوء الى سواعدنا للحفاظ على حقوقنا وردّ الظلم والعدوان عن شعبنا. أليس مستهجناً، يا اصدقائي، أن نولد نحن ابناء هذه الجزيرة على ارضها

ونساق وراء شخص غريب عنّا لنضخّم صفوف أعدائنا ؟
(يمسح دمعة تدحرجت على خدّه) لا يسعني ان امتنع عن النحيب على وصولنا الى هذا الدرك الأسفل لكي ندعم نبلاء ارض بعيدة وننضوي تحت ألوية مجهولة هنا، اجل ها هنا. كم أتمنى، يا شعبي، ان تتمكن من إتّقاء هذه الكارثة وان تكون سواعد إله البحر نبتون قادرة على حملك ونقلك الى شواطئ اخرى وإن وثنيةً. هناك على الأقل تتشابك أيدي هذين الجيشين وتتكاتف جهودهما ويمتزج دمهما الغاضب في محاربة الاعداء بدلاً من اراقته في تقاتل الأشقّاء.

(يشهق في البكاء).

لويس : هذا نبل اخلاق منك. فالعواطف السامية التي تتحلّى بها تدعو الى الترفّع عن الدنايا ما أشرف القتال القائم على السعي الى توطيد السلام، وعلى نداء الضمير الحي. دعني أمسح ندى هذا الترفّع السامي الذي يتساقط كحبات من الفضة على خديك النحيلين. لقد رقّ قلبي دوماً لدموع المرأة التي تفيض من عواطفها الطبيعية. لكن زرفك دموع الشيخوخة هذه يثير كوامن اللوعة في فؤادي ويبهر أنظاري ويضاعف وجومي لرؤية القبة الزرقاء مكفهرة بما ترسله من بروق وصواعق تجرح هذا القلب الكبير. ارجوك ان تدع هذه الدموع لأولادِ مَن لم يشاهدوا الدنيا المحرومة صاخبةً غضبي، وهي تجابه الرفاه المسرف والولائم الغاصّة بالأفراح وحلو المجاملات الجوفاء. تعال، تعال أغرُف من غنائم الازدهار الطافح بالترف قبل ان أسبقك انا لويس الى استنفاده. وانتم ايضاً ايها النبلاء، أنتم الذين تضمّون قوّاتكم الى سواعدنا... خيّل اليّ منذ لحظة ان ملاكاً يتكلّم. وها هو موفد البابا قد اتى بخطى حثيثة لمدّ لنا يد العون من العلاء ضامناً لنا هكذا غوث السماء، ومساندة حقنا بافعاله واقواله المباركة.

(يدخل بندولف على رأس موكب يتبعه)

بندولف : السلام عليك، يا امير فرنسا النبيل. اليك ما اريد ان ابلغك اياه : الملك جون صالَحَ روما واستسلم الى مشيئتها بعد أن قاوم طويلاً رغبات طائفته واضحى حليف الحاضرة العظيمة والكرسي الرسولي. فاطوِ اذاً اعلامك المهدّدة واكبتْ ميولك الوحشية الى الحرب والدمار، ونظير الاسد الذي يتناول طعامه من يد مروّضة، دعه يربض بهدوء عند اقدام السلام خالعاً عنه كل المظاهر المريبة.

لويس : سامحني، يا صاحب السيادة، انا غير مستعد للتراجع. فانا عريق المنبت رفيع المقام لا أنحني امام من هو ادنى مني مرتبةً، ولن أصبح أداة في يد أية سلطة مهما علا مستواها. انت اشعلت بنفسك جذوة الحرب المنطفئة بيني وبين المملكة المتململة، وأنت ازكيت لهيب هذا الحريق المفتعل حتى بات من العسير عليك، ايها النافخ الضعيف النفس ان تطفئ النيران المندلعة التي اشعلتها. لقد علّمتني انت ان ارى الحق بوجهه الحقيقي. ونبّهتني الى لقبي ووظيفتي في هذا المضمار، وحرّضتني على مواجهة العدوان بقلب غير هيّاب، وها انت آتٍ لتقول لي ان جون قد صالح روما. ما هو هذا السلام بالنسبة اليّ ؟ أنا بفضل مولدي الملكي أطالب طبعاً بعد الشاب ارثور، بأن تنتقل هذه الارض الى ملكيتي. والآن وقد اصبح نصفها محتلًّا يتحتم عليّ ان اتراجع لأن جون صالح روما، وعقد معها معاهدة سلام. هل انا احد عبيد روما ؟ ماذا دفعت روما، وأي رجال استخدمت وأية ذخيرة ارسلت لمساعدتي في حملتي هذه ؟ أوَلم اتحمّل انا وحدي جميع التكاليف والمسؤوليات ؟ ومَن غيري وغير رعاياي الذين لبّوا ندائي نُجهد نفوسنا جميعاً لنصرة هذه القضية ومواصلة الحرب. اولم اسمع سكان هذه الجزيرة يهتفون

« يحيا الملك » عندما مررت في مدنهم ؟ أوليس لديّ افضل الخرائط لكسب هذه اللعبة السهلة هنا والمحافظة على تاجي وعرشي ؟ وتريدني ان امنح الآن خصمي هذه النقاط التي تنازل هو عنها. كلّا ثم كلّا، وحق السماء هذا لن يكون ابداً.

بندولف : انت لا ترى سوى المظهر الخارجي في هذا الموضوع.

لويس : الخارجي او الداخلي، انا لا اتراجع عما عزمت عليه، طالما لم أحظَ بالفوز الذي منّيْتُ به نفسي وبنيت عليه الآمال العريضة، وقبل ان اغلق جبهة القتال هذه المشرّفة، وأن أجمع نخبة الفِرَق المتحمّسة لأضمن النصر وانتزع الكرامة الغالية من شدق الخطر والموت. (يسمع صوت بوق)) بماذا تنبئنا نبرات هذه الموسيقى الحادّة، يا ترى ؟

(يدخل اللقيط وتتبعه فرقة من الحرس).

اللقيط : طبقاً لحقوق الشعب الملكية، أطلب المقابلة، وأنا مفوّض للتداول (لبندولف) انا قادم من قِبَل الملك، يا مولى ميلانو، لأطّلع على ما جئتَ لأجله. وبناءً على جوابك، سأعرف كيف اتصرّف بموجب السلطة التي خُولتُها.

بندولف : ولي العهد يمانع بإصرار، ولا يريد أن يقبل بأية هدنة تلتمسها، ويعلن صراحةً انه لن يلقي السلاح.

اللقيط : بحق كل الدم الذي سيريقه الغضب المُحقّ، هذا الشاب ينطق بعين الصواب. (لولي العهد) وعلى هذا الاساس، اسمعوا ما يقوله ملكنا الانكليزي الذي أتكلّم بإسمه. جلالته مستعدّ، وكل الحق بجانبه، وهو يبتسم مستهجناً هذه الحجج المبتذلة الواهية التي شننتم هجومكم بالاستناد اليها، وهذه المجزرة العشوائية الرعناء والتجمع غير المعقول والتصرّف الصبياني والفرق الفوضوية، أجل هو مستعدّ لأن يضرب بضراوة

محاربيكم الأقزام وجيشكم الهزيل ويطردهم جميعاً من اراضيه. أمّا الساعد الذي استطاع ان يجلدكم عند بابكم وأجبركم على المغامرة بقفزة خطرة، وأن يغطّسكم نظير دلاء في آبار خفيّة، وأن يجعلكم تتمرّغون في أقذار اسطبله، وان يلعب بكم كأحجار الشطرنج، وان يحملكم على معايشة الخنازير القذرة وعلى الاختباء في الكهوف والسجون المظلمة وعلى الارتجاف لمجرد سماع أول صيحة تنطلق من حنجرة حامي الوطن الذي تظنّونه صوت إنكليزي مسلّح، فهل تعتبرونه ضعيفاً هنا؟ كلا ثم كلا، اعلموا ان الملك الباسل كامل العدّة والعدد، وكالنسر يحلّق فوق اسواره المنيعة، لينقضّ على العدوّ المقترب. (لسالزبري وللوردات) وانتم ايها المنحطّون المناوئون الناكرو الجميل، يا أشباه نيرون الطاغية، يا من تمزّقون صدر أمّكم الحبيبة انكلترا التي تحمرّ خجلاً من خيانتكم السافرة: لان نساءكم وبناتكم يتبعننا بوجوه شاحبة جارياتٍ وراء طبولنا، وقد قلب لهن حظهن العاثر ظهر المجنّ، وتحوّلت خواتمهن الى قفازات حديدية جارحة، وإبَرهن الى رماح حادة، ورقّة قلوبهن الى مزاج دموي شرس.

لويس : كفى عنتريّات، يا هذا، أدِرْ ظهرك وغادرنا بسلام. نحن لا نتكل أن لسانك طَلِق أكثر من لساننا، ونتمنى لك دوام الصحة التامة. فإن وقتي اثمن من ان أضيّعه بصحبة رجل كثير اللغو مثلك.

بندولف : دعني أتكلم.

اللقيط : لا أنا اريد ان أتكلم.

لويس : لن استمع الى أحد منكما. لتقرع الطبول وليرتفع صوت الحرب عالياً مدوياً كهزيم الرعد للدفاع عن مصالحنا ولتثبيت أقدام جنودنا ها هنا.

اللقيط : بلا شك سيرتفع صوت طبولكم عندما تُقرع بشدّة، تماماً كما سيكون شأنكم حين تنهزمون وتتبدّد صفوفكم. (لولي العهد) أيقظ الصدى المتناوم بقرع طبولك المزعجة، وحالما تنتشر اصوات هذه الطبول سترسل هي بدورها جواباً مدوياً يحاكي صوت طبولنا المتفوّقة. فتقرع مرة ثانية وثالثة نظير طبولك التي تبلغ عنان السماء وتطغى على قصف الرعود التي تصمّ الآذان. اذ بدون الاتكال على هذا الموفد المتأرجح الذي أستخدمه على سبيل التمويه والتسلية لا بسبب الحاجة اليه، يقترب جون المحارب، وعلى جبينه ترتسم اشارة الموت الزؤام، ووظيفته اليوم هي القضاء على آلاف الفرنسيين.

لويس : دعوا طبولكم تقرع لنرى مقدار هذا الخطر الداهم.

اللقيط : كن على يقين، يا ولي العهد، بإنك ستواجه حتماً.

(يخرج الجميع).

المشهد الثالث

في ساحة المعركة

(يدخل الملك جون وهيوبرت).

الملك جون : اخبرني كيف سينتهي نهارنا، يا هيوبرت ؟

هيوبرت : اخشى أن يكون سيئاً. كيف حالك، يا صاحب الجلالة ؟

الملك جون : الحمّى التي تشوي عقولنا منذ زمن بعيد لا تزال تعذبني كثيراً. واشعر بأن قلبي يتفتّت ألماً.

(يدخل رسول).

الرسول : (للملك) : يا مولاي، ابن عمك الباسل فولكنبريدج يرجو جلالتك ان تغادر ساحة القتال وأن تعلمه أي طريق ستسلك ؟

الملك جون : قل له اني سأسلك طريق سوينْستاد باتجاه الدير.

الرسول : تشجّع، فإن المدد الكبير الذي كان ولي العهد ينتظره قد غرق في البحر منذ ثلاثِ ليالٍ عند رمال كوذْوين، وقد نقل هذا الخبر الى رتشرد. اما الفرنسيون فيقاتلون بفتور وهم ينسحبون.

الملك جون : وا أسفاه ! هذه الحمّى المستبدة يستعر لهيبها في أحشائي ولا يتيح لي الاحتفال بهذا الحدث السارّ. فلنمشِ الى سوينْستاد. احضروا لي محملي. بسرعة، فقواي قد خارت وأخشى ان يصيبني الدوار.

المشهد الرابع

في قسم آخر من ساحة المعركة.

(يدخل سالزبري وبمبروك وبيكوت وغيرهم).

سالزبري : لم اكن ادري بأن للملك كل هؤلاء الاصدقاء المخلصين.

بمبروك : لنعاود الكرّة ونردّ للفرنسيين حماسهم، لأننا اذا انهاروا سنسقط نحن أيضاً.

سالزبري : هذا الشيطان اللقيط فالكنبريدج، رغم حراجة موقفنا، يوجّه وحده سير المعركة.

بمبروك : يقال ان الملك جون أُصيب بمرض خطير اضطره الى مغادرة ميدان القتال.

(يدخل ميلون جريحاً يحمله بعض الجنود).

ميلون : خذوني الى ثوّار انكلترا الموجودين ها هنا.

سالزبري : عندما كنّا ننعم بالهدوء، كانت لنا ألقاب أخرى.

بمبروك : هذا هو الكونت ميلون.

سالزبري : وهو مصاب بجرح خطير.

ميلون : أهربوا، يا نبلاء انكلترا، وإلّا ذهبتم ضحية الخيانة وهلكتم. ابتعدوا عن البؤرة التي تُحاك حولها خيوط الدسيسة والثورة، واستضيفوا الموالين المبعدين. إبحثوا عن الملك جون وارتموا على اقدامه متوسّلين. لأن الفرنسي اذا اصبح سيد الموقف في هذا النهار، سيكافئكم على تواطئكم معه بقطع رؤوسكم جميعاً في الحال. وقد أقسم مثلي ومثل كثيرين غيري على مذبح سان ادْمُنْدْسبري، أي ذات المكان الذي أقسمنا فيه اليمين معاً، بأن نخصّك بصداقتنا الحميمة وولائنا الدائم.

سالزبري : هل هذا ممكن ؟ هل هذا صحيح ؟

ميلون : بما أن الموت رابض امام ناظري، فأنا لا أملك الآن إلّا بقية من حياة، كتمثال من الشمع يذوب ويتشوّه تجاه حرارة النار الملتهبة. فماذا في الدنيا يحملني على الكذب حين لا يفيد النفاق ؟ لماذا اذاً أنحاز الى المواقف الخاطئة بما ان الحقيقة تقضي عليّ بأن أموت ها هنا. اكرّر قولي، في حال ظفر لويس، ثقوا بأنكم ستكونون ضحية الخداع إن أبصرت عيونكم فجرا جديداً يبزغ من الشرق. وابتداءً من هذه الليلة التي تحمل فيها الرياح العاصفة دخاناً يغمر القمّة المشتعلة امام وجه الشمس المائلة الى الغروب بنورها الخافت عند آخر النهار. اجل منذ هذه الليلة المشؤومة ستلفظون آخر انفاسكم وتنالون هكذا علىٰ آخر جريرة في حياتكم كلها، جزاء خيانتكم الآثمة التي تفسحون من خلالها المجال لانتصار لويس. فلا تنسوني لدى اتصالكم بشخص يدعى

هيوبرت، وهو من انصار مليككم. أبلغوه اني حريص على صداقته. لأن ذكرى جدّي الذي كان إنكليزياً تحرّض ضميري على الاعتراف بحقيقة ما جرى. وعلى سبيل المكافأة، ارجو أن تأخذوني من هنا بعيداً عن الضجّة والشائعات المنبعثة من ساحة القتال والقائلة بأني أرضى باقتبال مختلف الأفكار بسلام، وبافتراق نفسي عن جسدي عبر التأملات والمقاصد الخيّرة.

سالزبري : نحن نصدّقك. ولتكن نفسي ملعونة إذا لم تفرحني هذه المناسبة السعيدة التي أتاحت لي الإقلاع عن الهرب بدناءة. تعالوا نتصرّف كالموج الذي يتراجع ويتضاءل ويضمحلّ. لنترك في هذا المكان عواطفنا المتدفّقة ومسيرتنا غير المنتظمة ولنسرع بسلام وخضوع تامّ الى ملكنا الكبير جون، وهو بمثابة نسر واسع الجناحين يضمّنا كلنا تحت رعايته. (لميلون) ستُعِينك سواعدنا على الانتقال من هنا، لأني أرى صورة الآلام المبرّحة التي يرسمها الموت في عينيك. هيا بنا نجدّ في السير، يا اصحابي. فهذا اتجاه جديد وتبديل ملائم مشكور يعيد إلينا حقنا القديم.

(يخرجون مصطحبين ميلون).

المشهد الخامس

في المعسكر الفرنسي.

(يدخل لويس وحاشيته).

لويس : يخيّل اليّ ان الشمس في طرف السماء آسفة على غيابها الوشيك. لذا راحت تصبغ غرب الفلك بلون الارجوان. بينما

الانكليز يقيسون مدى اتّساع أراضيهم، وهم ينسحبون بتمهّل وإبطاء. آه من هذه الخاتمة التي انتهت بشجاعة، مع أننا في طفرة قذائف مدافعنا بعد عمل كهذا دموي غير مُجْدٍ، ودّعناهم وطوينا ببهجة وسرور أعلامنا الممزّقة التي كانت تخصّ آخر من احتل ساحة القتال وكاد أن يصبح سيدها.

(يدخل رسول).

الرسول : أين اميري، ولي العهد ؟

لويس : هو هنا. ما الخبر ؟

الرسول : قُتل كونت ميلون، بعد ان أقنع قادة الانكليز على الانسحاب ثانية. وهكذا فُقِد المدد الذي تمنّيت وترقّبت وصوله طويلاً، يا صاحب السموّ، قبل أن تغرق قرب رمال كودْوين.

لويس : ما أقسى هذه الصدمة الهدامة. ألّا فلتحلَّ عليك اللعنة التي ارجو من صميم قلبي أن تكون من نصيبك. لم أتوقّع أن أُمسي حزيناً كما هو حالي الآن. من قال لي ان الملك جون هرب قبل ساعة أو ساعتين من هبوط العتمة وانفصال جيشَيْنا المنهوكَيْن.

الرسول : إن من انبأك بذلك نقل اليك الحقيقة الأكيدة.

لويس : حسناً. لنظل هذا المساء قابعين في معسكرنا تحت الحراسة المشدّدة. فلن يطلع النهار إلّا وتكون الفرصة سانحة لبناء مستقبل أفضل.

(يخرجون).

المشهد السادس

في جوار دير سوينْسْتاد، عند هبوط المساء.

(يدخل اللقيط وهيوبرت من جهتين مختلفتين).

هيوبرت : من القادم الى هنا ؟ تكلم، تكلم بسرعة أو أطلق النار عليك.

اللقيط : انا صديق، وأنت من تكون ؟

هيوبرت : انا من جماعة البريطانيين.

اللقيط : اين أنت ذاهب ؟

هيوبرت : ماذا يهمك هذا الأمر ؟ هل أتدخّل انا في شؤونك الخاصة، كما تفعل، يا صاح ؟

اللقيط : انت هيوبرت على ما أظن ؟

هيوبرت : ظنك في محله. وانا اريد ان أعتبرك من أصدقائي، لأنك عرفت صوتي. فقل لي من أنت ؟

اللقيط : أنا مَن شئت، ويمكنك أن تجد فيّ صاحباً إنحدر من سلالة بلانتاجيني.

هيوبرت : انت تذكّرني بأمور لا ترضيني لأنك أنت وظلام الليل وضعتماني في موقف حرج... أيها الجندي الشجاع، سامحني لأن اذني لم تألف صوتك من قبل.

اللقيط : إقترب، اقترب، وكُفَّ عن المجاملة. ما وراءك من أخبار ؟

هيوبرت : كنت مارًّا من هنا تحت جنح الظلام أبحث عنك.

اللقيط : هيا عجّل وقل لي لماذا.

هيوبرت : لديّ نبأ وقع في أول الليل الدامس وهو يبعث على اليأس والهلع.

اللقيط : هيا هيا أسمِعْني هذا الخبر المشؤوم. أنا لست امرأة لأخاف وأفقد وعيي.

هيوبرت : اخشى ان يكون احد الرهبان قد دسّ السم للملك. اذ اني

تركته فاقد الأعصاب. فهربت وجئت لأطلعك على هذه الكارثة كي يتسنى لك ان تتّخذ الحيطة والحذر لمواجهة هذه الازمة المفاجئة وإن وصلتُ اليك متأخراً.

اللقيط : وكيف تناول السم ؟ مَن ذاق طعامه قبل أن يأكل منه ؟

هيوبرت : راهب على ما قيل، هو خائن خسيس تمزقت احشاؤه بغتةً. مع أن الملك لا يزال قادراً على النطق، وربما ساعدته الاسعافات اللازمة على البقاء حيّاً.

اللقيط : ومن تركت الى جانب صاحب الجلالة ؟

هيوبرت : ألم تعلم بأن جميع اللوردات عادوا بصحبة الامير هنري ؟ وبناءً على رغبته الملحّة سامحهم، وهم الآن جميعهم يحيطون بجلالته.

اللقيط : كُفَّ عن إظهار انزعاجك. أيتها السماء القديرة، أعينينا. سأقول لك، يا هيوبرت، ان نصف رجالي عندما مرّوا هذه الليلة بالشاطئ الرملي، فاجأتهم أمواج المدّ في منطقة لنكولن وابتلعتهم. ولأني كنت على صهوة جوادي تمكّنت من الخلاص. فهيّا بنا ننطلق من هذا المكان. ارجو ان تقودني الى الملك، لأني أخاف ان يموت قبل وصولي اليه.

(يدخل بمبروك)

بمبروك : الملك لا يزال قادراً على النطق. وهو مقتنع بأنه اذا نُقل الى الهواء الطلق سيشفى من الآلام المبرّحة التي يعانيها على أثر تناوله السمّ المدسوس في طعامه.

هنري : جيئوا به الى هنا ومدّدوه في الحديقة. ألا يزال يهذي ؟

بمبروك : هو الآن هادئ اكثر مما كان عليه عندما غادرته أنت. ومنذ هنيهة كان ينشد.

هنري : ما أعجب المرض وما أغربه. في الحقيقة عندما يشتدّ الوجع لا يعود الانسان يشعر به بوضوح. فالموت بعد أن يقضي

على الاجزاء العضويّة يترك فيها قليلاً من الاحساس ويحاصر الذهن ليشلّه تباعاً، وينزل به الأعطاب بصورة متواصلة تجعل العناصر الغريبة المهاجمة تتسابق للسيطرة التامة على أعضاء الجسم واحداً تلو الآخر. ومن أعجب الامور ان يدفع الموت ضحيّته حتى الى الانشاد أحياناً. انا الطائر الوحيد المتحدّر من هذا الباشق الهزيل الشاحب اللون، يسعني ان أترنّم بنشيد الموت المفجع، وأن أُخرِج من أوتار صوتي السريع التلف لحناً يهدهد جسمه ونفسه الى الأبد ويلهيه ويشغله.

سالزبري : تشجّع، ايها الامير، لانك أتيت الى هذا العالم لتجسّد هيئة التصميم الذي تركته الطبيعة لنا بدون شكل واضح ولا صقل أو تنميق.

(يدخل بيكوت ومعه بعض الخدم يحملون الملك جون وهو جالس على مقعد).

الملك جون : أجل، آمالي الآن تستند الى سواعد وفيّة. ولست بحاجة الى الخروج من النافذة ولا من الباب. وفي أعماق نفسي بشائر صيف حارّ طويل يجعل احشائي تتمزق من الألم. انا لم أعد سوى هيئة مشوّشة كأنها مرسومة بريشة على الورق، واشعر بأني أتلوّى تحت تأثير الحرارة التي تبعثها النار حولنا.

هنري : كيف حالك الآن، يا صاحب الجلالة ؟

الملك جون : لا اشعر بالارتياح، لأني مسموم ومنازع، وأنا متألّم هالك. ولا احد منكم يريد أن يطلب من الشتاء ان يضع أصابعه المجلّدة بين فكّيّ، لا احد، منكم ينوي ان يحوّل انهر مملكتي لتجري في بطني وتبرّد امعائي المشتعلة، اجل لا احد يودّ ان يلتمس من الرياح الشمالية ان تهبّ وترطّب شفتيّ بقبلة النسيم العليل، ويخفف عذابي الاليم ببرد الصقيع. انا لا اتطلّب الكثير، بل أتوسل اليكم للحصول على انجع علاج

يخفف آلامي. وانتم أبخل من الانسان العقوق تمنعون عني هذه المواساة.

هنري : انا أتساءل لماذا لم تُزوِّد دموعي بالمقدرة اللازمة لشفائك ؟

الملك جون : لأن ما تحويه من الملح ساخن جدا. وفي جوفي جحيم يؤجج السمّ سعيره كأن ألْف شيطان ينفذون حكم اعدامي بانتزاع حياتي من بين ضلوعي بأعنف أسلوب مستطاع.

(يدخل اللقيط).

اللقيط : السرعة القصوى التي أوصلتني اليك في هذه الساعة لأشاهد جلالتك تكاد تخنق أنفاسي من شدة اللهاث.

الملك جون : لقد وصلتَ في الوقت المناسب، يا ابن العم، لتغمض اجفاني المتثاقلة. لأن الحروق انهكت قواي، والأشرعة التي كانت تسيِّر سفينة عمري لم يبق منها سوى خيوط واهية كنسيج العنكبوت، وقلبي لم يعد يقوى على الخفقان ببطء لأسمع الخبر الذي تأتيني به. بعد ذلك لن يبقى من كل ما تبصره الآن إلّا حفنة من تراب وظلّ ملكية تنهار وتتدهور في هوّة العدم.

اللقيط : ولي العهد يستعدّ للمجيء الى هذا المقرّ. والله يعلم كيف سنستقبله ونردّ عليه بعد ان فُقدتْ خيرة الجنود التي كانت تتأهّب للانسحاب فعاجلتْها بغتةً أمواج البحر العاتية وأغرقتها في طوفان هادر غير مرتقب.

(يموت الملك جون).

سالزبري : انت تهمس بهذه الأنباء المشؤومة في أذنٍ استولت عليها قبضة المنيّة الخانقة. وا أسفاه، خسارتنا بك فادحة، يا مولاي المفدّى. منذ هنيهة كنت ملكنا، والآن لم يبقَ منك سوى جثة هامدة.

هنري : هذه هي مهمّتي وهذا هو مصيري. أيّ أمن بقي لي في هذه

الدنيا وأي أمل وأي سند، عندما أصبح تراباً من كان منذ برهة ملكاً جليلاً ؟

اللقيط : (يلتفت الى الجثة) : ها قد رحلت عنا اخيراً. انا غير باقٍ من بعدك إلّا لأقوم بواجب الشعائر اللائقة بك ولآخذ بثأرك. عندئذ ستتبعك روحي الى السماء لتساعدك هناك أيضاً كما كانت لك خير عون على هذه الارض. (للوردات) وأنتم أيها الكواكب الساطعة الآن، وقد دخلتم في عصمة الشرعية، أي قواتكم ؟ أثبتوا عودة ولائكم لمن كان مولاكم، وهبّوا معي الى التعويض عن الاسى والذل اللذين لحقا بوطننا الممزّق. فلنبادر بسرعة إلى الهجوم على اعدائنا قبل أن يبدّدنا زخفهم. فوليّ العهد تغلي مراجل حقده وسخطه بسببنا، وهو على وشك الانقضاض علينا لتشتيت صفوفنا.

سالزبري : يبدو انكم لستم مطّلعين على حقائق الأمور اكثر منا. فالكردينال بندولف يرتاح في الدير منذ نصف ساعة. وقد غادر ولي العهد منذ قليل وهو يأتينا من قبله باقتراحات سلْم لا يسعنا ان نرضى بها إلّا مرغمين، ونظراً الى الفوائد التي يجنيها الامير ولي العهد، أعلن أنه على أتمّ الاستعداد لمغادرة ساحة القتال.

اللقيط : وسيكون استعداده اتمّ اذا علم بأننا متحصّنون ومتأهّبون للدفاع على أكمل وجه.

سالزبري : هذه مسألة قائمة بذاتها. فقد ارسل عدداً لا بأس به من ناقلات الجند الى الشاطئ وربط قضيته وخلافه بقرار الكردينال. واثناء بعد ظهر اليوم، اذا وجدتم الظرف مناسباً، سنبادر الى الذهاب لمقابلة من يمكننا انا واللوردات، أن نُجري معهم هذه المفاوضات التي نأمل بأن تكون نهايتها سعيدة مرضية.

اللقيط : حسناً. (لهنري). وأنت أيها الأمير النبيل، برفقة الكبار الذين

لا يستحسن غيابهم، سنرافق معهم موكب جنازة أبيك.

هنري : لا بد من دفن جثمانه في وِرْسِسْتر حسب آخر توصياته.

اللقيط : يجب علينا أن نحمله الى هناك. بعدئذ، على شخصيتك المحبوبة ان تؤمّن السلطة الوراثية بشكل ملائم حفاظاً على مجد بلدنا. وها انا اجثو على ركبتيّ وأضع بتصرّفك جهودي المخلصة ومودتي الصادقة غير المحدودة.

سالزبري : وهكذا نعرض نحن عليك صافي حبنا الذي نعدك بأن لا تشوبه شائبة.

هنري : عواطفي الرقيقة تأبى عليّ إلّا أن أشكرك. وها هيذا دموعي خير شاهد على صدق ما أقول.

اللقيط : علينا ان لا ندفع لدهرنا إلّا المقدار اللازم من تضحياتنا وآلامنا. لأنها أخذتْ من أحزاننا سلفاً ما فيه الكفاية. لم تسقط انكلترا ابداً حتى الآن، ولن تسقط أبداً في المستقبل تحت أقدام أيّ فاتح مهما كان عظيماً، إلّا اذا ساعدته هي ذاتها على انزال الضربة القاضية على كيانها. والآن، وقد عاد رؤساؤها الى صوابهم واستأنفوا ولاءهم لها، يسع ثلاثة ارباع الدنيا ان تتألّب علينا وتصوّب سهامها إلينا غير أننا سنتكاتف ونتحدّاها ونتغلّب عليها. ولن يحلّ بنا أي سوء بعد الآن، طالما ظلّت انكلترا وفية وامينة بحق ذاتها.

(يخرجون).

(تمّت).

بيركليس
امير صور

تعريب

أ. ر. مشاطي

أشخاص المسرحية

بيريكليس : أمير صور

هيليكانوس } سيّدان من صور
إسكانيس

أنطيوخوس : ملك انطاكية

ثالْيار : وزير انطيوخوس

سيمونيد : ملك بِنْتابوليس

كليون : حاكم طرسوس

ليزيماك : حاكم ميتيلان.

سيريمون : سيّد من أَفَسُس.

فيليمون : خادم سيريمون.

لِيونين : خادمة ديونيسا.

قوّاد.

بولْتْ : خادمة.

وكيل القصر.

غوير : قائم مقام جَوْقة

ثايسا : ابنة سيمونيد.

مارينا : ابنة ثايسا وبيريكليس.

ليكوريدا : مرضع مارينا.

ابنة انطيوخوس.

ديونيسا : زوجة كليون.

قوّادة.

ديانا : إلهة.

سادة وسيدات وفرسان وذوات وبحارة وقراصنة وصيادو سمك ورُسل وغيرهم.

تجري الأحداث في أمكنة مختلفة من آسيا الصغرى.

الفصل الأول

مقدّمة

في قصر انطاكية، حيث تبدو فوق المدخل رؤوس مقطوعة ومعلّقة بمسامير.

(يدخل غُوير).

غُوير : لإنشاد أغنية كانت رائجة في ما مضى
قام غُوير من رماد جثمانه المحروق وارتضى
أن يقلّد عاهات البشر المنوّعة
فشنّف آذانكم وأبهج عيونكم الملوّعة.
وترنّم بهذه القصة أثناء الحفلات
والأعياد والأمسيات والسهرات
اذ كان السادة والسيدات في قديم الزمان
يتلونها للترفيه عن أنفسهم كالفتيان
وللإشادة بأمجاد الأبطال كالجبال الشاهقة
بما أن المآثر السالفة أفضل من اللاحقة
اذا وافقتم يا أبناء هذه الأزمنة الحديثة
وقد أينعت الأفكار وطابت الأشعار الجريئة

التي تستسيغونها، وأصغيتم الى من تغنّى بها
وتمنيت أن أحيا طويلاً وأستزيد من سماعها
وأستنفد زيت سراجي أثناء حياة أستعذبتها.
هل ترون هذه المدينة التي بناها وزيّنها
انطيوخوس الكبير، وعاصمة ملكه اتخذها
وجعلها أجمل ناحية في أرض سوريا كلّها.
ها أنا أكرّر ما قاله غيري بلهجة وادعة
ان هذا الملك اقترن بعروس رائعة
ماتت بعد أن أنجبت له طفلة زاهية
جميلة وذكية ذات عيون سوداء صافية
خلعت عليها السماء أفضل الصفات
فعشقها والدها المثلث اللعنات
حتى راودها عن نفسها واستغل ضعفها
وبئس الأب الذي على الفسق حرّضها
وكان عليه أن يحميها ويصون طهرها.
واذ وقع المقدّر القبيح المحظور بينهما
لم يعودا على المدى الطويل يأبهان لجرمهما.
لكن حسنها الباهر سرعان ما اجتذب الأمراء
لخطب ودّها والاستئثار بها حليلة سمحاء
ينعمون بقربها بما لذّ وطاب في غاية الإعزاز.
غير أن الأب فرض عليهم حلّ أعقدِ الألغاز
للاحتفاظ بابنته، وإبعاد طالبي يدها.
فطلب من كل راغب في الاقتران بها
بأن يحلّ الأحجية، وإلا أمر بقطع رأسه
حتى تراكمت الرؤوس المفصولة بفأسه
كما يدل على ذلك ما علّق منها فوق مدخل قصره.

(يشير الى الرؤوس المقطوعة)

وفي ما يلي أترك الحكم بين الورى
لعيونكم وهي نِعْمَ الشهود على ما جرى.

(يخرج).

المشهد الأول

في المكان عينه

(يدخل انطيوخوس ثم بيريكليس وحاشيته).

انطيوخوس : يا أمير صور الشاب، لا بد من أن تكون على علم تامّ بمخاطر المهمة التي تتعهد بإتمامها.

بيريكليس : أجل، يا انطيوخوس. وما دام المجد الناجم عن تحقيقها يدفعني الى الاقدام عليها، فأنا لا أبالي بالموت الذي قد ألاقيه في سبيل انجازها.

(تصدح الموسيقى).

انطيوخوس : أجلبوا ابنتي بلباس الخطيبة كأن الاله المشتري يودّ أن يعانقها. فإنها لمّا حبلت بها والدتها، زوّدتها الطبيعة بكل الحسنات الممكنة بعد أن أجمعت سائر الكواكب على منحها الروعة الكاملة بأبهى مظاهرها.

(تدخل ابنة انطيوخوس).

بيريكليس : ها هي آتية بحللها الربيعية، ومفاتنها تتلألأ مبرزة جميع مزاياها وفضائلها التي تمجد الانسان. وها هو محيّاها ككتاب مفتوح يطالعنا من خلال سطوره بكل سحر ودلال، بعيداً عن الشوائب والنقائص التي قد تتبادر الى الأذهان، بدون أن تمسّ حلاوتها

الصافية كشهر العسل. فشكراً لك أيتها الآلهة التي زوّدتني بأحاسيس البشر وأوصيتني بتذوّق رحيق الحب، وأضرمت في أحشائي الشوق الى التلذذ بثمار مثل هذه الشجرة السماوية. وإلا هلكت إن أوليت ظهري واجب الخضوع لتوجيهاتك المقدسة. فأعينيني على التنعّم بهذه السعادة الفائقة..

انطيوخوس : أيها الأمير بيريكليس...

بيريكليس : الذي يرغب في أن يصبح صهر انطيوخوس الكبير..

انطيوخوس : أمامك تظهر هذه الحورية كثمرة ذهبية خطرة الملمس. لأن وحوشاً ضارية تسهر عليها لكي تروّعك. ها هو وجهها الصبوح كالبدر التمام يدعوك الى التأمّل في ملامحه وما يحويه من معاني السموّ الذي لا يتسنى لأي كان أن يستأثر به. واذا لم تستحقّ هذه النعمة، فموتاً تموت جزاء جسارة عينيك المحدّقتين في أنوثتها الساحرة. (يُريه الرؤوس المقطوعة). ان هؤلاء الأمراء المعزّزون في ما مضى بما تمتّعوا به من سمعة طيبة وشجاعة نادرة هم خير نذير بألسنتهم الخرساء وسحنهم المكربة لردعك عن خوض معركة قد تكون شؤماً عليك بمقدار ما أصاب سابقيك من سوء الطالع حين لاقوا حتفهم في ميدان هذا الحب الجارف. وهم بوجوههم الدامية القاتمة ينصحونك بأن تقلع عن رغبتك هذه الجامحة في الارتماء بين أحضان الموت الزؤام.

بيريكليس : أشكرك، يا انطيوخوس. لأنك بيّنت لي هول هذه المغامرة الغامضة ولفتّ انتباهي الى بشاعة الخاتمة الهائلة التي ربما أمست من نصيبي. ان صورة الموت هي في الواقع مرآة تعكس نفحة الحياة، ومن غير المعقول أن نرتكب خطأ عدم إتّقاء شرها. لذا سأكتب وصيّتي كما يفعل المريض المنازع المشرف على الموت، الذي بعد أن ذاق حلاوة الدنيا، يتمسّك بأهداب الحياة، كي لا يحرم نفسه أفراح الأرض. وهكذا أفسح مجال

العيش بسلام، لك ولجميع أهل الخير على وجه البسيطة كما يتحتّم على كل أمير أصيل أن يفعل. وسأترك جميع أرزاقي الى اخواني في البشرية على هذه البسيطة من حيث أتتني.
(يتوجّه الى ابنة انطيوخوس) : ولك شعلة حبي الظاهر التي لا تنطفئ. وبذلك أكون على أتم الاستعداد لمواجهة الحياة والموت على حدّ سواء. وأنا لا أخشى أن أتلقى أقسى الضربات، يا انطيوخوس، رغم كل التحديات التي تعترض سبيلي.

انطيوخوس : اذاً إقرأ الأحجية. وبعد الاطلاع عليها، اذا لم تتمكّن من حلّها، فالقرار المتّخذ يقضي بأن تموت نظير الذين تُبصر رؤوسهم معلّقة ها هنا.

ابنة انطيوخوس : على كل حال أتمنى لك النجاح والحظ السعيد. ولكي لا تهلك، لا بدّ لك من أن تتوصّل الى الحلّ المنشود.

بيريكليس : سأخوض المعركة مثل بطل ظافر، ولن أطلب نصح أحد، معتمداً على فطنتي وشجاعتي.

(يقرأ اللغز).

« أنا لست أفعى ولا ألْدغ
جسم أمي التي أنجبتني.
وفيما كنت أبحث عن زوج مناسب،
وجدت العطف لدى والدي،
لأنه أب وابن وزوج صالح،
ولأني أمّ وزوجة ولا أزال ابنة.
فكيف يجتمع هؤلاء الفرقاء الثلاثة في شخصين فقط؟ »
عليك أن تجد الحلّ المناسب إذا أردت أن تعيش.
هذا شرط مرهق. فيا أيتها القوى الخارقة الطبيعة التي تجهّز السماء بعيون لا تحصى من النجوم لمراقبة أعمال البشر، لماذا لا تختبئين خلف الغمام الذي، اذا كانت هذه المسألة حقاً

صحيحة، فان تلاوتها تورث الوجه الشحوب. (يمسك يد الأميرة). أيتها المرآة المتلألئة أحببتك في الماضي وسأحبك الى الأبد، لو لم يطفح الشر من هذا الصندوق الصغير الغامض. لكن يجب علي أن أقول لك... كلاّ، ان فكري يأبى الخضوع لمشيئة هذا الانسان. لأنه ليس كاملاً، ولا يجد نفسه أمام مسكنه الحافل بالرذائل. مع ذلك أنت آلة موسيقية رخيمة. احساساتك تقوم فيها مقام الأوتار التي تجتذب نبراتها الشجية أسماع أهل السماء وكل الآلهة. وأنا أتوق الى تشنيف آذاني بأنغامها، لكنها قبل حلول الأوان لا يسعها إلا أن تُرقص زبانية الجحيم بألحانها الجنونية التي يطغى عليها النشاز. في الحقيقة أنا لا يهمّني أمرك في الوقت الحاضر.

انطيوخوس : أيها الأمير بيريكليس، لا تتورّط في هذه القضية الشائكة التي ربما أودت بحياتك. فبموجب قوانيننا، هي أخطر من كل ما عداها. وأنت تضع ذاتك أمام أحد أمرين لا ثالث لهما : إمّا أن تحلّ اللغز فوراً وتنال مبتغاك، وإمّا أن تخضع للحكم المبرم بهلاكك في الحال.

بيريكليس : أيها الملك المعظّم، قليلون هم الذين يحبّون سماع الكلام عن الأخطاء التي يُزمعون أن يرتكبوها. وحديثنا حول هذا الموضوع يُعتبر إهانة لا تغتفر. فمن لديه سجلّ بأعمال الملوك يجمل به، لأجل سلامته، أن يتركه مغلقاً بدون أن يفتحه. لأن قبائحهم المفضوحة هي كالرياح العاصفة تهبّ بهياج عنيف وتثير الغبار وتذره في العيون. وما أغلى الثمن الذي يدفعه من يتعرّضون لجنونها. وحين تهدأ الزوابع تتفتّح العيون المجرّحة وتشعر بما أحدثته الأهواء من الأذى والتلف. وهكذا حتى الخلد الأعمى يرفع الى السماء أكوام التراب التي يختبئ تحتها بغية تبيّن مقدار ظلم الانسان وجوره. ولا يلبث هذا الحيوان الضعيف المسكين أن يموت من جراء تطاوله. الملوك هم في

الواقع آلهة الأرض : ففي ميدان الشر، تتحكم اراداتهم برقاب البشر كأنها شريعة مفروضة. واذا حاد الاله المشتري عن الخير، من يجرؤ أن يقول له أنه انحرف ومال الى الفساد. يكفيك اذاً أن تدري بذلك. وحين يوشك الشر أن يتغلّب، لا بد من المبادرة الى خنقه قبل أن يستفحل. ولا ننسَ أن الجميع يحبّون أمهم التي ولدتهم وأرضعتهم. وهكذا، أرجو أن يدافع لساني عن رأسي حالما يتعرّض للخطر الداهم.

انطيوخوس (على حدة) : أيتها السماء، ساعديني على الظفر برأسه وقطعه بدون امهال. لأنه اهتدى الى الحلّ المرغوب... عليّ اذاً ان ألجأ الى الحيلة. (بصوت مرتفع) : في هذا الصدد، يتسنى لنا بموجب جوابك المغلوط أن ننفذ فيك حكم الإعدام. غير أن الأمل المستمدّ من ذهنية منفتحة فطنة كذكائك يحملنا على التصرف بأسلوب آخر. لذا نمنحك فرصة أربعين يوماً لكي تميط اللثام عن سر اللغز. وهذا الحلم من قبلنا يبرهن على مدى الرغبة التي تحدو بنا الى إسعافك بمقدار فرحنا بنجاحك الذي يؤهلك لأن تصبح صهرنا العزيز بمثابة ابننا. والى ذلك الحين سنعاملك بما يليق بكرامتنا ومقامك.

(يخرج أنطيوخوس وابنته والحاشية)

بيريكليس : كيف تحاول الشهامة أن تستر الجريمة؟ هذا لعمري عين النفاق الذي لا يمتّ بأية صلة الى الفضيلة التي ينتحلها. فلو كانت تفسيراتي حقاً مخطئة لما تظاهرت بالحلم لتستر عملاً دنيئاً سفّاحاً كاغتصابك ابنتك. أجل، لقد اكتشفت أنك في آن واحد أب وابن بما بينك وبين ابنتك من روابط وعلاقات غير طبيعية هي من حق الزوج لا الأب، وهي تجرم بحق أمها لأنها تلطّخ هكذا فراش والدتها. وكلاهما كالحيّات التي تتغذّى بأحلى الأزهار، لا تنتج سوى السم الزعاف. الوداع،

يا انطيوخوس. فالحكمة أثبتت لي أن الأشخاص الذين لا يخجلون من خساسة ما يرتكبون من الموبقات تحت جنح الظلام لا يحجمون عن تكرار قباحاتهم في وضح النهار. وكما يتصاعد الدخان من النار، هكذا تنجم الجريمة عن التهتك، والاستسلام الى الملذات لا سيما غير الشرعية يدفع الى القتل عمداً لإخفاء معالم الزنى، باللجوء الى المكيدة والتسميم، وهما ذراعا الجريمة والترس الذي يحتمي به مرتكبها الجبان من عواقب الفضيحة والمذلّة. لذلك، خشية أن تهلكني لضمان سلامتك، سأعمد الى الابتعاد عن الخطر الذي يهدد حياتي.

(يخرج).

(يدخل انطيوخوس ثانية).

انطيوخوس : لقد وجد الحلّ المطلوب. لذلك صمّمت على قطع رأسه أسوةً بغيره. اذ لا بدّ من القضاء عليه بأسرع ما يمكن قبل أن يفضح نذالتي ويعلن للملأ أن انطيوخوس يرتكب مثل هذه الفحشاء. اذاً، يتحتّم على هذا الأمير أن يموت حالاً. ولا سبيل الى صيانة شرفي إلا بقتله. إليّ، يا ثاليار.

(يدخل ثاليار).

ثاليار : هل ناديتني، يا صاحب السموّ؟

انطيوخوس : يا ثاليار، أنت من أخلص أخصّائي. وضميري يأبى إلا أن أودع أسراري الحميمة في أمانة كتمانك. ومحافظتك على مودّتي وتقديري هي السبيل الوحيد الى ترقيتك وتعزيز مقامك. خذ، يا ثاليار، هذا السمّ وهذه الكمية من الذهب. أنا أكره أمير صور، وعليك أن تخرسه الى الأبد وتزيله من عالم الوجود. ولا فائدة من السؤال عن الأسباب التي تدفعني إلى هذا القرار النهائي. فهذه أوامري المشدّدة، وعليك أن تعدني بتنفيذها.

ثاليار : أعدك وعداً قاطعاً، يا مولاي.

انطيوخوس : يكفيني وعدك هذا. وبتقيّدك بالغيرة على مصالحي تضمن مستقبل حياتك.

(يدخل رسول).

الرسول : هرب الأمير، يا مولاي.

(يخرج).

انطيوخوس (لثاليار) : أصبحت حياتك مرتبطة بهذا الواقع الجديد. أسرع الى اللحاق به. وكالسهم الذي يطلقه نبّال ماهر، سدّد اليه ضربتك القاضية، ولا تعد اليّ إلاّ لتبشّرني بأن الأمير بيريكليس قد أصبح في دنيا الأموات.

ثاليار : كن مطمئن البال، يا مولاي. فحالما يمسي تحت رحمتي سأصوّب اليه ضربتي وأقتله في الحال. وبناءً على ذلك، أبلغك يا صاحب السموّ أصدق تحياتي.

(يخرج).

انطيوخوس : الوداع، يا ثاليار. لن يطمئن قلبي على سلامة رأسي، إلاّ بعد أن يقضي بيريكليس نحبه.

(يخرج).

المشهد الثاني

في قصر أمير صور

(يدخل بيريكليس وهيليكانوس وسادة آخرون).

بيريكليس : أطلب أن لا يزعجني الآن أحد. لماذا تجتاحني كل هذه الهواجس؟ ولماذا تلازمني هذه الكآبة المقيتة ولا تدع لي مجالاً للترويح عن نفسي كأني سجين قبر مظلم، وكأن بلايا العالم كلها جاثمة على صدري لا تتركني أرتاح ولو لحظة واحدة. يخيل اليّ أن الملذات تراود مشاعري فتنحّيها عن أنظاري. أجل أنا أعلم ان الأخطار التي أخشاها، تحوم في سماء انطاكية، وأشعر بأن يد انطيوخوس قصيرة جداً مهما سعت وحاولت، لا يسعها أن تطالني هنا. مع ذلك يعجز فنّ الترفيه عن تسليتي، رغم بعدي عن خصمي الذي يقلق أفكاري. هذا صحيح، ولا سبيل الى نكران الواقع. لأن الاضطراب المتزايد المستمر يثير الهموم التي تنخر قلبي كالسوس. فما كان في البدء خوفاً من المحنة أصبح مع الوقت شغل بالٍ مزمن. وأخاف أن تنقلب الاستكانة الى كارثة جسيمة. لأن انطيوخوس الكبير الذي لا أضاهيه قوةً لن أتمكن من مقارعته والتغلّب عليه، وهو على ما عهدته فيه من شدّة البأس والقدرة على نيل كل مآربه، يظن أني أريد التحدي حين أودّ ملازمة التحفظ. ولا أرى فائدة من ابلاغه اني أتمنى له المزيد من الشرف الرفيع لا سيما عندما يشكّ في نواياي ويدرك اني بالعكس أبغي تحقيره واذلاله. واذ أخشى أن يظن بأني أميل هكذا الى مناوأته، يخيّل اليّ أنه سيجمع جيوش المنطقة لمهاجمتي كأني من ألدّ أعدائه. عندئذ سيتغلّب على رجالي ساعة مواجهتهم ويقتصّ من شعبي لقاء اهانة وهمية لم تخطر لهم ببال. هذا في الحقيقة ما يرهق

تفكيري من ناحيتهم، ولا يخيفني أبداً مصيري أنا شخصياً. لأني أشبه شجرة باسقة تفيّؤهم أغصانها وتحمي الجذور التي تغذّيهم. وهذا ما جعلني نحيل الجسم حزين النفس، أتألم من جرّاء كل ما يعذب ضمير أنطيوخوس.

السيد الأول : أتمنى لك كل السعادة والهناء.

السيد الثاني : والى حين عودتك إلينا سالماً، جلّ أمنيتي أن يفعم قلبك أمل السلام والسرور.

هيليكانوس : ليغمر السلام روحكم، أيها السادة الكرام، ولتمهد الخبرة سبل أموركم. ان الذين يتزلفون عادة الى الملك يبالغون في تمليقه، لأنهم بذلك يزكون نار الشر حوله. ولأن الأطناب في المديح هو كالشرارة التي تشعل الحريق وتؤجّج النار في الهشيم. بينما قول الحقيقة والتنبيه الى الأخطاء والنقائص أحياناً بالعكس يخمد الغضب ويحمل على الاعتدال، لا سيما لدى الملوك، لأنهم في الواقع ليسوا سوى بشر معرضين للزلل كغيرهم. فعندما يشيد المنافق بالسلم يموّه الحقيقة ويشعل نار الحرب ضمن نطاق مجتمعه. (يركع). سامحني، أيها الأمير، أو عاقبني اذا شئت، لأني لا أستطيع أن أتدنّى أكثر من الركوع على ركبتيّ.

بيريكليس (لباقي السادة) : دعوني وحدي انفرد به. واستعلموا عن المراكب المقلعة الى مرفإنا، وعودوا لتفيدوني (يخرج السادة). يا هيليكانوس، لقد أثرت شجوني. فماذا ترى على محياي؟

هيليكانوس : جبهتك مكفهرّة، يا مولاي المحبوب.

بيريكليس : عندما ترتسم امارات الغيظ في عيني الأمير كيف يجسر لسانك على الافصاح أمامي عن غضبك؟

هيليكانوس : يجدر التساؤل كيف تجرؤ النباتات على التطلّع الى السماء التي تنمّيها.

بيريكليس : ألا أعلم حق العلم بأني قادر على حرمانك نعمة الحياة.

هيليكانوس (راكعاً) : أنا بنفسي أرهفت حدّ الفأس، فما عليك إلا أن تضرب بها عنقي.

بيريكليس : انهض، أرجوك أن تنهض وتجلس بقربي. أنت لست متملّقاً، وأنا أشكرك على مزيّتك النادرة هذه بنوع خاص، وأطلب من السماء أن تحفظ الملوك من المداهنين الذين يموّهون لهم عيوبهم. أيها المرشد الصادق الأمين، أيها المخلص لأميرك. يا من بحكمتك جعلتني أنا سيّدك، اعتبر نفسي خادمك، ماذا تودّ أن أفعل؟

هيليكانوس : أن تتحمّل بصبر ما تفرضه على نفسك من العذاب.

بيريكليس : أنت تتكلم كالطبيب، يا هيليكانوس، حين تصف لي علاجاً ترتجف أنتَ اذا تناولته بدورك. إصغِ إليّ : لقد ذهبت الى انطاكية حيث، كما تعلم، واجهت الموت حين حاولت أن أقترن بجمال رائع بغية إنجاب نسل لي يساندني في امارتي ويدخل البهجة على قلوب رعيتي. لقد بدا لعينيّ محياها كزهرة رائعة. والباقي، دعني أهمس به في اذنك، كان أسود قاتماً مقيتاً كمغتصب ابنته. واذا إكتشفت أنا هذا الجرم السافل تظاهر الوالد بالتودّد اليّ بدلاً من أن يضربني. ففكّرت بما حدث في الماضي وما قد يليه في المستقبل. وأنا على يقين من ثورة طغيانه فتوقعت أن تزداد وحشيته عنفاً بسرعة، لأنه بات يخشى أن أبوح لغيره من الأمراء منافسيه، بما توصلت الى معرفته من سرّ علاقاته الغرامية الفاسقة بابنته. وهذا ما دعاه الى التصرّف على هذا النحو بفرض حلّ لغز أفضى العجز عن فك رموزه الى سفك دماء العديد من الأمراء، وتعليق رؤوسهم المقطوعة فوق مدخل قصره، بقصد إسكاتهم عن البوح بسرّه المشين. ولكي يطمئن الى النتيجة المتوخاة ضاعف عدد رجال جيشه ونشرهم في جميع الأنحاء بحجة منع التآمر عليه. وبما اني لم أُتح له مجالاً لنيل مأربه بقطع رأسي أنا

أيضاً، علينا الآن أن نتحمّل جميعاً ما يعدّه من ضربات سيسدّدها الينا لإرغامنا على ستر دناءته، فأنا ألْتمس من كافة أتباعي، ومنك أنت أيضاً مناصرتي، وإن لُمتني على ذلك منذ لحظة.

هيليكانوس : أنا متأسف جداً، يا مولاي.

بيريكليس : لقد سلب هذا الوضع النوم من أجفاني، وأصعد الدم الى وجنتيّ، وأثار في خاطري الف همّ وألف خوف. فحاولت أن أتّقي شر العاصفة قبل أن تهبّ علي وتهلكني. واذ لم أجد سوى فرص ضئيلة للخلاص من هذه الورطة، حاولت أن أفرض على نفسي ما يجب أن يتحلّى به كل أمير من فضيلة.

هيليكانوس : بما أنك، يا مولاي، أذنت لي بحريّة الكلام سأصارحك بأفكاري جليّة. أنت تخشى غدر أنطيوخوس الغاشم الذي قد يشنّ عليك الحرب علناً أو من خلال مكيدة وخيانة مستترة ربما تقضي على حياتك. فلماذا لا تلجأ الى السفر بعض الوقت، يا مولاي، وتغيب عن هذه الديار الى أن تهدأ ثائرة غضبه أو أن يغيّبه الموت. وتستطيع أن تسلّم الحكم بالوكالة الى من تأتمنه على مصالحك. واذا شئت أن أكون أنا بديلك، لن يضيرك أن تنعم أنت بالراحة والاطمئنان برهة حتى تعود الأيام الى مجراها الطبيعي. ويسعك أن تكون على ثقة تامة بأني سأصون الأمانة بكل اخلاص، لأردّها اليك عند الطلب.

بيريكليس : أنا لا أشكّ بوفائك. لكني أخشى أن تُهاجم مملكتي أثناء غيابي.

هيليكانوس : لن أبخل عندئذ بدمي، ولن أتردّد في جعله يُسفك في سبيلك، يا ولي نعمتي منذ أن أبصرت عيناي نور الحياة.

بيريكليس : سأبتعد اذاً عن صور وأذهب الى طرسوس، حيث ستوافيني رسائلك المطمئنة. وبموجب توجيهاتك وارشاداتك سأتصرّف لبلوغ المرام. ستكون اذاً وكيلي في ادارة شؤون رعيتي أثناء غيابي، لأني أتوسّم فيك كل الحكمة والعدالة والمقدرة على تأمين ادارة شؤوني. اني أثق بصدق كلامك ولا أسألك أن

تقسم لي أي ايمان. لأن من لا يفي بوعده لن يتأخّر عن نكص حلفانه. وهكذا يحيا كل منا في دنياه آمناً كريماً، لا يخاف على كيانه ولا يناقض حقيقة واقعه. فتظلّ أنت تابعاً مثالياً، وأظلّ أنا أميراً أصيلاً.

(يخرجان).

المشهد الثالث

عند مدخل قصر صور

(يدخل ثاليار)

ثاليار : ها هيذا صور. وها هو بلاطها. وهنا عليّ أن أقتل الملك بيريكليس، وإلّا عرّضني تقصيري للموت شنقاً. هذا أمر خطير جداً. الآن فهمت لماذا التمس ذاك الشخص الحكيم البصير حلم الملك وألحّ على عدم معرفة أي سرّ من أسراره. واليوم أدركت انه على حق. اذ مهما طلب الملك من أيٍ كان أن يصبح وغداً لئيماً لا يسعه أن يغفل أوامره لا سيما اذا كان مقيّداً تجاهه بقَسم. ها هم سادة صور قادمون.

(يدخل هيليكانوس وإسكانيس وسادة آخرون).

هيليكانوس : لم تناقشوا بعد، يا سادة صور، قضيّة سفر الملك. فاللجنة المعيّنة حسب أوامره الممهورة بخاتمه، وقد أمست وديعة في حوزتي، لديها الشرح الوافي عن غيابه في رحلة قصيرة.

ثاليار (على حدة) : ماذا تقول؟ سافر الملك؟

هيليكانوس : اذا وددت أن تعرف لماذا رحل الملك بدون أن يعلمكم بسفره،

لو جاز هذا التعبير، فأنا أقدّم لكم بعض الايضاحات في هذا الموضوع. عندما كان في انطاكية..

ثاليار (على حدة) : ماذا يقول عن انطاكية؟

هيليكانوس : لا أدري لأي سبب خطرت ببال الملك أنطيوخوس فكرة مزعجة، كما ظنّ بيريكليس. فخشي هذا الأخير، عن صواب أو عن خطأ، أن يكون قد ارتكب غلطة، كما يدل على ذلك أسفه العميق، فعمد الى معاقبة ذاته. وزجّ بنفسه في مخاطر رحلة بحرية عرّضته في كل لحظة الى الموت رغم تمسّكه بأهداب الحياة.

ثاليار (على حدة) : هيا، الى العمل. أنا لا أرى اني أستحق الشنق على ذنب لم أقترفه. ولكن بما أن الملك سافر، لا أظنه نجا على اليابسة لكي يغرق في لجج البحار. يتحتّم عليّ الآن أن أعرّف بنفسي : السلام على سادة مدينة صور العظيمة..

هيليكانوس : نرحب بالسيد ثاليار، موفد انطيوخوس.

ثاليار : أجل، أنا قادم من قبله ومعي رسالة للأمير بيريكليس. ولكن بما أني علمت حين غادرت السفينة بأن ملككم سافر لا أدري الى أين، فإني سأعود برسالتي الى من بعث بها اليه.

هيليكانوس : لا داعي يدفعنا الى معرفة مضمونها لأنها موجّهة الى ملكنا وليست لنا. مع ذلك قبل رحيلك، إسمح لنا بصفتنا اصدقاء انطيوخوس أن نحتفي بك أثناء اقامتك في صور.

المشهد الرابع

في منزل حاكم طرسوس

(يدخل كليون وديونيسا والحاشية).

كليون : تعالي، يا ديونيسا، نجلس هنا ونأخذ قسطاً من الراحة. ونرى هل اذا روينا آلام سوانا نتوصّل الى نسيان أوجاعنا؟

ديونيسا : هذا يؤجّج نيران الأسى ونحن نرجو إطفاءها. كمن يهدم تلة لأنها مرتفعة فيتعرّض الى ازالة جبل بإنشاء غيره أعلى منه. فيا مولاي الحزين، هذا هو حال آلامنا التي حتى الآن لم تظهر للعيان إلا من خلال معاناتنا ودموعنا. وإذا حاولنا التخلّص منها بالحسنى نمت وكبرت وأضحت كالجبال الشاهقة.

كليون : يا ديونيسا، من منّا اذا جاع لا يطلب طعاماً لسدّ رمقه؟ من منا يتجاهل حاجته الى الأكل كي يموت جوعاً؟ فلندع أنّاتنا تعلن للملأ عن أسانا، ولتدمع مآقينا حتى تستطيع رئاتنا أن تتنفّس الصعداء. ولترتفع أصواتنا أعلى مما كانت سابقاً لئلا ترقد السماء المطلّة على الخلائق وتفيض دموعها وتتلوّى من الألم، لربما استفاقت رحمتها من غفوتها ومدت اليهم يد العون وفرّجت كربتهم. سأعرض لكم ما أصابنا من نكبات منذ سنين عديدة. ولقد لاحظت أنت أن صوتي اختنق في حنجرتي، وما أمكنني أن أُوصِل الكلام اليك علّك تساندينى بزرف دموعك السخينة على لوعتي.

ديونيسا : سأحاول أن أفعل ذلك، يا مولاي.

كليون : لقد بلغ الخصب ذروته أثناء هذا الصيف في طرسوس، حين كانت شوارعها تغصّ بالأرزاق والسلع، وأبراجها مشرئبة الرؤوس تكاد تلامس السحاب، والناس ينظرون اليها بدهشة واعجاب، بينما معظم الرجال والنساء يتهادون في مشيتهم

متباهين بألبستهم البرّاقة، وكأنهم ينظرون بعضهم الى بعض من خلال انعكاس المرآة. وكانت موائدهم الحافلة بما لذّ وطاب تسحر النظر بعيداً عن مظاهر الفقر المنبوذ. فيما الإباء يتشامخ الى حد جعل كل حديث عن الاغاثة أمراً مستقبحاً غير مرغوب.

ديونيسا : نعم هذا هو عين الصواب.

كليون : لكن، أرجوكِ أن تنظري الى ما يسع السماء أن تتحفنا به. فبتغييرات بسيطة مفاجئة، امتلأت هذه البطون الخاوية التي عجز خصب الأرض والبحر والهواء عن اشباع نهمها، رغم ما جادت به عليها من الهبات التي أفسدها التقصير فما استفادت منها، نظير هذه البيوت التي انتابها الخراب والدمار حين افتقرت الى العناية والصيانة. وقد احتاجت هذه القصور منذ صيفين الى تنسيق يرضي الذوق السليم، وأضحت اليوم تقتضي بإلحاح كل اهتمام ولهفة ورعاية. وهؤلاء الأمهات اللواتي بذلن كل جهد في سبيل تسمين أولادهن ولا يجدن ألزم من هذا الواجب، هنّ الآن على أهبة افتراس اطفالهن الأعزاء على قلوبهن. ومهما كانت أنياب الجوع حادة، فالرجل والمرأة لجآ الى الاقتراع بينهما لإطالة عمر أحدهما وتركه على قيد الحياة. هنا سيد وهناك سيدة كلاهما ينتحبان، وعدد كبير من الفريقين يكاد يهلك، لكن الذين يشاهدون غيرهم يموت يوشكون أن يفقدوا قواهم وهم يحاولون أن يدفنوا جثث الراحلين عن هذه الدنيا. أوليس هذا هو الواقع الأليم؟

ديونيسا : إن خدودنا وعيوننا الغائرة خير شاهد على صحّة ما تتناوله الأحاديث.

كليون : ألتمس من أهالي المدن المزدهرة أن يستمعوا الى نحيبنا وعويلنا، وهم منهمكون في الشرب حتى السكْر بالخمرة الفائضة المهدورة، وأتمنى أن يحلّ بؤس طرسوس بهم أجمعين.

(يدخل أحد السادة)

السيد : أين مولاي الحاكم؟

كليون : ها هوذا. وقد أطلعنا على ما تأتينا به من المصائب في مثل هذه العجلة. لأن النجدة بعيدة جداً عنا لكي نأمل أن تصل إلينا وننتظرها في الوقت المناسب.

السيد : لقد لاحظنا على الشاطئ المجاور اسطولاً صغيراً يقلع باتجاه مدينتنا.

كليون : كنت أترقب ذلك. لأن المحنة لا تأتي أبداً وحدها بل تجرّ وراءها غيرها من المشاكل المستعصية. هذا ما أصابنا. فان شعباً يجاورنا استفاد من شدائدنا ليملأ سفنه الواسعة بقوى متفوّقة تنوي مناوأة قوم منهار والانتصار على شخص مثلي لا تضفي عليه الغلبة أي مجد.

السيد : لا داعي للخوف من هذا القبيل، اذ انهم بالأعلام البيضاء التي نشروها يُحلّون السلام في ديارنا وبين أتباعنا لا في جهة أعدائنا.

كليون : أراك تتكلم كمن يجهل أنّ تحت مظاهر الولاء، تختبئ أحقر المشاريع وأكثرها ضرراً. ولكننا، مهما كانت نواياهم سيئة، لا نخاف أذاهم. فالحفرة هي أعمق من الهوّة التي تقوم بيننا في منتصف الطريق. إذهب وبلّغ قائدهم أننا ننتظرهم هنا، لكي نعرف لماذا ومن أين يأتون الينا، وماذا يبغون.

السيد : ها أنا ذاهب.

(يخرج).

كليون : نرحّب بالسلام اذا كان ذلك هدفهم. أمّا اذا كان الحرب مبتغاهم، فاننا غير قادرين على منازلتهم والصمود أمامهم.

(يدخل بيريكليس وحاشيته).

بيريكليس : سيدي الحاكم، لقد عرفنا ما هي وظيفتك، ونحن لا نريد

أن تكون سفننا وفرقنا كأنوار ساطعة تبهر العيون. وقد وقفنا على ما نزل بكم من بلايا في صور ذاتها، وأبصرنا الشقاء والتعاسة في شوارعكم. فجئنا لا لنزيد آلامكم ودموعكم، بل لنخفّف وطأة عذابكم. ربما ظننتم أن سفننا هي نظير حصان طروادة، تمهد للحرب وللمعركة الطاحنة التي تهدّدكم بالويل والدمار. بينما هي محمّلة قمحاً لتزويدكم بالخبز الضروري لحياتكم، ولتردّ الأمل بالشبع والبحبوحة لمن عضّهم الجوع بأنيابه الحادة.

الجميع : لتحرسك آلهة الاغريق، ولتستجب صلواتنا لأجل خلاصكم.

بيريكليس : إنهض، أرجوك أن تنهض. فنحن لا نطالبكم بتعويضات، بل نلتمس منكم العطف والمودّة، ونأمل أن تؤمنوا ملجأً حصيناً لسفننا ورجالنا.

كليون : اذا كانت هذه نواياكم، لا أحد هنا يعارضكم ويقابل بالعقوق حسن معاملتكم. لتحلّ اللعنة علينا وعلى نسائنا وأولادنا، اذا قصّرنا في رعايتكم وإحاطتكم بالاهتمام وحسن الضيافة التي تستحقّونها كرجال مسالمين بعيدين عن العنف والأذى حتى الآن، ونأمل أن يكون ذلك على الدوام. نرحّب بكم كأصدقاء حلّوا بيننا على الرحب والسعة، فكونوا في مدينتنا أحبّ الضيوف.

بيريكليس : نشكركم على هذا الترحيب الصادق ونقبل حسن ضيافتكم بعض الوقت، ريثما تزول محنتنا ويبسم لنا الحظ السعيد ثانية.

(يخرجون).

الفصل الثاني

مقدّمة

(يدخل غوير).

غوير : لقد عرفتم الآن ملكاً قديراً
اغتصب ابنته الجميلة قسراً وتغريراً
وخبرتم أيضاً أميراً أفضل منه، سيداً جديراً،
استحقت أقواله وأفعاله كل تبجيل،
تصرّف كما يليق بالرجل الأصيل
فنجا سالماً من التضليل والتهويل.
صبراً وأريكم المتوّجين دجلاً
يربحون قشّة ويخسرون جبلاً.
أما الأمير الفضيل
صاحب المجد الأثيل
فلا يزال في طرسوس
حيث يحلم بالعروس
وذكرى أعماله الجليلة
تكسبه تاج الفضيلة

بينما الأنباء الأخيرة
تقارن بين المآثر والجريرة
وردودنا عليه مفحمة كثيرة.

(يتبادل الحاضرون بعض الإيماءات).

يدخل بيريكليس من باب وهو يكلّم كليون، وترافق كلاً منهما حاشيته. ويدخل من باب آخر وجيه يحمل رسالة موجّهة الى بيريكليس. يمدّ هذا الأخير رسالته الى كليون. ثم يناول الرسول مكافأة، كأنه فارس مغوار.
يخرج بيريكليس وكليون وآخرون من جهات مختلفة.

يواصل غوير كلامه قائلاً :

أمّا هيليكانوس الفضيل فقد بقي في صور
لا ليأكل العسل الشهيّ كأنه زنبور
بعد أن تعبت في صنعه النحلة الصبور.
فدأب على منع الشر وتشجيع عمل الخير
نزولاً عند رغبات سيده الأمير
وقد أعلمه بكل ما حدث في صور
بينما صاح ثاليار بالويل والثبور،
حسب مقصده القاتل المستور.
لذا نصح الأمير بأن لا يطيل المكوث في طرسوس،
وبناءً على هذا التنبيه أبحر هيليكانوس
وهو لا يرتاح الى العوم كأنه في حرب ضروس.
وبسبب الرياح التي راحت تعصف
والرعود المدوية التي تهزم وتقصف
جميعها تلاعبت بالسفينة وشراعها
بدلاً من حمايتها من عبث هبوبها.
أما الأمير الذي كاد أن يفقد كل أمل
حين طغت الأمواج المتلاطمة بلا ملل
من شاطئ إلى آخر، وأوشكت أن تبتلعه

مع مجموع أرزاقه، فلم يسلم إلا شخصه.
وحين خارت قوى الطغيان
قذفته الى شاطئ الأمان
وسرعان ما أقبل بحزم واطمئنان
ليعلم بما آل اليه مليكه بين المِلل.
فلا ترهقوني بالاستفسار عمّا حصل
هذا غوير الراوي يشرح لكم مصيره المفصّل.

(يخرج).

المشهد الأول

على رمال شاطئ بنتابوليس

(يدخل بيريكليس وثيابه مبلّلة).

بيريكليس : هدّئ روعك أيها الكوكب الثائر. فالرياح والأمطار والرعود كلها تناوئ رجل الساعة الذي كثيراً ما أخافته هذه العناصر وأخضعته لمشيئتها. وا أسفاه. لقد ألقاني البحر على صخور الساحل وقذفتني من شاطئ الى آخر، ولم يترك لي مجال التفكير في الموت المحتّم. يكفيك أيتها العناصر الطبيعية أن تكون قواكِ قد جرّدت أميراً من جميع أهله وممتلكاته. وإذ نبذته طياتك المائعة الرجراجة، لم يعد يرجو سوى أن يموت بسلام.

(يدخل ثلاثة صيادي سمك).

الصياد الأول : ما بك، يا هذا؟
الصياد الثاني : تعال، وأعِد الشبكة الى هنا.

الصياد الأول : هيا عجّل، أيها السروال المرقّع.
الصياد الثالث : ماذا قلت، يا معلّم؟
الصياد الأول : عجّل، عجّل، يجب أن ننتهي من عملنا هذا الصباح، وإلّا عالجْتكَ بهذا القضيب على سبيل التحذير.
الصياد الثالث : أنا أفكّر بالأشخاص الذين فُقدوا تحت أنظارنا منذ هنيهة.
الصياد الأول : أسفاً على شبابهم. لقد مزقوا قلبي، وأنا أسمع استغاثتهم التي تفتّت الأكباد، وهم يستنجدون بنا لنبادر الى انقاذهم، ونحن نكاد نقوى على تخليص ذواتنا.
الصياد الثالث : هذا ما قلته قبل برهة، عندما شاهدت بعض الأسماك تحوم في الماء بالقرب منا، وكأن الحيتان تطاردها، ألا قتل الطاعون هذه الحيتان الشرسة. اني أتساءل، يا معلّم، كيف يتسنى للأسماك أن تعيش في البحر بأمان.
الصياد الأول : تماماً كما يحيا الناس في البرّ حيث الكبار يسطون على الصغار. لا سبيل الى تشبيه الأغنياء البخلاء إلا بالحيتان الرهيبة التي تطارد وتبتلع الأسماك الضعيفة. وكم شاهدت من الحيتان البشرية فاغرة أشداقها لتبتلع حتى رعية المعبد ومبناه الضخم وقبّته وكل محيطه.
بيريكليس (على حدة) : منطق جميل جداً.
الصياد الثالث : لكن، يا معلم، لو كنت أنا خادم المعبد، لكنت لجأت عندئذٍ الى أحد الأبراج واختبأت داخله.
الصياد الثاني : لماذا، أيها الشجاع؟
الصياد الثالث : لأن أحد الحيتان كان ابتلعني أنا أيضاً. وما استطعت أن أخرج من بطنه سالماً إلا عندما يفرغ كل ما في جوفه. ليت الملك سيمونيد أخذ برأيي.
بيريكليس (على حدة) : سيمونيد؟
الصياد الثالث : ولكننا خلّصنا النحل من الزنابير التي تزدرد عسلها.
بيريكليس (على حدة) : لله درّ هؤلاء الصيادين الذين يتخذون مثال سمك البحر

لوصف قباحات البشر. لكن، كم تميّز بساطة حكمتهم بين شر الانسان وخيره؟

(بصوت مرتفع).

السلام عليكم، أيها الصيادون الشرفاء.

الصياد الثاني : تقول الشرفاء، أيها الفتى. هلاّ أوضحت لي من تعني؟

بيريكليس : من لفظهم موج البحر على شاطئكم.

الصياد الثاني : يا للبحر من سكّير لئيم. لفظك هكذا على دربنا.

بيريكليس : أجل، أنا رجل تقاذفتني الأمواج العاتية كالكرة. ثم لفظتني بالقرب منكم بعد أن أشفقت على شبابي. وأنا بدوري، وإن لم أتعوّد الاستجداء، ألتمس منكم أن تغيثوني.

الصياد الأول : أحقاً، يا صاح، لا تعرف الاستعطاء؟ إعلم إذاً أن في بلاد الاغريق بلادنا، يربح العديدون من الاستجداء أكثر مما يكسبه العمّال بعرق جباههم.

الصياد الثاني : أولا تعرف كيف تلتقط السمك؟

بيريكليس : لم أجرّب الصيد أبداً قبل الان!

الصياد الثاني : اذاً، كن على يقين بأنك ستموت جوعاً. لأنك لست قادراً على تحقيق أي ربح في أيامنا هذه أو اقتناص أي مغنم.

بيريكليس : لقد نسيت ما كنت عليه آنذاك، وما كان في مقدوري أن أفعله. لكني لم أنسَ من أنا، لأن الحاجة علّمتني اني انسان عضه البرد بنابه، وكادت شراييني تتجمد في جسمي المجلّد، ولم يبق في بدني من الحرارة سوى ما يمكّن لساني من طلب نجدتكم التي ان حجبتموها عني تركتموني أموت صقيعاً. عندئذ تتكرّمون بدفني في احدى الحفر المجاورة.

الصياد الأول : أنت لا تتكلّم إلا عن الموت. وَقتْنا منه الآلهة، مع أنك على ما أرى شاب وسيم.. هيّا أقلع عن هذه الأفكار السوداء، وتعال، معنا، فإن لدينا بعض اللحم المخبّأ ليوم العيد وبعض السمك

لأوقات الصيام، فضلاً عن الخبز وبعض الفاكهة. وستحلّ أهلاً في دارنا.

بيريكليس : أشكرك جزيل الشكر، يا سيدي.

الصياد الثاني : الم تصرّح، يا صاح، بأنك لا تعرف الاستجداء؟

بيريكليس : أنا لا أعرف الآن سوى الإلتماس.

الصياد الثاني : سوى الالتماس؟ هيّا أنا أيضاً سألتمس نظيرك. وبهذه الوسيلة أنجو من ضرب السياط.

بيريكليس : ماذا تقول؟ هل يتعرّض المتسوّلون عندكم للضرب؟

الصياد الثاني : لا، لا. ليس كلهم، يا صاح. ولو كان الأمر كذلك لما تمنّيت إلا أن أكون من ضاربي السياط. والآن، يا سيدي، عليّ أن أسحب الشبكة.

(يخرج اثنان من الصيادين).

بيريكليس : كم تلائم هذه البهجة حياة الكدّ التي ألفوها.

الصياد الأول : أتعْلم، يا سيدي، أين أنت؟

بيريكليس : لا أعرف بالضبط.

الصياد الأول : اذاً سأدلّك. هذه المنطقة تدعى بنْتابوليس، وملكنا اسمه سيمونيد الصالح.

بيريكليس : أتدْعُونه سيمونيد الصالح؟

الصياد الأول : أجل، يا سيدي. وهو يستحقّ هذه التسمية بسبب حكمه المسالم وعدله الذي شمل الجميع.

بيريكليس : هو حقاً ملك سعيد، لأنه اكتسب هذا اللقب المشرّف. أين يقع بلاطه يا ترى؟ وما هي المسافة التي تفصلنا عنه؟

الصياد الأول : هو على بعدٍ يقارب نصف نهارٍ سيراً على الأقدام. واعلمْ بأن له ابنة هي آية في الجمال. غداً تقع ذكرى مولدها. وبهذه المناسبة سيأتي الى هناك أمراء عديدون من مختلف المناطق ليتباروا في ألعاب الفروسية اكراماً لها.

بيريكليس : كم أتمنى أن يسعفني الحظ لأكون أحد المتبارين.

الصياد الأول : ستجري الأمور كما هو مقدّر لها. وكل انسان يسعه أن يتمنى الحصول على ما يشتهي حتى إن كان ذلك قلب امرأة.

(يعود الصيادان وهما يجرّان شبكة).

الصياد الثاني : ساعدنا، يا معلم، هيّا ساعدنا. ان سمكة كبيرة عالقة في الشبكة، وهي كالانسان لها حق بالخلاص. وقد صعب علينا وحدنا أن نتتشلها من مكانها الضيّق. أخيراً، ها قد توصّلنا الى سحبها ويخيّل اليّ أنها تحوّلت الى درع صدئ.

بيريكليس : بل درع كله فخر ووفاء. دعني أبصره. شكراً، يا لحسن حظي، فبعد كل الشدائد التي عانيتها تسنى لي الآن أن أبيّض وجهي. هذا الدرع في الواقع يخصّني، وقد انتقل اليّ بالوراثة من أبي حين أدركتْهُ الوفاة. وهو الذي أوصاني بإلحاح قائلاً : احتفظ به، يا بيريكليس، لأنه كثيراً ما حال بيني وبين الموت أثناء المعارك. ثم أراني عصبة ذراعٍ، وأضاف : احفظ هذه أيضاً، لأنها حمتني من كل تلك الظروف الصعبة. فقد تساعدك على الخلاص بمعونة الآلهة، وتردّ عنك شر الأذى. ولم يفارقني هذا الدرع أبداً، لذا تعلّقت به. وما باعد بيني وبينه إلا البحر العاتي الذي لا يشفق على أحد، فانتزعه مني أثناء هياجه الجنوني، ولم يردّه لي إلا عندما هدأت ثورته كما تلاحظون، فشكراً لكم. والآن أرى أن الغرق لم يجهز عليّ، بما اني أقف فيما بينكم أخاطبكم، بعد أن عاد اليّ ما تركه لي والدي.

الصياد الأول : ماذا تقصد أن تقول، يا سيدي؟

بيريكليس : أرجوكم أن تمنحوني، يا أصدقائي، هذا الدرع الذي امتلكَهُ عاهل في سالف الزمان، وأنا أعرفه من هذه العلامة. فهذا الملك أحبّني كثيراً، وأنا، حبًّا به أود أن أسترجعه. واذا شئتم، رجوتكم أيضاً أن ترافقوني الى بلاط ملككم، حيث بفضل هذا الدرع

أظهر كوجيه. واذا حالفني الحظ ثانية سأكافئكم على طيبة قلبكم. وحتى ذلك الحين أظلّ أسير معروفكم على الدوام.

الصياد الأول : هل حقاً تودّ أن تشترك في الألعاب التي تقام اكراماً للأميرة؟

بيريكليس : هكذا يُتاح لي إبراز ما يسعني أن أظهره من مهارة في استخدام السلاح.

الصياد الأول : هيّا، خذ الدرع. نسأل الآلهة أن تمنحك أسعد الحظوظ.

الصياد الثاني : أجل، لكن اسمع، يا صاح، لا تنسَ أننا ساعدناك على استرداد درعك من الأمواج المتلاطمة. وهكذا يحقّ لنا أن نحصل على مكافأة وعلى بعض الفوائد. وكل أملنا، يا سيد، أن تتذكر ما لنا بذمتك.

بيريكليس : صدقوني، يا أصحابي، اني لن أتأخر عن تأدية ما يترتّب عليّ من واجب نحوكم. اليوم بفضلكم طبعاً استرجعت درعي الفولاذي، رغم كل محاولات البحر الهائج أن يحرمني من هذه الجوهرة النادرة التي تحمي صدري وهذه العصبة المحيطة بذراعي. أريد أن أمتطي جواداً يستحق أن يحمل شخصاً جديراً مثلي، جواداً يلفت انتباه الناظرين الى رشاقته وحسن اصالته وينتزع إعجابهم بكل خطوة يخطوها أمامهم. لكن، يا أصحاب، لا يزال ينقصني قماطان لساقيّ.

الصياد الثاني : سنؤمّن لك حاجتك، فاطمئنّ. سأعطيك زناري لكي تصنع منه القماطين. وسأرافقك بنفسي الى بلاط الملك.

بيريكليس : أتمنى أن يقترن الشرف والنجاح بما سأبذله من جهود. فأنهض اليوم من الكبوة التي سبّبها لي تراكم الشقاء على أهلي مؤخراً.

(يخرجون).

المشهد الثاني

على سطيحة تفضي الى مدخل بنتابوليس، وفي أحد جوانبها منصّة ليقف عليها الملك ومعه الأميرة.

(يدخل سيمونيد وثايسا وبعض السادة والخدم).

سيمونيد : هل كل الفرسان على أتمّ الاستعداد لمباشرة ألعابهم؟

السيد الأول : أجل، يا صاحب الجلالة. وهم ينتظرون وصولكم ليتقدموا نحو جلالتكم.

سيمونيد : اذهب واعلمهم بأننا جاهزون، وبأن ابنتنا التي نحتفل اليوم بذكرى ميلادها هي جالسة هنا الى جانبي بأحلى محاسنها كابنة الطبيعة التي أنجبتها لتلفت اليها أنظار الرجال وتستأثر باعجابهم.

(يخرج السيد).

ثايسا : لو سمحت، يا أبي، لكنت موضوع ثناء أوفر مما أستحقه.

سيمونيد : هذا أنسب لكِ. لأن الأمراء هم نماذج فريدة صنعتها السماء على صورتها البهية. وكما تفقد الجواهر بريقها اذا أهملت، هكذا يفقد الأمراء هيبتهم اذا خسروا ما يؤهّلهم له من تبجيل. والآن، اليك يعود، يا ابنتي، شرف شرح مهمة كل فارس يتقدّم حسب شعاره.

ثايسا : أنا رهن اشارتك في هذه البادرة، يا أبي ومولاي.

(يدخل فارس ويجتاز خشبة المسرح، بينما يقدّم خادمه شعار سيده للأميرة).

سيمونيد : من هو أول المتقدمين؟

ثايسا : فارس من اسبارطا، يا والدي الوقور، وشعاره يحمل صورة

أثيوبيّ أسود يشير الى الشمس الساطعة، والكتابة الظاهرة عليها تقول : « نورك يضيء حياتي ».

سيمونيد : ان من يُعجب بحيوّتك يحبك كثيراً. من هو ثاني هؤلاء الفرسان؟ ليتقدّم.

(يمر ثاني الفرسان).

ثايسا : هو أمير من مقدونيا، يا صاحب الجلالة، وشعاره يحمل رسم فارس غلبته سيدة، والكتابة الظاهرة عليه تقول : « اللين أفضل من القوة ».

(يمر الفارس الثالث).

سيمونيد : من هو التالي؟

ثايسا : الثالث هو من انطاكية، وشعاره قلادة من الزهور ترمز الى الفروسية، والكتابة الظاهرة عليه تقول : « الشرف الرفيع رائدي ».

(يمر الفارس الرابع).

سيمونيد : من هو الرابع؟

ثايسا : هو حامل مشعلٍ موقدٍ ومقلوب، والكتابة الظاهرة على شعاره تقول : « من يذكي لهيبي يطفئه ».

سيمونيد : هذا معناه أن روح الجمال يسيطر عليه، وهو قادر على اضرام شعلته كما هو قادر على اخمادها.

(يمر الفارس الخامس).

ثايسا : الفارس الخامس شعاره يد تحيط بها الغيوم، ممسكة بالذهب الذي ثبتت اصالته، والكتابة الظاهرة عليه تقول : « عند الامتحان يكرم من يصون الأمانة ولا يهان ».

(يمر الفارس السادس).

سيمونيد : من هو صاحب هذا الشعار السادس والأخير، الذي قدّمه فارس لبق أنيق؟

ثايسا : يبدو عليه أنه غريب عن هذه الديار، وشعاره غصن ذابل ليس فيه أي اخضرار ما عدا ذؤابته، والكتابة الظاهرة عليه تقول : « بهذا الأمل الوحيد أحيا ».

سيمونيد : هذه كلمة حلوة بليغة المغزى. إن حكمنا على هندام صاحبها المشعّث فلسان حاله يقول انه يأمل، بتعطّفك عليه، أن يسترجع أيامه السعيدة.

السيد الأول : لا بد لدواخله أن تكون أدلى بكثير من مظاهره التي لا تبوح بسرّ طويته، ولا تنمّ عن مستوى رفيع، لأن هندامه المهمل ينطق بالبؤس ويوحي بأنه ضارب سوط أكثر مما هو حامل رمح.

السيد الثاني : ربما هو غريب، لأنه أقبل على مباراة ألعاب يقوم بها نبلاء، وهو مزوّد بعتاد غير مألوف.

السيد الثالث : فضلاً عن أنه ترك درعه يصدأ عمداً حتى هذا اليوم كي يمرّغه بالتراب ويكسبه اللمعان ثانية.

سيمونيد : خاطئة هي الفكرة التي تحكم على دواخل الانسان من مجرّد مظهره الخارجي. لكن مهلاً. ها هم الفرسان يقتربون. فتعالوا ننتقل الى الرواق.

(ينسحبون. ويسمع هتاف صاخب وصياح يقول : ليحيا الفارس الفقير).

المشهد الثالث

مأدبة جاهزة في قاعة حفلات

(يدخل سيمونيد وثايسا والسادة ووكيل القصر ورجال الحاشية، ثم الفرسان، وبينهم بيريكليس).

سيمونيد : أهلاً بكم، أيها الفرسان. أعمالكم تزيّن هذه الحفلة وفضائلكم تتصدّر أبرز صفحات الكتاب، ومفاخركم الحربية أهل لأكثر مما يسعني أن أكرمكم به من مجد وجاه، لأن كل صنيع مشكور يستقطب ما يليق به من احترام وتقدير. تأهّبوا للتمتع بالأفراح والليالي الماجنة التي تعتبر في الواقع صدى بسالتكم ومهارتكم، وأنتم ضيوفي في هذه الوليمة.

ثايسا (لبيريكليس) : أمّا أنت، فكن ضيفي أنا، وفارسي الخاص. اليك بغار الظفر هذا أكلّلك به كتاج في هذا اليوم المجيد.

بيريكليس : هذا دليل على حسن حظي أكثر مما استحق.

سيمونيد : قل ما شئت، أيها الفارس، فهذا نصر لك. أملي أن لا يحسدك عليه منافس. فعندما شاء الفنّ أن يبتدع الفنانين، لم يختر فارساً موهوباً أفضل منك. فتجسّمت فيك سمات العبقرية والنبوغ. تعالي، يا ابنتي، يا ملكة الحفلة، وأنت في الواقع أفضل الملكات، وأجلسي هنا في مكانك الى جانبي، قرب وكيل القصر، وهو عريف الحفلة، قبالة سائر النبلاء الأكارم.

الفارس : هذا تشريف عظيم لي منك، يا سيمونيد الصالح.

سيمونيد : حضورك بيننا يثلج صدورنا ويملأها بهجة. نحن نحبّ الشرفاء أمثالك، لأن من يكرههم يحتقر آلهة العلى.

الوكيل (لبيريكليس) : ها هو محلك هنا، يا سيدي.

بيريكليس : قد يكون غيري أولى به.

الفارس الأول : لا ترفضه ، يا سيدي، لأننا معشر الوجهاء لا نحسد ولا نحتقر أحداً لا في ضميرنا ولا في تصرّفاتنا.

بيريكليس : أنت لبق جداً، أيها الفارس الكريم.

سيمونيد : اجلس، اجلس، أيها السيد العزيز.

بيريكليس : بحياة الاله المشتري، مالك الأفكار، هذا أمر مدهش حقًا. إذْ لا يسعني أن آكل لقمة واحدة بدون أن تحوم خواطري حولها.

ثايسا : بحياة جينون ملكة نصيب الزواج، صدقوني إن قلت ان جميع المآكل التي أذوقها تبدو لي كأن لا طعم لها وأنا بعيدة عنه، ولا أشعر بميل أشد مما يجتذبني اليه. لا شك في أنه مولى أنيق ظريف.

سيمونيد : هو ليس إلا وجيه من الأرياف، ولم يأتِ بعمل يفوق ما أتاه غيره من الفرسان، إذْ كَسَر رمحاً وجعله نصفين. لنكفّ عن التكلّم في موضوعه.

ثايسا : يخيّل اليّ أنه كحجر من الماس، ازاء أحجار من الزجاج.

بيريكليس (على حدة) : أرى في هذا الملك صورة أبي، ويذكرني بما كان يحفّ به من أمجاد. هو أيضاً، كان الأمراء يتحلقون حول عرشه، وكان في محيطه كالشمس المشرقة. وكان جميع المعجبين بصفاته كمجموعة نجوم أقل تألّقاً منه، وأكاليلهم أقل لمعاناً من تاجه. بينما لم يكن ابنه سوى قبس نور في ليل دامس يبرق في العتمة لا في وضح النهار. لذا أشعر بأن الزمان يتحكّم بالرجال، لأنه يخلق أمجادهم كما يحفر قبورهم، ويمنحهم ما يشاء لا ما يصبون اليه.

سيمونيد : هل أنت مسرور، أيها الفارس المقدام؟

الفارس الأول : كيف لا يكون المرء سعيداً في حضرتك، يا مولاي؟

سيمونيد : اذاً، فلتكن كؤوسكم ملأى حتى حافتها، ولتكن أنخابكم بمستوى شفاه حبيباتكم. ها أنا أشرب نخبكم جميعاً.

الفرسان : نشكرك على تلطفك هذا، يا مولانا.

سيمونيد : لكن مهلاً (يشير الى بيريكليس) هذا الفارس لا يزال هنا. ويُخيل

اليّ أنه كئيب للغاية، لأن الاحتفال الذي يحييه بلاطنا لا يمنحه ما يستحقّه. أولا تلاحظين ذلك، يا ثايسا؟

ثايسا : أنت تعرف جيداً أن هذا لا يهمني كثيراً، يا والدي.

سيمونيد : اسمعي، يا ابنتي. ان الأمراء على هذه الأرض يشبهون الآلهة في العلاء، الى حدّ بعيد. وهم يغدقون هباتهم بسخاء على كل من يكرمهم. والفرسان الذين لا يتصرفون هكذا هم كالذباب الصغير الذي يضجّ ويحوم حولنا، وحين نقتله نعجب لنحافة حجمه. والآن لكي نهزّ مشاعر هذا الفارس الغريب، قولي له أننا نشرب نخبه.

ثايسا : آسف، يا أبي، ان أظهر بمظهر الجسورة أمام هذا الفارس الذي لا أعرفه. فلربما ظن بادرتي اهانة بحقّه. لأن الرجال عادة، كما لا يخفاك، يحسبون مبادرات النساء في أغلب الأحيان مجرد وقاحة لا تُغتفر.

سيمونيد : على كل حال، افعلي ما طلبته منك، وإلاّ سبّبتِ لي الكدر والانزعاج.

ثايسا (على حدة) : وأنا لا شيء يفرحني في هذا الموضوع.

سيمونيد : ثم اسأليه من أين هو قادم، وما اسم أسرته؟

ثايسا (لبيريكليس) : يا سيدي، يودّ أبي الملك أن يشرب نخبك.

بيريكليس : أشكره جزيل الشكر.

ثايسا : وهو يتمنى أن تبتهج بنخبه هذا.

بيريكليس : أشكرك أنت أيضاً، وأكرر لك امتناني نظراً الى اللفتة الكريمة التي تخصّينني بها. وأرجوك أن تعلمي بأني من صميم قلبي أقدّر بادرته المشرفة.

ثايسا : ثم، هو يودّ أن يعرف من أين أنت، وما اسم اسرتك؟

بيريكليس : أنا وجيه من صور، واسمي بيريكليس، وثقافتي تشمل مختلف الفنون واستعمال السلام. ابحث عن المغامرات في طول بلاد الدنيا وعرضها. ولقد جارت عليّ أمواج البحر الصاخب،

وأفقدتني سفني ورجالي الأشدّاء. وبعد غرق كل ما كان لي من متاع وقوّة وجاه، لفظتني اللجة العاتية على شواطئكم.

ثايسا (لسيمونيد) : هو يشكر جلالتكم، يا أبي. اسمه بيريكليس ويقول أنه وجيه من صور، هبّت عليه عاصفة بحرية وابتلعت سفنه ورجاله وقذفته الأمواج المتلاطمة إلى هذا الشاطئ.

سيمونيد : بحق الآلهة، أنا متأثر جداً لحاله من جرّاء هذا الحادث الأليم. وأودّ أن أخفّف من حزنه وكآبته. فيا سادة، بعد أن أنشغلنا بأمور تافهة، هيّا نغنم وقتنا الذي يجمل بنا أن لا نقضيه في اقتناص الملذات العابرة. إن الدروع التي تحملونها تناسب تماماً نوع الرقص الذي يميل اليه الجنود. وأنا أفضّل هذه الموسيقى الحماسية التي ربما أزعجت أسماع السيدات اللطيفات لأنهن يفضّلن عليها صحبة رجال السلاح كما يحببن نشاطهم في أحضانهن فوق الأسرّة الوثيرة. (يرقص الفرسان والسيدات معاً). ها أناذا أرى ان المطلوب قد نُفّذ على أحسن ما يرام. (لبيريكليس) : اليك، يا مولاي، بهذه السيدة التي لا تمانع في إرهاق أنفاسها بحركات الرقص. وقد بلغني أن فرسان صور بارعون في استدراج السيدات، وهم يُتقنون كافة فنون الرقص.

بيريكليس : أجل، يا مولاي. لا سيما من درجوا على ممارسة هذه النشاطات المحببة.

سيمونيد : ألاحظ أنك تتكلم بأسلوب من لا يميل الى تلبية مثل هذه الدعوة الظريفة. (يتواصل رقص الفرسان والسيدات). توقفوا، توقفوا أيها الفرسان. أشكركم جميعاً لأنكم قمتم كلكم بأرشق أساليب الرقص. (يتوجه الى بيريكليس). وأنت أحسنت بنوع خاص وفُقْتَ الجميع بمهارتك النادرة. هيا، أيها المرافقون قودوا الفرسان الى المضافات المخصّصة لهم. (لبيريكليس) أمّا أنت، يا سيد، فقد أصدرت أوامري لإحلالك في مكان قريب منا.

بيريكليس : أنا رهن اشارتك، يا مولاي.

سيموند : أيها الأمراء، الوقت متأخر للتحدث الآن في شؤون الحب وشجونه، مع أنكم كلكم شوق الى مباهجه. فليذهب كل منكم لأخذ قسطه من الراحة. وغداً تجتهدون جميعاً للتعويض عما فاتكم في هذا الميدان.

(يخرجون).

المشهد الرابع

في قصر حاكم صور.

(يدخل هيليكانوس وإسكانيس).

هيليكانوس : اعلم، يا إسكانيس، بأن انطيوخوس قد انغمس في اغتصاب احدى ذوي قرباه، فشاءت الآلهة أن تنزل به أقسى العقاب الذي يستحقه على هذه الجريمة النكراء. في الواقع، حتى في أوج مجده، وحين كانت ابنته جالسة بأبهة الى جانبه في عربة لا تقدّر بثمن، إنطلقت نار من السماء وكادت تحرق جسديهما المدنّسين. لأن النتانة تفشّت فيهما الى حد جعلت جميع الذين كانت عيونهم شاخصة الى بهائهما إعجاباً يحولون تقديرهم الى احتقار لدى سقوطهما هكذا في أحطّ دركات الفسق. لكن نظراً الى وقارهما السابق تنازلوا الى دفن زلاّتهما طي الكتمان والتغاضي.

إسكانيس : هذا أمر غريب حقاً.

هيليكانوس : أجل، لكنه غير عادل. لأن هذا الملك مهما كان عظيماً لم تتمكن أمجاده من أن تشفع به وتصونه من صواعق السماء التي دمّرت عزّته وشموخه، فنال جزاء ما جنت يداه.

إسكانيس : وهذا صحيح جداً.

(يدخل ثلاثة من السادة).

السيد الأول : لم يُقبل أحد سواه على الاشتراك في المناقشة أو في المشورة.

السيد الثاني : أمّا هذا الوضع فلا يُحتمل أن يدوم طويلاً، إذ لا بدّ من اصلاحه بأقرب وقت.

السيد الثالث : ويكون ملعوناً كل من لا يساهم في هذا الواجب.

السيد الأول : اتبعوني اذاً... أيها السيد هيليكانوس لي كلمة أقولها لك.

هيليكانوس : لي أنا؟ أهلاً وسهلاً. نهاركم سعيد، أيها السادة الأجلاّء.

السيد الأول : ألا اعلموا أن تذمّرنا من هذه الوقاحة بلغت أقصى حدها وقد طفح كيلها.

هيليكانوس : تذمركمْ من وقاحة؟ ما هي؟ أرجوكم أن لا تهينوا الأمراء الذين نقدّرهم ونحترمهم.

السيد الأول : لا تحسب أن الاهانة موجهة اليك شخصياً، يا أيها النبيل هيليكانوس. فإن كان الأمير لا يزال حياً، دعني أحيّيه، أو قُلْ لي أين هو الآن؟ وان كان غائباً وعلى قيد الحياة، سنبحث عنه حتى نجده. أما إن كان قد ضمّه القبر سنجد مقرّه الأخير، ولن نظل حائرين بين الشك واليقين. فإن كان حيًّا لا بدّ من أن يكون حاكمنا، أو ميتاً فعلينا أن نندبه ونبكيه، ونكون عندئذ أحراراً في اختيار سواه بدون تأخير.

السيد الثاني : قد يكون رحيله مرجّحاً على بقائه في هذه الدنيا. وفي هذا الحال نعتبر أن مملكته بحاجة الى من يتولّى ادارة شؤونها. وإلاّ أصبح عرشه كبيت بلا سقف، مصيره الخراب والزوال. وعليك، أيها المولى النبيل الأجدر بالحكم من سواه، أن تتسنّم هذا العرش وتملك. ونحن على أتم الاستعداد من الآن وصاعداً لأن نجلّك ونخضع لسلطتك.

الجميع : ليحيا النبيل هيليكانوس المبجّل.

هيليكانوس : أصغِ الى صوت هؤلاء الأشراف وأمتثل لاختيارهم. إن كنت تحبّ الأمير بيريكليس، وجب عليك أن تلبي رغبتهم. وإن

لم أساند أنا طلبهم أصبح كمن يغامر في ركوب البحر الهائج ويتعرّض الى الأنواء طوال ساعات، ولا يلبّي نداء قلبه دقيقة واحدة راضياً مغتبطاً. دعني اذاً ألتمس منك أن تصبر على غياب ملكنا أيضاً بعض الوقت. وعندما تنقضي المهلة المعقولة بدون أن يعود، سأضطر بحكم تقدمي في السنّ الى القبول بالنير الذي يفرضه عليّ الواجب. ولكي تبرهن لي على مودّتك، أرجوك أن تنطلق بصفتك من أصدق المخلصين المحترمين للبحث عن أميرنا الكريم، ولا تدّخر أي جهد في مسعاك هذا أثناء مغامرتك الخيّرة. فاذا وجدته وأقنعته بالعودة الينا، ستصبح أنت وسائر مناصريه كالماسات التي تزيّن تاجه الكريم.

السيد الأول : من لا ينقاد الى الحكمة المتبصّرة يكون مستهتراً ضعيف الضمير. وبما أن مولانا هيليكانوس يحرضنا وينضمّ الينا ويؤازرنا سنخوض المعركة معاً بحماس لا يعرف الكلل ولا الملل.

هيليكانوس : وهكذا نبرهن أيضاً على أننا كلنا نحب بعضنا بعضاً محبة حقيقية مجرّدة، وستتضافر أيدينا بمودة واخلاص، إذْ حين يتّحد الكبار بصدق وأمانة يظل الملك معزّزاً موطّد الأركان.

(يخرجون).

المشهد الخامس

في قصر بنتابوليس

(يدخل سيمونيد، وهو يقرأ رسالة، ويواجه الفرسان).

الفارس الأول : نهارك سعيد، يا سيمونيد الصالح.

سيمونيد : أيها الفرسان الشجعان، أقول لكم بلسان ابنتي انها مصمّمة على أن لا تتزوّج قبل مرور عام من الآن. ولم تفصح عن

الأسباب التي دعتها الى اتخاذ هذا القرار، وأنا بنفسي لا أعرف دوافعها.

الفارس الثاني : ألا يمكننا أن نقابلها، يا مولاي؟

سيمونيد : لا أظن أن هناك سبيلاً الى لقائها في الوقت الحاضر. لأنها حبست نفسها في حجرتها وأوصدت الباب وراءها، فأمسى مطلبكم مستحيلاً. وهي تريد أن تظل على هذا الوضع طوال اثني عشر شهراً قمرياً على ما بلغني. وقد أعلنت نذرها هذا بحضور سنْتيا وأقسمت بشرف بكارتها أنها لن تتراجع عن تصميمها وعزمها الصادق في هذا المضمار.

الفارس الثالث : مهما كان وداعك هذا صعباً علينا، نستأذنك بالانصراف.

(يخرجون).

سيمونيد : هكذا أراهم قد مضوا مقتنعين. والآن الى رسالة ابنتي التي تقول لي فيها انها تريد الاقتران بالفارس الغريب. وإلّا أبت البقاء على قيد الحياة يوماً واحداً. في الحقيقة، ان أمنيتها هذه تنطبق تماماً على رغبتي. وأنا سعيد باختيارها هذا. لكنها هنا تفرض مشيئتها فرضاً، ولا تبالي إن كان هذا التصميم يرضيني ويسرّني أو لا. على كل حال، أنا موافق على اختيارها، ولا أريد أن تؤجّل تنفيذ مبتغاها. ها هوذا فتاها الوسيم آتٍ، وعليّ أن أجامله.

(يدخل بيريكليس).

بيريكليس : أتمنى كل الغبطة والسعادة لسيمونيد الصالح.

سيمونيد : وأنا أتمنى لك ذات الأمنية، يا سيدي. اني مسرور وممتنّ لنزهتك الليلية قرب نافذتي، لأن أذنيّ لم تستعذبا نغماً أرخم مما تغنّيت به.

بيريكليس : ان ثناءك على ما أبديت هو استلطاف منك لا أستحقه.

سيمونيد : أنت، يا مولاي، سيّد فن الموسيقى.
بيريكليس : لا بل أنا أردأ تلميذ في هذا المجال، يا مولاي.
سيمونيد : دعني أطرح عليك السؤال التالي : ما رأيك بابنتي؟
بيريكليس : انها أميرة فاضلة.
سيمونيد : وهي علاوة على ذلك جميلة. أليس كذلك؟
بيريكليس : أجل هي كالصباح المشرق، بل آية في الحسن والبهاء.
سيمونيد : اعلم يا سيدي، ان ابنتي تتوسّم فيك كل النبل والخير. أجل هي تنظر اليك كأفضل الخلائق كلها. فلماذا لا تكون أستاذها، ما دامت هي تودّ أن تكون تلميذتك؟ فكّر مليًّا في الأمر.
بيريكليس : لكنني لست أهلاً لأن أكون معلّمها.
سيمونيد : كلامك يخالف نظرتها اليك. والأولى بك أن تقرأ ما كتبته بيدها.
بيريكليس (على حدة، يقرأ الرسالة التي ناوله إياها سيمونيد) : ماذا أرى؟ هذه الرسالة تقول ان كاتبتها تحبّ فارس صور. أوليس ما ورد فيها وسيلة خفية لكي يسلبني أبوها الملك حياتي.' (بصوت مرتفع) يا مولاي الكريم، لا تحاول أن توقع بمثل هذا الشرك وجيهاً غريباً تعيساً لم يجرؤ أبداً على حب ابنتك، ولم يفكّر إلا بتكريمها، فقط.
سيمونيد : أنت تراوغ، أيها الخائن.
بيريكليس : هل تعتبرني خائناً؟
سيمونيد : أجل، أيها الأستاذ المحتال.
بيريكليس : لو لم تكن ملكاً، لكنت رددت على من يتهمني بالخيانة، بأنه أقبح المنافقين.
سيمونيد (على حدة) : بحق الآلهة، أنا معجب كل الاعجاب بشجاعتك النادرة.
بيريكليس : أعمالي نبيلة نظير أفكاري التي تأبى إلا أن تكون سامية. لقد جئت الى بلاطكم حباً بالشرف الأصيل وليس للتمرّد على قوانينه العادلة. وكل من يظن بي سوءاً سأقوّم أعوجاجه ولؤمه بحدّ هذا السيف البتّار الذي طالما عاقب عديمي الشهامة والمروءة.

سيمونيد : لا، لا. ها هي ابنتي قادمة، وهي تستطيع أن تؤيّد أقوالي.

(تدخل ثايسا).

بيريكليس (لثايسا) : أرجوك، يا صاحبة الفضيلة والبهاء، أن تهدّئي روع والدك الغاضب. أرجوك أن تقولي له إن لساني لهج بذكر مزاياكِ، وما خطّت يدي ما يمكن أن يشابه كلام الحب موجّهاً الى سموّك.

ثايسا : يا سيدي، عندما تفعل ذلك تكون قد أقدمت على ما لا يسوغ لأحد أن يفسره كإهانة، لأن كلامك في الحقيقة نال كل اعجابي.

سيمونيد : أحسنتِ، يا بنيّتي، وان كنت تعتبرين ان موقفك لا يقبل الردّ والاعتراض. (على حدة) ان تصريحك أفعم قلبي سروراً. (بصوت مرتفع) أنا مستعد لضبط تصرّفك وإعادتك الى حظيرة الطاعة والخضوع لمشيئتي... وقد تجرأتِ بدون موافقتي العلنية على منح حبّك وعطفك شاباً غريباً عنّا. (على حدة) قد يكون مساوياً لي بالمقام، على ما أرى. (بصوت مرتفع) هلاّ أصغيت اليّ، يا عزيزتي. عليك ان تتعلمي اخضاع ارادتك لرغبتي. وأنت، أيها السيد الكريم، ارجوك أن تصغي الى ما أقوله لك بوضوح. دعني أوجّهك وأجعلك... زوج المرأة.. هيا اعطني يدك ودع شفتيّ تبارك هذا الاتفاق. فالآن وقد تمّ اللقاء سأحقّق كل آمالك. وفضلاً عن ذلك... أتمنى أن يدخل السرور الى قلبيكما... فهل أنتما مغتبطان معاً؟

ثايسا (توجّه كلامها الى بيريكليس) : أنا راضية اذا كنت حقاً تحبّني، يا سيدي.

بيريكليس : ما أروع الانسجام بين الحياة الحلوة والأماني التي تهدهدها.

سيمونيد : هل أنتما فعلاً متفاهمان ومتفقان الى هذا الحد؟

كلاهما : أجل، اذا كان هذا يرضي جلالتك.

سيمونيد : طبعاً يفرحني كثيراً ان أراكما عريسين تغمر البهجة فؤاديكما.

ولذا أرجو أن تذهبا بأقرب وقت الى النوم في سرير واحد تظلّلكما أجنحة الحب والهناء.

(يخرجون).

الفصل الثالث

مقدّمة

(يدخل غوير).

غوير : الآن خفّف النعاس من حماس الأمير
فلم يُسمع في القصر سوى صوت الشخير،
تزيده صخباً تلك البطون التائقة
الى أطعمة الموائد اللذيذة الشائقة.
وهناك قطّة بعينيها البرّاقتين
تتناوم رابضةً أمام مخبأ فأرتين
والصراصير تنشد قرب نار الموقد
كأنها فرحى بأنوار الفرقد
أمّا العريس فيحمل عروسه الى السرير
حيث يقومان، رهن الايمان والتأشير،
بصياغة طفل ناعم الجسم كالحرير.
تخيّلوا اذاً ما حدث من تبادل
يفسّره مجرى الأمور بالتعامل.

(ايماءات بدون كلام).

يدخل بيريكليس من الباب وسيمونيد وحاشيته ورسول يلاقيهم، ثم يركع ويقدّم رسالة لبيريكليس. ويعرض هذا الأخير رسالته لسيمونيد. يركع السادة أمام بيريكليس. حينئذٍ تدخل تايسا منتفخة البطن وتتبعها ليكوريدا. يقدّم سيمونيد الرسالة لابنته التي تبدي سرورها وتستأذن الملك وتخرج بصحبة بيريكليس. ثم يخرج سيمونيد وحاشيته.

غوير : بين التلال والسهول والوهاد
يبحث الرجال عن بيريكليس في أرجاء البلاد.
وفي الجهات الأربع من العالم الغريب
لا يملّ السادة والخدم من التنقيب،
باجتهاد وسعي متواصل كرًّا وفرًّا
فوق الخيل براً وعلى متن السفن بحراً
باذلين باهظ النفقات والوعود
في سبيل العثور على الشخص المنشود.
أخيراً الى صور قادت الأقاويل الباحثين
والى بلاط سيمونيد وصلت رسالة تعجّ بالأنين
مضمونها المشؤوم من صنع أيدي المتآمرين
اذ مات انطيوخوس وابنته العزيزة
فهبّ شعب صور تدفعه الحاجة والغريزة
لتتويج هيليكانوس الحكيم ملكاً عليهم.
لكنه تمنّع عن قبول مبدأ اقتراحهم
وسارع الى اقناع جميع مريديه ومحبيه
بأنه سيرضى في المستقبل بقرارهم ويلبيه
متى انقضى اثنا عشر شهراً قمرياً بالتتالي
ولم يرجع الملك بيريكليس من عتمة الليالي.
عندئذ سيجلس على العرش ولن يبالي.
فانتشرت هذه الأنباء في بنتابوليس
وفرح الجميع بخليفة بيريكليس
وهتفوا بفرح للملك العتيد

الوفي الشهم والمخلص العنيد.
بالاختصار، بعد مرور بعض الزمان
صمّم بيريكليس على العودة بسلام وأمان
وعروسه الفاتنة برفقته حبلى
تسمع آيات المديح بفضائلها تُتلى.
فانقلبت الأتراح والأحزان أفراحاً
والأسف والأسى أضحى آمالاً ملاحاً
فاصطحبت العروس مرضعها ليكوريدا
وأبحر الجميع لا يبغون لحكم القضاء مزيدا
وهاجت الأمواج العاتية وماجت
وفي منتصف الطريق كثرت المخاوف وراجت
وطغت العاصفة على السفينة الماخرة
وسط الأنواء وجنون الرياح الهادرة
فصاحت الحبلى هلعاً على مصير جنينها
ومن شدة الانفعال لم تتمالك روعها.
فولدت طفلتها قبل اكتمال حملها
وما تبع الحادث الجلل من غريب
تُبيّنه النصوص الحافلة بكل عجيب.
لذا ألتمسُ منكم أن تتصوّروا برهبة
مشهد الأمير وهو على متن السفينة
تتلاعب بها عناصر الطبيعة المجنونة
وهو يناشد السماء أن تعيد اليه السكينة.

المشهد الأول

في سفينة تمخر عرض البحر

(يدخل بيريكليس).

بيريكليس : يا إله الكون الفسيح، ألجم هذه الأمواج الثائرة التي تقلق راحة السماء والجحيم. أنت يا من يأمر اللجة، إسجنها في أعماق هذا الخلقين الهائل. وهدئ رعودك المدويّة واطفئ لهيب بروقك المحرقة. يا ليكوريدا، كيف حال مولاتك الواجفة؟ وأنت أيتها الرياح الهوجاء لا تكوني كالسموم القاتلة. ألاَ تسمعين صفير القبطان يصمّ الآذان في ظل الموت المتربص بضحاياه الأبرياء أولاً تسمعينه يا ليكوريدا؟ وأنتِ، يا لوسين إلهة النسل، تلطّفي وساعدي من تعاني آلام المخاض في ظلام الليل، واشملي برحمتك سفينتنا المترنّحة وخففي أوجاع زوجتي وهوّني عليها وضعها. ماذا تقولين، يا ليكوريدا؟

(تدخل ليكوريدا وبين ذراعيها طفلة).

ليكوريدا : ها هيذا مخلوقة صغيرة جداً جاءت الى هذه الدنيا الرهيبة. لو كان لديها وعي لماتت هلعاً مما أنا أموت منه لوعةً. تناول بين ذراعيك هذه القطعة النحيلة الخارجة من أحشاء زوجتك التي اختطفها منا المنون في هذه اللحظة.

بيريكليس : ماذا تعنين بهذا القول؟

ليكوريدا : صبراً، يا مولاي الفاضل. لا تفقد أعصابك. فهذه الطفلة هي كل ما بقي حياً من كيان زوجتك المغدورة. تشجّع وواجه هذا الواقع الأليم ببسالتك المعهودة.

بيريكليس : أيتها الآلهة، لماذا تزيّنين لنا حب هباتك الرائعة، ثم لا تلبثين أن تحرمينا اياها على عجل؟ نحن في هذه الدنيا لا نسترجع

ما نجود به على البشر من عطاءات. وأظن أننا الآن نلقّنك درساً لا ينسى في الكرم والسخاء.

ليكوريدا : صبراً، يا مولاي، بحق هذا الحمل الخفيف الذي تضمه الى صدرك.

بيريكليس (يكلّم الطفلة) : أرجو أن تكون أيامك حلوة نظيرك يا صغيرة. إذْ لم يخلق طفل مثلك في جوّ عابس مكفهرّ كهذا. املي أن تكون طبيعتك مسالمة وصالحة بعكس هذه الأنواء المعربدة. أنا لا أعتقد بأن طفلة أمير استُقبلت في هذا العالم بمثل رداءة أحوالنا الحاضرة. أتمنى لك السعادة من كل قلبي. حقاً أن مولدك رافقته أسوأ عناصر الطبيعة من نار وماء وعواصف عنيفة اجتمعت بصخب لتعلن قدومك الى هذه الدنيا. أمّا الخسارة التي انتابتك بفقد أمك منذ أن رأت عيناك النور فهي فادحة لا تُعوّض. أتوسل الى الآلهة الكريمة أن تغمرك بعطفها وتصونك من الشدائد المقبلة.

(يدخل بحّاران).

البحّار الأول : أين شجاعتك، يا مولاي؟ حفظتك الآلهة سالماً.

بيريكليس : شجاعتي كافية، ولا أخشى العاصفة لأنها أتت بما استطاعت من أسوأ الأعمال. مع ذلك حبًّا بهذه الطفلة البريئة التي تعاني لأول مرة متاعب البحر، أرجو أن تهدأ العاصفة ويعود السكون والصفاء.

البحار الأول : اضبط حبال الأشرعة، يا صاح. هل سمعت ما قلتُ لك؟

البحار الثاني : أتوقع الهدوء قريباً رغم تطاير زبد البحر الذي يكاد يلامس القمر في كبد السماء. وأنا لست قلقاً على الاطلاق.

البحار الأول : مولاي، لا بد من رمي جثمان الملكة الى البحر ما دامت الأمواج متلاطمة والرياح جنونية. لأن البحر لن يهدأ، والموت قابع على متن السفينة.

بيريكليس : أن ما تتفوّه به ليس إلّا افتراضاً.

البحار الأول : اعذرني، يا مولاي. هذه ملاحظة أكيدة ثبتت صحتها مراراً ونحن في عرض البحر نغالب الموت. في الحقيقة لا يسعني إلا أن أتمسك بهذا التقليد القديم. لذلك أسألك أن تنفّذ حالاً ما لا بدّ من إجرائه. اذ لا مناص من إلقائها الى البحر بدون امهال.

بيريكليس : افعلوا ما ترونه ضرورياً. آه، لهفي على الملكة الكريمة.

ليكوريدا : ها هي متمدّدة هنا.

بيريكليس : لقد عانيت مخاضاً عسيراً، يا عزيزتي. وليس من نور يؤنس عتمة محنتك ولا من نار تدفئ برودة صقيعك. فان عناصر الطبيعة العدائية قد انقضّت عليك بوحشية. ولم تترك لي المجال والوقت اللازم للقيام بمراسم دفنك. ولا أجد الآن أمامي أي خيار. اذ أراني مضطراً هكذا إلى القاء جثمانك في لجة البحر تحت جنح أحلك الظلمات، ولا سبيل الى اضاءة نور واشعال نار كي لا تذهبي طعمة السمك والحيتان في سواد هذا الليل الدامس القارص. فأرجو أن تحملك الأمواج وتضجعك برفق فوق الأصداف الناعمة الملساء. يا ليكوريدا، نادي نسطور واطلبي منه أن يأتي بالعطور وبورق وحبر، وبصندوق المجوهرات. وقولي لنيكاندر أن يجلب لي العلبة المبطنة بالحرير. ضعي فيها الطفلة على الوسادة، وأسرعي بينما أنا أتمّم فروض الوداع الديني الواجب لثايسا. هيا أسرعي، يا امرأة.

(تخرج ليكوريدا).

البحار الثاني : يا مولاي، لدينا صندوق جاهز محكم الغلق ومطليّ بالزفت.

بيريكليس : شكراً أيها البحّار. قل لي ما اسم هذا الشاطئ؟

البحار الثاني : نحن على مشارف طرسوس.

بيريكليس : هيا بنا، أيها البحار الأمين، ننزل هنا بدلاً من التوجّه الى صور. متى تتمكّن من ارساء السفينة هناك؟

البحار الثاني : عند طلوع النهار، اذا هدأت الرياح.

بيريكليس : اذاً توجّه الى ميناء طرسوس، حيث سأزور كليون. لأن الطفلة لا تتحمّل مشقات السفر الى صور. وأودّ أن أودعها من يؤمّن لها العناية الفائقة التي تحتاج اليها. أكمل طريقك أيها الملاّح الصالح. سآتي بالجثمان حالاً.

(يخرجون).

المشهد الثاني

منزل في أفسس تبدو عليه مظاهر الغنى

(يدخل سيريمون، وخادم وأشخاص نجوا من الغرق)

سيريمون : يا فيليمون.

(يدخل فيليمون).

فيليمون : هل ناداني مولاي؟

سيريمون : أوقد النار، وأطعم هؤلاء الناجين المساكين. لأن ليلتهم كانت من أقسى الليالي.

الخادم : لقد مرت بي صعاب كثيرة. لكني لم أشاهد محنة أشد من الليلة البارحة الهائلة.

سيريمون : أظن أن سيدك ستدركه الوفاة قبل أن يعود، إذ لا شيء مما يسعنا أن نعالج به أي انسان، يقوى على انقاذ حياته. (لفيليمون) سلّم هذا الحنجور للصيدلي، وأخبرني عن ردة فعله.

(يخرج فيليمون والخادم والناجون من الغرق).

(يدخل وجيهان).

الوجيه الأول : نهارك سعيد، يا سيدي

سيريمون : لماذا نهضتم من النوم هكذا باكراً؟

الوجيه الأول : لأن مسكننا المنفرد قريب جداً من أمواج البحر الصاخب. وخيّل إلينا أن أضخم أخشاب السفينة على وشك أن تنهار وتتهدّم فوق رؤوسنا. لذا لم نتمالك روعنا من شدة الهلع فبادرنا الى مغادرة المنزل.

الوجيه الثاني : وهذا بالذات ما دعانا الى إزعاجكم في مثل هذه الساعة المبكرة.

سيريمون : الحق الى جانبكم.

الوجيه الأول : عجبي، يا مولاي، من إهمالكم ما يتسنى لكم من الراحة والأمان، رغم ما هو عليه مقرّكم من الرخاء والرفاه. ومن الغريب جداً أن يبحث مخلوق مثلك عما هو في غنى عنه من المتاعب بدون أن يضطر الى الرحيل.

سيريمون : لقد اعتقد دائماً أن الفضيلة والمعرفة هما أثمن من النبل والثراء. فان الورثة المبدّدين لا يضيرهم أن يخسروا الميزتين الأخيرتين. بينما الموهبتان الأوليان تمنحان الانسان الخلود وتضعانه في مصاف الآلهة. معروف عني اني درست الطب، وعندما اكتشفت أسرار هذا الفن واستشرت أُولي الشأن واكتسبت بعض الخبرة المشكورة في هذا المجال، أصبحت مألوفة لديّ مجموعة الصفات المباركة الكامنة في منافع النباتات والمعادن والأحجار. وبتُّ قادراً على التحدث عن حسنات العلاجات وسيئاتها. وأراني راضياً عن الاطمئنان الحقيقي الذي تولّده في نفسي بوادر الشرف الرفيع أو الثروات التي أجنيها بأساليبي الخاصة وأخبّئها في أكياس حريرية أحفظها لمداواة الجنون أو للأنقاذ من الموت المرجّح.

الوجيه الثاني : لقد بلغني ما أسديته من أفضالك في أفسس على لسان من غمرتهم بمعروفك وانتشلتهم من الهلاك المحتّم. وهم يعترفون بجميلك علناً وبوفرة ما جدت به من مالك على السيد سيريمون الذي أضفيت عليه أيضاً شهرة لا يخمد وهجها مع مرور الزمان...

(يدخل خادمان يحملان صندوقاً).

الخادم الأول : هيّا قرّبه.

سيريمون : ما هذا؟

الخادم الثاني : هذا صندوق لفظه البحر قبل أن تهدأ أمواجه منذ هنيهة. وقد سقط أثناء غرق احدى السفن.

سيريمون : ضعوه على الأرض لنفحصه.

الوجيه الثاني : انه شبيه بالنعش، يا سيدي.

سيريمون : مهما كان هذا الصندوق أجده ثقيلاً جداً. هيّا افتحوه، واكسروه اذا لزم الأمر. فإن كان بطن البحر يحوي ذهباً فإنه يتحفنا بهدية غالية وهذا طبعاً لحسن حظنا.

الوجيه الثاني : بدون شك، يا مولاي.

سيريمون : انه محكم الغلق ومطليّ بالزفت. أوَتقول ان البحر لفظه مؤخراً؟

الخادم : لم اشاهد في حياتي أمواجاً أضخم من التي قذفته الى شاطئنا.

سيريمون : هيا، هيا، افتحوه ولو بالقوة. لا بل تمهلوا قليلاً، لأن رائحة عطرة تفوح من جوانبه.

الوجيه الثاني : أجل رائحته عطرة جداً.

سيريمون : وأطيب من كل ما شممته من عبير. هيا افتحوه. لكن، أيتها الآلهة القديرة، ما هذا؟ أرى جثة بشرية.

الوجيه الأول : أمر غريب للغاية.

سيريمون : وهي مكفّنة بنسيج فاخر ثمين ومطيّبة بأغلى العطور، ومصحوبة

ببطاقة. أيها الاله أبولون، خوّلني المقدرة على فكّ رموز هذه الحروف الغامضة.

(يفتح ورقة سميكة ويقرأ).

هنا اسمحوا لي بتقديم نصيحة
إذا لامس هذا النعش السطيحة
أكون أنا الملك بيريكليس قد فقدتُ
ملكةً تساوي من الأمجاد ما جمعتُ
فان لقيها أحد أرجو منه أن يدفنها
فيجني، فضلاً عن الثواب، بركات يستدرّها
من الآلهة التي تكافئ بقدر ما في وسعها
اذا بقيت حيًّا، يا بيريكليس، فان قلبك الرقيق العطوف سيتفطّر ألماً وحزناً على ما حدث في هذه الليلة الليلاء من كوارث هائلة.

الوجيه الثاني : هذا رأيي أنا أيضاً، يا مولاي.

سيريمون : حتماً هذه الليلة شهدت مصرعها، لأن منظرها يدل على أنها لا تزال نضرة هي التي... ما أقسى قلوب الذين ألقوها الى البحر ولم يعالجوها. أوقدوا النار بقربها، واذهبوا واجلبوا لي جميع العلب من غرفتي. فالموت يمهل أنفاس الانسان أحياناً بضع ساعات. ولا ننسَ أن شعلة الحياة قد تنتعش في الأذهان المرهقة أحياناً. فقد بلغني أن مصرياً ظل تسع ساعات غائباً عن الوعي، ثم عادت اليه أنفاسه بعد اسعافات جاءت في أوانها. (يدخل خادم حاملاً بعض العلب وفُوَطاً وناراً). حسناً. هاتوا النار والفوط، ودعوا الموسيقى الحزينة تصدح، وأعطوني الحنجور مرة ثانية. تحرّك أيها الجامد. ولترنّ الأنغام مجدّداً. أرجوكم، أيها السادة، أن تدعوا الهواء يصل اليّ. فهذه الملكة ستحيا. وستستيقظ من سباتها وتعود الحرارة لتدبّ في أوصالها. لأنها لم تمكث

في غيبوبتها حتى هذه اللحظة أكثر من خمس ساعات. أنظروا كيف سترتعش فيها بوادر الحياة.

الوجيه الأول : السماء، يا مولاي، تزيدنا بمهارتك اعجاباً على اعجاب وتذيع شهرتك الى الأبد.

سيريمون : ها هي قد عاشت. انظروا الى محجريها وهما إطار الجواهر السماوية التي فقدها بيريكليس. ها هي أهدابها الطويلة الناعمة قد أخذت تتفتح. وهاتان الماستان اللمّاعتان قد بدأتا تزهوان ببهجة الدنيا. هيّا إحيي ودعينا نبكي فرحاً لدى وصف مصيرك العجيب، أيتها الصبية الرائعة النادرة البهاء.

(تتحرك).

ثايسا : أيتها الملكة الحبيبة صفوة الإلهة ديانا، أين أنا الآن؟ وأين مولاي؟ وفي أي عالم أنا هائمة؟

الوجيه الثاني : أوليس هذا أمراً عجيباً؟

الوجيه الأول : بل هو خارق الطبيعة.

سيريمون : سكوتاً، أيها الأصحاب الأعزاء. أرجوكم أن تساعدوني على نقلها الى الحجرة المجاورة. اعطوني فوطة. والآن لا بد من السهر عليها باستمرار. لأن انتكاستها ستكون مميته مؤسفة. تعالوا، أيها الحراس، تعالوا. وليحفظها اسكولاب إله الطب من كل أذى.

(يخرجون حاملين ثايسا).

المشهد الثالث

في قصر كليون بطرسوس

(يدخل بيريكليس وكليون وديونيسا وليكوريدا ومارينا)

بيريكليس : أيها الوقور كليون، أود أن أتحدث اليك. لقد انقضت الأشهر الاثنا عشر، وصور تعيش في هدوء هشّ. أرجوك أنت وزوجتك أن تتقبّلا عرفاني جميلكما من كل قلبي. واسأل الآلهةَ أن تعوّض لكما كل ما بذلتماه من جهود في سبيلي بسهرك على ابنتي.

كليون : ان الكارثة التي حلّت بك أدمت قلبينا نحن أيضاً.

ديونيسا : كم هي فاتنة مولاتي ملكتك التي عانت من قساوة الأيام وهي تستقطب انتباهنا.

بيريكليس : المرء لا يسعه إلا الخضوع للقوى التي تسيطر عليه. فعندما سأعبّر عن ثورة غضبي وأهدر كالبحر الهائج الذي دفنت زوجتي في طياته، لن تكون الحصيلة أفضل مما هي عليه الآن. أما أنت يا ابنتي مارينا فلأنك ولدت فوق أمواج البحر سأخصّك بكل حنوّي وأعتبرك سلواي في وحدتي. ثق يا كليون، بأني سأمنحها ثقافة تليق بأميرة وتبرهن على كرامة محتدها.

كليون : إطمئن، يا مولاي، فلقد جدتُ على بلدي بتقديم القمح، وهذه منّة لا ينساها شعبنا المخلص. لذا نأمل أن تنسكب بركتك على هذه الطفلة الرائعة. فاذا اسأت أنا التصرف إهمالاً فإن الأمة التي لم تبخل عليها بالمساعدة تذكرني بواجبي. لكن اذا احتجت الى من يدفعني الى إداء واجبي فما على الآلهة إلا أن تقتص مني ومن ذرّيتي الى آخر أجيالنا.

بيريكليس : أنا أصدق قولك. فطيبة قلبك وشرفك يكفيان لاقناعي بانك صالح، ولا داعي للجوئك الى أي إثبات. وحق الإلهة ديانا

التي نحن كلنا نجلّها، لن يمسّ المقص شعرة واحدة من رأسي، وان ظهرت بمظهر المهمل المتعنّت. وعلى هذا الأساس استأذنكم للانصراف. أرجوكِ، يا سيدتي، أن تطوقي جيدي بمعروفك وتدخلي الى قلبي السرور والاطمئنان بأن تتعهدي لي بتربية طفلتي.

ديونيسا : أنا أيضاً لي ابنة. ولن تكون أعز عليّ من طفلتك، يا مولاي.

بيريكليس : أرجوك أن تقبلي أخلص شكري على ما توليني اياه من جميلك.

كليون : سنرافق سموّك الى شاطئ البحر. ثم ننصرف الى اللهو برعاية اله البحر نبتون فنتمتع بصفاء السماء وزرقتها ونتنشق الهواء العليل.

بيريكليس : أقبل عرضك بكل امتنان. تعالي أيتها السيدة العزيزة. أرجوك أن لا تسكبي دموعك تعالي أيتها السيدة الفاضلة. لا تبكي يا ليكوريدا، لا تبكي. إهتمّي بسيدتك الصغيرة. انها الأوْلى بحنوّك وعنايتك. وأنت تعالَ معي، يا مولاي.

(يخرجان).

المشهد الرابع

في منزل سيريمون بأفسس

(يدخل سيريمون وثايسا).

سيريمون (وهو يسلّم ثايسا رسالة) : وُجدت هذه الرسالة بصحبة بعض المجوهرات معك في النعش، وهي طبعاً تحت تصرفك. هل تعرفين هذه الكتابة؟

ثايسا : هذا خط زوجي. فقد ركبت البحر، كما أتذكر جيداً، ليلة مخاضي اذ كنت على وشك الوضع. فهل وضعت هناك طفلتي

أم لا؟ بحق الآلهة المقدسة لا أستطيع أن أجزم. لكن بما أني لن أتمكن من رؤية الملك بيريكليس زوجي ومولاي الشرعي، لا أريد أن أكون كاهنة الآلهة فيستا، وأُمتنع طوال أيامي عن جميع المسرات.

سيريمون : اذا كنت فعلاً مصممة على التقيّد بما تقولين، فان معبد ديانا غير بعيد من هذا المكان حيث يسعك أن تمكثي حتى آخر أيام حياتك. فضلاً عن ذلك اذا أعجبتك الاقامة هناك ستظل ابنة أخي بمعيتك.

ثايسا : ولكي أكافئك ليس لدي سوى شكري الجزيل. غير أن نيتي الحسنة كبيرة بقدر ما تبدو هديتي صغيرة.

الفصل الرابع

مقدمة

(يدخل غوير).

غوير : تصوروا بيريكليس في صور
يستقبله رعاياه باجلال وقور
وزوجته الحزينة باقية في أفسس
لمعبد ديانا، سني عمرها تكرّس.
والآن حوّلوا أفكاركم نحو مارينا
التي دمعت ليُتْمها مآقينا.
وسنشاهدها عمّا قريب في طرسوس
حيث أعطاها كليون في الأدب والموسيقى الدروس
فألمّت بجميع شؤون التربية ومداراة الظروف
وأصبحت قبلة الأنظار ومجمل العلم لديها معروف.
لكن، يا للأسف لم يرحمها الحسد الذي يشوّه
في معظم الأحيان كل الفضائل ويموّه.
اذ حصلت منها مارينا على أوفر نصيب
وكادت تذهب ضحية الغدر الغريب

لأن لكليون ابنة سيطر عليها شيطان الحسد
فشبّت وأينعت للمغازلة ومداعبة الجسد
وكان اسمها فيلوتان، وكانت تريد أن تظلّ
دائماً بمعية مارينا لتحبك الخيوط ولا تملّ
من تزيين أصابعها الطويلة الناعمة
البيضاء كالثلج، وعلى الخياطة قائمة
بالقطب البديعة، ثم تنشد بمرافقة العود
الذي يهدهد الأحاسيس دوماً في دنيا الوعود،
أو تكتب بريشة رشيقة تشيد بالإلهة ديانا
فيما كانت فيلوتان تنافس مواهب مارينا
الحميدة الأوصاف، وكالغراب الأسود تحاول
مضاهاة حمام بافوس بالطهر الناصع وتطاول
سموّ مارينا التي تحظى بثناء عارفيها
فتضمر لها الشر وتقلّب عليها مبغضيها.
إذْ شاركت والدة الحاسدة ابنتها فنقمت
على الصبية الرائعة، وأحد المجرمين كلّفت
بقتلها للتخلّص منها وطمس حسناتها
بينما الأبنة الشريرة لا تملك إلا سيئاتها.
في هذه الأثناء قضت ليكوريدا نحبها بغتة
وأوشكت ديونيسا أن تسدّد لغريمتها طعنة
نجلاء تجعلها عن موكب الحياة غائبة.
لذا أنا أوصيكم وقلبي حزين
بدون أن أقوى على كبت الأنين،
أن تعلموا بأن ديونيسا شاركت القاتل ليونين.

(يخرج).

المشهد الأول

على الشاطئ الرملي في طرسوس

(تدخل ديونيسا وليونين).

ديونيسا : تذكّر انك أقسمت اليمين على تنفيذ المطلوب منك. ستسدّد ضربتك القاضية ولا أحد يدري بما جرى في هذا الصدد. أنت لا تقوى على المقاومة فما عليك إلا أن تزعن فوراً، وهذا سيعود عليك بالنفع الوافر. ولا بد من أن تُسكت ضميرك، إذا استيقظ في صدرك الميل الجارف اليها، بدون أن تنصت الى صوت المروءة والشهامة، ولا تدع استعطاف النساء يحرّك بين ضلوعك شعور الرحمة، وهن منها براء. لا بل كن جندياً شديد البأس في سبيل نيل مأربك منها.

ليونين : سأفعل ما تريدين، مع أنها مخلوقة رقيقة وديعة.

ديونيسا : لذلك يجدر بها أن تمضي وتنذر نفسها للآلهة. وها هيذا آتية وهي تبكي مرضعها المسنّة المتوفّاة. فهل أنت مصمّم فعلاً على تنفيذ ما اتفقنا عليه؟

(تدخل مارينا حاملة سلة زهور).

مارينا : بكل تأكيد، أنا عازمة على انتزاع حلية تالوس من بين يديها لانثرها كالورود على مرجك الأخضر، وبينها الزهور الصفراء والزرقاء والأرجوانية والبنفسجية والحمراء التي تزيّن ضريحها طوال أيام الصيف. لكن، يا للأسف الشديد أنا ابنة مسكينة ولدت أثناء هبوب عاصفة هوجاء قضت على والدتي غدراً. فأمسى هذا العالم في نظري كأنه دوّامة مدوّخة تحجزني وتبعدني عن أصدقائي.

ديونيسا : لكني لا أرى، يا مارينا، كيف تحسبين نفسك وحيدة. ولماذا

لم تصحبك ابنتي؟ لا تزيدي الهمّ على قلبك المكلوم، وتغرقيني معك هكذا في لجة الحزن والكآبة. أولست أنا مرضعك؟ مولاتي، لماذا يكفهرّ جبينك لمثل هذا الألم العابر؟ هيا، هيا اعطيني حبال زهورك لأرميها على سطح البحر الذي سيبعثرها. تعالي وتنزّهي قليلاً برفقة ليونين. فالنسيم منعش ببرودته اللطيفة التي تحيي الأمل في الصدور هيا يا ليونين تأبطي ذراعها وتنزها معاً بعض الوقت.

مارينا : لا، لا أريد أن أحرمك من أُنس خادمتك.

ديونيسا : هيا، هيا إذهبا. ان ما أحفظه من المودة الصادقة لوالدك ولك أيضاً ليست شعوراً سطحياً. فاننا سنشاهده كل يوم هنا. وحالما يأتي ويراكِ هكذا كئيبة سيجن جنونه لأنك لا تستحقين إلا السعادة والهناء. فلا تدعيه يأسف على ما تحمّله من عناء السفر أثناء قدومه الينا. وأنا أخشى أن يلومني ويلوم سيدي على ما أنت غائصة فيه من الأسى. مع أننا لا نألوا جهداً كما تعلمين في ادخال الطمأنينة والفرح على قلبك، ولا ندخر وسعاً في سبيل راحتك ورفاهك. هيا، أرجوك أن تتنزهي قليلاً وتروّحي عن نفسك. حافظي على ما يليق بك من معالم النضارة والبهجة التي نتمناها دوماً لشخصك المحبوب. ومن ناحيتي، لا تقلقي عليّ فأنا استطيع أن أعود وحدي.

مارينا : حسناً. أنا ذاهبة لأتنزه، مع اني لست راغبة في ذلك مطلقاً.

ديونيسا : أنا أعلم ان هذا يفيدك. امضي وتنزهي مدة نصف ساعة من الزمان، يا ليونين، وتذكري ما قلته لك.

ليونين : إطمئني يا سيدتي.

ديونيسا : ها أنا أترككما برهة. امشيا بتمهّل، ولا تتعبا. وإلا اضطررت الى التدخل لتبديل وضعك، يا مارينا، اذا لم تقلعي عن حزنك.

مارينا : أشكرك، يا سيدتي الفاضلة على اهتمامك بي. (تخرج ديونيسا). هل أخذت رياح الشمال تهبّ علينا؟

ليونين : أين رياح الشمال؟
مارينا : عندما وُلدت كانت الرياح تعصف من الشمال.
ليونين : حقاً؟
مارينا : أخبرتني مرضعي ان والدي لم يكن خائفاً. لأنه كان يهتف : « أيها البحّارة الشجعان، تنشطوا ». وهو يعالج الأشرعة التي كانت عالقة في الصاري. فلطمته موجة قوية كادت تحطّم متن السفينة وتقذف بأحد الملاّحين الى البحر الهائج. فصاح أبي : « أتريد أن تأخذني؟ » ثم ارتمى بمهارة على أرض السفينة. وتبعه باقي الرجال في الارتماء أرضاً. فصفر القبطان وهتف مساعده ذعراً وعمّت الفوضى.
ليونين : متى حدث ذلك؟
مارينا : ساعة وُلدتُ. ومنذ ذلك الحين، لم تعصف مثل تلك الرياح بعنف يضاهي ما عاناه أبي آنذاك من شدّتها.
ليونين : هيا، أتلي صلاتك بسرعة.
مارينا : ماذا تقصدين بهذا القول؟
ليونين : اذا كنت بحاجة الى فترة من الوقت للصلاة، لا مانع لديّ، فأنا أمنحك المدة اللازمة. لكن، لا تطيلي ابتهالاتك. لأن آذان الآلهة لا تطيق كثرة الالحاح، وقد أقسمت أنا على الاستعجال أثناء القيام بعملي.
مارينا : هل تنوين أن ترهقيني بما تفرضينه عليّ من شدّة التعب، فعلى ما أتذكر، لم أقدم بحياتي على ايذاء أحد، ولم أسبب خسارة لأي مخلوق. صدقيني أني لم أُقتل في حياتي فأرة، ولم أدُسْ دودة عن قصد، بل بكيت عندما حدث ذلك عرضاً. فأية إهانة سبّبت؟ وما فائدة موتي بالنسبة اليها؟ وكيف يمكن أن يشكل وجودي خطراً عليها؟
ليونين : مهمّتي أن أنفذ ما أمرت به، لا أن أناقشه أو أفنّده.
مارينا : آمل أن لا تُقدمي على تنفيذه بأية حجة كانت. يظهر عليك

أنك صالحة وملامحك توحي بطيبة قلبك وبرقّة شعورك. وقد شاهدتك مؤخراً تتلقّين الضربة بينما كنت تقفين بين شخصين متشاجرين وتحاولين ابعاد أحدهما عن خصمه. أقسم لك بأن هذا شرف عظيم يتوّج مروءتك. فهل يسعك أن تتدخلي فيما بيننا وتنقذي حياتي أنا المسكينة الضعيفة في وحدتي.

(بينما كانت مارينا تتوسل، دخل بعض القراصنة).

القرصان الأول : قف مكانك، أيها الشقي.

القرصان الثاني : هذه مكيدة سافلة.

القرصان الثالث : سأقاسمك حصتي مناصفة، يا صاح. هيا، خذها حالاً الى السفينة.

(يخرج القراصنة وبصحبتهم مارينا).

(تدخل ليونين).

ليونين : هؤلاء القراصنة يخضعون لرئيسهم فلْديس، وقد احتجزوا مارينا. يا للخسارة. اذ لا أمل في عودتها. اقسم بأنها الآن ميتة، وقد أُلقيتْ الى البحر. لكن سأرى. أظنهم سيكتفون باشباع نهمهم من كنوزها بدون أن يأخذوها الى السفينة. فاذا بقيت على قيد الحياة بعد اغتصابها، سأقتلها أنا بيدي.

(تخرج).

المشهد الثاني

في أحد مواخير مدينة ميتيلان.

(يدخل القوّاد والقوّادة وبولْت).

القوّاد : يا بولْت.

بولت : نعم، يا سيدي.

القوّاد : إذهب وتفقّد السوق بتدقيق. لأن ميتيلان ملأى بأهل الفسق والمجون، وقد خسرنا مبالغ طائلة هذا الصيف من جراء نقص بائعات اللذة.

القوّادة : لم يسبق لنا ان احتجنا كالآن الى هؤلاء العاهرات. لم يكن لدينا سوى ثلاث بنات مسكينات. ولم يسعهنّ أن يشتغلن فوق طاقتهنّ، وهن في الوقت الحاضر مرهقات لكثرة ما مارسن مهنتهن.

القوّاد : علينا اذاً أن نجلب فتيات نضرات مهما كلّف الأمر. حقاً اذا لم يعملن بضمير حيّ، لا يسعنا أن نحقق ما نحلم به من الأرباح

القوّادة : هذا صحيح. إذ لا فائدة من تربية اللقطاء القاصرين الذين حويت منهم أحد عشر.

بولت : نعم أحد عشر. ثم اطلقت سبيلهم. هل حقاً يترتّب عليّ أن أتفقّد السوق.

القوّادة : وكيف نؤمّن سير العمل على هذا النحو؟ ان البضاعة الموجودة في حوزتنا إذا هبّت عليها رياح قوية بعض الشيء لا تترك منها إلا الحطام. فان الترنسلفاني الذي كان ينام مع الهزيلة النحيلة كالقصب مات من زمن بعيد.

بولت : والتي سببت له الوفاة لا تنفع شروى نقير. لا بد اذاً من أن أذهب الى السوق.

القوّاد : علينا أن نوفّر ثلاثة أو أربعة آلاف درهم، أي رأس مال لا بأس به لنعيش بأمان حين نبلغ سن التقاعد.

القوّادة : لماذا ننسحب؟ وهل من العار أن يملك الانسان بعض المال عندما يشيخ؟

القوّاد : لا تنسي أننا لن نغنم الاعتبار بسهولة مثل الربح الذي نحققه بنسبة ما نتعرض له من المخاطر. بالنتيجة، اذا تمكنّا في شبابنا من جمع ثروة صغيرة يتسنّى لنا أن نرتاح في أواخر عمرنا ونعيش في بحبوحة مطمئنين. ثم ان مخالفتنا مشيئة الآلهة الفاضلة هي حجة أوْلى لانسحابنا من العمل عندما يحين الأوان.

القوّادة : لا بأس علينا. فسوانا يخطئ مثلنا.

القوّاد : مثلنا، بل قل أكثر منا، نحن الخطأة المساكين، لأن ما نقوم به ليس وظيفة أو مهنة. ها هو بولت قادم.

(يدخل القراصنة وبولت يجرّ مارينا).

بولت (لمارينا) : تقدّمي، يا هذه. (للقراصنة) يا سادة، تقولون انها عذراء؟

القرصان الأول : نعم يا سيدي. ونحن لا نشك أبداً بهذه الحقيقة.

بولت (للقواد) : يا معلّم، اضطررت الى الذهاب بعيداً في عروضي لكي أحصل على القطعة التي تراها ماثلة أمامك. فإن وافقتك كان به، وإلا خسرت أنا العربون الذي دفعته.

القوّاد : ما هي حسناتها، يا بولْت؟

بولت : محياها جذاب كما ترى، وحديثها طليّ وثيابها فاخرة. بالاختصار، انها تجمع كل الصفات اللازمة لكي لا يرفضها أحد من الزبائن.

القوّادة : وما هو ثمنها، يا بولت؟

بولت : الف دينار. ولا سبيل الى تخفيض درهم واحد منها.

القوّاد : حسن. اتبعوني، يا سادة، لتقبضوا المبلغ على الفور. أيتها المرأة،

ادخليها وأفهميها ما عليها أن تفعل كي لا ترتبك أثناء ادائها الوظيفة المطلوبة منها.

(يخرج القواد ويتبعه القراصنة).

القوّادة : خذ علماً، يا بولت، بأوصافها وبلون عينيها وشعرها وبشرتها وطول قامتها وعدد سني عمرها، ولا سيما بأنها لا تزال تحافظ على بكارتها. وأعلن أن من يدفع أكثر من سواه تصبح من نصيبه أوّلاً. لأن مضاجعتها وهي عذراء باهظة الثمن كما هو معلوم، مهما كان مستوى راغبها. افعل ما آمرك به.

بولت : التنفيذ يتمّ فيما بعد.

(يخرج).

مارينا : وا أسفاه. لماذا ترددت ليونين وتباطأت؟ كان عليها أن تتصرف بدون أن تتكلم. لماذا لم يرمني هؤلاء القراصنة البرابرة من السفينة وهم يبحثون عن أمي؟

القوّادة : لماذا تندبين سوء حظك، أيتها الفتاة الحسناء؟

مارينا : لأنني فعلاً جميلة.

القوّادة : هيّا، ارضي بنصيبك. فالآلهة هم الذين خصّوك بهذا الحسن.

مارينا : أنا لا ألومهم.

القوّادة : اطمئني لأنك وقعت بين يديّ. فعليك أن تعيشي.

مارينا : ان شقائي لا مزيد عليه بسبب نجاتي ممن كانوا مزمعين أن يزهقوا روحي.

القوّادة : عليك أن تعيشي راضية مسرورة.

مارينا : لا، لا أريد.

القوّادة : اذا لم تسايري الواقع، فاتك وجهاء من جميع الأصناف. أولاً عليك أن تأخذي قسطك من الملذات. ثم تتعرفي الى أمزجة

سائر الرجال. ماذا دهاك؟ هل سددتِ أذنيك كي لا تسمعي كلامي.

مارينا : وهل أنت امرأة تتحلّين بالانسانية؟

القوّادة : ماذا تريدين أن أكون إن لم أكن امرأة؟

مارينا : كوني امرأة شريفة شهمة، أو لا تكوني من جنس النساء.

القوّادة : لا بد من تأديبك بالسياط، أيتها الحمقاء الوقحة. أرى أنك ستضطرينني الى معاملتك بقسوة لنصل بك الى المرام. أنت معتادة على الغنج والدلال. غير أنك الآن ما عليك إلا أن تحني رأسك طائعة وتمتثلي الى مشيئتي.

مارينا : حمتني منك الآلهة.

القوّادة : إن شاءت الآلهة، حماك الناس من الأذى. هناك رجال على أتمّ الاستعداد ليواسوكِ ويطعموك ويدلوك على الطريق... ها قد عاد بولت.

(يدخل بولت).

ماذا فعلت، يا عزيزي؟ هل أعلنت عنها في السوق؟

بولت : لقد أعلنت حتى عن عدد شعر رأسها، ووصفتها كما يليق بها.

القوّادة : قل لي كيف وجدت استعداد الرجال، لا سيما في ما يخصّ الصبايا.

بولت : كانوا يستمعون اليّ كما لو كانوا يستمعون الى وصية والدهم. كان هناك اسباني سال لعابه عندما سمع وصفي، وابتهج الى حد أنه ذهب توًّا الى السرير.
ستحظى بزبائن من جميع الفئات. ونحن واثقون بأننا نستطيع أن نحتكرهم كلهم بفضل هذه الفتاة.

القوّادة (لمارينا).أرجوك أن تقتربي قليلاً. كوني على يقين بأنك أمّنت الآن ثراءك وسعادتك. اصغي اليّ جيداً. عليك أن تظهري اليوم بمظهر من لا يكره الرجال الذين يقبلون عليك راضين، وأن

لا تحتقري الربح حيث يسعك أن تحققي أوفر المكاسب. ألاّ ابكي على الحياة التي تعيشينها، لأنها تستدعي شفقة عشاقك، ونادراً ما توحي اليهم بالتفكير بوضعك المأساوي. وأنا أعلم جيداً بأن الرأي السديد لا يهيّئ لك أفضل سبل الازدهار.

مارينا : أنا لا أفهم ما تقولين.

بولت : يا سيدتي، عليك أن تدفعيها الى العمل دفعاً وتنتزعي حمرة الحياء من هذه الخدود تدريجياً بتحريضها على ممارسة المهنة وبأقرب وقت ممكن.

القوّادة : هذا لعمري ما يجب اللجوء اليه. لأن المرأة حتى المتزوجة لا تساير في هذا المضمار بدون حياء في بادئ الأمر حتى تبلغ بعد حين آخر حدود المسايرة.

بولت : نعم، ان بعض النساء يغلب عليهن الحياء، وغيرهن لا يخجلن. ثم لا تنسي اني أنا الذي ساومت على هذه القطعة النادرة...

القوّادة : ولذلك يحق لك أن تأخذ نصيبك من محاسنها الشهية.

بولت : هذا من حقّي طبعاً.

القوّادة : ومن ينكره عليك؟ تعال، أيها الشاب الظريف، فأنا أحب زي ملابسك.

بولت : حتى هذه الميزة لن تغيّر تصرفها.

القوّادة : انشر خبر وجودها عندنا، يا بولت، في كل أرجاء المدينة. واعلن عن الضيفة الجديدة التي حلّت في دارنا. فلن نخسر إن أعددناها للممارسات المرغوبة. وحين تساعدنا الظروف على ترويض هذا الغزال الشارد وتدريبه، ستعترف هي نفسها لا سيما بفضلك أنت عليها. اذهب اذاً وأطنب بامتداح مزاياها كتحفة رائعة غنمناها وأعددناها لتجني الكثير من الفوائد.

بولت : اطمئني، يا سيدتي. فالرعد لن يهزّ سمك الحنكليس أكثر من الاطراء الذي سأوجّهه الى المعجبين بهذه الحسناء وايقاظ شهوة

المتهتكين الذين سأجلب عدداً لا بأس به منهم الى هنا منذ هذا المساء.

القوادة (لمارينا) : تقدّمي واتبعيني.

مارينا : حتى ان هددتني بنيران محرقة وسكاكين مرهفة الحدّ ومياهٍ عميقة القعر سأحافظ على عقدة بكارتي ولن أحلّها أبداً. فيا أيتها الإلهة ديانا كوني بعوني لأتشبث بتصميمي على أن لا أحيد عن السبيل القويم.

القوادة : ما شأن ديانا في موضوعنا هذا؟ والآن، ألا تريدين أن ترافقيني؟

(تخرجان).

المشهد الثالث

في قصر كليون بطرسوس

(يدخل كليون وديونيسا)

ديونيسا : ما هذا؟ هل جننت؟ أيجوز تفكيك ما هو قائم جاهز؟

كليون : يا ديونيسا، لم تشهد الشمس ولا القمر منظراً أفظع من جريمة القتل المتعمد هذه.

ديونيسا : أظنك ستعود الى تفكير طفولتك البريئة.

كليون : عندما سأصبح السيد المطلق في هذا الكون الفسيح، سأتخلّى عنه كي أعيد صنعه لأنه غير كامل. فالفرق شاسع بين هذه الفتاة النبيلة وعراقة مولدها وهو أقل سمواً من فضيلتها وإن كانت تنتسب الى أرفع تاج على وجه الأرض، وبين هذه الشقية ليونين التي سجنتها. فلوْ ساندتها أنتِ في صيانة عفّتها لجاء عملك هذ الشهم حتماً أكمل صلاحاً من جميع أعمالك المبرورة السابقة. وبماذا تجيبين الملك بيريكليس غداً حين

يأتي للمطالبة بابنته كوديعة مقدّسة ائتمنك عليها نظراً الى ما يعهده فيك من الأمانة والشهامة؟

ديونيسا : أقول له أنها ماتت. لأن المرضع لا يسعها أن تصون مصير طفلته وتحفظها من غدرات الزمان. أجل، أقول له أنها ماتت ليلاً. ومن يتسنى له أن يكذّبني؟ إلّا اذا كنت أنتَ متأهباً لارتكاب هذه الدناءة، وهتفتَ للاستئثار بهذا الشرف الرفيع: « انها ماتت في كمين غامض ».

كليون : تابعي كلامك. هيا اعترفي بأن هذه الجريمة النكراء هي أبغض كل الذنوب في نظر الآلهة.

ديونيسا : نعم. إفترض أن الطيور السابحة في سماء طرسوس ستمضي الى بيريكليس يوماً وتميط له اللثام عن الحقيقة بكاملها. ان الخجل يجتاحني كلما فكّرت باصالة منبتك وجبانة مقصدك هذا.

كليون : ان من يقبل بمثل هذه الأفعال الخسيسة، لا أقول أنه يغض الطرف عنها أو يوافق عليها، بل أنه يحيد كليًّا عن طريق الأمانة والمروءة.

ديونيسا : لنفترض أن ما تصرّح به صحيح. على كل حال، لا أحد يعلم ولا أنت أيضاً، كيف ماتت تلك الابنة. ثم بعد غياب ليونين لا سبيل لأحد أن يدري بما حدث. لقد كانت تحقّر ابنتي وتسعى لهدم سعادتها. لم يكن أحد يُلقي نظرة على فيلوتان، لأن جميع العيون كانت شاخصة الى مارينا، بينما كانت ابنتي مهملة تعامل كفتاة قذرة لا تستحق أيّ اهتمام. وهذ ما كان يمزّق قلبي تمزيقاً. فهل تجد ذلك مني غير طبيعي، أنت الذي لم تحبّ يوماً ابنتك؟ أما أنا فأهنّئ نفسي كأني قمت بواجب مقدس نحو ابنتنا الوحيدة.

كليون : اسأل السماء أن تصفح عنك.

ديونيسا : أما بيريكليس فما عساه يقول؟ لقد بكينا خلف نعشها وحتى الآن نحن نلبس ثياب الحداد حزناً عليها. ويكاد صرح ضريحها

يكتمل بناؤه مع العلم أننا سنزيّن رمسها بحروف من ذهب برّاق للتعبير عما كانت تتحلى به من الصفات الحميدة والمآثر الطيبة التي قلّ أن تجتمع في شخص واحد. وقد شيّدنا هذا الضريح على نفقتنا الخاصة إحياءً لذكراها.

كليون : أنت تشبهين جنّيّة قبيحة تخفي ملامحها الكريهة خلف قناع ملائكي. أجل أنت حيّة رقطاء على أهبة أن تنفث سمومها القاتلة في أية لحظة.

ديونيسا : أما أنت فكالكافر الذي يهين الآلهة التي ستعاقبه بقارص برد الشتاء. مع ذلك أنا واثقة بأنك ستتصرف حسبما أوصيتك به.

(يخرجان).

المشهد الرابع

يدخل غوير ويدنو من قبر مارينا

غوير : هكذا نقضي الأوقات ونختصر أطول المسافات. نجتاز البحار ونحن نركب قشرة الجوز. ولكي نمتلك شيئاً ما علينا إلاّ أن نتمنى ذلك من أعماق قلوبنا ونحن ننوي السفر لكي نلهي مخيلتنا متنقّلين من ضاحية الى أخرى ومن منطقة الى غيرها. ونتكلّم لغة واحدة في شتى البلدان حيث تبدو مسارحنا صاخبة الحركة. اسمحوا لي بأن أنوّر أذهانكم حين أظهر لكم من حين الى آخر وأعلّمكم مقاطع من تاريخنا ونبذات من سيرة بيريكليس بصحبة السادة الكرام والفرسان البواسل وهو يجتاز مرّة ثانية جملة بحار مرهقة ليشاهد ابنته التي رفعها هيليكانوس الى أعلى المراتب وأسماها. فأقام هناك ليحكم بالعدل. لاحظوا أن هيليكانوس المسنّ يتبع بيريكليس الى أن ساقت الأشرعة الطيّعة والرياح المؤاتية هذا الملك الحكيم الى ميناء طرسوس

حيث أوحى اليه فكره السديد بأن يوجّه سفينته الى حيث تواكبها أفكاركم الحبيبة. وقد جاء يبحث عن ابنته التي وافاها الأجل. فانظروا الى القلة من الأصحاب التي تتأثر بهذه الحادثة كأنها أرواح وأشباح تتلمّس من آذانكم أن تتقبّل ما تراه عيونكم.

(ايماءات يقوم بها الأشخاص المذكورون أدناه).

(يدخل بيريكليس من باب ترافقه حاشيته، ثم كليون وديونيسا من باب آخر. كليون يري بيريكليس ضريح مارينا. فيتفجّع أبوها عليها ويرتدي المسح ويذهب وهو غارق في بحر من الأحزان. عندئذٍ ينسحب كليون وتتبعه ديونيسا).

غوير : أنظروا كيف تستأثر المظاهر الكاذبة
بأبسط الأذهان وتبدو بالعقول متلاعبة
معتبرة هذه المشاعر المستعارة الغزيرة
كآلام حقيقية بالاحترام والمواساة جديرة.
فتسحق قلب بيريكليس خيبة مريرة
وتنهمر من مآقيه المقرّحة دموع سخينة
لذا يغادر طرسوس على متن السفينة
ويقسم بأن لا يغسل بعد الآن وجهه
وأن لا يقص شعر رأسه أو يحلق لحيته
بل يرتدي المسح ويقبع قرب الشراع
فتدهمه العاصفة وتصمّ عنه الأسماع
وتلطمه الأمواج، لكنه يلجأ الى بعيد الأصقاع.
واذا وددتم أن تفهموا كنه مرامي
فاعلموا بأن المقطع التالي يشرح كلامي
ويفضح ما أضرمته ديونيسا اللئيمة لمارينا أمامي.

(يقرأ الكتابة التالية الموجودة على الضريح).

« هنا ترقد أبهى الخلائق وديعة ورعة
بين سائر الورى وقد ذوَت كزهرة نضرة

هي من صور وابنة ملك ذي رأي مصيب
أختطفتها المنيّة وغيّبها رمس كئيب.
كان اسمها مارينا، وعند ولادتها ثارت
الإلهة تاتيس المتشامخة وعليها جارت
وسدّت في وجهها دروب السرور والأمان
وأبت إلا أن تجعلها حبيسة الأحزان
فأسرتها تاتيس عند صخور الشاطئ
وهي غضبى وقد شاءت لها مصير الخاطئ
معتمدة كل ما ينتمي الى الدناءة الخسيسة
نظير التمليق والنفاق وحبك الدسيسة.
فصدّق بيريكليس ما أُشيع عن موت ابنته
ولشدة أساه هجر الدنيا واعتكف في بيته
وكتم سرّ اختفائه لا يرجو انفراجاً
حتى حالفه الحظ وقارب الفجر انبلاجاً.
وها هو مسرحنا يبيّن كم قاست ابنته وعانت
من الشقاء الأليم وكيف عفّتها صانت
رغم سوء المعاملة والجور والرياء
معتصمة بطول الأناة وحسن التصرف والذكاء
فصبراً، يا سادتي، لننقّلكم بالخيال الى ميتيلان
حيث تمّت هذه الفصول في المكان والزمان.

(يخرج).

المشهد الخامس

أمام أحد مواخير مدينة ميتيلان

(يدخل وجيهان خارجان من أحد المواخير).

الوجيه الأول : هل سمعت قصة أغرب من الخيال؟

الوجيه الثاني : كلا. لم أطّلع أبداً على مسألة مماثلة في منزل كهذا.

الوجيه الأول : غير اني لا أنتظر أن أتلقّى أية موعظة هنا. فهل حلمت أنت يوماً بذلك؟

الوجيه الثاني : كلا ثم كلا. أنا لم أعد من روّاد المواخير. ما رأيك في ذهابنا لسماع الأناشيد في المعبد؟

الوجيه الأول : أنا مستعد من الآن وصاعداً لاداء أي عمل فضيل. وها أنا ذا أنبذ كل شهوة دنيئة تراودني.

(يخرجان).

المشهد السادس

وسط أحد المواخير.

(يدخل القوّاد والقوّادة وبولت).

القوّاد : كم تمنيت أن لا تكون هذه المرأة أتت الينا.

القوادة : بئس سلوك هذه الفتاة الحمقاء. انها قادرة على تجميد اله الخصب برياب، وعلى ابادة جيل بكامله. فعلينا إمّا أن نحرّض على اغتصابها أو أن نتخلّص منها ونرتاح. اذ لا بد لها من القيام بعملها وارضاء الزبائن وتأمين منفعتنا ضمن نطاق مهنتنا، والانقطاع عن إقامة العراقيل والتعقيدات متذرعة بحجج واهية

واعذار غبية، واللجوء الى شعائر التقوى والصلاة المتواصلة. وبذلك تجعل من الشيطان متزمّتاً اذا سوّلت له نفسه أن يسرق منها قبلة واحدة.

بولت : لعمري، لا حلّ إلا بأن أغتصبها أنا بنفسي. وإلا أبعدتْ عنا جميع فرساننا، وحوّلتنا نحن أرباب التهتك والمجون الى رهبان متنسّكين.

القوّاد : أتمنى أن يحرمها المرض رونق بشرتها ويخطف احمرار خديها.

القوادة : كي نتخلّص منها، لعمري، ليس أجدى من مرض تسري اليها عدواه وينقلها الى عالم الأموات. ها هوذا السيد ليزيماك المتنكّر مقبل.

بولت : سيتوافد علينا موكب من النبلاء والأنذال على السواء، اذا ما سايرت هذه المرأة الهزيلة المتعنّة توجيهاتنا المثمرة.

(يدخل ليزيماك).

ليزيماك : أخبروني كم عذراء لديكم الآن؟

القوادة : لتباركك الآلهة أيها المولى النبيل.

بولت : يسرني أن أرى سيادتك بصحة جيدة.

ليزيماك : لا بد من أن تكون اليوم مسروراً. فالأجدر بك أن تكون أثناء ممارستك عملك المضني معافى ثابت القدمين. هل لديك ما يجعل رجلاً مثلي يهزأ من نصح الأطباء ومداخلة الجراحين.

القوادة : لدينا واحدة هنا رائعة للغاية، يا مولاي... لو شاءت... لأننا لم نبصر لها شبيهة في كل أرجاء ميتيلان.

ليزيماك : تقولين لو شاءت أن تفعل ما يتمّ في العتمة؟

القوادة : سيادتك تعلم ما فيه الكفاية، وبالطبع تدرك ما أقصد أن أقول.

ليزيماك : حسناً. ناديها لأراها.

بولت : من ناحية اللحم والشحم، والبياض، والاحمرار، سترى وردة نضرة فوّاحة العبير. وستكون وردة زاهية فعلاً لو شاءت أن...

ليزيماك : ماذا قلت؟ أرجوك أن تعيد كلماتك...

بولت : يا سيدي الكريم، أنا أعرف كيف أكون متواضعاً.

ليزيماك : التواضع يزيد شهرة القوّاد قيمة. كما يُكسب عدداً من الفتيات الساذجات صفات العفيفات المتحصّنات.

(تدخل مارينا).

القوادة : ها هيذا قد جاءت، منتصبة على ساقيها... أؤكد لك، يا مولاي، ان أحداً لم يلمسها بعد. أولا تجد أنها من أروع الحسان؟

ليزيماك : ليس مستبعداً أن يتوصل المرء الى اخضاعها بعد معالجة طويلة في العتمة. طبعاً هذا يقتضي قليلاً من الصبر وبعض الوقت. حسناً، خذي هذا، ودعينا وحدنا.

القوادة : استحلف سيادتك أن تعذرني. سأقول كلمة أيضاً وأنسحب.

ليزيماك : عليكِ أن تستعجلي.

القوادة (على حدة، لمارينا) : أوّلاً أودّ أن ألْفت انتباهك الى أن هذا الرجل الشريف صاحب مقام رفيع.

مارينا (على حدة، للقوادة) : وأنا أريد أن ألقاه هكذا، لكي أتبيّن حقاً مدى ترفّعه.

القوادة (على حدة) : ثم، هو حاكم هذه المدينة وعلاوة على ذلك فضله كبير عليّ شخصيًّا.

مارينا (على حدة) : اذا كان حاكم هذه المدينة، طبعاً فضله كبير عليك. لكن الى أي حدّ يا ترى هو شريف؟ هذا ما لا أزال أجهله.

القوادة (على حدة) : هيا، هيا. لا تتمسكي بمظاهر العفّة. عليك أن تسايريه بلطف ولباقة كي يملأ جيوبك ذهباً وهّاجاً.

مارينا (على حدة) : سأقبل كرمه بكل امتنان، ولن أنكر جميله أبداً.

ليزيماك : هل انتهى الحديث؟

القوادة : يا مولاي، هي لا تعرف تماماً ما المطلوب منها. فأرجوك يا صاحب السيادة أن لا تبخل عليها بارشاداتك السديدة حسب ما يلائم مزاجك. هيّا بنا ولنتركهما معاً.

(يخرج القواد والقوادة وبولت).

ليزيماك : اذهبوا بأمان. والآن، يا عزيزتي، كم من الوقت قضيتِ في مهنتك هذه؟

مارينا : أية مهنة تعني؟

ليزيماك : المهنة التي لا يسعني أن أذكرها بدون أن أغيظك.

مارينا : أنا لا أرى في مهنتي أي حرج. فأرجوك أن تذكرها لي.

ليزيماك : كم من الوقت أمضيت الى الآن في وضعيتك هذه؟

مارينا : زمناً طويلاً، على ما أتذكّر.

ليزيماك : هل بدأت ممارستها وأنت حديثة السن جداً؟ هل أصبحتِ من بنات الهوى وأنت في الخامسة أو السادسة من عمرك؟

مارينا : بل قبل هذا العمر، اذا شئتَ أن تعتبرني اليوم احداهنّ.

ليزيماك : ان المنزل الذي تأوين اليه الآن يعتبرك من أهل المجون.

مارينا : هل تعلم أن هذا المنزل يضم ممن تعنيهم من النساء وتأتي اليه؟ لقد بلغني أنك من أشرف الرجال وأنك حاكم هذه المدينة.

ليزيماك : ماذا تقولين؟ وهل أنبأتك معلمتك بمنصبي الرفيع؟

مارينا : من هي معلمتي؟

ليزيماك : المرأة الداهية التي تزرع العار وتجني الفساد. وأنت عرفت مقامي وقدرتي ولا تزالين على تحفّظك تنتظرين أن أبادرك برغباتي الملحّة بوضوح أكثر مما فعلت؟ اني أحتجّ على تمنّعك أيتها الصبية المغرورة، وأملي أن لا تتحدّي سلطتي وأن لا تستهدفي نظرتي اليك بغير عين المودّة والرضى. هيا دلّيني على حجرتك الخاصة. تعالي، تعالي.

مارينا : اذا كنتَ وُلدتَ في أحضان الشرف والشهامة، أرجوك أن تدعني ألمس ذلك في تصرفك أثناء هذه اللحظة بالذات. واذا كنت لا تملك من الشرف سوى الشهرة فقط، فأرجوك أن تؤيد حسن ظنّ من اختاروك واعتبروك كفئاً لهذا المقام الرفيع.

ليزيماك : ماذا تعنين بهذا القول المهين، ماذا؟ هلاً تابعت وعظك ونصحك.

مارينا : أرجوك أن تعلم بأني عذراء، رغم حظي العاثر الذي رماني في هذه البؤرة الفاسقة. منذ وطأت قدمي هذا المكان، وجدت ان المرض هنا يباع ويشترى بثمن أغلى من الصحة والعافية. أتوسّل الى آلهة الخير أن تخلّصني من هذا المنزل الدنس الذي يصرّ أصحابه على تحويلي الى أحقر العصافير التي تطير في الهواء الطلق النقي.

ليزيماك : لم أتصوّر بتاتاً أنك تملكين موهبة النطق بمثل هذه الجودة والطلاقة. فإن جئت أنا الى هنا بفكرة سيئة، ها هو كلامك الفاضل قد أعادني الى جادة الصواب. خذي هذا الذهب مني، وثابري على السير قُدُماً في الطريق المستقيم الذي اخترتِ أن تسلكيه. وأنا أسأل السماء أن تأخذ بيدك وتمنحك القوة على المقاومة والمثابرة.

مارينا : حفظتك آلهة الخير، يا مولاي.

ليزيماك : لقد أتيت الى هنا بنيّة دنيئة لأني أعلم علم اليقين بأن أبواب هذا البيت ونوافذه تعبق فيها رائحة النتانة. الوداع، يا فتاتي، يا مثال الفضيلة الحصينة. ثقي بأني لا أشك بنبل تربيتك. فخذي، خذي هذا الذهب أيضاً. ولتنصبّ اللعنة على من يلوّث طهارتك، وليَمُت ميتة اللصوص وقطّاع الطرق. واذا بلغك اني تكلمت عنك، فاعلمي اني فقط بالثناء والاطراء أشيد بحسن سلوكك.

(عندما يغلق ليزيماك كيس نقوده يدخل بولت).

بولت : أستحلف سيادتك أن تعطيني قطعة واحدة فقط.

ليزيماك : ابتعد عني أيها السافل المنحطّ. لولا هذه الصبية العذراء التي

تحمي منزلكم لانهال عليكم ركامه حتماً وسحقكم حطامه سحقاً. هيا ابتعد عني.

(يخرج).

بولت : ماذا أسمع؟ يتحتّم علينا من الآن وصاعداً أن نتصرف معك على غير هذا النحو. اذا كانت عفّتك اللعينة لا تساوي ثمن غداء في أرخص بلاد العالم، أتمنى أن ينعدم الصلاح تحت القبة الزرقاء، وأن أمسي من الخصيان، يا أيها الكلب المسعور. (لمارينا) تعالي.

مارينا : الى أين تريد أن تسوقني؟

بولت : لا بد لي من أن أغتصبك، وإلّا ستكونين من نصيب الجلّاد. تعالي. لن نرضى مطلقاً بأن تقاومي الوجهاء وتتسبّبي في انصرافهم عنا وقطع رزقنا. أقول لك هيا تعالي.

(تدخل القوادة).

القوادة : ماذا يجري هنا؟

بولت : ها نحن ننتقل من سيء الى اسوأ. وقد وجّهتْ الى السيد ليزيماك إرشاداً تقوياً غير معقول.

القوادة : يا لها من واعظة بارعة.

بولت : تجعل مهنتنا بذيئة منحطّة في نظر جميع الآلهة.

القوادة : لعمري، هي تستحق الشنق. فلنتخلّص منها الى الأبد.

بولت : هذا السيد تصرّف تجاهها كمولى كريم. فصدّته وجعلته أبرد من كرة الثلج، وهي لا تزال الى الآن تتلو صلواتها المتواصلة.

القوادة : خذها، يا بولت، وافعل بها ما يحلو لك. أكسر جليد عفّتها، ولبّن هكذا عريكتها.

بولت : ولأنها كقطعة أرض حافلة بالأشواك، لا بد من فلاحتها.

مارينا : اسمعي، اسمعي جيداً، أيتها الآلهة ما تقول هذه المرأة الخبيثة.

القوادة : ها هي تستعوز بالسماء. لا بد من اخراج هذه الساحرة الدجّالة. كم أتمنى أن لا تكون قد دخلت هذا المنزل بتاتاً. من الآتي الى هنا؟ أرجو أن يحصدها الطاعون. لأن وجودها بيننا سيسبب هلاكنا. هي لا تريد أن تمرّ بما مرت قبلها سائر النساء. سنرى ما سيكون من أمرها. آه. ما أطيب شذى طهارة هذه اللعينة المكلّلة بتاج الطهارة وغار النقاوة.

(تخرج).

بولت : هيا، يا سيدتي الصغيرة. تعالي معي.

مارينا : ماذا تريد مني؟

بولت : أن أسلب منك الجوهرة التي تتمسكين بها وتحرمنا مكاسبنا.

مارينا : أرجوك أن تقول لي كلمة واحدة.

بولت : ما هي هذه الكلمة؟

مارينا : ماذا تتمنى لعدوّك؟

بولت : حسناً. أن يكون معلمي أو معلمتي.

مارينا : هذا وتلك هما أقلّ شقاءً وانحطاطاً منك. لأنهما أرفع منك في جميع المجالات. أنت تشغل مكاناً لا يحسدك عليه أبغض الشياطين في سابع دركات الجحيم. أنت وسيط أحقر متهتّك يأتي الى هذا المنزل باحثاً عن عاهرة خالعة العذارة ما دامت وسادتك أقذر من القمامة، وتغذيتك من أرذل ما تبصقه الحناجر المريضة.

بولت : ماذا تريدين أن أفعل؟ أن أمضي الى الحرب وأن أصاب ببتر ساقي وأن لا يكون في جعبتي من مال أشتري به لنفسي ساقاً من خشب؟

مارينا : افعل ما يحلو لك، إلّا ما تصنعه الآن. نظّف أوساخك التي تنشر روائحها الكريهة كالمجرور في كل مكان عامّ. اشتغل كمساعد جلّاد. فكل هذه المهن الوضيعة تساوي أكثر مما

تتعاطاه في الوقت الحاضر. لأن القرد إن تسنى له أن يتكلم عن مهنتك لأعلن أنها لا تليق بتفاهته. كم أتمنى أن تنقذني الآلهة بسلامة وأمان من هذا المكان الموبوء. خذ هذا الذهب مني. اذا كان معلمك يأمل أن يحقق ربحاً بواسطتي، فقل له اني أجيد الغناء والتطريز والخياطة. والرقص وغيرها من المهارات والفنون التي لا أتبجّح وأدّعي اتقانها، وأنا أتعهّد بأن أعلّمها كلها. ولا شك في أن هذه المدينة العديدة السكان تضم تلميذات يرغبن في التحلّي بها.

بولت : هل حقاً أنت قادرة على تعليم كل ما ذكرته؟

مارينا : اذا لم أكن صادقة، عُدْ بي الى هنا وأفرض عليّ الدعارة بصحبة أحط الزبائن.

بولت : سارى ما يمكنني أن أفعله في سبيلك. اذا تمكّنت من ايجاد عمل لك في هذه المجالات لن أتأخر أبداً عن اعلامك فوراً.

مارينا : بشرط أن أعمل لدى نساء شريفات.

بولت : لكن علاقاتي ليست بمثل هؤلاء السيدات. وبما أن معلمي ومعلمتي اشترياك، لا سبيل الى مغادرتك هذا المكان بدون موافقتهما. سأطلعهما على نيّتك، ولا أشكّ مطلقاً بأنهما سيرفضان طلبك. هيا بنا اذاً. لن أدّخر جهداً في عمل ما أستطيعه لأجلك. تعالي.

(يخرجان).

الفصل الخامس

مقدّمة

(يدخل غوير).

غوير : هكذا تخلصت مارينا من ماخور الفجور
وانتقلت الى مسكن شريف بالفضيلة فخور
كما تقول القصة. وراحت تشدو كالعندليب
وترقص كأنها إلهة، روعة الفن تستجيب
وتنال اعجاب الجميع بمواهبها النادرة
لا سيما بإبرتها التي تشهد براعتها الماهرة
بما تبرزه الى عالم الوجود من أشكال وألوان
وما تستمدّه قريحتها من بدائع الأكوان
إذْ إبتدعت ورداً وكرزاً من خيوط الحرير
درّت عليها الربح الحلال والاحترام والتقدير
فأعطت منه للقوادة الخبيثة رداً لكيدها الوفير.
والآن لننتقل بأفكارنا الى والدها المسكين،
الذي تركناه في البحر يعاني المشقة والأنين
حين هبّت عليه العواصف وغاب عن الأنظار

اذ دفعته الرياح وأوصلته مشتت الأفكار
الى ابنته التي نجت واستقرّت بشوق حنون
أثناء الاحتفال بذكرى إله البحر نبتون
فشاهد ليزيماك السفينة المتّجهة الى صور
وفي أعلى صاريها يرفرف علم أسود .موتور
ومظاهر العزّ بادية على مركبه المزيّن
فأسرع لملاقاتنا وهو مزهّو بمكر مبطّن.
الا أعملوا مخيّلتكم الخصيبة بينما هو يتوهّم
ان زورق بيريكليس الحزين بالعزّ ينعم.
هنا تجري الأحداث وكل ما نتوق الى مرآه
سنستعرضه على خشبة المسرح ونتحرّاه.

المشهد الأول

على متن سفينة بيريكليس أمام مدينة ميتيلان، وعلى ظهرها توجد خيمة مغلقة وستار حيث ينام بيريكليس على سرير ليرتاح، والى جانب السفينة يتهادى مركب صغير

(يدخل بحّاران، أحدهما يخصّ سفينة صور، والآخر يخص المركب. يتقدّم نحوهما هيليكانوس).

بحّار صور (لبحّار ميتيلان) : أين السيد هيليكانوس؟ هو بامكانه أن يجيبكم. ها هوذا، يا سيدي، قد قدم من ميتيلان في مركب وبصحبته الحاكم ليزيماك الذي طلب أن يصعد الى السفينة. فماذا تريد أن أفعل؟

هيليكانوس : كما تشاء. أصعد بعض الوجهاء.

بحار صور: يا سادة، مولاي يناديكم.

(يدخل وجيهان).

الوجيه الأول : من الذي يناديه مولاك؟
هيليكانوس : أيها السادة. هناك رجل مرموق يودّ الصعود الى السفينة. أرجوكم أن تحسنوا استقباله.

(ينزل الوجيهان والملاّحان الى المركب).

بحار صور (لليزيماك) : يا سيدي، هذا هو الرجل الذي يلبي جميع طلباتك.
ليزيماك : السلام عليك، أيها المولى المبجّل. حفظتك الآلهة من كل مكروه.
هيليكانوس : وحفظتك أنت أيضاً. أتمنى لك عمراً طويلاً ونهاية كما أرجوها لنفسي.
ليزيماك : هذه أمنية حلوة بينما نحن على الشاطئ نحتفل بذكرى إله البحر نبتون، شاهدت هذه السفينة الفخمة تتمايل أمامنا على سطح البحر. وها أنا قد جئت اليكم لأرى من أين أنتم قادمون.
هيليكانوس : أولاً، يا سيدي، ما هي وظيفتك؟
ليزيماك : أنا حاكم هذه المدينة. فهل من خدمة اؤدّيها لكم؟
هيليكانوس : اذاً سفينتكم من صور، يا مولاي. وعلى متنها يسافر ملك، منذ ثلاثة أشهر لم يكلّم أي انسان، ولم يأكل إلا القليل، الأمر الذي زاده هزالاً وغمًّا.
ليزيماك : ما هي أسباب تعاسته؟
هيليكانوس : الشرح طويل، يا سيدي، اذا شئت أن أروي لك ما دهاه بالتفصيل. يكفيك أن تعلم أن شقاءه ناجم عن فقدانه ابنته الصغيرة وزوجته الحبيبة.
ليزيماك : أولا يتسنى لنا أن نشاهده؟
هيليكانوس : باستطاعتكم أن تروه. لكن لا فائدة ترجى من زيارتكم، لأنه لا يريد أن يكلم أُحداً.
ليزيماك : على كل حال، أرجوكم أن تلبوا رغبتي.
هيليكانوس : أنظر اليه، يا سيدي. (يُزاح ستار، ويُشاهد بيريكليس). كان رجلاً

وسيماً للغاية قبل أن يهبط عليه ظلام اليأس ويقوده الى هذه الحالة المؤسفة.

ليزيماك : أحيّيك، أيها الملك المبجّل. حفظتك الآلهة. أكرر عليك التحية، يا صاحب الجلالة.

هيليكانوس : لا فائدة مما تقوله، لأنه لا يريد أن يتكلّم.

السيد الأول (لليزيماك) : لدينا في ميتيلان صبية تحسن مخاطبته، وتستطيع أن تنتزع منه بعض كلمات.

ليزيماك : هذه فكرة مناسبة، لا أشك في أنها بحلْو حديثها وعذوبة ألفاظها وسحر جاذبيّتها ستتمكن من إسماع أذنه الصمّاء المغلقة اليوم في وجه كل المحاولات. انها تسرح الآن مع رفيقاتها العذارى في أطراف الغابة المجاورة الممتدة على هذه الجزيرة.

(يكلّم بصوت خافت أحد أفراد حاشيته. فينسحب هذا الأخير الى مركب ليزيماك).

هيليكانوس : حتماً، لا فائدة من كل هذا المسعى. مع ذلك لن نتأخر عن تجربة أية وسيلة قد تؤدّي الى مواساته. لكن، بما أننا أمعنّا الى هذا الحدّ في اللجوء الى لطفكم، اسمحوا لنا بأن نلتمس منكم منّة أخرى. وتفضلوا بقبول هذا الذهب منّا لتؤمّنوا لنا بعض المؤن. وذلك، لا لأننا لم يبقَ لدينا منها شيء، بل لأنها أضحت قديمة وباتت تُتعب معدتنا.

ليزيماك : لعمري، إنْ رَفَضْنا أن نقدم لكم هذه الخدمة التي تدل على اللياقة وحسن النية، فان عدل السماء سيتيح للديدان والحشرات أن تأكل مزروعاتنا عقاباً على تقصيرنا نحوكم. على كل حال اسمحوا لي بأن أكرر سؤالي والحاحي للوقوف على أسباب حزن ملككم.

هيلكانوس : اجلس، يا مولاي، لأروي لك ما جرى. غير أن طارئاً مفاجئاً يمنعني الآن عن ذلك.

(يصل من المركب الى السفينة أحد السادة ومارينا وصبية أخرى).

ليزيماك : ها هيذا الصبية التي أرسلت في طلبها. أهلاً بك، أيتها الحسناء، أوليست فتاة حلوة؟

هيليكانوس : بل هي سيدة آية في الجمال.

ليزيماك : أجل انها كما تقول. ولو كنت واثقاً بأنها من أسرة عريقة ومنبت نبيل لما رغبت في الاقتران بامرأة سواها، وأكون حينئذٍ أسعد الأزواج. أيتها الحسناء، يسعك أن تأملي بالحصول على كل ما نملكه من خيرات، لأن غايتنا أولاً وآخراً هي إبراء الملك من سويدائه. فاذا توصلّت بمهارة فنّك الى انتزاع الكلام من بين شفتيه ستحصلين على كل ما ترومين وتتمنين من مال وجاه.

مارينا : سأبذل كل جهدي، يا مولاي، وأستخدم كل معرفتي ومهارتي أنا ورفيقتي اذا سمحتم لنا بالدنوّ منه.

ليزيماك : دعوها تفعل ما تشاء. فالآلهة تمهّد لها سبيل النجاح. (يفسح الجميع مجالاً لمارينا التي تأخذ في الانشاد) هل انتبه الى موسيقاك؟

مارينا : كلاّ، لم يلق علينا أية نظرة.

ليزيماك : شاهدوه كيف سيحاكيها.

مارينا : نهارك سعيد، يا سيدي، أصغي اليّ.

بيريكليس : ها ها.

مارينا : أنا صبيّة، يا مولاي، لم أتوسّل حتى الآن الى أي انسان أن يتأمّلني كشخص يسترعي الانتباه. وأكلمك بعد أن عانيت آلاماً تعادل أحزانك، اذا وضعت في كفتيْ الميزان. ومع أن الحظ السيئ حطّم معالم مصيري، يسعني أن أعلن لك بأن أجدادي كانوا في مصافّ أبرز الملوك. لكن الزمان جار علينا واقتلع جذور أسرتي أثناء كارثة نزلت بهم وجعلتهم من المستبعدين في هذه الدنيا العاتية... (على حدة). أقف بقصتي عند هذا الحدّ. لأن هناك أمراً يجعل خدّي يحمرّان من شدّة الخجل ويرنّ صداه في أذنيّ قائلاً : لا تكرري ما قد جرح فؤادك ».

بيريكليس : مصيري أنا من ناحية أسرتي النبيلة يوازي مصيرك. أليس كذلك؟ ماذا قلت؟

(يبعدها عنه).

مارينا : قلت، يا سيدي، انك إن عرفت أهلي لن تعاملني معاملة خشنة.

بيريكليس : هذا ما أنوي عمله. حوّلي مرة أخرى أنظارك اليّ. فأنت تشبهين شخصاً كان... من أية مدينة أنت؟ وهل من هذا الساحل؟

مارينا : كلا، لست من أي ساحل، مع اني وُلدت وسط الأسى بشكل مأساوي، ولست سوى ما يدلّ عليه مظهري.

بيريكليس : الألم يسحق قلبي، ولا بد لي من أن أسرّى عن كربتي بالدموع. كانت زوجتي العزيزة تشبهك، أيتها الصبية. ولو كانت ابنتي لا تزال اليوم على قيد الحياة لكانت نظيرك تماماً. فهذا جبينك يماثل جبهة مليكتي، وقوامها يكاد يكون كقوامك مستقيماً كالعصا، وصوتك الرنّان أيضاً يذكّرني بصوتها، وعيناها مثل جوهرتين تبرقان كعينيك ضمن إطارهما الجذّاب. وكذلك مشيتك تحاكي مشيتها كالآلهة جينون. وأخيراً لهجتك لدى كل كلمة اسمعها من فمك تؤكد لي وجه التقارب بينك وبينها. فأين تقيمين؟

مارينا : هنا حيث لا أُعتبر سوى غريبة. ومن ذاك الجسر تستطيع أن تشاهد المكان الذي أسكنه وأشير اليه.

بيريكليس : أين ربيتِ، وكيف اكتسبت هذه المهارة التي تبرزين جيداً معالمها الفريدة؟

مارينا : اذا رويت لك قصتي ستظنها من نسج الخيال أو إحدى الخرافات الأسطورية التي يزدريها المرء حالما يطّلع عليها.

بيريكليس : أرجوك أن تتكلّمي، لأني لا أرى أي تلفيق في حديثك، وأنا واثق بأن مظهرك متواضع كالعدالة، وانك كمملكة مزدهرة تتربّع على عرشها الحقيقة الناصعة. اني أصدق كل كلمة

تقولينها، وأحمل ذاتي على الايمان برواياتك حتى النقاط التي تبدو مستحيلة الوقوع. لأنك تشابهين شخصاً أحببته بكل جوارحي. من هم أهلكِ؟ ألم تصرّحي، عندما أقصيتك عني، بأنك سليلة أسرة مجيدة؟

مارينا : أجل صرّحت بذلك.

بيريكليس : إكشفي إذاً عن حقيقة نسبك. إذ خُيّل الي انك ألمحت الى ما قاسيت من آلام مبرّحة، وما تحمّلت من اهانات قارسة. فقدّرت بأن شدائدك تعادل ما حلّ بي من مصائب فادحة، اذا قورنت فيما بينها.

مارينا : أجل، قلت شيئاً من هذا. ولم أصرّح بما لست مقتنعةً بصحته الأكيدة.

بيريكليس : هيا، أروي لي قصتك التي إن تفحّصتها وجدتها تكوّن جزءاً من ألف جزء مما حدث لي. فأنت تظهرين كالرجل القوي. بينما أنا أبدو كأني فتاة حسّاسة للغاية. مع ذلك أنا على يقين تامّ بانك أقرب الى الأزعان والامتثال عند التأمل في ضريح أحد الملوك، والى تجريد الأسى من القنوط بعذوبة الابتسام. والآن أعلميني من هم والداك؟ وكيف فقدتهما؟ أوّلاً ما اسمك، أيتها العذراء الحلوة؟ استحلفك أن تطلعيني على كل خفاياكِ. تعالي اجلسي الى جانبي.

مارينا : يا مولاي، اسمي مارينا.

بيريكليس : آه. هذه ضربة قاسية لا بد من أن بعض الآلهة الغضبى قد أرسلتك للإمعان في تعذيبي، ولجعلي أضحوكة في نظر كل الناس.

مارينا : صبراً، يا مولاي، وإلّا سكتُّ وما بحت لك بأي تفصيل آخر.

بيريكليس : أجل، سأصبر. ليتك تدرين كم تثيرين من الأشجان في أعماقي، لأنك تدعين مارينا.

مارينا : ان الذي دعاني مارينا شخص ذو سلطان، هو أبي، وقد كان ملكاً مبجّلاً.

بيريكليس : تقولين انك ابنة ملك، وان اسمك مارينا. هذا أمر غريب جداً.

مارينا : لقد أكّدت لي انك تصدّقني. ولكي لا أضاعف اضطرابك، أكتفي بما كشفته لك من سرّي.

بيريكليس : هل أنت حقاً بشر من لحم ودم؟ وهل نبضك يدقّ فعلاً؟ أوَلست جنّيّة أو وهماً؟ هيا تابعي كلامك. أين وُلدتِ ولماذا تدعين مارينا؟

مارينا : دُعيت مارينا لأني وُلدت فوق أمواج البحر.

بيريكليس : فوق أمواج البحر؟ ومن كانت أمّك؟

مارينا : كانت هي أيضاً ابنة ملك، وماتت في لحظة رؤيتي نور الحياة، كما أخبرتني بذلك مراراً مرضعي ليكوريدا، وهي تبكي بمرارة.

بيريكليس : أرجوك أن تتوقفي قليلاً. (على حدة) هذا واقع أغرب من الحلم والخيال الذي لم يُنسني إياه كل ما عُراني من شديد الحزن. هذا لا يُصدَّق، لأن ابنتي ماتت ودُفنت. (بصوت مرتفع) حسناً. أين ربيت؟ أريد أن أستمع الى روايتك حتى نهايتها بدون أن تتوقفي بعد الآن.

مارينا : بما أنك يصعب عليك أن تصدقني، فالأجدر بي أن أتوقّف عن الكلام نهائياً.

بيريكليس : أنا أصدّق قولك حتى آخر حرف تتلفّظين به. مع ذلك اسمحي لي بأن أسألك كيف أتيت الى هذه الديار؟ والمهم أن أعرف أين ربيت؟

مارينا : أبي الملك تركني في طرسوس، حيث حاول كليون الخبيث وزوجته اللئيمة أن يقتلاني. فأقنعا وكلّفا بذلك أحد الأشقياء. وحين انتضى المجرم خنجره ليطعنني، فاجأته عصابة من القراصنة الذين أنقذوني منه واقتادوني الى ميتيلان. فماذا تريد مني، يا سيدي الكريم؟ لماذا تصرّ على معرفة كل ما يتعلق

بي، وأنت تبكي؟ ربما تظن اني ارتكبت بعض الموبقات؟ كلا، كلا. أقسم لك بأعز ما لديّ اني ابنة الملك بيريكليس، اذا كان هذا الملك قد وجد في يوم من الأيام.

بيريكليس : إليّ، يا هيليكانوس.

هيليكانوس : هل ناداني مولاي؟

بيريكليس : أنت مستشار نبيل حازم وبعيد النظر. قل لي، إن أمكنك، من هي أو من تكون هذه الفتاة التي استدرّتْ دموعي هكذا؟

هيليكانوس : لست أدري. لكن، يا مولاي، ها هوذا حاكم ميتيلان يثني عليها بشكل لم يسبق له مثيل.

ليزيماك : لم تشأ أبداً هذه الصبيّة أن تبوح لي باسم عائلتها. فكلما طلبت منها أن تصرح لي بذلك، لازمت الصمت وذرفت الدموع السخينة.

بيريكليس : يا هيليكانوس الوقور، أقرصني أو إجرحني وأوجعني لأوقن بأني لا أحلم. فلا يجرفني سيل الفرح الذي يطغى على حزني العميق ويغرقني في بحر من البهجة غير المتوقّعة. هيا تعالي اليّ، يا من رددت الحياة الى من منحك نفحة الحياة قبل أعوام، يا من وُلدتِ فوق أمواج البحر، ودفنت في طرسوس ثم وجدتِ مرة ثانية فوق الأمواج. يا هيليكانوس، اركع أمامي على ركبتيك وأشكر الآلهة المقدّسة بصوت عالٍ كهزيم الرعد الذي يهدّد كياننا. ها هي مارينا... ما اسم والدتك؟ اذكريه لي وهذا يكفيني للاقتناع بالحقيقة التي لا يمكن أن تكون إلّا هكذا. مع ان حكايتك لم تترك لحظة في صدري أي شك.

مارينا : أولاً، قل لي أنت بصراحة، يا مولاي، ما اسمك؟

بيريكليس : أنا بيريكليس ملك صور. فقولي لي أنت الآن يا من لمست في حديثك صدق الآلهة، قولي لي ما اسم مليكتي والدتك التي ماتت غرقاً، وتصبحين بدون منازع وريثة عرشي، وتعيدين الروح الى أبيك الملهوف.

مارينا : أولَم يبقَ لأكون ابنتك إلا أن أذكر لك اسم أمي : ان اسمها ثايسا أجل ثايسا هو اسم أمّي، وقد انتهت حياتها عندما بدأت حياتي.

بيريكليس : تباركتِ أيتها الصبية الحبيبة. انهضي فأنت بدون أي شك ابنتي الغالية على قلبي. اعطوني ثياباً جديدة. هذه ابنتي، يا هيليكانوس. لم تمُتْ في طرسوس حسب رواية كليون الخائن. ستطلعني على كل ما جرى. وستجثو على ركبتيك وتعترف بأميرتك (يشير الى ليزيماك). من هو هذا الرجل؟

هيليكانوس : حاكم ميتيلان الذي علم بحالتك التعيسة فجاء ليزورك مواسياً.

بيريكليس : دعنيْ أعانقك، يا سيدي. اعطوني ملابسي الملكية. فلقد استحوذت عليّ الدهشة... أيتها السماء باركي ابنتي. لكن اسمعوا. ما هذه الأنغام الشجية؟ اشرحي مسألتك لهيليكانوس، يا مارينا، مرحلة فمرحلة اذ يبدو عليهِ انه لم يقتنع بعد بأنك ابنتي الحبيبة. لكن، قولوا لي، ما هذه الموسيقى؟

هيليكانوس : أنا لا أسمع أية ألحان، يا مولاي.

بيريكليس : ألا تسمع الموسيقى؟ إنها ألحان رخيمة. انصتي، يا مارينا، الى هذه الأنغام الحلوة.

ليزيماك : يجمل بي أن لا أخالفه، بل يتحتّم علي أن أسايره.

بيريكليس : هذه أعذب ألحانٍ اطربتني حتى الآن. ألا تسمعونها؟

ليزيماك : الموسيقى؟ أجل، اني أسمعها، يا مولاي.

بيريكليس : هي ألحان سماوية تسكرني نبراتها السحرية التي تأسر الألباب. ها أنا أشعر بالنعاس يُثقل أجفاني. دعوني آخذ قسطاً من الراحة.

(ينام).

ليزيماك : هاتوا وسادة ليُسند اليها رأسه المتعب. وهيا بنا نتركه جميعاً وحده كي يستريح فترة. هيا بنا، يا خلاّني، وأصحابي. هذا

الحدث ينطبق تماماً على ما أفكّر به. سأتذكّركم جميعاً ولن أنسى هذه اللحظة أبداً.

(ليزيماك وهيليكانوس ومارينا ورفيقتها الصبية، كلهم يتعدون).

(تظهر الآلهة ديانا كرؤيا لبيريكليس النائم).

ديانا : عجّل في الذهاب الى معبدي في أفسس وقدّم الذبائح على هياكلي المباركة. وهناك عندما تجتمع كاهناتي العذارى، أثناء حضور كل الشعب الملتئم، أعلن كيف فقدت زوجتك في البحر واستمطر شآبيب الرحمة على شقائك وعلى تعاسة ابنتك وأنت تصفها وصفاً حيًّا مفصّلاً رائعاً. ثم نفّذ أوامري، وإلا عشت في البؤس والشقاء. أطعْني، وأنا أقسم لك بقوسي الفضي أن تكون أسعد الخلائق. استفق الآن وأخبرنا ماذا رأيت في الحلم.

(تغيب ديانا).

بيريكليس : سأطيع أوامرك أيتها الإلهة الفضّية ديانا السماوية... يا هيليكانوس.

هيليكانوس : مولاي.

بيريكليس : كان بودّي أن أذهب الى طرسوس لأعاقب كليون الخائن الغدّار. غير أن هناك واجباً آخر عليّ أن أقوم به. أديروا الأشرعة نحو أفسس وسأعلن لكم قريباً لماذا أذهب اليها. (لليزيماك) اسمح لنا، يا سيدي، بأن نتموّن من شاطئكم، ونشتري ما نحتاج اليه في رحلتنا.

ليزيماك : أمرك مطاع، يا مولاي. وعندما تنزلون الى اليابسة، سأوجّه اليك بدوْري طلباً عزيزاً على قلبي.

بيريكليس : ستتحقق أمنيتك، حتى إن كانت مغازلة ابنتي. اذ يبدو أنك تصرفت حيالها بشرف ولياقة.

ليزيماك : استند الى ذراعي، يا مولاي.
بيريكليس : تعالي، يا عزيزتي مارينا.

(يخرج الجميع).

المشهد الثاني

يدخل غوير

غوير : الآن فرغ سقوط رملنا في المرملة
وبعد قليل يؤذن بانتهاء المسألة.
فجودوا علي بمنحة أخيرة كريمة
اذ لا بدّ من هبوبكم بنيّة سليمة
الى نجدتي. ثم تصوروا أروع الحفلات
والأغاني الساحرة وصاخب التسليات
التي أقامها الحاكم في ميتيلان
على شرف الملك وابنته القادمين بأمان
بمناسبة نيله يد الحسناء مارينا كزوجته
غير أنه أنتظر حتى يقدّم ذبيحته
حسب تقاليد ديانا. وها قد ودّعت الملك،
فتصوّروا ما جرى أثناء الفرحة تلك
إذ ساقت الرياح أمامها الأشرعة
فأثلجت الأحداث صدور الأحبة مجتمعة
في معبد أفسس الفخم الفسيح
حيث سرعان ما وصل بيريكليس ليستريح
قبل الاحتفال الذي أترك لمخيلتكم
أن تستعيد الأحداث التي تفرحكم.

(يخرج).

المشهد الثالث

في معبد ديانا بأفسس

(ثايسا واقفة قرب الهيكل بصفتها كبيرة الكاهنات وعلى طرفي الهيكل عدد من العذارى، وبين الحضور سيريمون وغيره من أهالي أفسس يدخل بيريكليس وحاشيته وليزيماك وهيليكانوس ومارينا مع رفيقتها).

بيريكليس : السلام عليك، يا ديانا. حسب وصيتك الصالحة، أعترف هنا بأني أنا ملك صور، بعد أن طردني الإرهاب من مملكتي، اقترنت في بنتابوليس بثايسا الحسناء التي ماتت على أثر ولادتها ابنتي التي دعوتها مارينا، وهي الآن ترتدي ثوبك الفضي. وفي طرسوس ربّاها كليون الذي عندما بلغت ربيعها الرابع عشر شاء أن يهلكها. غير أن حسن حظها قادها الى ميتيلان، ذات يوم، ونحن أمام هذه المدينة. ثم شاءت الظروف أن توصلها الى سفينتنا، حيث أسعدتني الأحوال بالتعرف الى ابنتي وفلذة كبدي.

ثايسا : الصوت والملامح هي... أنتَ... أنتَ.. يا صاحب الجلالة بيريكليس...

(مغمى عليها).

بيريكليس : ماذا تقول هذه المرأة؟ ها هي تموت. النجدة، يا سادة، النجدة.

سيريمون : أيها المولى النبيل، إن كنت بالصواب نطقت عند هيكل ديانا، فهذه المرأة تكون زوجتك.

بيريكليس : كلاّ، أيها المتحدّث الوقور. هذا غير ممكن. إذ اني بيديّ هاتين قد القيت بجثمانها الى البحر.

سيريمون : وعلى هذا الشاطئ، أؤكّد لكم أننا وجدناها.

بيريكليس : هذا لا يقبل أدنى شك.

سيريمون : إسهروا على راحة هذه السيدة. فان اغماءها ناجم عن شدّة

الابتهاج. وفي فجر ذات صباح، أُلقيتْ هذه المرأة إلى هذا الشاطئ. وفتحت أنا نعشها ووجدت داخله جواهرها الثمينة، فأسعفتها وأعدتها الى الحياة، وأدخلتها الى معبد ديانا هذا.

بيريكليس : هل بالامكان أن أشاهد الجواهر التي تتكلم عنها؟

سيريمون : أيها المولى الوقور، ستصل عما قليل الى منزلي حيث أدعوك الى الذهاب بصحبتي. أنظروا. ها قد عادت ثايسا الى وعيه.

ثايسا : أرجوكم أن تدعُوني أراه. فاذا لم يكن الشخص الذي أظنّه، فان طبعي البعيد عن الانسياق وراء حواسّي سيضطرّني الى التغاضي عنه رغم اني أرى بأمّ عيني انه هو. أرجوك، يا سيدي أن تُصدقني الحقيقة : أولستَ بيريكليس؟ فصوتك يشابه صوته، وملامحك كأنها ملامحه. أولَم تتحدّث عن عاصفة وعن ولادة وعن موت؟.

بيريكليس : هذا هو صوت المتوفاة، صوت ثايسا.

ثايسا : أجل، أنا ثايسا التي اعتُبرتْ انها ماتت غرقاً.

بيريكليس : يا ديانا الخالدة، أعينيني.

ثايسا : الآن تعرفت اليك بصورة أفضل... عندما غادرنا بنتابوليس والدموع تملأ عينيّ، أعطاك أبي خاتماً مثل هذا.

(تريه الخاتم).

بيريكليس : ها هو، ها هو. كفى، أيتها الآلهة المجيدة. ان كرمك الحاضر يداعب مآسيّ الماضية. فاشفقي على شعوري واجعليني أذوب شوقاً وسعادة عندما ألامس شفتيها كأني في غيبوبة. تعالي لأضمّك الى صدري مرة ثانية وألقي برأسك على كتفي.

مارينا : قلبي يخفق سريعاً بين ضلوعي كأنه يريد أن يقفز الى حضن أمّي.

(تركع أمام ثايسا).

بيريكليس : انظري الى من يجثو أمامك ها هنا. انها قطعة من لحمك، يا ثايسا، وقد وضعتها أنتِ فوق البحر، ودعوتُها أنا مارينا لأنها جاءت الى هذه الدنيا فوق الأمواج المتلاطمة.

ثايسا : تباركتِ، يا ابنتي.

هيليكانوس : أحيّيكِ، يا سيدتي ومليكتي.

ثايسا : أنا لا أعرفك.

بيريكليس : لقد سمعتني أقول اني عندما غادرت صور تركت فيها وكيلاً عجوزاً. هل تذكرين الإسم الذي جعلته عليه؟ لقد كرّرته مراراً على مسامعك.

ثايسا : هيليكانوس، على ما أظن.

بيريكليس : ها هوذا برهان جديد. عانقيه يا عزيزتي ثايسا. انه هو بعينه. والآن أودّ أن أعرف كيف وُجدت وعدتِ الى هنا. وكيف تسنّى لك أن تخلصي ومن يجب عليّ أن أشكر غير الآلهة الكرام على هذه المعجزة العجيبة؟

ثايسا : السيد سيريمون، يا مولاي. فهو الذي قيّضته لي السماء لإظهار قدرتها. وبإمكانه أن يشرح لك الأحداث برمّتها.

بيريكليس : أيها المولى الفاضل الوقور، لا أظن أن للآلهة نائباً بين البشر يشبهها أكثر منك. هيا، أخبرنا كيف عادت الى الحياة هذه الملكة التي اعتبرناها متوفّاة.

سيريمون : سأروي لك ذلك، يا مولاي. لكنني أرجوك أن تتفضّل أوّلاً وترافقني الى منزلي حيث أريك ما وُجد الى جانبها، وأخبرك كيف وصلت الى هذا المعبد، مع ذكر أدقّ التفاصيل اللازمة.

بيريكليس : يا ديانا الطاهرة، أباركك على ظهورك أمامنا. سأقدّم لك صلواتي الليلية (يشير الى ليزيماك) ثايسا، هذا الأمير هو خطيب ابنتك. وستُزفّ اليه في بنتابوليس. والآن، عليّ أن أقصّ شعري الطويل، يا حبيبتي مارينا، وأحلق لحيتي التي لم تمسّها موسى منذ أربعة عشر سنة وأن أتسربل بأبهى حللي اكراماً لعرسك.

ثايسا : علم السيد سيريمون من رسالة موثوق بها بأن أبي مات، يا مولاي.

بيريكليس : أسأل الآلهة أن تجعل منه كوكباً نيّراً. سنحتفل بقرانهما في مملكته بالذات حيث سنختتم أيامنا في هذا العالم، ونفسح المجال لصهرنا وعروسه ابنتنا كي يملكا على صور. يا سيدي سيريمون، نرجوك أن تؤجّل بعض الوقت سرد باقي الرواية التي ننتظرها بفارغ الصبر. والآن تفضّل، يا سيدي، بافتتاح مسيرة الموكب.

(يخرجون).

(يدخل غوير).

غوير : في شخص انطيوخوس وابنته، لقيتم جزاء التهتّك البغيض. وفي شخص بيريكليس وزوجته وابنته، بعد ما قاسوه من مرّ العذاب والشقاء، وجدتم مكافأة الفضيلة التي صانها أصحابها من العنف والهلاك المحتّم، برعاية السماء التي كلّلت صلاحهم بتاج البهجة والسعادة. وفي ملامح هيليكانوس تجلّت المروءة والشهامة والأمانة. وكذلك في محيا سيريمون ما تستحقّه دائماً رحمة الانسان الحكيم. أما المجرم كليون وزوجته، فحالما افتضحت خيانتهما وتجلّى مجد بيريكليس، غضب المواطنون عليهما ولم يترددوا في إحراق قصرهما بما فيه من سكان وكنوز مجموعة بالحرام. وهكذا أظهرت الآلهة مشيئتها في الاقتصاص ممّا يرتكبه الأشرار من جنايات عن سابق تصميم واصرار. وعلى هذا الأساس نستعطف باستمرار سماحتكم ونتمنى لكم دوام العزّ والهناء في دياركم العامرة، اذ انتهت القصة عند هذه الخاتمة بسلام.

(تمت)

أعمال شكسبير الكاملة

الملاهي

الاول:

العاصفة ـــ سيدان من فيرونا ـــ زوجات وندسور المرحات ـــ واحدة بواحدة ـــ مهزلة الاخطاء.

الثاني:

جعجعة دون طحن ـــ عذاب الحب الضائع ـــ تاجر البندقية ـــ حلم ليلة صيف ـــ كما تشاء.

الثالث:

ترويض الشرسة ـــ العبرة في النهاية ـــ الليلة الثانية عشرة ـــ حكاية الشتاء.

المآسي

الرابع:

تاجر البندقية ـــ يوليوس قيصر ـــ انطونيوس وكليوباترا ـــ هملت.

الخامس:

مكبث ـــ روميو وجولييت ـــ مأساة كوريولانوس ـــ سمبلين.

السادس:

الملك لير ـــ تيمون الأثيني ـــ تيطس اندرونيكس ـــ ترويلوس وكروسيدا.

التاريخيات

السابع:

ريتشارد الثاني ـــ ريتشارد الثالث ـــ الملك جون ـــ بيريكليس امير صور.

الثامن:

هنري الرابع ١/٢.

التاسع:

هنري الخامس ـــ هنري الثامن.

العاشر:

هنري السادس ١/٣.

Bibliotheca Alexandrina
0463866